لجنة التأليف والترجمة والنشر

السودان الشمالي

سكانه وقبائله

تأليف

محمد عوض محمد

الأستاذ بجامعة القاهرة

ومدير معهد الدراسات السودانية سابقاً

الطبعة الثانية

١٩٥٦

القاهرة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

تصدير

كثيراً ما تكون الدراسات الطبيعية أقرب منالا ، وأبعد عن مواطن الزلل من الدراسات البشرية ؛ فإن حقائق الطبيعة مبسوطة أمام العين ، نطالعها ونراقبها ، ونقوم بقياس دقيق لظاهرها المختلفة . وهي فوق ذلك بطيئة التحول من جيل إلى جيل بل ومن قرن إلى قرن ، إذا تركت لشأنها . وفوق ذلك فإن عناصر الطبيعة لاتهاجر ولا تنتقل ، ولا تتزاوج ولا تختلط اختلاطاً يخفى معالمها الأصلية . أما الإنسان فحوّل قلّب كثير الاضطراب ، لايكاد يقر له قرار . والحقائق البشرية كثيراً مايعوزها التأويل السليم ، مهما أطلنا ملاحظاتها ومراقبتها ، وأكثرها مما لايهتدى إليه إلا بواسطة الإنسان نفسه ، وهو كائن متعدد الألسنة واللهجات . مختلف الميول والنزعات ، ليس من السهل أن نستخرج دفائن نفسه وأن نستجلي مختلف شئونه ، شديد الإحساس والاعتزاز بنفسه ، قلما تعنيه الحقيقة إلا بقدر مارفع من شأنه ، وتطفىء جذوة زهوه وغروره .

وفوق ذلك فإن للإنسان تاريخا ، بعضه مدون ، وأكثره غير مدون . ولابد من استجلاء حقائقه كلها ، ماظهر منها وما بطن ، قبل أن ندلى فى الشئون البشرية بحكم بعيد عن احتمال الخطأ . أما ظاهرات الطبيعة فقلما يعنينا تاريخها ، وأكثر مايهمنا تسجيل حقائقها كما تبدو للباحثين اليوم . حتى المسائل الجيولوجية ، وإن عنيت بتسجيل ظاهرات ذات نشأة قديمة ، فإن الشواهد عليها قائمة ملموسة فى الوقت الحاضر .

* * *

سقت هذه العبارات تنبيها للقارىء إلى مايكتنف الدراسات البشرية من الصعوبات واعتذارا من أننا فى الصفحات التالية كثيراً مانضطر إلى الامتناع عن الإدلاء بحكم قاطع فى بعض المسائل ، حينما تعوزنا الأدلة التى تقضى بمثل هذا الحكم .

ولعل فى هذه الاعتبارات مايفسر للقارئ أيضاً أنه قد مضى مايزيد على العشرين عاما ، منذ أخرجت كتاب نهر النيل للمرة الأولى ، وضمنته شرح الظاهرات الطبيعية للنهر . وكانت نيتى فى ذلك الوقت أن أشفعه بكتاب عن سكان حوض النيل وسلالاتهم وقبائلهم ، وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولذلك وصفت الكتاب فى الطبعة الأولى بأنه القسم الأول : الظاهرات الطبيعية ، أملا فى أن يتلوه الجزء الثانى من الظاهرات البشرية .

غير أنى لم ألبث أن رأيت أن الموضوع أوسع وأعمق من أن يوصف بأنه الجزء الثانى من كتاب نهر النيل ، وقد راعيت ذلك فى الطبعة الثانية من ذلك الكتاب فلم أصفه بأنه الجزء الأول ، بل جعلته كتابا مستقلا عن الجغرافيا الطبيعية لنهر النيل . على أن أسعى للقيام بالدراسات البشرية بقدر مايتسع له الجهد والوقت ، وأن أنشر ماأستطيع نشره عنها فى مؤلف مستقل .

وقد أتاح لى عملى بمعهد الدراسات السودانية الفرصة اللازمة للاطلاع والتفكير كما أتاح لى السفر والاتصال بأصدقائى من السودانيين ومن رجال الإدارة فى السودان فرصاً أخرى لتحقيق كثير من المسائل . ولولا هذه الظروف المختلفة والمساعدات القيمة لما أمكننى تحقيق أمنيتى القديمة بأن أعالج الدراسات البشرية ، كما سبقت لى معالجة الظاهرات الطبيعية .

ويرى القارئ أننى لم أعالج فى هذا الكتاب الدراسات البشرية فى حوض النيل كله ، كما فعلت فى كتاب نهر النيل من ناحية الدراسات الطبيعية ؛ بل اقتصرت هنا على السودان وحده ، بل وعلى السودان الشمالى دون الجنوبى ، وذلك لأن الدراسات البشرية فى حوض النيل أوسع وأعمق من أن يستوعبها مؤلف على واحد ، اللهم إلا إذا عالج الموضوع معالجة موجزة لاتشفى غلة طالب العلم .

والتمييز بين السودان الشمالى والجنوبى شىء معروف لأهل السودان ولمن يدرسون جغرافية حوض النيل . وقد أوضحت فى الفصل الأول المقصود من هذا التمييز . وحسبى هنا أن أشير إلى أمرين أولهما : أن السودان الشمالى هو فى الواقع السودان الأصلى الذى عرفه التاريخ منذ قرون عديدة ؛ أما الإقليم الذى يوصف

بالسودان الجنوبي ، وهو لا يتجاوز ثلث مساحة السودان كما نعرفه الآن ؛ فلم يعرف العالم عنه شيئاً إلا بعد أن كشف رجال محمد على من أعالى النيل ، وبعد أن أتم إسماعيل عمل محمد على بأن ضم الأقطار الجنوبية إلى السودان ، فظهر السودان للمرة الأولى فى التاريخ قطراً موحداً بشقيه الجنوبى والشمالى . ولا تكاد حدوده اليوم أن تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه من قبل .

ومع أن السودان الشمالى هو القطر الأصلى ، الذى اتسعت رقعته حتى شمل الجهات الجنوبية ، فقد لقى السودان الجنوبى من علماء الدراسات البشرية عناية كبيرة لم يظفر بمثلها السودان الشمالى . وبسبب وفرة هذه الدراسات أمكن للأستاذ سلجمان أن ينشر كتابه المشهور عن قبائل السودان الجنوبى .[١] وليس فى أيدى طلاب الدراسات البشرية كتاب عن السودان الشمالى يضارع كتاب سلجمان عن سكان الجنوب ، بل ليس هنالك شيء يدنو منه ؛ وكل ما لدينا دراسات متفرقة مبعثرة فى بعض المجلات وعلى الأخص فى مجلة « السودان فى مذكرات ومدونات »[٢] ، وفى كتب الرحالة وبعض الإشارات الواردة فى كتب المؤرخين أمثال المقريزى والمسعودى . وأكثر المؤلفين لتلك المقالات من الهواة أو من رجال الإدارة وكثيراً ما تعوزهم الدراسة الأساسية العلمية ؛ ولذلك كانت مقالاتهم بمثابة وثائق ، يستفيد بها المؤلف بعد أن يستبعد الزبد ويستبق ما ينفع الناس .

وهنالك كتاب واحد يجوز لنا استثناؤه من هذا الوصف ، وهو كتاب الأستاذ السير هارولد ما كايكل عن تاريخ العرب فى السودان فى مجلدين[٣] ، كما أن له كتاباً آخر مفيداً لولا قدم عهده عن القبائل العربية فى أواسط وشمالى كردوفان . غير أن كلا الكتابين — وبوجه خاص الكتاب الأول — يغلب عليهما الأسلوب التاريخى والاعتماد على الوثائق ، التى ليست دائماً فوق مستوى الشك . ومع أننى استفدت كثيراً من بحوث ما كايكل ، فإننى كثيراً ما اختلفت معه فى تأويل بعض الظاهرات وتفسيرها . كما أن معالجته التاريخية لا تطفئ غلة طالب الدراسات البشرية .

---

(١) Pagan Tribes of the Nilotic Sudan (1928)

(٢) Sudan Notes and Records وهى التى نشير إليها دائماً بالأحرف الثلاثة S.N.R.

(٣) Macmichal, Harold sir A History of the Arabs in the Sudan (1922)

أما المقالات التي اشتملت عليها مجلة S.N.R. فلعلها أحسن المراجع ، بل هي أحياناً المرجع الوحيد لبعض القبائل . وإذا كنا أحياناً لانستطيع أن نقبل التأويل الفلسفي الذي قد يتورط فيه بعض الكتاب ، فإننا بلا شك نستفيد فائدة كبيرة من الحقائق والمشاهدات التي دونها كل منهم تدويناً دقيقاً . وليس في وسع كاتب واحد أن يلم إلماماً شخصياً بجميع قبائل السودان الشمالي ، لأن دراسة مجموعة واحدة من تلك القبائل قد تستغرق الشهور بل الأعوام . ولذلك لم يكن بد لمن يتعرض لكتاب شامل لجميع سكان السودان الشمالي أن يعتمد كثيراً على ماقام به أولئك الكتاب من دراسات . ولئن تفاوتت أحيانا في الدقة والجودة وأعوزها في كثير من الأحيان الأسلوب العلمي ، فإنها على كل حال مما لايستغنى عنه الباحث في هذا الموضوع .

وقد حاولت أن يكون هذا الكتاب شاملاً لجميع جهات السودان الشمالي ، وقبائله على كثرتها وتعددها . ومع ذلك فإن من المحتمل ، بل يوشك أن يكون من المؤكد ، أن سيكشف القراء — وعلى الأخص من إخواني السودانيين — من بعض النقص أو القصور . ولي وطيد الأمل — بعد مالقيته منهم من المساعدات القيمة وقت إعداد الكتاب — أن يتابعوا تزويدي بمقترحاتهم وآرائهم السديدة ، عسى أن تتاح للكتاب طبعة ثانية تكون أبعد عن النقص من الأولى .

وكذلك حاولت ألا أكتفي بوصف القبائل ومواطنها ، بل رأيت من الواجب أن أرسم صورة توضح كيف نزلت كل قبيلة واستقرت في مواطنها الحالية ، وكيف انتشرت المجموعات الكبيرة مثل المجموعة العباسية في الأوطان التي تحتلها اليوم . وهذه كلها محاولات تعرض للمرة الأولى فيما أعلم . ولذلك أرجو أن أنتفع برأي إخواني الجغرافيين والمؤرخين فيها .

وفي السودان ، كما يعلم القراء ، قبائل ليست العربية لغتها الأصلية ، مثل قبائل البجه ، وقبائل دارفور ؛ ولذلك وردت أسماء كثيرة للبلدان والقبائل والأفراد ، ليس من السهل أن يتفق الناس على كتابتها بالعربية . فقبيلة المساليط مثلاً في إقليم دارفور كتبها الشيخ عمر التونسي بهذه الصورة وأوردها ما كما يكتب بالصاد والطاء

ومع ذلك فإن كثيراً من السودانيين يكتبونها للسالبت ، بالسين والتاء . ومثال آخر لأحد أجداد المدنيين اسمه وبلالى ، يكتب أحياناً على هذه الصورة ، وأحياناً يكتب وابلالى ، وأ كد لى البعض أنه يجب أن يكتب « وائل على » أى فى صيغة عربية . ولذلك لم يكن بد من أن يختار الكاتب ما يراه أنسب فى نظره . وأنا واثق أن بعض القراء سيجد فى اختيارى ما لا يتفق مع وجهة نظره ، ورجائى ألا أحرم من نقد إخوانى السودانيين فى هذه الناحية أيضاً .

ويرى القارئ مما تقدم أنى مدين للكثير من أصدقائى السودانيين بما زودونى به من المقترحات والآراء . وليس من السهل أن أذكرها هنا بالاسم ، خوفاً من أن تخوننى الذاكرة . ولهذا أكتفى بشكرهم من أعماق نفسى ، كما أنى أشكر لوزارة الزراعة المصرية تفضلها بتزويدى ببعض الصور الخاصة بإقليم جبل علبه ، ولإدارة النشر فى السودان السماح لى بنشر عدد آخر من الصور .

كما لا يسعنى إلا أن أنوه بقيام الأستاذ محمد رياض من خريجى معهد الدراسات السودانية برسم الخرائط ، وعمل الفهرس الأبجدى للكتاب ، ومساعدته للمؤلف فى تصحيح التجارب .

أول ذى الحجة سنة ١٣٧٠
٣ سبتمبر سنة ١٩٥١

محمد عوض محمد

فهرس الصور

الفصل الأول

تمهيد عام

١ — سكان السودان

موقع السودان فى الجزء الأوسط من حوض النيل ، يجعله من ناحية الدراسات الجنسية أكثر إثارة للاهتمام العلمى من أى إقليم آخر ، فى جنوبه أو شماله أو شرقه أو غربه . فالأقطار الجنوبية واقعة كلها تقريباً ، فى داخل نطاق السلالات الزنجية ، اللهم إلا فى مواقع قليلة تسربت إليها بعض جماعات قوقازية ، ولن تلبث حتى تندمج فى سائر السكان ، وتضيع وسط المحيط الزنجى الكبير .

وإلى الشمال من السودان ، غلبت العناصر القوقازية منذ آلاف السنين . ولم تستطع الجماعات الزنجية فى أى عصر من العصور أن تصل بنفسها إلى النصف الشمالى من حوض النيل .

وإلى الشرق أقاليم تأثرت بالهجرات الحامية ، وغلبت عليها ثقافتها وعاداتها . وإلى الشرق أيضاً الهضبة الحبشية ذات الصفات الفريدة المنقطعة النظير فى القارة الأفريقية .

وإلى غرب السودان الصحراء الليبية ، تعيش فيها جماعات ذات صفات خاصة مثل التبو ، والبربر الذين لهم لغاتهم الخاصة ، والعرب الأنقياء الخالصون والبربر المستعربون .

وفى الجنوب الغربى تتصل حدود السودان بالكنجو البلجيكى ، وأهالى النيل بأهالى نهر أويلة : وهنا ميدان خاص تستأثر به جماعات متشابهة تحتل أعالى الغزال وأعالى الكنجو .

وفى الجنوب الشرقى من السودان : جماعات أطلقوا عليها اسم أنصاف الحاميين ،

استأثروا بمساحة من الأرض تمتد فى شرق أفريقية حول الأخدود الأعظم وتمتد إلى داخل السودان .

وصفوة القول أن حول السودان من جميع النواحى أقاليم لكل منها ميزات انفرد بها ، وسادته سلالات تميزه عن غيره ، ولكن لكل من هذه الأقاليم شعب وفروع تتوغل داخل السودان ، وتجعل منه ميدانا واسعاً لتمثيل تلك السلالات . وله فوق ذلك سلالات ومجموعات جنسية انفرد بها ، أو كان هو الميدان الأكبر لها ؛ مثل الجماعات النيلية ، والبجة وغيرهم .

ونستطيع ان نقول على سبيل التعميم ، إن السودان تتنازعه السلالات الزنجية من الجنوب والقوقازية من الشمال ، وإن خط العرض الثانى عشر الشمالى يمثل على وجه التقريب ، خط التقسيم بين الجهات التى يغلب عليها الجنس الزنجى من جهة ، والجهات التى يسودها الجنس القوقازى من جهة أخرى ، غير أن هذه العبارة — وإن كانت لا بأس بها على سبيل الإيجاز والتعميم — لا تعبر تعبيراً صادقاً عن التنوع الكبير فى السلالات الزنجية والقوقازية والثقافات المختلفة التى يمتاز بها كل منها ، ومبلغ التوغل لكل من هذه السلالات ، وأهمية كل منها .

٢ — خط العرض الثانى عشر

وليس خط العرض الثانى عشر خطاً فاصلا بالمعنى الصحيح : فإن قبائل البقارة التى لا شك فى عروبتها يعيش أكثرها جنوب هذا الخط ؛ وإذا كان لهذا التحديد معنى فيما يتعلق بالنهر ذاته ، فإن الشذوذ واضح إذا ابتعدنا عن النهر ، وعلى الأخص فى الجهات الغربية . . ومع ذلك فقد أصبح من الأمور المصطلح عليها فى السودان أن يعتبر خط العرض الثانى عشر هو الحد بين السودان الجنوبى والشمالى . ولذلك جعل هذا الخط هو الحد الشمالى لمديرية « أعالى النيل » التى عاصمتها ملاكال (على خط عرض ٩,٣٠°) وأصبح لهذا التحديد صفة حكومية رسمية . واعتبارات تتصل بالسياسة التى كانت الحكومة تتبعها نحو الجنوب والشمال ؛ وأهم عنصر فى هذه السياسة الحرص على عدم تسرب الثقافة العربية والإسلامية نحو الجنوب ، وفتح

الحائل للهيئات التبشيرية للانتشار فى الجنوب ، مع تحريمها فى الشمال .

وأقصى ما يقال فى هذا الحد بين الشمال والجنوب ، هو كما ذكرنا من قبل ، ان العناصر القوقازية تغلب فى شماله والزنجيـة فى جنوبه . وهذا الوضع البشرى يستند إلى ظروف طبيعية ، وهى ترجع إلى أن السلالات الزنجية قد انتشرت من أقاليم السفانا ذات المطر الغزير والحشائش الطويلة ، والخط الثانى عشر هو المدى الشمالى الذى تصل إليه تلك الحشائش ، وتليه إلى الشمال الحشائش الفقيرة نسبياً ، والسفانا الشوكية حتى ينتهى إلى الأقاليم الشبيهة بالصحراوية ثم الصحراوية .

وطريق العناصر القوقازية على عكس ذلك : أكثره من الشمال ، وأسلوب المعيشة ، ووسائل النقل عن هذا الطريق قد فرضتها طبيعة الأقطار التى سلكتها تلك العناصر ، ولذلك لم يكن بد من أن ينتهى بها المطاف إلى حدود السفانا الغنية . اللهم إلا فى الجهات الغربية ، السهلة الفسيحة التى أمكن التوغل فيها إلى الجنوب .

وهناك جهات جبلية اعتصمت فيها بعض العناصر الزنجية ، أو الشبيهة بالزنجية كجبال النوبا وجبال دارفور ، وقد ساعد ذلك على الحد من التوغل القوقازى فى تلك الجهات ، وإن لم يحل تماماً دون هذا التوغل فى بعض مظاهره الثقافية .

٣ — الاختلاط والامتزاج

نظراً لتعدد الأقاليم الجنسية فى السودان ، وفى الأقطار المجاورة له ، لم يكن بد من أن يكون على حدود تلك الأقاليم ضروب متفاوتة من الاختلاط والامتزاج بين السلالات من جهة ، وبين الثقافات المختلفة من جهة أخرى . ولم يساعد على هذا الاختلاط مجرد التجاور الإقليمى ، بل ساعد عليه بوجه خاص سهولة الأرض وسهولة الانتقال فيها ، وانتشار حرفة الرعى ، التى لا تقيد الناس تقييداً شديداً بالأرض التى يعيشون عليها .

والاختلاط والامتزاج على ضروب مختلفة ؛ ونقصد بالاختلاط اجتماع عناصر مختلفة فى جهة مشتركة مع احتفاظ كل منهم ببعض خصائصه . أما الامتزاج فهو اندماج عنصرين مختلفين حتى يتألف منهما مركب جديد قائم بذاته .

ومن الاختلاط والامتزاج ما يتناول الصفات الجسدية أو ما يتناول الثقافات وحدها ، فيفيد الناس بثقافة غير ثقافتهم ، مع بقاء دمائهم على ما كانت عليه تقريباً . فالتنكا أو الشلك الذين اعتنقوا الإسلام لم يمتزجوا بالدم القوقازى إلى أى درجة بعيدة ، بل بقيت دماؤهم النيلية على ما كانت عليه . وبعض الكبابيش يعتزون إلى أصل حامى بجاوى ، ومع ذلك قد امتزجوا امتزاجاً تاما بالعناصر العربية . وبنو عامر من البجة ، ولكنهم اقتبسوا لغة سامية بحكم مجاورتهم لهضبة الحبشة ، التى تسودها الثقافة السامية .

ولعل أهم مظاهر الامتزاج والاختلاط وأكثرها وضوحا هو ما نشأ من تدخل العناصر الزنجية فى القوقازية . وبديهى أن تكون هذه الحالة أكثر وضوحاً فى الإقليم الأوسط ، الذى تتجاور فيه السلالات الزنجية والقوقازية . ولذلك بات من المتعذر أن يرسم خط يفصل بين المجموعتين فصلا تاماً .

٤ — العناصر الزنجية أقدم من القوقازية

ولكى ندرك حقيقة الأوضاع الأنثروبولوجية فى السودان لا بد لنا أن نذكر دائماً أن الجنس الزنجى أقدم فى أفريقية وبالتالى فى السودان من العناصر القوقازية . وقد ظل حوض النيل زمناً مفتوحا أمام الجنس الزنجى دون غيره من السلالات والأجناس .

ولا بد لنا أن نفترض أن الجنس الزنجى لم يتوغل بعيداً فى السودان ، حتى قبل ظهور الجنس القوقازى فى حوض النيل ، وذلك لأن الظروف التى أحاطت بالهجرات الزنجية ، وقد كانت كلها عن طريق باب المندب ، فى زمن معرق فى القدم ، قد ألزمت الجنس الزنجى ، عند انتقاله إلى القارة الأفريقية ، أن يتجه صوب الجنوب فقد كان الطريق نحو الغرب تعترضه الهضبة الحبشية بمسالكها الوعرة ، والطريق نحو الشمال فى محاذاة شاطىء البحر الأحمر ، يجتاز منخفضات ارتريا . وكانت تكتنفها المستنقعات ، بينما الطريق إلى الجنوب والجنوب الغربى ممهد سهل ، يغرى المهاجرين بسلوكه والانتشار فى أرجائه .

٥ — مصادر الجنس الزنجى

لهذا كان من الراجح أن الجنس الزنجى لم يبدأ انتشاره فى حوض النيل إلا فى مرحلة متأخرة من تاريخ هجراته داخل القارة الأفريقية ، وليس من الغلو أن يقال إن جميع الهجرات الأولى للجنس الزنجى على مدى عشرات الآلاف من السنين قد اتجهت كلها أو جلها صوب الجنوب ، وعمرت القارة الأفريقية فى هذا الاتجاه . وحسبنا دليلا على ذلك أن انتشار البانتو ، الذين تتمثل فيهم آخر الهجرات الزنجية — أو الشبيهة بالزنجية — لم يؤثر فى السودان مطلقاً ، مع أنه قد أثر تأثيراً شديداً فى سائر القارة الأفريقية جنوب خط الاستواء .

وقد سلكت هجرات البانتو نفس الطريق التى سلكتها العناصر الزنجية التى سبقتها ، وكان انتشارها فى صورة غزوات متتالية ، لا شك أنها أحدثت اضطراباً فى العناصر السابقة ، وقد كان من آثارها أن اندمج بعضها فى الجماعات الغازية ، وأصبح جزءاً منها . وآثر البعض الآخر أن ينتقل إلى أقاليم جديدة ، وربما دفع ذلك بعضها إلى الهاجرة إلى أعالى النيل ، وانتقال طوائف منها إلى السودان الجنوبى .

وهناك شواهد تدعو إلى الترجيح بأن هذه الوحدات الزنجية القديمة المهجرة إلى أعالى النيل لم تكن كثيرة العدد . وأهم هذه الشواهد ، ما نراه اليوم من أن السودان الجنوبى تسوده الجماعات التى يطلق عليها اسم المجموعة النيلية Nilotes ، لأنها تحتل أقاليم تجاور نهر النيل وروافده من العرض السادس جنوبا إلى الثانى عشر شمالا . وهذه السلالات أجمع الكتاب على أنها حديثة الهجرة إلى السودان ، ومتشابهة فى صفاتها الجسدية تشابهاً شديداً . لا يدع مجالا للشك بأن العناصر السابقة لها ، التى اندمجت فيها لم تكن كثيرة العدد إلى درجة تؤثر فى شكل هؤلاء النيليين وفى صفاتهم الطبيعية[1] فإن تشابه صفات النيليين ، حيثما وجدوا ،

---

(١) النيليون سلالة زنجية يخالطها عنصر لوقازى ، وتمتاز بالقامة الطويلة والرأس الطويل ، أما السلالات السابقة لها فى أعالى النيل ؛ وتتمثل فى الجماعات التى تجاورها فى بحر الغزال ، فإنها أقصر قامة ورأساً .

يضطرنا لأن نقرر واحداً من أمرين : إما أن هذه السلالات قد قضت على العناصر السابقة لها أو أنها امتصتها واندمجت فيها . فإن كانت الأولى فلا بد أن هذه العناصر كانت من القلة بحيث سهل التغلب عليها واستئصالها . وإن كانت الثانية ، فإنها كانت من القلة بحيث لم تؤثر فى الصفات الجسدية للنيليين . وفى هذا ما يبرر القول بأن الانتشار القديم للعناصر الزنجية فى السودان كان على نطاق ضيق .

٦ — مصادر العناصر القوقازية

والعناصر القوقازية التى تسكن السودان اليوم — وهذا القول ينطبق على مصر أيضاً — لم تسلك كلها طريقاً واحداً ، ولم تأت من ناحية واحدة أو مصدر واحد . ومع التسليم بأن الشمال هو المصدر الأكبر للعناصر القوقازية فى العصور التاريخية ، فإن هنالك طرقاً أخرى ولا بد لنا أن نميز بينها :

(أ) الطريق الشرقى الجنوبى :

هو الذى سلكته السلالات الحامية ، وتدفقت منه إلى أفريقية عن طريق بوغاز باب المندب ، وهاجر بعضها جنوبياً إلى بلاد السومال والجلا ، وإلى إقليم بحيرة رودلف ، وشرق إفريقية ، حيث تكونت الجماعات المسماة بأنصاف الحاميين ، مثل السوك والتركانا والمازاى ومن على شاكلتهم ، وهاجر بعضها شمالا بعد أن جفت المستنقعات فى سهول أرترية الجنوبية واتجه إلى الإقليم الواقع بين النيل والبحر الأحمر ، وكثير من هذه العناصر اتجه نحو نهر النيل نفسه ، ودخل إلى بلاد النوبة والقطر المصرى عن هذا الطريق ، كما أن بعضها اتجه إلى مصر بطريق مباشر سالكا الصحراء الشرقية من الجنوب إلى الشمال ، ولعلها فى ذلك الوقت المتقدم كانت أقل جفافاً مما هى اليوم .

ومعروف أن المصريين القدماء كانت لهم صلات قوية ببلاد بنت ، وهى فى الأطراف الجنوبية من البحر الأحمر . وكانوا يدعونها بلاد الآلهة ، وكانوا حريصين

على بقاء الانتساب ... من مصر ، وكذلك لاحظ سلجمان وجوه الشبه القوية بين المصريين القدماء وبين البجه [١]

(ب) الطريق الشرقي ، عبر البحر الأحمر :

والراجح أن الحاميين كانت أوطانهم القديمة فى الأطراف الجنوبية من الجزيرة العربية ، وإن لم يبق فيها منهم أحد اليوم ، ولذلك كانت هجراتهم إلى إفريقية كلها من إقليم بوغاز باب المندب .

أما الساميون ؛ فقد امتلأت بهم الجزيرة العربية فى الشمال والجنوب ، منذ زمن بعيد . ولا شك أن مجاورة البلاد العربية للجزء الشمالى من القارة الإفريقية عامل عظيم الأثر فى التكوين الجنسى للسودان . فإن عبور البحر الأحمر فى كل جزء من أجزائه لم يكن فى يوم من الأيام أمراً صعباً . وكانت بلاد اليمن وما يليها إلى الجنوب والشمال مصدراً لهجرات عديدة أثرت تأثيراً بالغاً فى الهضبة الحبشية وأعالى النيل الأزرق والعطبرة وبلاد أرتريا وسواحل السودان الشرقية .

وقد كانت المؤثرات السامية تتدفق من الجزء الجنوبى لجزيرة العرب أكثر من تدفقها من الجزء الشمالى ، وذلك لوفرة السكان فى بلاد اليمن من جهة ، ولصغر مساحة البحر من جهة ثانية ، ولبراعة السكان فى الملاحة من جهة ثالثة .

ولكن ليس معنى هذا أن إقليم الحجاز لم يتصل اتصالا مباشراً بالسودان ؛ فإن هذا الاتصال قد حدث وإن كان لم يبلغ مبلغاً عظيما إلا فى العهد الإسلامى .

(حـ) الطريق الشمالى :

لا شك أن هذا كان أهم الطرق التى سلكتها العناصر القوقازية إلى السودان فى العصور التاريخية القديمة والحديثة ، لأن كثيراً من القبائل العربية كانت تهاجر إلى مصر أولا ، عبر برزخ السويس ، ثم تصعد إلى الجنوب ، فالصلات بين شمال الوادى وجنوبه كانت دائماً أوثق الصلات ، سواء من ناحية الجنس والسلالة ،

(١) مقالة الأستاذ سلجمان فى عدد سنة ١٩٢٣ من J.R.A.I. وعنوانها :
The Hamitic Problem in the Anglo - Egyptian Sudan.

أو من الناحية الثقافية ، وسواء فى ذلك ما حدث فى العصر الفرعونى القديم ، أو فى عصر الرومان المسيحى ، أو فى العهد الإسلامى .

(د) الطرق الليبيــة :

وهى التى تصل السودان الشمالى الغربى بصحراء ليبيا الواقعة غربى نهر النيل . وبعض هذه الطرق يشمل القطر المصرى وبرقة ، فهو جزء من الطريق الشمالى ؛ وبعضها يجىء من تونس وطرابلس وفزان . وبعضها من الصحراء رأساً من منطقة تيبستى ووادای ، حمل إلى السودان جماعات ليبية فى عصر متأخر مثل الزغاوة والجرعان والبدايات ؛ أو من إقليم بحيرة تشاد وغرب إفريقية ، وقد هاجر من هذا الطريق فى الأزمنة الحديثة جماعات الفلاتا وهى مزيج من الحاميين والزنج .

٧ — تقابل السلالات القوقازية والزنجية

سبق لنا أن ذكرنا أن التوسع الزنجى نحو حوض النيل جاء فى مرحلة متأخرة ، ولعله لم يبدأ إلا بعد أن احتلت العناصر القوقازية جزءاً كبيراً من الحوض الشمالى : من أول البحر المتوسط إلى أقصى بلاد النوبة . ولعله ليس بمستبعد أن قد مضت فترة من الزمن قبل أن يتلاقى العنصران وجهاً لوجه ، وأن يقترب أحدهما من الآخر.

ثم لم يكن بد من أن يلتقى العنصران ، وأن يختلطا ، وأن يترتب على هذا الاختلاط نتائج هامة . وقد كان هـذا الاختلاط إما نتيجة للهاجرة والتوغل السلمى ، فى الحدود التى تسمح بها وسائل الانتقال ، والتى تتحكم فيها الظروف الطبيعية . أو قد يجىء الاختلاط نتيجة الغزو . وفى وسعنا أن نقرر استناداً إلى ما نعلمه من الحوادث التاريخية ، أن ظاهرة الغزو هذه كانت دائماً تتخذ صورة واحدة وهى غزو القوقازيين الآتين من الشمال ، ولسنا نعرف على وجه التحقيق أنه كانت هنالك غزوات زنجية أغارت على الأوطان القوقازية . وقد زعم كل من ماكايكل وترمنجهام [1] أن جماعات زنجية أغارت من جنوب كردوفان على حدود

---

(١) راجع الجزء الأول من كتاب « تاريخ العرب فى السودان » لماكايكل ص ٢٠ وما بعدها ، وكتاب ترمنجهام « الإسلام فى السودان » ص ٣٩ وما بعدها .

مصر فى أزمنة مختلفة فى الدولة المتوسطة وفى زمن الأسرة الثامنة عشرة ؛ واستند كل من الكاتبين على ترجمة كلمة نهسو Nehesu المصرية بكلمة زنجى . وقد فند الأستاذ يشكر وغيره من علماء التاريخ المصرى القديم هذا الزعم وأثبتوا بما لا يدع مجالا للشك أن المقصود بهذه الكلمة هم النوبيون سكان بلاد النوبة ، وهم من سلالة حامية قديمة ، ولا يمتون إلى الزنج بصلة كما أثبت ذلك الأستاذ سلجمان[1] .

والظروف الجغرافية الطبيعية للسودان تنفى احتمال حدوث غزو من الجنوب ، وذلك لأن الجهات التى يعيش فيها الزنوج ، والتى ألفوها ولا يستطيعون الابتعاد عنها طويلا ، تمتاز بوفرة فى المطر والمرعى . وليس فى وسعهم أن يبتعدوا عنها كثيراً ؛ وهم أكثر استقراراً فى أوطانهم من الشماليين ، الذين كانوا يألفون عيش البداوة ، وفى العهود المتأخرة كانوا رعاة إبل ، كثيرى الاضطراب والانتقال ، ولهم صفاتهم الحربية المعروفة .

لذلك نستطيع أن نستبعد ونحن مطمئنون حدوث غزوات هامة من الجنوب ، وأن نقرر أن الغزو كان دائما من الشمال نحو الجنوب ، ومن الإقليم القوقازى نحو الأوطان الزنجية .

ومع ذلك لم تسلم الأقاليم الشمالية من أن يصل إليها بعض الدم الزنجى فى صورة أخرى . فقد ساعدت تجارة الرقيق على تسرب الدم الزنجى نحو الشمال ؛ وهى ظاهرة تجارية سلمية غالباً ، ولكن كان لها أثرها فى انتشار الدماء الزنجية ، ولو بدرجة ملطفة ، فى جميع أنحاء وادى النيل الشمالى . وإن كانت أكثر فى الجنوب منها فى الشمال[2] .

وقد استطاعت جماعات قليلة من القوقازيين أن تكون لها السيادة فى أوطان زنجية ، وأن تؤثر فى السكان تبعاً لذلك تأثيراً كبيراً ، بأن نزلت بينها وتزوجت

---

(١) مقال سلجمان السالفة الذكر .

(٢) إن بعض الكتاب ، مثل ما كايكل ، لم يعر أهمية تجارة الرقيق ما تستحق من العناية ، وما كان لها من الأثر فى أشكال السكان ، ولكن أخبار الرحالة (راجع مثلا بركهارت ص ٣٢٣ وما بعدها) حتى فى العصور المتأخرة ترينا أن تجارة الرقيق كانت واسعة الانتشار جداً وأنها كانت تتناول الآلاف من الرجال والنساء فى كل عام .

بينها . وانتشار حق الأم السائد بين كثير من الجماعات الزنجية قد ساعد على هذا .
ومن الجائز أن نتصور أن أسرة قوقازية نزلت بلاداً زنجية دون أن يكون لها حق فى
ذلك ؛ وبدلا من أن تستخدم وسائل القهر والعنف ، تزوجت من الأسرة الحاكمة ،
وبذلك يرث الولد خاله ، وقد يكون هذا الخال هو نفسه الحاكم الأصلى الزنجى .

وهكذا تتلتلث السلالات القوقازية فى البلاد الزنجية ، كما تسربت الدماء
الزنجية إلى الأوطان القوقازية عن طريق تجارة الرقيق . وحدث ما ينتظر من
التفاعل بين الفريقين ، وتبادل أنواع الثقافات .

وقد سلمت بعض الجهات الوعرة (الجبلية) من توغل الدماء القوقازية فيها ،
كما هى الحال فى النوبا سكان جنوب كردوفان والفور وبنى شنقل ؛ غير أن هذا
لم يحل دون تسرب الثقافة القوقازية ، وامتداد أثرها فى بعض الأحوال .

٨ — أثر الحرفة فى الاختلاط

للحرفة أثر كبير فى تكييف الاختلاط . فالرعاة الرحل الذين لا يستقرون فى
مكان واحد ، والذين ينتقلون مسافات بعيدة طلباً للمرعى ، مثل بعض البجة ،
وبعض العرب ، كانوا أقل اختلاطاً بالدم الزنجى ، وأقل اقتناء للرقيق .

أما المستقرون الذين يشتغلون بالزراعة ، فإن هذه الحرفة تتطلب كثيراً من
الأيدى العاملة وتشتمل على أعمال يرفضها الرعاة ، ولذلك يستحب اقتناء الرقيق
لكى يضطلع بهذا العمل الكريه .

أما رعاة البقر ، فإنهم فى حالة وسط بين رعاة الإبل والزراع . ومجاورتهم
للوطن الزنجى فى الجهات الجنوبية ساعدت على الاختلاط وعلى اقتناء زوجات من
الزنجيات . وبذلك تسربت إليهم الدماء الزنجية أكثر مما تسربت إلى رعاة الإبل
مثل الكبابيش .

٩ — أثر الاختلاط بين السلالتين الزنجية والقوقازية

كان لهذا الاختلاط أثره من الناحيتين الطبيعية (الجسدية) والثقافية
أو الاجتماعية ؛ والناحية الطبيعية أكثر وضوحاً ، والاستدلال عليها أسهل

والشعر : ومن مظاهرها تعديل فى القاطيع فى الأنف والشفتين ؛ وبروز الوجه ؛ ففى الأنف تنخفض النسبة الأنفية انخفاضاً واضحاً ، وهذه الظاهرة تبدو بين الجماعات الزنجية التى دخلها الدم القوقازى ، وكذلك يزول الفطس ، ويرتفع الأنف ارتفاعاً محسوساً ، وتصبح الشفاه أقرب إلى صفات القوقازيين .

أما أثر الدم الزنجى فى القوقازيين ، فإنه يبدو بوجه خاص فى شكل الشعر ، والظاهر أن تجعد الشعر من الصفات التى تورث بسهولة (أى من الصفات الغالبة Dominant فى المصطلح المندلى) .

فإذا دخل العناصر القوقازية مقدار ولو قليل من الدم الزنجى لا يلبث أن يظهر أثر هذا الاختلاط فى تجعيد الشعر ، وإن لم يصبح مفلفلا تماماً كما هى الحال فى الجنس الزنجى الصميم .

أما القامة والنسبة الرأسية ؛ فليس من السهل أن نجد للاختلاط أى أثر فيهما ، لأن كلا من الجنسين يشتمل على عناصر طويلة القامة والرأس ، والنسبة الرأسية منخفضة عند الفريقين .

أما لون البشرة فالأجدر بنا ألا نعيره اهتماماً كبيراً ، لأن السمرة قد تشتد جداً حتى فى العناصر القوقازية التى لم تختلط بأى دم زنجى ، ولذلك لا يمكن الاعتماد عليها وحدها لتقرير درجة الاختلاط .

أما الآثار الاجتماعية والثقافية المترتبة على الاختلاط ، فليس من السهل تقريرها بصورة قاطعة فى جميع الحالات ، وهنالك آثار واضحة يسهل الاستدلال عليها ، ولكن هنالك من غير شك أمور خافية أو على الأقل ليست ظاهرة ظهوراً ملموساً .

من الواضح مثلا أن اللغة العربية قد انتشرت ، حتى محت بعض اللغات القديمة وحلت محلها ، كما هى الحال فى شمال كردوفان وجنوب الجزيرة ، وفى جهات أخرى أدخلت ألفاظ عربية واصطلاحات فى اللغات القديمة ، وإن لم تقض عليها تماماً ، كما هى الحال فى لغات البجة والنوبيين .

كذلك تسربت عناصر ثقافية من الشمال نحو الجنوب فى مختلف شئون المعيشة كالأدوات والآلات والزراعة وما إليها ، وهذا التأثير يرجع إلى زمن قديم ،

وهذه ناحية لا تزال في حاجة إلى دراسة مستفيضة(١)

مادام الإسلام قد انتقل من القوقازيين إلى الزنوج ، ومن السهل أن نستدل نتمثل مبلغ انتشار هـذا الأثر . . . ولـكن ليس من السهل أن نتبين أثر التعاليم الإسلامية ، ومبلغ تعمقها في النفوس ، وإلى أى درجة أمكن للإسلام أن يعدل من المعتقدات السابقة للإسلام ، وأن يحل تماماً محل الديانات والمعتقدات القديمة ؛ فإن كثيراً من السكان لا يزالون يحتفظون بعادات وشعائر ليست مما ألفناه عند المسلمين ، وأحياناً قد تتنافى مع الإسلام صراحة .

وما يقال عن الإسلام يقال عن النصرانية التي دخلت على أيدي المبشرين حديثاً ، أو التي دخلت عند الأحباش والبجة والنوبة على أيدى قسس من مصر .

بقي سؤال يعرض للمرء : وهو ألم يكن للاختلاط بالزنوج أثر تعاق بين العناصر القوقازية ؟ ألم يكن للوثنية الزنجية أثر أيضا في الجماعات القوقازية ؟ إن مثل هذا الأثر — إذا وجد — يكون سببه أولا أن العناصر الزنجية التي أسلمت واتخذت العربية لغة لها ، وأصبحت أحياناً تدعى « عربا » على سبيل التجاوز ، قد تحتفظ ببعض شعائرها الوثنية ، ثانيا أن هذه التقاليد والشعائر تشيع بعد ذلك في المجتمع الإسلامي كله ، وكثيراً ما نسمع أن بعض العادات الشائعة في مصر مثل « الزار » هو من أصل زنجي ، ومن الممكن أن نبحث عن ظاهرات أخرى قد تكون من أثر الاختلاط بالزنوج ؛ فمن الجائز مثلا أن ندرس ظاهرة شائعة في السودان أكثر من شيوعها في أى بلد إسلامي آخر مثل « الطرق الصوفية » ، وكيف أصبحت عنصراً هاما في الحياة الإسلامية ، ولـكل منها رئيس متبوع مسموع الكلمة وشعائر خاصة في حفلاتها واجتماعاتها ، مما يدعونا إلى التساؤل : أليس من الممكن أن تكون هذه الزعامة الروحية ، التي لا نعرف لها نظيراً في مصر أيضاً ، أثر من الزعامات الروحية التي نعرف أن لها كياناً قوياً في القارة الإفريقية ؟ .

---

(١) راجع مثلا مقالة سلجمان عن أثر المصريين القدماء في إفريقية الزنجية في الدراسات المهداة إلى الأستاذ جريفيث ، طبع كامبردج سنة ١٩٣٢ ، ص ٤٥٧ وما بعدها .

هذه المسائل وأمثالها ليس من السهل أن نقطع فيها برأى ، حتى تستوفى دراسة وبحثاً .

١٠ — العناصر القوقازية غير العربية

تنقسم العناصر القوقازية فى السودان إلى قسمين : الأولى تتكلم العربية وليس لها لغة سواها ، والأخرى لها لغات غير العربية ، ولذلك تسمى بأسماء خاصة .

فأما الثانية فهى : (١) النوبة على اختلاف طبقاتهم ولهجاتهم ؛ وموطنهم الحالى المعروف الذى يمتد من الدبة إلى شمال أسوان ، هو البقية الباقية من وطن أكبر وأوسع على الأرجح .

(٢) العناصر غير العربية فى دارفور : وبعضها مثل الزغاوة والبديات والجرمان ، هى من أصل ليبى ، أى هجرتها الأخيرة كانت من الغرب ؛ والبعض الآخر مثل الميدوب (سكان الجبل المسمى باسمهم فى الشمال الشرقى لدارفور) . والتنجور : كلاهما من أصل نوبى على الأرجح .

(٣) البجة : القبائل الحامية التى تعيش بين البحر الأحمر ونهر النيل .

هذه هى المجموعات الثلاثة الرئيسية غير العربية ، التى تنتمى مع ذلك إلى الجنس القوقازى .

١١ — العناصر المسماة « عربية »

أما سائر العناصر القوقازية وتسمى باسم « عرب » وهم يتكلمون اللغة العربية ولا يتكلمون لغة سواها . فلا شك أن نسبة عالية منهم من أصل عربى صميم . كما أن فيهم جماعات فيها نسبة عالية من دماء أخرى . وقد تغلب هذه الدماء الأجنبية فى بعض الأحوال . ومع ذلك يطلق على أصحابها اسم العرب لسيادة الثقافة العربية عليهم ، وانعدام أى مميز آخر يميزهم .

وقد جرت العادة بالنسبة إلى العرب الأصليين — أى فى الجزيرة العربية ذاتها — أن نميز بين الجنوبيين منهم والشماليين ؛ وهذا التمييز يستند إلى فروق

ثقافية جوهرية ، وإلى فواصل جغرافية فصلت الجنوب عن الشمال فترة من الزمن . وعلماء اللغات السامية يفرقون بين اللغات السامية الشمالية ، التى كانت تظهر آثارها فى العراق والشام ، وسائر بلاد الهلال الخصيب ، وبين اللغات السامية الجنوبية ، التى تسود اليمن وحضرموت وعدن . والتى كان لها أثرها فى بلاد الحبشة وتيجرة وأرترية .

وقد ظلت الجهات الجنوبية من جزيرة العرب بمعزل عن الشمالية زمناً طويلا ، إلى أن وجدت ظروف دعت إلى هجرة اليمنيين وإلى انتشارهم فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، حتى وصلت قبائلهم إلى الحجاز والعراق والشام ، ولم يعد التقسيم إلى شمالى وجنوبى أمراً ممكناً ، بل أصبح العرب ينقسمون إلى قحطانى وعدنانى ، وعلى هذه الصورة نرى الهجرات التى اتجهت إلى مصر ، ومنها إلى سائر حوض النيل ، وإلى بلاد المغرب والأندلس يتناولها هذا التمييز .

وهــذا التمييز نراه واضحاً أيضاً فى السودان ، حيث نرى القبائل أو الجماعات العربية تنقسم إلى قسمين : جعــليين : وجُهَــنيين ، والأولون يمثلون العرب الشماليين ، والآخرون الجنوبيين :

(١) فأما الجعليون فهم أكثر العرب عدداً . وتدخل فيهم جماعات تعيش على النيل شمال الخرطوم إلى دنقلة مثل الجوابرة ، والبديرية ، (فى النوبة) والشايقية والبطاحين ؛ وكذلك الجوامعة والبديرية فى كردوفان : وكذلك « الجعليون » الذين يعيشون بين العطبرة وخانق سبلوقة ومن كونهم بلدة شندى ؛ وهم تلك الشعبة من الجعليين التى يطلق عليها هذا الاسم . وسنعود إلى شرح هذا الأمر بالتفصيل عند الــكلام على المجموعة الجعلية .

وهؤلاء الجعليون ينتمون إلى « إبراهيم » جدهم الأكبر ، الذى ينتمى إلى العباس ؛ والذى يروى أنه فى زمن الجدب أطعم الجائعين ! وقال لهم : « جعلنا كم منا » كما يروى هارولد ماكمايكل وسنتناول هذا الموضوع بالتفصيل عند الــكلام على الجعليين

أما جهينة فاسم لقبيلة عربية مشهورة وهى فرع من قضاعة ؛ وقد هاجر

منها كثير إلى مصر . والقبائل التي تنتمي إلى جهينة (العرب الجنوبيين) في السودان هي :

١ — رفاعة (بما في ذلك الحوازمة) والعبد للاب (أصحاب خلفاية الملوك) .
٢ — الشكرية .
٣ — البقارة : مثل الرزيقات . الحبانية ، والتعايشة ، وغيرهم .
٤ — الحمر ، والكبابيش وأضرابهم .

ولقد كان لدخول الإسلام على أيدي القبائل العربية أثر في الأنساب وترتيبها ، وأحياناً تعديلها ، فقد أصبح من المرغوب فيه أن تكون كل قبيلة لا من أصل عربي فقط ، بل بقدر الإمكان أن تنتمي إلى نسب شريف يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الجعليين يشتملون على كل هذا العدد الكبير من الجماعات ، التي آثرت أن تنضوي تحت لوائهم لشرف نسبهم .

كذلك نرى حتى الجماعات الحامية في كثير من الأحيان تحاول أن تجعل نسبها متصلا بالعرب ، وكثيراً ما يكون لها اتصال من طريق النسب ببعض القبائل العربية .

١٢ — الحاميون المستعربون

ولا مندوحة لنا من أن نفترض أن العرب عند ما دخلوا السودان لم يكن ذلك القطر الكبير خالياً من العناصر القوقازية ، بل لعل السودان الشمالي كله كان وطناً من أوطان الجنس القوقازي في ذلك الوقت كما هي الحال اليوم ، وبوجه خاص كان للحاميين انتشار أكبر مما لهم اليوم ، وكان كثير منهم يعيشون على ضفاف النيل وفي الأودية المجاورة له ؛ فكيف نعلل أن جميع السكان اليوم الذين يتكلمون العربية يدعون « عرباً » ؟

لا بد لنا أن نسلم بأن كثيراً ممن يدعون اليوم عرباً هم من غير شك من الحاميين المستعربين ، الذين غمرتهم الثقافة العربية ، وغير قليل من الدماء العربية أيضاً . وهذه الحالة تعادل تماماً ما حدث في مصر ذاتها ، بل وفي سائر البلاد المجاورة لجزيرة العرب .

ويقول ماكمكل : إن الكبابيش لا بد أن يكونوا من أصل حامى أو بجاوى ، بدليل أن كثيراً من عشائرهم لها أسماء تشابه أسماء العشائر المنتشرة عند البجة ومن الملاحظ فى السودان أن فروع القبائل كثيراً ما تنتهى أسماؤها بالمقطع آب ، فيقال عبد اللاب وهاشماب وغير ذلك .

والمقطع معناه آل : (آل عبد الله وآل هاشم) . وهذا المقطع منتشر لدى الحاميين ، والنوبيين والجعليين وبعض الجهنيين ، ولكن هذا لا يقطع بأن وجوده يضعف من النسبة العربية .

١٣ — السكان الذين لا ينتمون إلى قبيلة

فى بلاد كالسودان يعتز فيها الإنسان بعصبيته ، وبالجماعة التى ينتمى إليها ، لا بد أن يكون عزيزاً على النفس أن يجد المرء نفسه مفرداً لا ينتمى إلى جماعة ، ولا يستند إلى رهط أو عشيرة . هذا أمر مألوف فى البلاد التى غمرتها الحضارة زمناً طويلا ، وبعد فيها عهد الفطرة والبداوة ؛ فأصبح الناس ينتسبون إلى المكان الذى يعيشون فيه ، لا إلى جماعة أو رهط أو قبيلة .

ومع ذلك فإن فى السودان آلافاً مؤلفة من الناس ، الذين لا قبيلة لهم ، ولا نستطيع أن نصف الواحد منهم بأنه جعلى أو جهنى . ومن الجائز أن نرجع هذه الظاهرة إلى سببين : أولهما ، ما تعرض له السودان من الحروب الداخلية ، والاضطرابات المتتالية فى عدة عصور . مما أدى إلى تفكك بعض الوحدات ، وتشريد بعض الجماعات .

والسبب الثانى ، ولعله أهم السببين ، هو التحضر ، فإن الاستقرار يبعث على تقوية الرابطة بين الشخص وبين المكان الذى يقيم فيه ، فتنقطع الصلة بينه وبين الوطن البعيد ، الذى تقيم فيه قبيلته أو عشيرته . ولا يمضى زمن طويل حتى يكون الشخص قد أخذ ينتسب إلى بلدته ، دون قبيلته ، وكثير من هؤلاء الأفراد الذين لا ينتمون إلى قبيلة ، قد يكون من أصل بجاوى أو نوبى ، كما أنهم قد يكونون من أصل عربى .

الطرق الدينية

لا بد لنا قبل أن نختتم الحديث عن السلالات القوقازية المختلفة أن نشير إلى ظاهرة في الإقليم القوقازى كله ، تشمله كله تقريباً دون تفرقة بين حامى وسامى ، بجاوى أو عربى أو نوبى ، أو غير ذلك من الفروع والسلالات .

سبقت الإشارة إلى أن الإقليم القوقازى غلبت عليه الثقافة العربية ، والدين الإسلامى بوجه خاص ، بحيث لم يبق بين القوقازيين من يدين رسمياً بأى دين آخر . وأتباع النصرانية فى السودان الشمالى — مثل الجنوبى — كلهم حديثو الهجرة إلى السودان ، ومن أصل غير سودانى ، وقل منهم من تربطه بالأرض صلة دائمة . فمن الممكن القول أن جميع سكان السودان الشمالى مسلمون ، شديدو الإحساس للأمور الدينية ، ولذلك رأت حكومة السودان أن الأوفق ألا تسمح للمبشرين بأن يمارسوا حرفتهم فى السودان الشمالى . والمسلمون فى السودان سنيون ، وأكثرهم يتبع مذهب الإمام مالك .

ومن أهم الظاهرات الإسلامية فى السودان تلك الطرق الدينية المنتشرة فى جميع أرجائه . وربما لم يكن من الصواب أن ندعوها طرقاً صوفية ، وإن كان منشئوها الأول ، جماعة متصوفة ، أو شخصاً متصوفاً ، أى له تفكير دينى وفلسفى خاص ، والأولى أن نسميها طرقاً دينية .

ومن الملاحظ — كما قدمنا — أن لهذه الطرق فى السودان انتشاراً قل أن نجد له نظيراً فى أى بلد إسلامى آخر ، مع أن هذه الطرق أو معظمها قد انتشر فى مصر وغيرها من الأقطار دون أن تجد البذرة تلك التربة الملائمة التى وجدتها فى السودان . ومن الممكن أن ننظر إلى ظاهرة الطرق الصوفية على أنها ظاهرة أنثربولوجية ، أو اجتماعية لها مميزاتها . وقد يكون للعقائد السابقة للإسلام أثر فى قوة انتشارها فى السودان .

والطرق الدينية كما رأينا ليست مقصورة على سلالة من السلالات ، وبذلك تصبح لها أهمية خاصة فى التقريب بين المجموعات الجنسية ، وربط العرب بغير العرب ، ولو فى حيز محدود .

فى الأولى عادة تمجيد القديسين الأحياء ، والاعتداء بهدامم ، ولذلك كانت بلاد المغرب من أم جهات الإنتاج للطرق الصوفية .

وقد دخلت الطرق الدينية السودان فى القرن الثانى عشر الميلادى . وفى ظل دولة الفنج كان لاعصارها الأول ، وإن لم تبلغ من التنظيم الدرجة التى وصلت إليها الآن . فنى العهد الحديث تم لها نظامها ، واستكملت عدتها وشعارها .

وكل طريقة من الطرق لها كما ذكرنا شيخ هو رئيسها الأعلى . ومنصبه يوشك أن يكون وراثياً ، وله مساعدون يسمون خلفاء ، يحملون رسالته ، وينفذون أوامره . ومن الخطأ ما ذهب إليه هلسن من أن « الذكر الذى يشبه الرقص » هو أم ما يميز الطرق بعضها من بعض ، فالذكر والأوراد والأحزاب وغير ذلك ، ما هى إلا مظاهر للطريقة ، ولكن العنصر الأساسى فى الطريقة هو العهد الذى يقطعه التابع للطريقة ، بأن يسلك مسلكا رسم له ولا يحيد عنه فى مسائل خاصة تتصل بالمعاملات والعبادات .

ونظام الطرق كنظام القبائل . أو كشكل نظام اجتماعى له تطوراته الخاصة . فكما أن القبيلة قد تنقسم وتتفرع منها قبائل . أو يندمج بعضها فى بعض كذلك فى الطرق الدينية ، قد تتفرع طريقة من طريقة أخرى . وقد تضعف أو تقوى ، وقد ينمو الفرع ويزدهر ، ويضعف الأصل ويضمحل .

وفى السودان اليوم عدة طرق متفاوتة فى الأهمية :

(١) منها الطريقة المرغنية أو الختمية . أسسها فى السودان السيد محمد عثمان الكبير (الذى ولد بالحجاز فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر) وتنسب إلى مؤسسها الأول جدهم الأكبر السيد على المرغنى . وقد جال السيد محمد عثمان فى السودان كله . ثم استقر فى كسلا ، وأنشأ قرية خاصة بجوارها تسمى الختمية .

ولا شك فى أن هذه الطريقة هى اليوم أوسع الطرق انتشاراً وأعظمها خطراً ، ويشمل نفوذها أقاليم النيل الأزرق والعطبرة ؛ وشرق السودان بوجه عام ، كما أن لها نفوذاً كبيراً فى دنقلة ووادى حلفا وغيرها من الجهات

(٢) ومنها الاسماعيلية . وقد تفرعت فى القرن الماضى عن المرغنية وكان

رئيسها من أكبر أنصار الخليفة ، وقد عظم شأنها فى ذلك الوقت ، أما اليوم فإن نفوذها مقصور على منطقة الأبيض وبعض جهات غرب السودان .

(٣) ومنها السمانية . وأصلها فرع من طريقة قديمة تسمى الخلوتية (يرجع تأسيسها إلى القرن الرابع عشر) . ودخلت السودان على يدى « الشيخ الطيب » ، فى أول القرن التاسع عشر . وكان رئيسها فى أول أيام المهدى هو الشريف نور الدايم ، الذى كان شيخاً للمهدى نفسه ، ثم تخلى عنه المهدى ، واتخذ له طريقته الخاصة .

وقد تفرع عن السمانية طريقة أخرى تسمى الهندية ، رئيسها الشريف يوسف الهندى ، وكان أحد القادة الروحيين الثلاثة فى السودان ، وقد أخذ نفوذه ينتشر فى الأعوام الأخيرة[١] .

(٤) ومنها المجذوبية . وكان لها فيما مضى شأن كبير فى السودان ، ويقال إنها تنتمى إلى الطريقة الشاذلية ، وقد أسسها شيخ من الجعليين يسمى محمد المجذوب فى القرن الثامن عشر ومركزها فى الدامر ، وفى القرن الثامن عشر كانت الدامر وما حولها بلداً مستقلا تحت زعامة شيخ الطريقة . وكانت مركزاً علمياً دينياً كبيراً فى السودان كله ، وقد وجدها بركهارت كذلك عندما مر بها فى سنة ١٨١٥ .

واليوم ترى هذه الطريقة منتشرة بين الجعليين والهدندوه ، وبعض البشاريين وكذلك على سواحل البحر الأحمر وعلى الأخص فى سواكن .

(٥) ومنها الإدريسية ، وهى طريقة قديمة ، وقد تفرع عنها بعض الطرق الهامة ويقال إن الختمية فرع منها ، وقد أسسها رجل من فاس فى مراكش يدعى أحمد ابن إدريس ، ورئيسها الحالى مركزه فى القاهرة أو دراو أو أرجو فى دنقله . ولهم نفوذ كبير فى هذه المديرية .

وهنالك فرع فى المسيد ينتمى إلى نفس الطريقة كما هو معلوم .

(٦) ومنها التيجانية ، وهى من أشهر الطرق فى السودان ، ولعلها من أهم

---

(١) توفى الشريف يوسف إلى رحمة الله فى عام ١٩٤٣ وخلفه نجله الشريف عبد الرحمن .

الطرق فى إفريقية كلها . وكان لأصحابها فضل كبير فى نشر الإسلام فى غرب إفريقية ، وتغلب عليها النزعة الصوفية العميقة ، لذلك تراها اليوم منتشرة حتى بين المتعلمين فى السودان ، وأهم ميدان انتشارها فى إقليم النيل الأعظم بين أم درمان والدامر ، وربما كان جميع الفلاتا المقيمين حول سنار تابعين لها أيضاً ، ولها أيضاً انتشار واسع فى دارفور .

(٧) ومنها الرشيدية وهى متفرعة عن الإدريسية ، وأتباعها فى دنقله وأم درمان والنيل الأبيض .

هــذه هى الطرق الرئيسية ، ولــكن هنالك طرق عديدة مركزة فى أمــكنة محدودة ، ذات صبغة محلية ، أو قد تكون هنالك جماعة صغيرة ، تتركز حول أشخاص من ذوى الصلاح والتقوى ، مثل اليعقوباب[1] ، الذين اكتسبوا شهرة بالتقوى والصلاح ، وإن لم يكن لهم أتباع كثيرون .

* * *

هذا وصف تام مهدنا به لدراسة سكان السودان الشمالى وسنتناول فى الصفحات التالية المجموعات الرئيسية للسكان مبتدئين بالبجة ، ثم المجموعات العربية المختلفة . وكذلك نعالج بإيجاز إقليم دارفور ، وإن كانت قد تسربت إليه سلالات غير عربية ، نظراً لموقعه فى السودان الشمالى من جهة ولغلبة الثقافة العربية عليه من جهة أخرى . وقد رأينا من المفيد أن نمهد لوصف كل جماعة أو قبيلة بوصف جغرافى موجز لأوطانها التى تعيش فيها ، وإن كان الهدف الأول للــكتاب هو وصف القبائل وأنسابها وأهم مميزات كل منها .

(١) معظم اليعقوباب يتبعون الطريقة السمانية ، ولــكن رؤساءهم يتمتعون بنفوذ دينى خاص .

الفصل الثاني

البجة (البُجاه)

١ — مواطنهم وأقسامهم

إذا تناولنا دراسة الجماعات القوقازية بالترتيب التاريخي ، وجب علينا أن نبدأ بغير العرب من سكان السودان ، الذين استقروا في ربوعه منذ عهود معرقة في القدم . ليس معنى هـذا أن الجماعات العربية كلها حديثة الهجرة إلى السودان ، ولـكن معناه أنها جميعاً — وإن اشتملت على عناصر قديمة — قد تشربت الثقافة العربية في عصر متأخر نسبياً ، واكتسبت صبغتها العربية بفضل هجرات قبائل عربية ، دخلت السودان من أطرافه الشمالية والشرقية بعد أن ظهر الإسـلام في جزيرة العرب وأخذ ينتشر في قارة أفريقية .

والبجه والنوبة كلاهما معرق في القدم ، ولـكن البجة بحكم بيئتهم ، وانقطاعهم عن طرق الهاجرة ، أصبح جوهراً من النوبة ، لم يتعرضوا للاختلاط بعناصر غريبة عنهم كما تعرض النوبة . وقد لاحظ غير واحد من الـكتاب شبهاً قوياً بين البجه وبين المصريين القدماء . مما يدل على قدم عنصر البجه وأنه قد استوطن البلاد التي يسكنها اليوم منذ آلاف السنين .

لاشك أن مواطن البجه في الوقت الحاضر أضيق مساحة ، مما كانت عليه

---

(١) الاسم المتداول اليوم للبجه هو بكسر الباء ، وهـذا تطور حديث ، ومن المألوف على مضي الزمن أن تتحول الحركة من الضم إلى الـكسر . وقد كان المتقدمون من الـكتاب ، كالمسعودي وابن سليم الأسواني والمقريزي يكتبون الاسم بضم الباء وبعدها ألف وهاء . والظاهر أن الاسم قديم جداً ، لأن شعب البجة كان معروفاً للمصريين القدماء باسم المازوي أو المـاجوي ؛ ومبادلة الباء بالميم أمر ليس غريباً في اللغات السامية كما هي الحال في مكة وبكة .

ن الأزمنة الغابرة . ومواطنهم اليوم تتألف من الأراضى الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً ، ونهر عطبرة ، ثم النيل الأكبر غرباً ، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية مديرية أسوان في الشمال .

أراضين فسيحة شاسعة — وإن كانت أقل من أوطانهم القديمة . وبيئة فيها تنوع كثير وإن غلبت على منظمها صفة الشدة والجهد . وهذا التنوع يشمل التضاريس ، وسقوط المطر ، وما يترتب على ذلك من تنوع النبات والحيوان .

ولعل اختلاف التضاريس هو أكبر عامل طبيعي يؤثر في الظاهرات الطبيعية الأخرى . ولذلك يجدر بنا أن نتأمل فيه لحظة ؛ وأكبر مظهر لاختلاف التضاريس هو وجود تلك السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال موازية وملاصقة للبحر الأحمر ، مرتفعات متصلة الحلقات ، اللهم إلا في مكان واحد حيث يشقها خور بركة ، ذلك المجرى الذى ينحدر من الركن الشمالى للهضبة الحبشية من ارتفاع ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر ، ثم يجرى نحو الشمال ، وسط فجوة واسعة بين جبال البحر الأحمر ، حتى تنتهى مياهه إلى الأرض الفضاء بقرب طوكر ؛ إذ لم يستطع لقلة مائه أن يبلغ البحر الأحمر .

وفيما عدا هذه نرى مرتفعات البحر الأحمر ممتدة بمحاذاته تلتصق به أحياناً ، حتى لا يكاد يفصلها عنه شيء ، وتبتعد أحياناً عنه ، فتترك بينها وبينه سهلا ساحلياً ضيقاً ، عرضه يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ كيلومتراً ...

فتضاريس الوطن البجاوى إذن ذات اتجاهات شمالية جنوبية ؛ أولها من ناحية البحر ذلك الشريط الساحلى المنخفض ، وهو ليس سهلا ساحلياً بالمعنى الصحيح ، بل عبارة عن أرض منحدرة نحو البحر ، وقليلة الارتفاع عن سطحه وهذا الشريط الساحلى ضيق فى القسم الأعظم من الجهات الداخلة فى السودان ، ولكنه أكثر اتساعاً ، فى الجزء الداخل فى حدود مصر .

كذلك جبال البحر الأحمر ، ليست كلها متساوية فى الارتفاع والوعورة ، وهى تزيد على الألف وخمسمائة متر ، فى الكتلة الواقعة جنوبى فجوة طوكر ، والواقعة شمالها مباشرة . ولكن أكثرها ارتفاعاً ووعورة الكتلة الواقعة بين

خط العرض العشرين والثانى والعشرين ؛ والراجح أنها تبلغ أكثر من ٢٠٠٠ متر فى مواضع ؛ وعلى الساحل فى شرق الكتلة بلدة دنجوناب على خليج دخانة ، وفى هذه الكتلة بعض مرتفعات توصف بأنها جبال ، مثل جبل شلال ، وجبل علبه ، وجبل لربه .

هذه المرتفعات الساحلية هى أهم ظاهرة تضاريسية فى الوطن البجاوى ، ولها آثار مناخية خطيرة . ومن الأماكن المرتفعة فيها بلدة أركويت (١٠٩٣ متراً) وسنكات (٨٧١ متراً) وتهاميم . (٦٤٧ متراً) وتلنجواوب ٥٣٩ متر ، وكلها متقاربة .

أما البلاد الساحلية أو شبه الساحلية ، فيمثلها عقيق فى أقصى الجنوب ، ثم طوكر (إلى الداخل قليلا) وسواكن . وبور سودان ، ودنجوناب ، وعيذاب ، وبرنيس ، (وهما بلدتان بائدتان)[1] .

يلى الجبال من الغرب انحدار فجائى أو تدريجى ، وهو على كل حال أسهل من الانحدار الشرقى نحو البحر الأحمر . ثم نصل بعد ذلك إلى منطقة أدنى إلى السهولة وتنحدر بالتدريج نحو نهر النيل ، وفى كثير من المواضع تخترقها أودية قلما تجرى فيها المياه فى الوقت الحاضر ، مثل وادى العلاقى ورافده وادى قبقبة .

وهناك إلى جانب الانحدار من الشرق إلى الغرب ذلك الانحدار التدريجى من الجنوب إلى الشمال ، الذى يشترك فيه سائر حوض النيل ، وإن لم يكن ذلك الانحدار مطرداً ولا منتظما .

وبعض الجهات فى هذا الجزء المنخفض لها أسماء اشتهرت بها ، مثل سهل البطانة بين النيل الأزرق والعطبرة ، وتمثله بلدة القضارف فى الجنوب وأبو دليق فى الوسط . ثم يليه من جهة الشمال صحراء العتمور والعتباى الممتدة إلى القطر المصرى .

وقد أثرت الجبال من غير شك فى سقوط الأمطار ؛ وبذلك أصبح لبلدة مثل دنجوناب Dongonab مطر يبلغ نحو ٤٠ مم ، وهى محاذية لوادى حلفا التى لا يسقط عليها مطر قط . وفى عقيق نحو ١٤٠ مم ، وفى كرورا . ٢٨٣ مم . وفى بور سودان ١١٠ مم ، وسواكن ١٨٠ مم .

---

(١) بالقرب من موقع عيذاب القديم مرسى صغير يدعى مرسى حلايب .

أما الجهات المرتفعة مثل سنكات وتهاميم فطرها ١٣٤مم ، ١١٣ مم على التوالى.

ومن الدراساتَ المناخية الممتعة فى هذا الإقليم مقارنة مواسم المطر ، إذ نرى أن بعضها صيفى وهو الواقع على مرتفعات تنحدر نحو الغرب ، والبعض شتوى ، وهو الواقع على المرتفعات التى تنحدر نحو الشرق ، والجهات الساحلية مطرها شتوى ، وإن شذت بعض الجهات لأسباب خاصة ، كما هى الحال فى سواكن وطوكر ، إذ ينالهما بعض المطر الصيفى أيضاً ، . ولعل هذا بسبب موقعها من الفجوة التى يجرى فيها خور بركة إذ تتسرب فى الصيف بعض التيارات الجنوبية عن هذا الطريق ، ومطر الصيف على كل حال أغزر من مطر الشتاء .

أما سهل البطانة فمطره أغزر ، وفى الجنوب نرى القضارف . ومطرها يبلغ ٦٧٦ مم (ومطرها صيفى) وأبو دليق (١٥°٥٥') : ومطرها ٢٠٨ مم (أكثر من الخرطوم وهى على نفس خط العرض ومطرها ١٦٠ مم) .

ولهذه الأمطار أثر فى السهول مختلف عن أثرها فى الجبال ، لأن المطر فى المرتفعات ذات الحرارة المنخفضة أعظم أثراً وأطول . وما يفقد بالتبخر منه أقل بكثير مما يفقد فى السهول . لذلك نرى المرتفعات يكسوها مقدار محترم من الشجر والخضرة فى جبل علبة وشلال وإربة وحول اركويت ، ولشدة قرب هذه المرتفعات من البحر الأحمر . يغشاها زمنا طويلا غطاء كثيف من الضباب والندى . له أثر كبير فى غزارة الحياة النباتية . بل لعله السبب الأكبر فيما تمتاز به تلك المرتفعات من وفرة النبات ، وفرة لا يبررها مقدار ما يتساقط عليها من الأمطار . أما الإقليم الجنوبى ، فى مثل كسلا والقضارف على حدود أرتريا ، فإنه يمتاز بمطر أغزر من الأقطار التى تحاذيه على نهر النيل .

وهكذا نرى فى مواطن البجه تنوعاً ملحوظاً فى التضاريس والمناخ والنبات . ولئن كانت تغلب عليها قلة المطر عامة . والطبيعة الصحراوية تسودها فى الشمال ، فإنها لا تخلو من جهات يغزر نباتها فى بعض فصول السنة ، ويتنوع فيها سقوط المطر بين الصيف والشتاء ، هذا عدا الأنهار التى تجرى المياه فى بعض أجزاء منها مثل خور بركة وخور الجاش ، والأنهار التى تجرى بالقرب منها مثل العطبرة .

قاليثة قاسية فى جلتها ، ولكنها أقل قسوة مما يتوهمه الإنسان لأول وهلة .

ومع التسليم بأن النصف الشمالى شديد القحط ، لكن يخفف من جدبه انتشار الآبار فى مختلف أنحائه ، وإن كانت المسافات بين الآبار تزداد كلما اتجهنا شمالا أو غرباً . ولذلك كان امتلاك الآبار من أهم العناصر فى حياة البجه الشماليين وعلى الأخص البشاريين والعبابدة .

فى هذه البيئة ، إذن ، تعيش جماعات البجه ، منذ عصور عديدة ، وقد نظموا حياتهم على المنوال الذى تفرضه خصائصها الطبيعية ، فأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها .

وينقسم البجه إلى أقسام أربعة رئيسية ، ويصح أن نطلق على كل قسم منها اسم قبيلة ، لأن بين أفراده عصبية ، ولكل منها زعيم (ناظر) : وهذه الأقسام هى البشاريون فى الشمال ، وفى تلك البيئة الجبلية الصخرية القليلة الماء والكلأ ؛ كما يحتلون معظم الإقليم المسمى صحراء العتباى

يليهم من الجنوب الأمرار ، يمتدون بانحراف فى اتجاه من الجنوب الغربى فى مسمار على الخط الحديدى ، إلى الشمال الشرقى ، فى اتجاه بور سودان .

ويليهم جنوبا الهدندوه ، وهم أكثر البجه فى السودان عدداً ، ويمتدون من سواكن إلى سنار ، وفى الأرض المجاورة للخط الحديدى الممتد بين البلدين ، وبذلك أصبحوا يحتلون دلتا القاش ، ويعيشون على شواطئ العطبرة المجاورة لهم على خط عرض ١٥ ، وأخيراً نجد إلى الجنوب الشرقى جماعة بنى عامر ، ويمتدون من طوكر شمالا إلى داخل حدود إرترية فى الجنوب .

وهنالك جماعات أخرى من البجه ، أو قبائل صغيرة ، مثل الأشراف والأرتيقا والكميلاب ، والحالنقا وغيرهم . بعضهم يدور فى فلك القبائل الكبيرة ، ويرتبط بها . ولكن أكثرهم يدعى الاستقلال ويحاول أن يثبت ماله من الأهمية والخطر ويحدثنا عن أبطاله القدماء ، وما كان لقبيلتهم من علو الشأن وسمو المقام فى العصور الغابرة . . وليس فى دعواهم هذه وجه غرابة ، لأن نظام القبائل من طبيعه عرضة للتقلب والتطور على مدى الأزمنة ، فيعلو شأن بعضها حينا من الزمن ، بفضل أسرة قوية الشوكة ، كبيرة الثروة ، ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف

بتتبب الحروب أو الأمراض ، أو سوء القيادة ، فيضعف أمرها ، ويقل عددها ، وهذه الظاهرة واضحة في تاريخ القبائل العربية نفسها في جزيرة العرب ، ولا عجب إذا رأيناها لدى البجه أيضاً .

يتكلم البجه لغتهم الخاصة ، وهي المسماة التبداوي (أو بداويت) ويستثنى من هذا معظم القبائل الجنوبية من بني عامر ومن يجاورهم من الجماعات القليلة التي تتكلم لغة تجرة (الخاصة) وهي لغة سامية منتشرة في أرتريا وشمال بلاد الحبشة ، وإن كان بعضهم يتكلم اللغة التبداوية .

وأكثر البجة يعرف اللغة العربية إلى جانب معرفتهم لغة التبداوي أو تجره . ولكن العربية ليست لغتهم الأصليــة ، على الرغم من أن بعضهم يحتفظ بشيء يسمونه « نسبة » وهي ورقة مكتوبة أو حديث محفوظ يرجع بهم إلى « قريش » فالدين الإسلامي المنتشر بينهم ، واللغة العربية ما هي إلا أثر من آثار النفوذ العربي الذي دخل في عهد متأخر نسبياً إلى أوطانهم ، ويوشك أن يكون من المحقق أن هذا النفوذ العربي وصل إليهم من الشمال والشرق .

ويصف بعض الكتاب البجاوي بأنه جاف الطباع ، شديد النفور من الناس ، بل يذهب بعضهم إلى وصفه بالتوحش وإن لم يكن لهذه الكلمة مدلول صريح . غير أن الكتاب الإنجليز من موظفي حكومة السودان يخالفون هذا الرأي والذي يطالع مقالاتهم يأنس منهم تحيزاً للقبائل البجاوية وبعض التحامل على العرب ، فيؤكد لنا مثلا مستر نيوبلد الفرق بين العربي والبجاوي بمقارنة يوازن فيها بين طباع كل من الفريقين فيقول : « إن الفزي (Fuzzy وهو وصف مشهور عند الإنجليز للبجة مشتق من طريقتهم في تصفيف الشعر) ، عاش في مرتفعات البحر الأحمر أربعين قرناً على الأقل ، أما العربي فإنه « دخيل » منذ العصور الوسطى وللبجه أخبار شفوية وأساطير أبطال ترجع بسيرهم إلى نحو ١٢٠٠ سنة على الأقل ، والعربي يحب التجمع والاختلاط ، وهو ثرثار بخلاف ما اشتهر عنه ، أما الفزي فيحب العزلة ، نفور من الناس ، قليل الكلام ، وليس كالعربي ، عبداً للتقاليد

الاجتماعية الضيقة ، والتقاليد القبلية السائدة . وهو كثير التسامح والتساهل فى اتخاذ أصدقاء من الأجانب ، وفى التشكل بكل بيئة جديدة . وحبه للعزلة الذى يتوهم الناس خطأً أنه يرجع إلى طبع وحشى ، ليس فى الواقع وليد الخوف ، أو لإحساسه بأنه غريب عن سائر الناس ، بل هو خلق يرجع إلى طبيعة البيئة الجبلية ، التى لا تساعد على التجمع والاختلاط ، فهو ليس مبغضاً للغرباء والأجانب ، بل ألف العيش بنفسه ، فلا يجد لهم مكانا فى دائرة حياته ، والبادية العربية تبعث على التجمع والمخالطة : حتى عند الوهابيين ، الذين اشتهروا ببساطة العيش ، نرى الأفراد تتجمع للحديث والغناء والسمر حول النار أو فناجيل القهوة المديدة التى يستوعبونها ، أما سكان البحر الأحمر — فيما عدا بنى عامر — فلا يميلون إلى إنشاء قرى أو مساكن مجتمعة فى ساحة كبيرة ؛ وبيوتهم المكونة من « البرش » ، أو الحصير الممدود على عيدان محنية ، يقوم كل منها بمفرده ، أو كل بيتين معاً ، أو ثلاثة ، على رأس بعض الأودية أو الأخوار . ولا يكاد السائح المتجول أو الطائر المحلق فى السماء ، يستثير منهم نظرة أو التفاتة . . . هكذا يعيشون فى جيوب وزوايا وسط التلال أو الهضاب ، حيث لا يراهم العالم ، على غذاء من اللبن والحبوب ، وقليل من اللحم والسكر فى زمن الرخاء ؛ وعلى اللبن وحده تقريباً حينما تنتابهم الكوارث ، من الجراد أو الجدب أو الطاعون[1] »

ومن الجائز بالطبع أن الحياة — قرونا عديدة — فى جوار هذه البيئة الجبلية قد علمت البجه أن المعيشة المنفردة فى أعالى الأودية لها أيضاً قيمتها من ناحية الدفاع سواء فى ذلك ما كان دفاعاً ضد أعداء من غير البجه ، أو من البجه أنفسهم ، ولا بد لنا أيضاً أن ندخل فى حسباننا ما طرأ على هذه البيئة من التغير منذ العصر المطير إلى وقتنا هذا ، فإن كثيراً من الأودية المتغلغلة فى الإقليم الصحراوى ، تدل على وفرة من الماء ليس لها اليوم وجود ، وقد اضطر السكان لتفضيل رءوس الأودية فى المرتفعات ، لأن الأمطار سرعان ما تصبح نادرة أو معدومة فى الجهات المنخفضة.

---

(١) راجع ص ١٤١ وما بعدها من كتاب Hamilton. The Anglo-Egyptian Sudan from within

على أن حالة الانفراد والتشتت في شعاب الجبال وثناياها ، وإن لم تزل قائمة ؛ قد تأثرت من غير شك تأثراً شديدا بالاتصال بالعمران ، وبالمشاريع الزراعية التي تمت في طوكر ودلتا الجاش ، وفي نمو مدينة كسلا والقضارف ، وما يصحب ذلك النمو من اشتباك المصالح ، واحتشاد العناصر المختلفة . وقد استجاب البجه إلى هذه التطورات ، فأخذوا يتخذون قرى على ضفاف القنوات ، ويحتلون أحياء من بعض المدن . وأخذ كثير منهم يشتغل بالزراعة وفي مختلف الحرف . . ويقول نيوبلد إن هذا التطور لم يترتب عليه — حتى الآن — تفكك في النظام القبلي أو العصبية القبلية ، ومع أن المستقبل في يد الأقدار فقد لا يكون من المستحيل أن يسلك البجه هذه المسالك المستحدثة ، وينتفعوا بهذه المرافق الجديدة ، دون أن يفقدوا شخصيتهم أو يتحلل نظامهم . فالقاضي الذي يحكم في خصوماتهم ، سيان إن عقد مجلسه في داره في القرية الجديدة ، أو في خيمته وسط مسالك عتباى الوعرة .

ومعظم المنتفعين بمشروعات الري في طوكر وكسلا هم من البجه ؛ ومع التسليم بأن مستواهم في الإنتاج الزراعي ليس عالياً ، فإنه مع ذلك ليس منحطاً ؛ ومما يثبت قابلية البجه للتشكل بالبيئة الجديدة أنهم استطاعوا أن يتحولوا من بدو رحّل إلى زراع مستقرين ، وأن يقبلوا على هذا العمل الجديد الذي لم يعرفوه ولم يألفوه .

المراحل التاريخية للبجه :

قدمنا أن البجه عريقون في القدم ، في أوطانهم الحالية ؛ ومن الجائز أنهم أول من سكن هذا الإقليم ، الذي يحتلونه اليوم ؛ فإن تشابه صفاتهم واطراد أشكالهم الطبيعية لا يدع مجالا للظن بأنهم قد دخلتهم عناصر أخرى ، اللهم إلا القليل جداً ، الذي جاء عن طريق بعض القوافل التجارية في الأطراف الشمالية ، أو عن طريق الاتصال بالحبشة في الأطراف الجنوبية . وقد مرت بهذا الإقليم وسكانه أدوار نستطيع أن نسردها على سبيل الاجتهاد ؛ وإن كانت تعوزنا بعض التفاصيل ، لأن الدراسات الأثرية لم تتسع بعد لكي تشمل هذه الأقطار النائية المنعزلة .

١ — في العصر القديم السابق للتاريخ كان هذا الإقليم على الأرجح أغزر مطراً ونباتاً مما هو اليوم . وكانت طوائف من الحيوانات المختلفة تمرح في أرجائه وجوانبه : في سهوله ومرتفعاته .. فكان الصيد متوفراً وفرة عظيمة . ولا شك أنه كان يشتمل على حيوانات مثل الزراف ، وقطعان من الوعول ، بل والفيلة أيضاً ، وغيرها من حيوانات الصيد ، مما لا يكاد يكون له أثر فيها اليوم . كانت البلاد جنة لمحترف الصيد . ولا شك أن هذه كانت حرفة السكان في ذلك الزمن البعيد .

٢ — ثم أخذت الأقاليم تحس الجفاف ، ويقل صيدها ونباتها تدريجياً . وقد ترتب على ذلك هجر بعض الجهات القليلة العشب ، التي أخذت تغلب عليها الطبيعة الصحراوية . والتجأ السكان بالتدريج إلى الجهات الأوفر ماء ، القريبة من المرتفعات أي في النصف الشرقي من البلاد التي يحتلها البجه الآن . ولكن بقي لهم بعض الاتصال بالشمال من طريق الأنهار ، وبعض المسالك التي تخلفت فيها مياه في صورة آبار ؛ أو في الأوديه مثل العلاقي .

٣ — ولا شك أن هذه الحالة دامت طويلا ، وكانت فيها الجهات الصحراوية أقل سكاناً ، حتى مما هي عليه اليوم ، ثم جاء الدور الذي مرَّ بجميع الجهات الصحراوية ، في أفريقية ، حين أدخلت الإبل إلى هذه القارة للمرة الأولى . ونحن نعلم أن الإبل دخلت مصر في العهد الفارسي ؛ وانتشرت بعد ذلك بالتدريج .. ولا بد أنها تسربت إلى الجنوب بسرعة . والروايات التي تروى عن بعثات قمبيز إلى الجنوب ، التي لم تصادف النصر دائماً ، إن صحت فإن بعض هذه الحملات قد أدخلت الإبل إلى الجنوب ؛ في وقت كان البجه قد عرفوا كيف يربون الماشية وإن كانت ماشيتهم من أنواع أخرى . ولا بد أن البجه قد أدركوا ما للإبل من الفائدة ، فأقبلوا على تربيتها في عناية فائقة . ولا ندري حتى على وجه التقريب متى بدأ البجه يربون الإبل . ولكن براعتهم فيها اليوم تدل على أن عهدهم بها ليس حديثاً[1]

(١) كانت لبلاد البجه صلات بالجزيرة العربية ترجع إلى زمن قديم جداً . ولكن ليس هنالك دليل على انتقال الإبل إلى بلادهم مباشرة عبر البحر الأحمر في ذلك الزمن البعيد . ولو أنها وصلت إليهم قبل العهد الفارسي لانتقلت منهم إلى مصر لما بين البلاد من الروابط القديمة . وقد وجدت بالصحراء الشرقية بعض آثار قديمة لبعض الإبل . ولكن هذه قد لا تعدو مثالا شاذا لبعض الدواب الوحشية .

ومهما يكن من شيء ، فإننا نستطيع أن نرجح أن اقتناء الإبل كان بمثابة ثورة في حياة البجه ، إذ مكنهم من استثمار الجهات البعيدة ، واجتياز المسافات الشاسعة ، ومنحهم وسيلة لتعمير أقطار كانوا هجروها من قبل ومصدراً جديداً للغذاء . فقد حدث — إذن — في صحراء العتباى ، بصورة مصغرة ، ما حدث في صحراء ليبيا والصحراء الكبرى بصورة أكبر

(٤) وفي أثناء هذا كله اتصل البجه بسكان وادى النيل ، واقتبسوا من معارفهم ، وتعلموا الزراعة واستغلال الحيوان . وكان من أهم مناطق الاتصال وادى العلاقي وما يليه من جهة الجنوب ، حيث معدن الذهب المشتق من عروق الكوارتس .

وقد أثبت سلجمان أن البجه والمصريين القدماء من سلالة واحدة ، أو سلالات متقاربة ، وعلى الأخص سكان مصر الجنوبية الذين لم تمتزج دماؤهم كثيراً بالمهاجرين من آسيا عن طريق برزخ السويس . وقد اعتمد سلجمان في إثبات رأيه هذا على مقارنة الجماجم ، فوجد تشابها تاما بين أشكال المصريين القدماء ، ومنهم بعض الملوك ، وبين أشكال البجه الذين يعيشون في أوطانهم الحالية[1] . فالشعبان من أصل واحد ، وإن كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقاً وأسلوباً في الحياة ، وسلكت بالبجه طريقاً آخر . وانفصلت أوطان الفريقين فترة من الزمن إلى أن نشأت بينهما صلات لم يكن منها بد بحكم التجاور .

ولا يتسع المجال هنا لشرح المراحل المختلفة لاتساع الصلات بين الشمال والجنوب . وحسبنا أن نذكر أن الدولة القديمة لم تحاول أكثر من إرسال البعثات التجارية إلى الأقطار الجنوبية . ولكن الدولة الوسطى ذهبت إلى أبعد من هذا ، فأمعنت في التوغل في بلاد النوبة ، وتأسست دولة في الجنوب تتصل بالشمال اتصالا سياسياً وثيقاً ، وامتد سلطان الدولة الجنوبية إلى أراضي النيل الأزرق ، وبذلك صارت جميع أوطان البجه مجاورة لهذه الدولة الواسعة الأرجاء ، ذات الثقافة المشتركة . فلم يكن بد من أن يساهم البجه في بعض نواحي الثقافة المصرية ، ومنها الديانة التي ظلوا متمسكين بها إلى العهد المسيحي

---

(١) راجع مقالة سلجمان في مجلة J.R.A.I لسنة ١٩١٣ .

(٥) وعنى البطالمة بالأقاليم الجنوبية أيضاً ، واهتموا باستنباط الذهب ، بعد أن تعطل فترة من الزمن بسبب الاحتلال الفارسي . ومن المعروف أيضاً أنهم كانوا يجلبون الفيلة من الجنوب لاستخدامها في الحرب ، واستطاعوا أن يستألفوها ويروضوها ، مع أن الفيل الإفريقي لم يستأنس بواسطة الإفريقيين أنفسهم . وقد كانت لهم عناية بتجارة البحر الأحمر ، ولذلك أنشأوا على السواحل السودانية بعض الموانئ ، من أشهرها برنيس بالقرب من الحدود المصرية الحالية ، والعقيق Ptolomais Epitheras بالقرب من طوكر .

(٦) وهذه الموانئ ظلت قائمة في العصر الروماني ، ولكن أهميتها أخذت تنقص بالتدريج ، لأن الرومان لم يكن لهم مأرب في مناجم الذهب أو الفيلة ، إذ كانت تجارتهم أوسع مدى وانتشاراً . فلم يكن البحر الأحمر بالنسبة لهم سوى طريق إلى المحيط الهندي . ومكنهم تقدم الملاحة من الاتجاه من مصر إلى جنوب البحر الأحمر رأساً ، ومنها إلى المحيط الهندي ، دون حاجة إلى التزام الشاطئ ، والمرور بكل مرفأ . ولم يكونوا حريصين على التجارة التي يجمعونها من موانئ السودان ، بل كان جل همهم غلات الهند . وكان اتصال الرومان بالبجه مقصوراً على الشماليين منهم الذين يعيشون في مصر أو على تخوم مصر في شمال السودان . وكانوا يطلقون على هؤلاء اسم البلميا . Blemmye وإن كان هناك شك في أن هؤلاء هم البجه أو جماعة أخرى .

في ذلك العصر كانت دولة أكسوم في شمال الهضبة الحبشية قد نمت وقويت شوكتها ، وأخذت تغير على البجه من جهة الجنوب ، وتدور بين الفريقين منازعات تثور حيناً وتهدأ أحياناً . وهناك لوحة ترجع إلى القرن الأول للميلاد ، كتب عليها ملك من ملوك أكسوم كتابة يزعم فيها أنه انتصر على البجه . وزحف على مصر ، ويقول نيوبولد إن هذه أول مرة في التاريخ يذكر فيها البجه باسمهم المعروف اليوم[١] ، والظاهر أن هذا الملك لم يذهب بعيداً في زحفه نحو مصر . والأرجح أن انتصاره على البجه لم يكن نصراً دائماً ترتب عليه إخضاعهم لسلطانه فترة من

---

(١) راجع ما جاء في ص ٣٢ عن اسم البجه .

الزمن ، بل مجرد غارات لا بد أن تحدث بين دولة مستقرة ، وبين قبائل على حدودها لا تقبل الاستقرار أو الخضوع . بل من دأبها هي أيضاً أن تثور وأن تغير .

وحكام مصر في العهد الرومانى عانوا أيضاً بعض المشقة في إخضاع البجه الشماليين ، لأن كل الدول المتحضرة تحاول دائماً أن تخضع القبائل الواقعة على حدودها ، وتسعى في أن تفرض عليهم قيوداً تنافى مشاربهم في الحياة ، ومما زاد الحالة تعقيداً أن المملكة الحبشية من جهة ومصر من جهة أخرى سادتهما الديانة المسيحية . بينما ظل البجه متمسكين بعبادة إيزيس ، التى اقتبسوها عن المصريين القدماء وظلوا إلى القرن السادس يقاومون كل محاولة لتحويلهم عن وثنيتهم .

٧ — لم يكن بد من أن تنتصر المسيحية في النهاية . ففي القرن السادس أخذت تنتشر بينهم تارة من الشمال عن طريق بلاد النوبة ، وتارة من الشرق عن طريق الموانى ، التى يجتمع فيها البجه بطريقة سلمية مع الوافدين من مصر من التجار والنهال . ونستطيع أن نتصور أن جميع البجه الذين كانت لهم صلات مباشرة أو غير مباشرة مع مصر والنوبة والحبشة قد اعتنقوا المسيحية بالتدريج ، أما الذين يعيشون في جهات منعزلة فظلوا على وثنيتهم .

٨ — وفي القرن السابع بدأ ظهور الإسلام في الشمال ، ثم أرسلت البعثات لفتح المناجم القديمة ، وقاوم البجه توغل الإسلام حيناً من الدهر . وتعود القصة سيرتها الأولى كما حدث في ظهور المسيحية ، فالاختلاط في الشمال وفي الموانى أدى إلى التعارف ثم التزاوج . واستمر انتشار الإسلام في القرن العاشر وما بعده حتى اعتنقه الجميع ، ومما ساعد على ذلك أن طريق الحج في ذلك الوقت كان يصل إلى ميناء عيذاب ، في آخر حدود مصر وأول حدود السودان . ومنها إلى جده ، ويقال إن سبب تفضيل عيذاب أنها بعيدة عن إغارات الصليبيين الذين نقلوا في ذلك العهد سفنهم إلى البحر الأحمر . وقرب عيذاب من جده يجعلها موضعاً ملائماً لاختراق البحر الأحمر : وقد اندثرت عيذاب بعد ذلك تماماً[1] وانتقل نشاطها إلى بلدة

---

(١) كانت الحملة التى أرسلها الظاهر بيبرس سنة ١٤٢٦ إلى عيذاب من أهم العوامل في تخريبها . وقد دعاه إلى ذلك أن بعض رؤساء البجه استولوا على بضائع مرسلة إلى مكة

أو المسيحية ظاهرة ليست مقصورة على البجه ، بل نجد لهذه الظاهرة أمثلة فى مصر بل وفى أوربا نفسها بحيث لا يكاد يخلو منها قطر من الأقطار .

أما الثقافة العربية فقد تأثر بها البجه أيضاً ، كما تأثروا بالإسلام . فأصبح أكثرهم يعرف العربية معرفة تامة ، وعلى الرغم من احتفاظهم بلغتهم « التبداوى » فإن هذه اللغة قد تسرب إليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما أثرت العربية فى بعض الصيغ النحوية للغة التبداوية .

(٩) وهكذا تمت — بفضل هذه الأحداث التاريخية المتعاقبة — المراحل الأساسية فى تكوين البجه كما نعرفهم اليوم ، وفى تشكيلهم على الصورة التى نراها ، كما تم تقسيمهم إلى الأقسام الرئيسية التى سبق ذكرها . ومعظمها يرجع إلى وقت حديث . ما عدا الأمرار الذين كانوا معروفين بهذا الاسم وقت اتصال البجه بالعرب فى القرن التاسع الميلادى . أما البشاريون والهدندوه ، فقد كان تكوينهم على الصورة التى نراها اليوم فى أوطانهم المعروفة إلى الآن حدثاً جديداً .

ولعل أكبر تطور فى العهد الحديث (أى منذ منتصف القرن الثامن عشر) هو ظهور البشاريين والهدندوه فى حالة الاتساع والسيطرة على الإقليم الذى يحتلونه اليوم ، قد انتشر البشاريون جنوباً حتى اخترقوا العطبرة واحتلوا الجزء الشمالى من سهل البطانة وجعلوا عاصمتهم أو مركز الرئاسة لهم فى بلدة بطوك على العطبرة ، وبذلك أصبحت أوطانهم تمتد من خط العرض السادس عشر جنوباً إلى الثانى والعشرين شمالا . أى من سهل البطانة إلى تخوم مديرية أسوان والصحراء المحاذية لها من الشرق ، وهى مساحة تبلغ نحو ٥٠،٠٠٠ ميل مربع ويجاورهم من الجنوب العرب الشكرية ومن الشرق الهدندوه والأمرار .

وقد اتسع وطن الأمرار أيضاً من الجهات الجبلية فى الشرق إلى السهول الواقعة شمال العطبره ، أى إلى الوطن البشارى الحالى ، وعلى الرغم من بعض الاختلاط والتزاوج بين الفريقين ، قامت منازعات حول المراعى والمزارع فى هذا الإقليم بين الفريقين ، ولم يفصل نهائياً فى هذا النزاع إلى اليوم .

أما الهدندوه فكانوا قبيلة قليلة الخطر إلى منتصف القرن الثامن عشر . ولكن

الحروب التى دارت بين مملكة الفنج والحبشة ، وأضعفت نفوذ الفنج فى الأقاليم الواقعة حول كسلا Taka وإلى شمالها ، قد أتاحت فرصة للهدندوه ، فأخذوا ينتشرون ويزداد نفوذهم حتى أصبحت أوطانهم تمتد إلى الأقطار التى يحتلونها اليوم . وأصبحوا أكبر قبائل البجه فى السودان . فى ذلك الوقت كانت دلتا الجاش منطقة مستنقعات وأعشاب وشجر ، تؤمها السباع ، وقد طهرت هذه الأراضى وزرعت بعد ذلك بمختلف المزروعات ما بين ١٨٤٠ ، ١٨٧٠ ومن بين مزروعاتها القطن .

وهذا الازدياد السريع فى عدد الهدندوه ، وفى خطرهم ، وبروزهم لأول مرة كأكبر مجموعات البجه ، لا بد أنه يرجع إلى تغلبهم على عدة وحدات صغيرة وإدماجها بعضها فى بعض وتزعمها بواسطة القبيلة الغالبة . وسنرى فى تفصيل الكلام عليهم كيف تم لهم هذا التوسع .

١٠ — ثم جاء عصر المهدية ؛ وقد كان الحكم المصرى قبله سهلا ليناً ، لم يحاول الحكام أن يخضعوا البجه لحكم صارم دقيق ، ينافى ما ألفوه من الحرية . ولذلك لم يقم من البجه لمعاونة المهدية سوى بعض الهدندوه بقيادة عثمان دجنة ، ولم تكن ثورتهم فى الغالب عطفاً على المهدى وأنصاره بل لأسباب أخرى ، ويزعم نيوبولد أنهم قدموا خدمات للجيش ونقلوا بإبلهم حملة ولوازمها عبر الصحراء ، ولم يكافأوا على ذلك المكافأة التى كانوا يرجونها . ولذلك ثار عثمان دجنة وأصحابه وناصروا المهدية فترة من الزمن ثم تخلوا عنهم بعد ذلك بالتدريج ، حتى قبيل فتح السودان الأخير أما سائر القبائل : الأمرأر وبنو عامر والبشاريون ، فلم يشتركوا فى الثورة اشتراكا يستحق الذكر .

الفصل الثالث

البجـــه

٢ – الحياة الاجتماعية

نظمت شئون البجه بعد عهد المهدية تنظيما تدريجياً . وجعل لكل قبيلة رئيس (ناظر) يتولى شئونها العامة ، ويكون حلقة الاتصال بين الحكومة وبين القبيلة . وإذا أحسن اختيار الناظر ، وكان رجلا محترماً من قبيلته ، ينتمي لأسرة سبق لها أن كانت ذات مركز ممتاز ، انقادت له القبيلة . وسارت الأمور على ما يرام . وقد تعلمت الحكومة بالتجربة أنه لن ينفعها أن تفرض على البجه أي ناظر تحبه ، ما لم يكن محبوباً من القبيلة ، معترفاً له بالسيادة . وقد أسندت النظارة الآن إلى أسر بعينها ، وأصبح المنصب وراثياً تقريباً[1] .

وليس من الممكن أن نحصي عدد البجه تماماً في الوقت الحاضر ، ولكننا نستطيع أن نقدرهم تقديراً تقريبياً والأرقام الآتية المستقاة من نيوبولد وغيره تمثل لنا حالة هذه القبائل في الوقت الحاضر على وجه التقريب ، واختلاف عددها يرجع غالباً إلى طبيعة البيئة . فالجهات الشمالية أقل سكاناً بوجه عام من الجنوبية ، حيث المطر أغزر ، ومشروعات الري أتاحت مورداً جديداً للعيش .

فالبشاريون في الشمال (أم على) يعيشون بين البحر الأحمر وأسوان . وعددهم يبلغ نحو ١٢٫٠٠٠ نسمة ، لهم تجارة مع مصر في الإبل التي يبيعونها لكي يشتروا حاجتهم من الحبوب وغيرها . وبعضهم يشتغل في مناجم الذهب بوادي العلاقي ، ويدر عليهم ذلك بضعة آلاف من الجنيهات سنوياً .

أما بشاريو الجنوب (أم ناجي) فيتركزون حول العطبرة والجهات التي حوله

---

(١) أكد كثير من البجه للمؤلف أن السياسة كثيراً ما كانت تلعب دورها في اختيار الناظر .

وعددهم يقدر بثمانية آلاف نسمة ، وأرض البشارين واسعة فسيحة تبلغ نحو ٠٠٠ر٠٠ من الأميال المربعة ، لكن تغلب عليها الطبيعة الصحراوية .

والأمرار يعيشون فى مساحة تبلغ نحو ١٠٠٠٠ر١٠ ميل مربع ، بعضها فى الجبال وبعضها فى السهول . وأرضهم أكثر مطراً من أرض البشارين ، وزراعتهم أكثر . منهم نحو ٣٠٠٠ نسمة يشتغلون ويعيشون بصفة دائمة فى بور سودان ، وهم الذين يزودون المدينة وسكانها بحاجتهم من اللبن والسمن ، ويعملون فى الميناء .

أما سائر الأمرار فيعيشون فى المرتفعات غربى بور سودان ، والمنحدرات التى تليها إلى الغرب ، وتمتد أوطانهم إلى العطبرة ، ويمارسون فى هذه المساحات حرفتى الرعى والزراعة . ويبلغ تعدادهم حسب تقدير ساندرز ٠٠٠ر٤٥ يملكون نحو ٠٠٠ر٣٠ رأس من الإبل ، وبضع مئات من البقر ، ونحو ٠٠٠ر١٢٠ رأس من الضأن والماعز ، ولكن هذه الأرقام كلها تقريبية .

وهم ينقسمون إلى ١٢ قسما (بدنه) ونحو ثمانين عشيرة .

أما الهدندوه فعددهم الآن نحو ٠٠٠ر٨٠ أو أكثر ، ينقسمون إلى أربعين بدنه ، وعدد كبير من العشائر ، والشماليون منهم رعاة ، ولكن الجنوبيين يمارسون الزراعة فى الأودية الواقعة غرب سنكات ، وفى دلتا القاش ، وقد أمكنهم أن يجنوا بعض المال من النقل بواسطة إبلهم ، وعلى الأخص قبل إنشاء سكة حديد كسلا . ولهم فوق ذلك بعض التجارة ، كما يستغلون نخيل الدوم ، وكذلك يبيعون السنا المكى ، والألبان والجلود ، والفحم النباتى والسمن ، والحصير المصنوع من ألياف النخيل

أما بنو عامر فى السودان فلا يزيد عددهم على ٠٠٠ر٣٠ نسمة . ولعل هذا العدد إذا أضيف إلى الشطر الآخر الذى يعيش فى أرتريا يبلغ ثلاثة أمثال هذا القدر أو أكثر قليلا ، وهم أهدأ عيشا من سائر البجه ، ومواطنهم فى طوكر ، وحوض بركة مكنتهم من الانتفاع بمشروعات الرى .

هذه مقارنة موجزة لحالة البجه ، بأقسامهم المختلفة ، وإذا استثنينا الجماعات التى تعيش فى مدن ليست من صنعهم ، يمارسون صناعة وأعمالا تناسب بيئة خلقها

غيرهم كالزراع فى بلوكى والشلال والعمال فى بور سودان (وقليا تيمى سوا كن) أو التجار القريبين إلى جوار أسوان ، نرى سائر البجه يعيشون جماعات صغيرة فى وديانهم الجدبة ، عيشة تغلب عليها الشدة ، ولا تقل لهم الأرعى ماشيتهم . ولا يعرفون القرى الكبيرة بل يعيشون عيشة العزلة ، فى بلاد يشتد حرها فى الصيف ، وبردها فى الشتاء . فى بيوت من الحصير (البرش) غذاؤهم اللبن ، وقليل من الحبوب وبعض اللحم من آن لآن ، وفى سنى الجدب يقاسون مرارة الحرمان .

هذه البيئة القاسية التى تتعرض لنوبات من الجدب والقحط فى بعض السنين كما حدث فى عام ١٩٤٩ ، قد صبغتهم بصبغتها القاسية ، وتمرسوا بها ، حتى أصبحوا جزءاً منها ، بعد أن عاشوا فيها آلاف السنين . فأصبحوا ولهم جلد كثير على تحمل الشدائد وشظف العيش ، يجتزئون بالقليل من الزاد إذا تيسر ، ويصبرون على الحرمان إذا جاءت سنوات الجهد والمشقة . ومظهرهم الطبيعى يتفق مع هذه الظروف القاسية .

القامة تمتاز بالنحول والرشاقة : متوسطة الارتفاع أو فوق المتوسط بقليل والبشرة سمراء تضرب إلى الحمرة ، تشتد سمرتها فى بعض الأحيان . والرأس مستطيل باطراد ، وإن وجدت بعض مقاييس للبشاريين تكشف من ارتفاع للنسبة الرأسية ، فليس من الضرورى أن تعلق عليها أهمية كبيرة ، حتى تزداد لدينا الأمثلة بما يمكننا من الإدلاء برأى له وزن .

الشعر مموج أو مجعد قليلا . وإن بدا غير ذلك ، بسبب طريقتهم فى ترجيل الشعر وربطه على صورة خاصة . كأنه حزمة من الحطب أو الدريس . وإذا كان الشعر جعداً جداً كان ذلك دليلا على الاختلاط ببعض العناصر الزنجية . وهذا قليل لدى البشاريين والأمرار ، الذين وقتهم عزلتهم الطويلة من الاختلاط والامتزاج ، والنسبة الأنفية معتدلة أو متوسطة دائماً . وليس هنالك بروز فى الفك أو أى مظهر آخر للصفات الزنجية المعروفة . وقد سبقت الإشارة إلى ما رآه سلجمان من الشبه القريب بين البجه والمصريين القدماء

والأمر الذى يلفت النظر فى البجه جميعاً على اختلاف قبائلهم وأوطانهم أنهم لا تصلهم بالبحر أدنى صلة ، فليست لهم سفن أو قوارب أو زوارق . ولا يعرفون حرفة الصيد البحرى . فيهملون بذلك مورداً للغذاء هم فى أشد الحاجة إليه . وعلى الرغم من أنهم يرعون إبلهم على ساحل طوله ٤٠٠ ميل ، وقد تشرب إبلهم قليلا من ماء البحر أحياناً ، فإن البجه أنفسهم لا يلقون إلى البحر بالا . وقد طافت بالسواحل جماعات عربية ، واشتغل بعضها بصيد اللؤلؤ فى دنجوناب وغيرها من الجهات . غير أن البجه لم يتعلموا شيئاً من ذلك . وموانيهم المديدة أنشأتها شعوب غير البجه . وعلى كثرة السفن والنشاط البحرى بواسطة المصريين والبطالسة والعرب اليمنيين والحضارمة والهنود والصين ، فإن البجه لم يكترثوا لشىء من هذه الأعمال البحرية . ولم يحاولوا أن يتعلموا صنعة من الصناعات المديدة التى تتصل بالنشاط البحرى .

وفيما يلى أوصاف لحياة البجه الشماليين ، وتنطبق فى جملتها على سائر البجه ، لاحظها مستر كلارك[1] الذى عاش فى بلادهم فترة من الزمن .

المسكن :

تقضى حياة البداوة بأن يكون المسكن خفيفاً ، يسهل نقله وبناؤه . ولذلك نرى فى جميع مواطن البجه الشماليين ، أن البيت السائد هو البديجاو Bidigau أو البرش المصنوع من الحصير ؛ وإقامة المنزل وتقويضه من عمل النساء ، وليس للرجال تدخل فى ذلك ، بل يعد من غير اللائق بالرجل أن يقوم بهذا العمل ، اللهم إلا إذا كان المنزل لضيف أو لرجل مريض ، حيث لا ينبغى للنساء أن يظهرن .

وهذا المنزل يتألف كله تقريباً من الحصير ، والسقف المصنوع من هذه المادة ، يتألف من طبقة واحدة أو طبقتين ، طبقة داخلية ، من الحصير الدقيق الصنع ، والخارجية وهى من حصير أغلظ وأمتن ؛ وينصب هذا السقف مفردا أو مزدوجا على أعواد منحنية فى الطرفين . وفتحة المنزل أو بابه من الجانب الشرقى فى العادة ، ولكن قد تكون من جهات أخرى .

(١) فى Sudan Notes and Records مجلد ٢١ (لسنة ١٩٣٨) الجزء الأول .

وجوانب المنزل ليست كلها من الحصير ، بل تغطى أجزاء منها من الداخل أكسية من الصوف (كل كساء يسمى شملة) والأمامى منها (الشرق) من الصوف الرمادى ، والخلف أسود اللون ، وتصنع هذه الشملات من صوف الغنم أو شعر الماعز .

والأثاث بالطبع غاية فى البساطة ، فالفراش أيضاً من الحصير الدقيق ، ومن تحته الحصير الغليظ وفى المنزل أيضاً أدوات القهوة ، وبعض القدور ، وأوعية من الجلد أو الجوص أو القرع لحفظ الماء واللبن ، وغير ذلك .

وفى وقت الظعن تكون الأكواخ صغيرة منخفضة ، وفى الإقامة الطويلة تكون أكبر وأعلى ، لا ينفذ منها ماء المطر ، وهى من هذه الناحية تفضل بيوت الشعر التى للأعراب . ولا نجد عند البجه اليوم تلك البيوت من الأدم التى أشار إليها المقريزى ، ولعله كان واهما .

عادات تتصل بالولادة :

حينما يولد طفل توقد النار أربعين يوماً أمام المنزل الذى ولد فيه الطفل . وعند بعض القبائل قد تكون المدة أقل من ذلك . ويروى أحد الأمرار أن إبقاء النار ليس ضرورياً ، بل يكفى أن يوقد مصباح أمام الدار . وليس من الضرورى أن تظل النار أو المصباح موقدا ليلا ونهاراً ، بل المهم أن توقد ليلا . ولعل الحكمة فى إيقادها الإيناس ، أو كما هو [illegible] لطرد [illegible] عن الأم النفساء التى تكون بعد النفاس عرضة لأن تتأذى بهذه [illegible] .

وبعد أن يولد الطفل مباشرة ، تخرج النساء التى ساعدت فى الولادة ، من المنزل ومعها المشيمة والخرق الملوثة ، وتمشى مسافة حتى تصل إلى شجرة ، فتلقى بهذه الأشياء وسط فروعها ، وهن يغنين أنشودة خاصة فى الذهاب والإياب إذا كان المولود ذكراً ، ولكنهن يذهبن ويعدن صامتات إذا كان المولود أنثى ، وبهذه الطريقة يسهل الإعلان عن نوع المولود ، من غير حاجة إلى أى إعلان آخر . وبعد هذا الإعلان ، يقوم الوالد فى خيمته الخاصة بتقديم وليمة للجميع . والظاهر أن

عادة دفن المشيمة وسط فروع الشجر ليست عامة ، فعند بعض البجه يدفن الخلاص في الأرض ، ويكتفى بالزغاريد بدل الغناء في حالة المولود الذكر .

وبعد الولادة بأسبوع — ونلاحظ صياغة السبوع وما لها من اتصال بالعادة في مصر — يحتفل بتسمية الطفل ، فيأتى الوالد بشاة ، ويذبحها للوليمة ، وينطق باسم الطفل ، في أثناء الذبح . والعادة ألا يرى الوالد طفله إلا بعد ثلاثين يوماً من الولادة .

الختان :

عند البجه ، كما هي الحال عند العرب والنوبة ، الختان شائع للأولاد والبنات ، وهي في الأولاد عملية سهلة يسيرة لا تكاد تختلف عما يحدث في مصر . ومن الجائز أن تعمل والطفل في حوله الأول أو الثانى ، ويطهر مكان العملية بالشحم الساخن .

أما ختان الفتاة فعملية قاسية ، في معظم الأحيان . فهنالك نوعان أو طريقتان : الأولى وهي طريقة الختان السنى ، وهي لا تختلف عما يحدث في مصر . والطريقة الثانية ، التى تدعى الختان الفرعونى . وهي توشك أن تكون عملية جراحيـــة ، تعمل عادة في الحول السادس إلى الثامن ؛ وتقطع فيها الأشفار العليا من الفرج وجزء من الأشفار السفلى ، وقد وصفها الأستاذ سلجمان وصفاً مستفيضاً ، وقد أكدها أيضاً المقريزى إذ يقول : « وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن ، وأنه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج ..... »[1]

المراهقة :

عندما يكبر الغلام عند البجه بحيث يستطيع أن يرعى بعض الغنم ، يعطى خنجراً ، فإذا بلغ ١٤ أو ١٥ سنة أعطى سيفاً ودرقة ، إعترافاً ببلوغه مرتبة الرجولة . والظاهر أنه ليس هنالك حفلات مشتركة كبيرة يجتمع فيها الصبية معاً عندما يبلغون هذه المرحلة من العمر كما يحدث لدى القبائل الجنوبية من النيليين وانصاف الحاميين ، كذلك ليس هنالك نظام لتصنيف المجتمع طبقات بحسب السن .

---

(١) راجع الجزء الأول من الخطط ، طبع مصر سنة ١٣٢٤ هـ ص ٣١٥ ؛ وهذا النوع من الختان منتشر عند بعض القبائل الأخرى من غير البجه ؛ ونسبته إلى الفراعنة ليس لها سند تاريخى معروف .

مركز المرأة :

من المعروف أن المرأة عند كثير من القبائل الحامية تتمتع بمركز ممتاز . وهذه الحالة قد لاحظها ابن بطوطة لدى الطوارق فى الصحراء الغربية ، كما لاحظها الكثير عند الحاميين الشرقيين . وعادة الميراث التى تقضى بأن يرث الرجل ابنَ أخته ، هى بعض مظاهر أهمية المرأة . والفتى يعلو شأنه بعلو شأن خاله ، وفى أهمية الخال فى الأحاديث والقصص والأغانى عند كثير من الشعوب السامية والحامية ، ما يدل على أن عادة الاعتزاز بالأخت وأولادها عادة قديمة عند كثير من الشعوب ؛ وعلى الأخص الشعوب الحامية . وحياة الصحراء بطبعها تعطى المرأة شأناً ومنزلة خاصة ، حين يغيب الرجل أياماً فى التجارة أو الغارة ، ولا بد للمرأة أن تنهض بكثير من الأعمال فى غيابه .

وسواء أكانت أهمية المرأة مما استلزمته طبيعة البيئة أو كانت عادة منتشرة لسبب آخر ، فلا شك أن المرأة عند البجه كان لها فيما مضى مكان ممتاز . ولكنها لم تصبح لها اليوم المنزلة الممتازة التى كانت لها من قبل ؛ وإن بقيت من ذلك بقية فى بعض النواحى الاجتماعية .

ويقول كلارك فى مقاله المذكور إن المرأة قلما تعاقب أو تلقى جزاء رادعاً إذا ارتكبت منكراً ، ويزعم أنه أراد مرة أن يوقع عقاباً صارماً بامرأة شابة كان سوء سلوكها سبباً فى تخاصم وشقاق وتضارب بين طائفتين من البشاريين . فطلب تقديمها للمحاكمة الجنائية ، فاحتج أعيان البشاريين وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يعاقبوها عقاباً داخلياً . فسألهم ما نوع العقوبة التى يقترحونها ، فأجابوا أنهم سيقصون شعرها ، ويلزمونها أن تقوم بطحن الحبوب . . .

وفلسفتهم فى هذا أن المرأة عاجزة بطبعها عن مقاومة الإغراء ، ولذلك يجب أن تعذر ولا تؤاخذ ، وكل ما يجب عمله هو أن تلزم دارها وتراقب مراقبة دقيقة ، لكى لا يتعرض لها أحد بسوء ، وبذلك تتقى جميع دواعى الإغراء أو تكون فى حكم النادر .

ولكن على الرغم من هذه الفلسفة يبدو أن ظروف الإغراء ليست نادرة ، ويزعم كلارك أن النساء — وعلى الأخص لدى الأمرار — لسن على جانب كبير

من الوفاء . وكثيراً ما تكتشف الخيانة ، فلا تعاقب المرأة ولا يلحقها أى وصمة فيما يبدو ، ولكن الزوج له الحق دائماً فى أن يحصل من العاشق الأثيم على دية تقدر بنحو ثمانية من الجنيهات (سنة ١٩٣٨) وهكذا تسود الفكرة بأن الرجل دائماً هو المذنب ، وعليه وحده تقع جريرة ما ارتكب من إثم .

وتظل هذه حال المرأة حتى تبلغ الأربعين ، فتصبح « أم العيال » ، وينتهى بذلك عهد الصبى والغزل .

وعند البجه — وعلى الأخص البشاريين — لا تقوم المرأة بحلب الماشية ، وقلما تقوم برعيها . وهذه الحال تختلف عما هو سائد عند جيرانهم من العرب مثل الرشايدة ، الذين يشتدون فى معاملة النساء ، إذ يشترك نساؤهم فى أعمال الرعى وحلب الماشية ، وفى كثير من ضروب النشاط ، وقد تضرب المرأة عند الرشايدة ، ولكنها لا تضرب لدى البجه ، وإن كان ذلك لازماً لها فى بعض الأحيان عن جدارة واستحقاق .

وتنحصر أعمال المرأة عند البجه فى القيام ببعض الصناعات مثل عمل أوعية من الجلد وتحليتها بالودع ، ونسج الشملات من صوف الماعز أو الغنم أو وبر الإبل ، ويقمن بتزيين الرحال التى يجلسن عليها حين تنتقل بهن الإبل من مكان إلى آخر . وكذلك ينسجن الأسرة ، التى تصنع من الخوص ، وتربط بسيور من الجلد . وفى وقت « الخريف » أى موسم المطر يصنعن السمن من الألبان المتوفرة فى ذلك الوقت من السنة .

فيما مضى كانت للمرأة فى الميراث مكانة ملحوظة ، إذ كان الولد يرث خاله ، وقد كان لدخول البجه فى الإسلام أثر فى تغيير هذه العادة ، فأصبح الأبناء يرثون آباءهم . ولكن صحب هذا التحول حرمان النساء من الميراث تماماً . لأن المرأة إذا ورثت انتقل ما ترثه إلى قبيلة أخرى . وكان من أهم الأسباب فى تركيز الميراث فى ابن الأخت ، أن الأخت كانت متصلة بأخيها ، فيظل الإرث فى القبيلة أو العشيرة ولا يخرج منها . والظاهر أنهم يخشون من توريث البنت لئلا ينتقل إرثها إلى العشيرة الأخرى التى تتزوج منها . ومهما يكن من شىء ، فإن هذه العادة تنقص

من حقوق المرأة عند البجه وقد ظهرت لدى الامرأر حركة ينادى أصحابها بأن هذا الإجراء يخالف الشريعة . ولكن هذه الحركة لا تزال فى بدايتها .

الزواج :

وجوه الشبه كثيرة بين الزواج لدى البجه وعند القبائل العربية . وأبناء العمومة أو الخؤوله مفضلون دائما ، ولا يعطى الرجل ابنته لزوج غريب إلا بعد استئذان أقاربها الصالحين للزواج ، والصداق يحدده العرف السائد ، وهو عند البشاريين العلياب لا يقل عن ثلاث من الإبل ، وثلاث من الغنم ، جزء للأب وجزء للأم وجزء مساو للخال الأكبر . كذلك يقدم الخطيب هدايا مختلفة من الأقمشة والأسلحة وما إليها .

هذا بالطبع هو أقل صداق وتبعا لمقام الزوجة والزوج يرتفع الصداق إلى الضعف أو إلى أكثر من الضعف . وتبدأ الخطوبة عادة بأن يقدم الخطيب هدية من البن والسكر أو بعض الماعز . وهذه الأشياء ترد إليه إذا لم يكن طلبه مقبولا . فإذا تمت الخطبة ، يقدم الصداق الذى يقضى به العرف ، ويعطى للزوج والزوجة ناقة عشراء وتكون بداية عهد الزوجية .

وتقوم نساء الحى ببناء بيت الزوجية الجديدة ، ومن العادات السائدة أن تعد النساء أثناء الشروع فى بناء المنزل ، طبقا فيه تمر وخاتم من الفضة أو الذهب فاذا أقبل رجل واقترب من النسوة وهن يقمن بإعداد المنزل انبرت له إحداهن وقدمت إليه الطبق ، فيضطر لأن يتناول بعض التمر ويضطر فى الوقت نفسه لأن يقدم هدية إلى تلك المرأة ، والهدايا التى تحصل على هذه الطريقة ينتفع بها فى إعداد وليمة العرس . ومعظم رجال الحى يعرفون هذه العادة ، ولذلك يحذرون أشد الحذر من الاقتراب من مكان يبنى فيه بيت العرس .

وبناء المنزل يشتمل على إعداد الأبراش والشملات اللازمة ، وتركيبها وتحليتها بالأصباغ والألوان برسم دوائر وخطوط عليها ، وفى النهاية يحلى مدخل المنزل بحلية تصنع من الألياف الصغيرة من نخيل الدوم ، وهذه تربط فوق المدخل ، ويعلق بها حبل على صورة مقود الناقة ، وخف صغير مما يلبسه الأطفال الذكور . والغرض من

هذا جلب السعادة للزوجين ، بأن يولد لهما الأطفال الذكور ، والإبل الإناث ، وهذا بالطبع منتهى السعادة وأقصى ما يتمناه الزوجان . غير أن هذه التعويذة (التي تدعى سنكواب Sankwab) لا تعمل إلا لمن يتزوج للمرة الأولى .

ويجرى الطلاق عند البجه طبقاً للعرف السائد عند العرب ، ولكن لديهم عادة خاصة تدعى « التعليق » أى أن يطلق الرجل زوجته بشرط يفرضه عليها ، فإذا لم يستوف هذا الشرط لا يجوز لها الزواج من رجل آخر ، بل تظل معلقة . كأن يفرض عليها مثلا الا تتزوج من رجل يشك فى أنه عشيقها ، وأنه هو السبب فى فساد الزيجة الأولى .

احترام الحم والحماة :

يحترم الزوج حماه وحماته احتراماً شديداً يذكرنا بما هو سائد عند الدنكا ، بل لعله أقوى عند البجه منه عند أية جماعة أخرى . ويبلغ بالختن هذا الاحترام درجة تجعله لا يستطيع الجلوس فى حضرة الحم ، ويتجنب حماته كل الاجتناب . ويروى الأستاذ كلارك أن أحد البشاريين (العلياب) انتحر فى سنة ١٩٣٤ ولم يقم العمدة بالتبليغ عن هذا الحادث فعوقب من أجل ذلك ، وأظهر البحث والتحرى أن سبب انتحار الشاب يرجع إلى أنه خطب فتاة من أبيها ، فوافق الأب على ذلك غير أن ألسنة السوء وشت بالشاب زاعمة أنه عاشق لامرأة هذا الشيخ ، أى حماته فى المستقبل ، وأبى الوالد أول الأمر أن يصدق تلك الوشاية ، فلما تكررت دعا إليه هذا الفتى وواجهه بهذه التهمة ، فكان مجرد التهمة من البشاعة بحيث لم يطق الشاب أن يعيش وهو فى ظل هذه الوصمة ، فأمسك بسير من الجلد وشنق نفسه .

الأطفال المولودون خارج الزواج :

يقول كلارك إن انتشار العلاقات غير الشرعية والتغاضى عنها ، استلزم أن ينظر إلى الولد الذى يولد خارج الزواج ، نظرة تنطوى على كثير من التسامح ، فلا تلحقه وصمة ولا عار بسبب حادث ولادته . وهؤلاء الأولاد يلتحقون فى النسبة بأمهم . وإذا كانوا ذكوراً كان لهم جميع الحقوق التى يتمتع بها أبناء القبيلة ، وعند بعض البشاريين تدل البنت على الرجل الذى أغواها ، وله الحق فى هذه الحالة

أن يأخذ الفتاة وابنها ، ويدفع مهراً مخفضاً قلما يزيد على بعير واحد ، وبوجه عام تصبح قيمة الزوجة التي سبق لها أن حملت من غير زوجها ، في سوق الزواج أقل بكثير من صواحبها . وكثيراً ما تلجأ الفتاة إلى هذه الحيلة لكي تتزوج من الرجل الذي تحبه ، وتتجنب الرجل الذي اختارته أسرتها ليكون بعلا لها .

الوفاة والجنازة :

يدفن الميت في حفرة ويهال عليه التراب ، وتغطى الحفرة عند بعض القبائل (المطيرة) بحصى أبيض ومن حولها إطار من الحصى الأسود ، وأما الأطفال فلا يوضع على قبورهم سوى الحصى الأسود . وهذا الحصى الأسود لا يوضع على القبر إلا بعد أن تقرأ عليه آيات وتسبيحات .

ويحتفل بذكرى الفقيد ثلاث مرات إذا كان له بعض الخطر ، المرة الأولى بعد أسبوع من الوفاة ، والثانية بعد أربعين يوماً ، والثالثة بعد مضي عام . وبذلك ينتهى الحداد . . .

دق الطبول :

ومن عادة الأمرأر أن أقرب الناس إلى الفقيد يحرم على نفسه أن يجلس على فروة إذا ركب بعيره وذلك من مظاهر الحداد . فإذا كان الفقيد من الرؤساء أو من في طبقتهم دق له الطبل مرة واحدة ، ثم لا يدق بعد ذلك عاماً كاملا ، ويطلق على الطبل اسم النحاس ، وهو الاسم الشائع في السودان ، وذلك لأنه عادة يتكون من قاعدة كروية من النحاس شد عليها غطاء من الجلد ، ولا يدق الطبل عادة إلا في ثلاث مناسبات : الأولى بعد وفاة فقيد عظيم ، والثانية للدعوة إلى الحرب ، والثالثة لحفلة عظيمة تهم القبيلة كلها . ولا يجوز مطلقاً أن يدق النحاس لسبب تافه ؛ لأن له تأثيراً شديداً في نفوس الناس . ويتهيج له الجميع حتى الشيوخ الطاعنون في السن . فلا يكاد الطبل يدق حتى تثور الحماسة في القلوب وترهف الأعصاب ، وتجرد السيوف من أغمادها . ولكل قبيلة طريقة أو نغمة خاصة في دق طبولها ، تميزها عن غيرها .

الحياة الاقتصادية

الزراعة :

ليس من المنتظر في بيئة تغلب عليها الصفات الصحراوية في معظم جهاتها أن يكون فيها للزراعة شأن كبير ، ومع ذلك هنالك جهات متفرقة أمكن أن تنشأ فيها حياة زراعية . وبقطع النظر من التطورات الحديثة التي جاءت نتيجة لتنظيم الثروة المائية المحدودة لسكل من خور بركة ، واستخدامها في ري نحو ٣٠,٠٠٠ من الأفدنة ، وفي خور الجاش لري مقدار مماثل ، وما ترتب على ذلك من نمو الزراعة في منطقتي طوكر وكسلا ، فإن البجه قد مارسوا الزراعة في جهات متفرقة ، وعلى الأخص في الجنوب ، وعلى ضفاف العطبره ، وفي بعض الأودية والأخوار ، وفي سهل البُطانة حيث يجود المطر من عام لعام ، وإن كان من عادته أن يخلف الظنون في بعض السنوات .

والزراعة بوجه عام لا تمارس بحماسة وإخلاص ، شأن البجه في ذلك شأن جميع الرعاة في جميع الأقطار . ومن الجائز أنهم لم يكونوا يمارسونها مطلقاً ، أو كانوا يكلون أمرها إلى الخدم والعبيد . ويمكننا أن نقسم الزراعة بحسب أنواع الحقول إلى أربعة أقسام :

١ — في الأقاليم الوسطى الشبيهة بالصحراوية بقع متعزلة ؛ إذا جادها الوسمي ، ألقى الزارع بالحب في الأرض ، ثم يعود إليه بعد ثلاثة أشهر لعل الطبيعة أن تكون قد قامت بالواجب فأنبتت الزرع فاستغلظ فاستوى على سوقه . وهذه الزراعة وسط الفيافي ، كثيراً ما تتعرض لها الإبل السائمة ، فترى فيها مرعى شهياً خصباً فتلتهمها عن آخرها . فيصيح صاحبها ويضج بالشكوى مطالباً صاحب الإبل بغرامة كبيرة ، وهذا من أهم أسباب التقاضي .

٢ — على ضفاف نهر العطبرة ، يمكن للبجاوى إذا شاء أن يستفيد من فيضان النهر ، فينتظر ريثما يهبط الفيضان ، ويزرع الشواطئ والجزر ، كما يحدث على طول نهر النيل . غير أن هذا العمل يتطلب مجهوداً زراعياً خاصاً ، إذ لا بد له من تطهير

الأرض من الأعشاب ، وإعدادها إعداداً خاصاً . ولا يقبل على بذل مثل هذا المجهود إلا من اعتاد الإقامة على شواطئ النهر زمناً طويلا ، كما هى الحال فى إقليم النوبة . ولذلك يقوم البجاوى بواجباته الزراعية هنا فى شىء من التراخى .

٣ — لذلك نراه يؤثر الزراعة فى سهل البطانة نفسه ؛ وللشواطئ النهرية ميزة أنها لا تتوقف فيها الزراعة على المطر ، لأن الفيضان يدع التربة فى حالة من الرطوبة تمكن من زراعتها ، ولـكن سهل البطانة له ميزاته أيضا ، وهى خصوبة التربة ، ووفرة المحصول لأقل مجهود يبذل ، بشرط أن يتوفر للزراعة مقدار — ولو معتدل — من المطر . والبشارى فى سهل البطانة متفائل دائماً ، وقد يهمل زراعة الأراضى الجزرية على شواطئ العطبرة ، أملا فى سقوط المطر وجنى محصول وافر فى سهل البطانة ، وقد يخيب ظنه فتفلت منه الزراعة فى الإقليمين معاً ، ويضيع عليه ما عساه أن يكون بذره من الحبوب . والسبب الأساسى ، الـكامن وراء تفضيل السهل على الشواطئ هو بغض العمل اليدوى ، الذى يحتقره البدو عامة . وليس بمستغرب أن نجده لدى الأمرار والبشاريين .

وتشبه الزراعة فى سهل البطانة ، زراعة الأقطار الجنوبية المتاخمة لحدود الحبشة ، حيث المطر أغزر وأوفر ، وسقوطه أقرب احتمالا ، ولذلك نرى أن حظ الهدندوه وبنى عامر من الزراعة أكثر من حظ سائر البجه .

٤ — والنوع الرابع من الزراعة ، هو ما يجرى فى دلتا بركة والجاش ، وهنا تعتمد الزراعة على الفيضان . وقد نظمت الزراعة هنا حديثاً تنظيما خاصاً ، وبدأت زراعة دلتا الجاش فى عهد محمد على ، ثم استمرت فى النمو والزيادة بعد ذلك . ويقول الأستاذ نيوبولد إن الهدندوه فى إقليم الجاش يقبلون على الزراعة إقبالا لا بأس به ؛ ولئن لم يكونوا زراعاً من الطراز الأول ، فإن ما يقومون به فعلا يعد تقدماً عظيما بالنسبة إلى أعمالهم قبل ذلك . وفرق كبير بين شعب اعتاد الزراعة منذ آلاف السنين ، وبين قبائل بدوية لم تكن تقبل على الزراعة إلا عن كراهية واضطرار .

وأهم ما يزرعونه الحبوب ، وعلى الأخص الذرة الرفيعة . وفى الأقاليم الشمالية . حيث الزراعة قليلة والمحصول ضئيل ، نرى البشاريين وغيرهم مضطرين كل عام إلى

شراء حاجاتهم من الحبوب للطعام ، ولـكن تستخدم بمثابة التقاوى عند الزراعة .
أما فى الجنوب فإن البجه قلما يحتاجون إلى شراء الحبوب للقوت أو للزراعة .

ويصف لنا كلارك بعض المراسم المتبعة فى الزراعة ؛ فيقول إن البجه يقربون قرباناً فى الحقل قبل بذر الحبوب ، فيذبحون عجلا أو جملا أو كبشاً أو معزى ، تبعاً لقدرة الزارع وسعة الأراضى التى يملـكها ، وبعضهم ينصب هودجاً ، فتعدو حوله الرجال على ظهور الإبل ، والنساء تزغرد ؛ وبعضهم — ذوو النزعات الدينية — يلتزمون الصيام فترة من الزمن ، وآخرون يكثرون من الصلاة — صلاة الاستسقاء — والدعاء والتسبيح .

فإذا اقترب وقت الحصاد ، ضربوا لذلك موعداً لا يخلفونه ، وفى هذا العمل بالذات يبدى البجه نشاطاً كبيراً ، ويتسابقون أيهم يجنى غلته قبل صاحبه .
ومن عادتهم أن من ينتهى من محصوله أولا يصيح بجاره : « الأرنب جاءتك »
وهكذا حتى يبقى آخرهم وهو الذى وصلت إليه الأرنب ، فيضحك الآخرون منه
وربما كانت هذه بقية عادة قديمة . . وهكذا نرى أن البجه — وإن تقاعسوا أو تكاسلوا فى أعمال الزراعة — يبدون نشاطاً هائلا وقت الحصاد .

الرعى :

على الرغم من احتراف الزراعة ، وتعدد أنواع المزارع ، وضرورة الغلات الزراعية لاستكمال التغذية ، فإن الرعى هو الحرفة الأساسية لجميع البجه ، على اختلاف قبائلهم وأوطانهم ، وقد ازدادت ضروب النشاط الاقتصادى تعدداً وتنوعاً فى الأزمنة الحديثة ، وأصبحت تتناول البيع والشراء ، والتجارة فى مختلف مظاهرها ، وتتناول استغلال بعض الغلات الطبيعية ، كما تتناول العمل فى الموانىء وفى الخدمة العامة (الجيش وما إليه) ، ولـكن هذه النواحى المختلفة لم تستطع أن تخفى الحقيقة الأساسية وهى أن البجه شعب من الرعاة ، وإن تعددت وجوه النشاط فيه وتنوعت . ومن الممكن أن نتصور أنهم جاء عليهم حين من الدهر لم يكونوا يحترفون حرفة أخرى . بل كان جل اهتمامهم ونظام حياتهم مركزاً حول القطعان والعناية بها والدفاع عنها . فإذا ثار نزاع حول أرض ، فذلك لأنها مرعى لماشيتهم

أو فيها آبار لسقاية دوابهم ، وإذا أغاروا على جيرانهم فإن أهم أسباب الخصام الحصول على قطيع أو الثأر لعدوان على قطيع ، وإذا كانت الروح الحربية هي الخلق الذي يجب أن يربى في كل فرد ، فذلك لأن حياة الرعى تتطلب التأهب الدائم للذود عن القطيع ، ورد العدوان عنه . والطمع والجشع ، لا يتخذ إلا صورة واحدة ، وهى الرغبة فى الاستئثار بأكبر عدد ممكن من الإبل . فالحياة كلها مركزة حول شيء واحد ، وإن ظهرت فى مظاهر مختلفة .

ومن المرجح أن البجه قد عرفوا الزراعة والزراع زمناً طويلا ، دون أن يمارسوا تلك الحرفة أو يقلدوا من يحترفها . ولا شك أنهم منذ زمن طويل جداً ، عرفوا فائدة الغلات الزراعية ، وعلى الأخص الحبوب ، وحصلوا عليها واستخدموها فى غذائهم ، دون أن يفكروا فى استنباطها بأنفسهم ، وحسبهم أنهم كانوا يحصلون عليها بإحدى وسيلتين : إما بالإغارة ، إذا كان الزراع — كما هى الحال فى كثير من الأحيان — جماعات مستضعفة ، متفرقة ليس بينها تضامن وتعاون ، ولا نظام دفاعى يمكنها من الذود عن أرضها ؛ وإما بالبيع والشراء ، بأن يعطوا ما يفضل عن حاجتهم من الماشية ويحصلوا فى نظيرها على حاجتهم من التمر أو الحبوب .

ظل البجه حيناً من الدهر يحصلون على حاجتهم من غلات الزراعة بإحدى هاتين الوسيلتين ، ولا تزال المبادلة عنصراً هاما إلى اليوم فى حياتهم ، تمكنهم — وعلى الأخص سكان الشمال — من الحصول على جزء غير قليل من قوتهم الضرورى .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى ولا كيف أخذ البجه يمارسون الزراعة ، مقلدين جيرانهم ، من المستقرين ، الملازمين لحقولهم ومزارعهم ، ولكن ظاهر الأمر يدل على أن ممارسة البجه للزراعة ليست بالأمر القديم ، المعرق فى القدم ، لأن تقاليدهم وشعائرهم ومختلف عاداتهم ، كلها تشير بأن مجتمعهم موطد الأسس فى حياة الرعى . فالدية تدفع بالإبل ، وكذلك المهر ، وفى جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الأساسية ، نرى الإبل وسائر أنواع القطعان تحتل مكانا هاما ، فنحن إذن أمام مجتمع قد تطور فى العصور الحديثة بعض التطور ، ودخلته ألوان مختلفة من النشاط الاقتصادى ، ولكن أركانه الأساسية لا تزال قوامها الرعى والعنصر المهيمن عليها تلك القطعان الضخمة من الإبل والغنم والماعز .

والإبل بالطبع هي أهم هذه الحيوانات ، وأعلاها شأناً ؛ وليست القطعان الأخرى سوى أجزاء متممة للثروة الحيوانية . ولا وجه للمقارنة بينها وبين الإبل في الأهمية . والقبيلة التي تنقص إبلها أو تبيد تتعرض لكارثة محققة ، ولن تلبث زمناً طويلا حتى تذهب ريحها ، ويضطرب كيانها ، ولا بد لها بعد ذلك من أن تندمج في قبيلة أخرى أو تتعرض لفناء محقق .

والأرجح أن الإبل لم تأت إلى البجه من طريق البحر الأحمر مباشرة ، فإن الاتصال بين جانبي البحر في هذه المنطقة لم يكن ميسوراً في الأزمنة المتقدمة ، وأكبر الظن أن انتشار الإبل كان من الشمال إلى الجنوب ، أي أنها وصلت إلى بلاد البجه بعد أن وصلت إلى القطر المصري وبعد انتشارها في صحراء مصر ، في عهود البطالسة والرومان .

وأيا كان الوقت الذي تعلم فيه البجه اقتناء الإبل — إلى جانب ما كان لديهم من الماشية قبل ذلك — فإن إدخال الإبل إلى بلادهم صادف تربة خصبة ، إذا صح هذا التعبير ، لانتشارها ورعايتها . وقد كان البجه بلا شك رعاة بارعين قبل أن تدخل الإبل ديارهم ، فلما أخذوا في اقتنائها لم يلبثوا أن ألفوها ، وأبدوا في تربيتها براعة فائقة لا تقل عما أبدته أي قبيلة عربية ، اشتهرت بتربية الإبل . ومن الجائز بالطبع أن البجه قد عرفوا بعض القواعد الأساسية لتربية الإبل من الجماعة أو الجماعات التي أخذوا عنها هذا النوع الجديد من الحيوان . لكن لا شك أنهم زادوا كثيراً على ما تعلموه ، وتخصصوا في تربيتها على طريقتهم وأساليبهم ، وبذلك اختلفت طرقهم عما هو متبع لدى الكبابيش مثلا ، ولدى غيرهم من القبائل ذات الإبل التي تعيش في الجانب الغربي من النيل .

لم يلبث البجه بعد أن اقتنوا الإبل أن أدركوا الصفات الأساسية التي تميز بعضها من بعض ، وأن الوراثة عنصر هام في تربيتها ، وفي تأكيد بعض صفاتها الممتازة . وهنالك بالطبع صفتان أساسيتان : السرعة من جهة ، والمقدرة على حمل الأثقال ، وأن كلا هاتين الصفتين لا بد من توافرهما . وكان من الجائز أن تتجه تربية الإبل نحو الجمع بين هاتين الصفتين ، بأن تكون الإبل ذات سرعة معقولة ، وفي الوقت نفسه تستطيع أن تحمل أكبر مقدار ممكن من الزاد والمتاع . غير أن نظرية

البجه في [illegible] الإبل ، جعلتهم يدركون أن الجمع بين هاتين الصفتين على الوجه الأكمل [illegible] أن يكون مستحيلا ، لأن إبل الحمل ، يجب أن تكون قوية العضلات ، منخفضة السنام ، وبالجملة ثقيلة الوزن إلى درجة بعيدة ؛ بينما الهجن السريعة العدو يجب أن تكون خفيفة ، قليلة الشحم ؛ حتى تكون سريعة الحركة إلى أبعد مدى .

لذلك نرى البجه قد اتجهوا في تربية الإبل وجهتين : الأولى تربية الإبل السريعة جداً ، والأخرى تربية الإبل القوية الثقيلة التي تحمل أمتعتهم إذا انتقلوا من مكان لآخر . فأخذوا يربون إبلهم بدقة وعناية حتى يصلوا ، بطريق التوريث ومراقبة التناسل ، إلى استنباط هذه الصفات . وبذلك انقسمت الإبل لديهم إلى هذين النوعين .

والإبل السريعة عند البجه تلقى عناية خاصة ، لعلها أعظم مما يبذل من العناية في تنشئة النوع الآخر . وتبدأ العناية بها بمراقبة النسل ، فلا يسمح للناقة السريعة أن تنسل إلا من بكر سريع . وكل فصيل يولد تكون شجرة نسبه معروفة ومحفوظة والعناية التي تبدأ باختيار الوالدين ، تستمر بعد الولادة ، في جميع المراحل ، إذ لا بد من تدريب الفصيل في السنوات الأربع الأولى من عمره ، وإلا تعذر أو استحال تدريبه بعد ذلك . ومتى تم تدريبه أصبح صالحاً للركوب وقطع المسافات البعيدة في سرعة قد تبلغ أحياناً سرعة الخيل . واشتهرت الهجن البجاوية بذلك في مصر والسودان ، وتحرص الحكومتان على اقتنائها لجميع الأعمال التي تتصل بمراقبة الحدود ، وكانت فيما مضى لها مكان في نظام الجيوش . ولا شك أن الدافع الأكبر الذي حدا بالبجه إلى العناية بالسرعة ، هو ما لها من الشأن الأكبر في الحرب وفي الكر والفر ، وفي الانقضاض الفجائي على العدو . فهي تقوم بالدور الذي تقتني له الخيل في البلاد العربية . وليس من السهل على البجه أن يربوا الخيل في أوطانهم التي لا يتوفر فيها العشب إلا في جهات متباعدة . والقبائل العربية التي تقتني الخيل تضطر لأن تخصص لها عدداً من الإبل لتحمل القوت اللازم لها ، أثناء قطع المسافات البعيدة في الصحراء ، ولا شك أن في هذا تعطيلا لعدد كبير من الماشية ، وإذا أمكن أن تحل الإبل محل الخيل ، فإن هذا أوفق لبيئة البادية .

وهذه الإبل — عدا ما اشتهرت به من السرعة — تعد مطية سهلة الركوب ، لا يحس راكبها نصباً ولا عناء ، ويستطيع أن يقطع المسافات البعيدة ويقضي على ظهرها الأيام الطوال دون مشقة ، لأنها عوّدت منذ الصغر أن تمشي مشية مستوية سهلة ، في خطاها السريعة أو المتدلة . ونظراً لطبيعة البيئة التي تجمع بين المسالك الوعرة في الجبال والفياف الواسعة في الصحراء ، اعتادت هذه الإبل أن تسلك الطرق الجبلية المنحدرة والممرات والثنايا الحجرية ، من غير مشقة ، وهي ثابتة الخطى ، لا يخشى عليها أن تزل بها الرجل أو تتعثر في الأحجار والمنحدرات والشعاب الضيقة ، وهي ميزة قلما نجدها في الخيل .

لا شك أن الإبل السريعة تحتل المكان الظاهر البراق من حياة البجه ، فالنشاط الحربي والرياضي والحفلات لها فيها المكان الواضح الممتاز . وهي أيضاً التي شكلت المجتمع ، بأن جملته يجمع بين التفرق في مختلف الأنحاء والأودية المنعزلة والتجمع السريع إذا كان هنالك حاجة للمّ شمل القبيلة وتجميعها لغرض من أغراض الحرب أو السلم . ولكن هذا يجب ألا ينسينا أن قوام الحياة الاقتصادية هو الإبل الأخرى ، التي تستخدم في الحمل ، وهي التي تدر الألبان الغزيرة . وتساعد في انتقال العشيرة من موطن إلى موطن . وهي العماد الأساسي للاقتصاد القوى ؛ وهي التي تستخدم في نقل السلع والغلات الزراعية ؛ فوق حملها الأبراش للخيام والأمتعة والأواني . وهي عماد النشاط التجاري ، يؤجرها البجه للنقل في الصحراء للحكومتين المصرية والسودانية ، حيث تنعدم وسائل النقل الأخرى . وقد تؤجر للأفراد أو للبعثات ، وهي بذلك تكوّن مورداً من أهم موارد الرزق . ولذلك لا تقل عناية البجه بها من عنايتهم بالإبل السريعة التي تستخدم في الذود عن القطعان ، وحماية الممتلكات .

فالعناية بالإبل إذن تشمل النوعين ، وإن كانت الهجن السريعة أقرب إلى قلوب البجه ، لأنها موضع افتخارهم ، ولأنهم يصطحبونها ، وتلازمهم في أسفارهم ، ويركبونها حتى في غير أوقات الانتقال من مرعى إلى مرعى . وكثيراً ما يكون للرجل هجينه المفضل يعرفه باسمه ، ويصاحبه في غدوه ورواحه . وبين الاثنين

علاقة وصلة ، لا ينفي وجودها بين الرجل وبين الإبل التي تحمل الأثقال .

على الرغم من هذا كله يعنى البجاوى بإبله كلها ، ويعرف طباعها وخصالها ، وهو طبيب بعللها وأمراضها ، ويسميها فى كل مرحلة من حياتها باسم خاص ، كما يفعل العرب تماماً . ولكل قبيلة علامة تكوى على كل جمل أو ناقة ، وتعرف بالوسم ، يميز إبل كل قبيلة عن إبل القبائل الأخرى . وهى علامة واضحة لا يمكن إخفاؤها أو سترها . وقد تكون على العنق أو البطن أو أى جزء آخر من جسم البعير أو الناقة . وإلى جانب العلامة الأساسية الخاصة بالقبيلة ، تضيف كل جماعة أو أسرة علامة أخرى خاصة بها ، وكثيراً ما تكون هذه العلامة الإضافية هى لأسرة الأم إذا كانت الأم من قبيلة أو عشيرة أخرى ، وهذه بقية أخرى لنفوذ الأم بين البجه . وفى أثناء البيع والشراء والمبادلة تضاف علامات أخرى ، بحيث يمكن للخبير أن يطالع على جسد الجمل تاريخه فى صورة مصغرة[1] ، ولو أن بعض البشاريين يكتفون بعدد صغير من العلامات : علامة فى أعلا الساق ، وأخرى على العنق تحت الرأس مباشرة .

ويعالج البجة إبلهم بطرقهم البدائية ، حيث لا تتوافر وسائل العلاج الحديثة . والكى من أهم الوسائل التى يلجأون إليها . وقد يستخدمون السكين ، فى استئصال كتلة مريضة من اللسان أو أى جزء آخر من الجسم .

ورعى الإبل فى بيئة كالتى يعيش فيها البجه تستدعى بالطبع كثيراً من التنقل ، فإن الإبل على الرغم مما اشتهر من قدرتها على أن تقطع أياماً وليالى من غير طعام أو ماء . ليس معنى هذا أنها قليلة الطعام والشراب بوجه عام . والصحيح أنها يلزمها الكثير من الغذاء ، وقسط وافر من الراحة فى المرعى ، قبل أن تشرع فى رحلة طويلة . وإذا كثرت الإبل فسرعان ما تستنفد المرعى القريب ، ولا بد أن تساق إلى مرعى آخر . فإذا استنفدت المراعى القريبة فى موطن من المواطن ، فلا بد من الانتقال بها إلى موطن يبعد عن الأول بعشرات الأميال . ومن الجائز للقبائل القليلة التى تعيش على حافة نهر كبير كالعطبرة أن تظل قريبة من مواطنها

---

(١) راجع مقال كلارك المشار إليه فى S.N.R. لسنة ١٩٣٨ ص ٢١

الأصلية ، حيث لا تنعدم الماء والمرعى . ولكن القبائل التى تقيم فى جوار الجبال ، وهى الجهات التى كان لها فضل كبير فى تشكيل حياة البجه الاجتماعية والاقتصادية ، لا بد لهم أن يتحولوا من موطن إلى آخر تبعا لما يقتضيه البحث عن المرعى .

وفى السهول الممتدة شمال المطيرة إلى القطر المصرى ، حيث يغلب الجفاف ، ويقل الماء الجارى أو ينعدم ، نرى الآبار بعيدة بعضها عن بعض ، وكثيراً ما كانت ملكية هذه الآبار مجالا للنزاع بين القبائل . ونظراً لقلة هذه الآبار نرى حولها زحاماً لا يكاد ينقطع ليلا أو نهاراً ، وعلى الأخص فى الليل . فلا تكاد تفرغ جماعة من رى ماشيتها ، وملء قربها ، والمضى فى سبيلها حتى تجىء جماعة أخرى . ولا ينقطع الغناء والنشيد أثناء هذا كله . ويزعم كلارك أن للبجه مئات من الأغانى ينشدونها وهم يسقون ماشيتهم ، ولكل نوع من الحيوان ، فى زعمه ، نشيده الخاص .

وإلى جانب الإبل يربى البجه قطعاناً كبيرة من الضأن والماعز . ويطلقون عليها اسم الماشية الدقيقة (الصغيرة الحجم) إذا قورنت إلى الماشية الجليلة وهى الإبل . والماعز كما هو معروف أكثر احتمالا لخشونة العيش من الضأن . ويقول كلارك إن البجه يربون الضأن ، بحيث يكون موسم الولادة فى الصيف حين يبدأ موسم المطر . ويأخذ النبات فى النمو ، فتمضى الحملان خلف الشياه وترعى معها . أما موسم الولادة للماعز فهو الشتاء ، حين تكون القبيلة أكثر استقراراً ، لأن الجدى الصغير يتعرض للضياع إذا ترك لكى يتبع أمه فى مواسم الانتقال . وتوقيت مواسم الولادة على هذه الصورة هو من عمل البجة أنفسهم ، ولكن لعل السبب الذى دعاهم إلى ذلك ليس ما يقوله كلارك من خوفهم على الجديان أن تضيع وهى تتبع العنزات ، بل إنهم أرادوا أن يجعلوا للضأن موسماً وللماعز موسماً ، حتى يكون لديهما موسمان لرعاية الصغار ، والعناية بها . وبالتالى يكون لديهم موارد للألبان واللحوم فى المواسم المختلفة .

ويربى البجه ، إلى جانب الإبل والضأن والماعز ، قطعاناً من البقر . وهذه الثروة الحيوانية ليست مقصورة على قبيلة من القبائل ، بل يشترك الجميع فى تربية البقر ، وإن كان بعضهم أغنى من البعض . وبديهى أن تربية البقر لا تتاح إلا

لسكان الأقطار التي يتوافر فيها المرعى فترة طويلة من السنة ، ولا سبيل إلى اقتناء البقر بواسطة سكان المتمور أو العتباى ، أو الأقاليم الشمالية بصفة عامة . ولكن نظراً لأن أوطان البشاريين قد اتسعت وامتدت إلى نهر العطبرة ، فإن هذه القبيلة أيضاً استطاعت أن تمتلك قطعاناً من البقر ، وإن كانت أقل بكثير مما يقتنيه الأمرأر أو الهدندوه أو بنو عامر ؛ أو القبائل الصغيرة من البجه مثل الحالنقا والأرتيقا . ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نسمي البجه رعاة بقر أو بقارة بالمعنى المعروف ، لأن البقر ليست هي الماشية الرئيسية لمعظمهم ، وأكثرهم لم يفكر في اقتنائها إلا في العهود الحديثة[1] . والجماعات التي تملك قطعان البقر ، هي في العادة نفس الجماعات التي تمارس الزراعة . وكثيراً ما ترى قطعانهم في سهول البطانة ترعى العشب ، وهي تشتمل على مزيج من الإبل والضأن والماعز والبقر والحمير . وهكذا نرى أن ماشية البجه أكثر تجانساً في الشمال ، حيث تغلب تربية الإبل ، ثم تزداد اختلاطاً وتنوعاً كلما اتجهنا إلى الجنوب . . . ولعل في تنوع الثروة الحيوانية في الجنوب ، ما يفسر لنا تفوق البشاريين الشماليين في تربية الإبل على جميع البجه .

وللبجه عادات خاصة تتصل باللبن وحلب الماشية ، منها أن الرجال كما ذكرنا من قبل هم الذين يحلبون الماشية ، وينكرون من الزبيدية والرشايدة (وهم عرب من اليمن حديثو الهجرة إلى السودان) أنهم يسمحون للنساء بحلب الماشية . ومنها أنهم لا يحلبون في أوعية من الفخار ، وإن كان لدى كثير منهم أوعية فخارية . والوعاء المفضل لحلب الألبان هو القرعة الجافة ذات القشرة السميكة ، أو أوعية الخوص ، وهي تصنع من الخوص الرفيع جداً . ويقول سلجمان إنهم ربما استخدموا قربة من الأدم لهذا الغرض أحياناً ، ولكن هذا نادر .

ومن عاداتهم أيضاً أن الرجل بعد الحلب لا يجوز له أن يذوق قطرة منه قبل أن يتناول منه شخص آخر جرعتين أو ثلاثة . ومن أكبر الوصمات أن يرتكب

---

(١) يقول الأستاذ سلجمان في مقاله The Hamitic Problem (مجلة JRAI سنة ١٩١٣ ص ٦٠٤ وما بعدها) إن بعض البجه يعدون البقر ماشية حقيرة ، وهذا القول ينطبق بوجه خاص على الأمرأر . وقد يتعداهم إلى غيرهم .

وحل هذا الأمر المنكر ، مهما بلغ به الظمأ . وهم يصفون هذا العمل المستهجن ، بقولهم « فلان حلب وشرب »[1] .

الصناعات :

حياة البداوة وكثرة التنقل لا تساعد على نشوء صناعات كثيرة ، فالصناعة مقصورة على الأشياء الضرورية . ومن الجائز أن تصنع أشياء قلائل لكى تباع فى أسواق بعض المدن للراغبين فى اقتنائها . والمادة الأولية بالطبع محدودة ، وأكثرها مشتق من النبات أو الحيوان . وأهم النبات نخيل الدوم ، وشجر السنط ، وأهم الغلات الحيوانية الشعر والصوف والوبر والجلود . والألبان بالطبع لصناعة السمن ، وليس هنالك مجال كبير لزيادة الإتقان والتفنن فى الصناعة ، إذا كانت الهمة متجهة إلى الفائدة العملية دون سواها . ومع ذلك فإن الطبع البشرى لا بد أن يكون له أثره ، ولذلك لا يخلو الأمر من بعض العناية بالتجميل .

ومن أهم أنواع النسيج ، صنع الشملات . وهى تصنع عادة من شعر الماعز ، وأحياناً من صوف الغنم ، ولكن أكثر ما يستخدم فيه الصوف هو لتجميل الشملات أو الأوعية الجلدية . وهذه الصناعة كما سبق ذكره من أخص عمل النساء .

وقد اشتهر بعض الأمرأر فى صناعة البرذعات والأكوار للإبل ، وجميع البجه يعترفون لهم بالبراعة فى هذه الصناعة . كما اشتهرت بعض العشائر البشارية بالمصنوعات الجلدية ، وبدبغ الجلود ، وبعض هذه المصنوعات قد تجد سبيلها إلى أسواق أسوان .

ويستخدمون فى الدباغة القرَد ، المشتق من شجر السنط . فيقطعون فروع الشجرة التى تحمل القرد ويتركونها لتجف . ثم يتخذون أحواضاً من الطين ويملأونها بالماء ، ويجعلون فيها القرد بنسبة رطل من القرد لكل قربة من الماء وفى هذا المحلول يضعون الجلود ثلاثة أيام سويا ، ثم يغيرون الماء . وهذه العملية تتكرر ثلاث مرات . تستخرج الجلود بعدها وتغسل بالماء مراراً . ثم تملأ بالطين وتعلق على الشجر لتجف ؛ وبعد أن يتم جفافها تؤخذ من الشجرة وينفض عنها التراب

---

(١) سلمان فى نفس المقال والموضع .

وتفصل وتخاط على شكل قرب . وتستخدم فى حفظ الماء ونقله من مكان إلى مكان ، ويبقى أثر الدباغة فى القربة فترة من الزمن ، ثم يزول بالاستعمال . ولا شك أن القرب المصنوعة على هذه الصورة من أحسن وأنسب الوسائل لحفظ الماء ونقله .

وإذا كانت الجلود تستخدم فى صنع أوعية لحفظ السمن ، فإنها علاوة على عملية الدبغ ، لا بد لها من أن تعالج بواسطة نباتات أخرى تجعلها أشد اندماجاً ، بحيث لا ينفذ منها الدهن .

والبجه بوجه عام شعب لا تزال تغلب عليهم الصفة العسكرية ، والطبع الحربى الذى أملته البيئة والكفاح للمحافظة على النفس والمال . وشجاعتهم وقوة احتمالهم مضرب الأمثال . وعلى الرغم من أن حكم القانون أخذ ينتشر ؛ وقل النزاع بين القبائل ، غير أن هذه الروح لا تزال سائدة فيهم ، متغلغلة فى نفوسهم . وسلاحهم الرئيسى هو السيف للهجوم ، والدرقة للدفاع ؛ وقلما يستخدمون الرمح ، أو القسى والسهام ، ولكنهم يحملون فى منطقتهم خنجراً منذ الحداثة ، ويظلون محتفظين به ، وليس هناك دليل على أن هذه الأسلحة ، باستثناء الدرقة ، هى من صنع أيديهم ، وليس فى أوطانهم معدن الحديد . ولذلك لا بد لنا أن نقرر أنهم يشترون سيوفهم وخناجرهم عن طريق البيع والشراء . ويبذلون جهداً ملحوظاً فى العناية بها ويحرصون على اقتناء أجودها وأحسنها ؛ ومن الجائز ، بل المرجح ، أن سلاحهم فيما مضى كان الرمح ، سلاح أهل الجنوب ، ولكن السيف جاءهم من الشمال ، أو من جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر ، فلم يلبثوا أن وضح لهم ميزة السيف على غيره من ضروب الأسلحة . فأقبلوا على اقتنائه . وكثيراً ما يطلق الواحد منهم على سيفه اسماً خاصاً ، كعادة فرسان العرب . ويروون قصصاً عن بعض السيوف وحدتها ، وكيف سقطت على الحجر ، فقطعته من أعلاه إلى أسفله وهلم جرا .

وتظهر النزعة الحربية للبجة حتى فى لهوهم ولعبهم . فيرقصون رقصاتهم الحربية على دقات الطبول ، وأناشيدهم وأغنياتهم تردد قصص أبطالهم . وإذا اجتمعوا فى المساء حول أكواخهم ، أو حول نار من حطب السنط ، أحاطوا برجل يضرب الرباب ، ويغنيهم الأناشيد الطويلة عن بطل من أبطالهم القدماء .

ومن رياضتهم المحبوبة أن يلقوا الحجارة على نصب من الخشب يضعونه على مسافة منهم ، ويختارون لهذه الرياضة الأحجار البطططة المستطيلة . ويبرعون فى هذا براعة تامة . ومع ذلك فإنهم لم يحولوا هذه المهارة إلى الرماية بالقوس والسهام ، ولكنهم كثيراً ما يصيدون الأرنب الوحشى بحجر يرمونه به من بعد .

ولهم بالطبع براعة خاصة فى ركوب الإبل ، وكثيراً ما يتسابقون عليها ، وحفلاتهم العامة فرصة لكى يظهر كل منهم براعته فى ضروب مختلفة من الركوب والعدو فى مختلف الصور والأشكال .

* * *

هذه خلاصة عن البجه عامة ، وأقسامهم وتاريخهم وأسلوب معيشتهم . وفيما يلى فصول تخص كل فرع من الفروع الرئيسية للبجه واحد منها ، ونتحدث فيه عن كل من تلك القبائل بشىء من التفصيل . على الرغم مما قد نضطر إليه من تكرار فى سرد بعض الصفات والأحوال الطبيعية أو البشرية .

الفصل الرابع

البشاريون (البشارين)

يحتل البشاريون النصف الشمالي من أوطان البجه ، متوغلين من جهة الشمال داخل الحدود المصرية ، وممتدين في الجنوب إلى سهل البطانة ، في مساحة تقرب من ۰۰۰ر۳۰ ميل مربع ، منها جهات تشرف على البحر الأحمر ، وأخرى تتصل بإقليم أسوان ، وأخرى تبلغ العطبرة . وهي متنوعة تنوعاً كثيراً من ناحية التضاريس والمناخ ، كما هو منتظر في هذه المساحة الهائلة التي تمتد من خط عرض ٢٤ شمالا إلى عرض ١٦ جنوبياً . ويقسم ساندرز أوطان البشاريين إلى أربعة أقاليم رئيسية وهي[1] :

(ا) الجوينب Gwineb : وهو المنحدرات الشرقية لجبال البحر الأحمر ، والسهول الساحلية التي تليها ، وتشمل جميع الأراضي التي تنحدر مياهها ووديانها شرقاً إلى البحر الأحمر ؛ ولا تدخل فيها المنحدرات الغربية التي تجرى سيولها — إذا وجدت سيول — نحو الغرب أو الجنوب الغربي ؛ أي إن هنالك خطاً لتقسيم المياه الشرقية ، عن الغربية ، وهذا هو الذي يفصل الجوينب عن ما عداه من بلاد البجه (الأولب)[2] ، ويلاحظ أن هنالك وادياً مستطيلا يجرى من الجنوب إلى الشمال في فجوة منخفضة بين جبل علبة شرقاً ، وبين الجبال الواقعة على حدود مصر والسودان . وفي هذا المنخفض يجرى الوادي المسمى باسم وادي دئيب . وهو « يصب » في البحر ، الأحمر في منتصف المسافة بين عيذاب والحدود المصرية . وعلى

---

(١) مقال The Bisharin تأليف O.E.R. Sanders في مجلة S.N.R. لسنة ۱۹۳۳ الجزء الثاني . أول مقال عن البشاريين في متناولنا الآن ، ولذلك اعتمدنا عليه كثيراً هنا .

(٢) تسمية المنحدرات الشرقية باسم جوينب والمنحدرات الغربية باسم أولب يسرى على جميع أوطان البجه ، التي يتمثل فيها الإقليمان ، وليس الاصطلاح مقصوراً على بلاد البشاريين

الرغم من أن هذا الوادى يصب فى البحر الأحمر ، فإن معظم مجراه وروافده واقعة فى الأقاليم الغربية ، ولذلك لا يعد حوضه جزءاً من الجويب .

وإقليم الجويب يمتاز بأمطاره الشتوية التى تتساقط ما بين نوفمبر إلى مارس كما سبق ذكره ، ولا يصل إليها من الأمطار الصيفية إلا النذر اليسير ، حيث توجد فجوات وسط الإطار الجبلى تنفذ منها التيارات الجنوبية .

ومقدار المطر الذى يتساقط على هذه المرتفعات والمنحدرات الشرقية ، ليس كبيراً وإن كنا لا نستطيع أن ندلى بأرقام صحيحة شاملة عنه ، فالمطر فى جندوناب لا يزيد على ٤٠ مليمترا ؛ وهذا الرقم قد يمدل كثيراً بعد إحصاء يتناول سنوات طويلة . فقد ثبت أنه قد يسقط فى بعض السنين أضعاف هذا المقدار . وفوق ذلك ليس لدينا محطات مناخية للجهات المرتفعة الجبلية . وهذه قد تكون أغزر مطراً من الساحل الذى سجل فيه ذلك الرقم . والمشاهد أن الجبال والأودية الجبلية ذات نبات غزير وأشجار كثيفة .

وهناك ظاهرة أخرى تؤثر فى النبات ونموه ، عدا ظاهرة المطر ؛ وذلك أن الرطوبة السائدة فى هذا الإقليم ، والندى المتساقط ، والضباب الذى يكسو هذه المنحدرات طوال فصل المطر ، كل هذا له تأثير مزدوج فى توفير قدر من الماء والرطوبة ، كما أن هذه الحالة تجعل التبخر قليلا ، بحيث يستفيد النبات فائدة كاملة من الأمطار المتساقطة على قلتها . ولا شك أن مجاورة البحر الأحمر هى العامل الأكبر فى تراكم الضباب والغيم المخيم على هذه المنحدرات ، والرياح الشمالية (التجارية) التى تهب من البحر ، تحمل معها قليلا من الرذاذ المتشبع بملوحة مياه البحر ، وهذا له أثره فى النبات وطعمه بالنسبة إلى الإبل التى تتغذى منه ، والتى لا بد لها أن تتعوده حتى تستسيغه . وهذا الأمر ينطبق بوجه خاص على الجهات الساحلية .

(ب) العتباى : هذا الإقليم الثانى من أوطان البشاريين ، يمتد من قمم المرتفعات الشرقية فى الشرق ، إلى وادى قبقبة فى الغرب ، ومن الحدود المصرية شمالا إلى وادى عامور جنوباً ، وهو واد يجرى فى اتجاه شرق غربى و « يصب » فى النيل شمال الشلال الخامس ، فى منتصف المسافة بين بربر وأبى حمد .

والظاهرات « النهرية » — إذا استخدمنا هذه الكلمة بشيء كثير من التجاوز — التي تسيطر على هذا الإقليم هي من غير شك مجموعتان ، تكون الأولى منهما وادي دئيب الذي يصب في البحر الأحمر ، ووادي العلاق ، الذي يصب في النيل في الموضع الذي يطلق عليه اسم العلاق ، الواقع شمال كرسكو بنحو خمسين كيلو متراً . وغنى عن البيان أن عبارة « يصب » في البحر الأحمر أو في النيل ، مستخدمة هنا بشيء كثير من التجاوز ؛ بل إن مصب العلاق ، أصبح الآن يمتلىء بالمياه المتدفقة من نهر النيل بسبب ارتفاع مستوى الخزان .

ومن الجائز بالطبع أن يجرى السيل في كل من العلاق ووادي دئيب ، ولكن مدة هذا الجريان قصيرة جداً . ومن المهم أن ننظر إلى هذين المجموعتين « النهريتين » بوصفهما ظاهرتين للتضاريس من جهة ، والوسيلة لتصريف مياههما ، حين تجرى فيهما مياه ، من جهة أخرى . ومما يؤسف له أن هذه الأودية لقلة ما تحمله من الماء ، ولم تلق بعد العناية الكافية من السلطات الرسمية ، فلم تعن بتخطيط مجراها وروافدها عناية تمكننا من تتبع خطوطها الرئيسية بشيء من الدقة ، ولهذا كان وصفنا لها وصفاً إجمالياً ، فأما مجموعة وادي دئيب ، فتتألف من أخوار تجرى من المرتفعات ، وتتجه نحو الغرب ، وذلك في الجزء الجنوبي الشرقي من إقليم العتباي وهنالك روافد قليلة — أشهرها وادي كياو ، يجرى من الغرب إلى الشرق ويصب أيضاً في وادي دئيب ، واتجاه وادي دئيب هو من الجنوب إلى الشمال ، حتى يخترق خط العرض ٢٢ في فجوة تنقطع عندها المرتفعات كما ذكرنا ، ثم يجرى شمالا حتى ينتهى إلى البحر الأحمر ما بين عيذاب وحدود مصر ، وفي مجراه الأخير ، قد تصب فيه روافد آتية من المرتفعات ، وهذه الروافد تجرى في هذا الموضع من الغرب نحو الشرق ، تغذيها الأمطار الشتوية ، وبذلك يجتمع في مجرى الوادي مياه صيفية في أعاليه ، وأمطار شتوية في أسافله . وهي على كل حال عبارة عن سيول قليلة قصيرة مدة الجريان .

هذا هو المظهر العام لوادي دئيب ، الذي يمتد في اتجاه جنوبي شمالي في التخوم الشرقية للعتباي ، ملازماً لدرجة ٣٨ من درجات الطول ، أما وادي العلاق ،

موقعه كله فى النصف الشمالى الغربى من العتباى ، ولا ينتفع بمياه المنحدرات الشرقية ولا بالأمطار الساحلية فائدة تذكر . ومع ذلك فإن مجموعة العلاق ، مجموعة تصريفية ذات شأن ، وذات حوض عظيم ، وتشمل مساحة واسعة من الأرض . ويمكن تقسيم حوضها هذا إلى قسمين : غربى ، وشرقى ، فالغربى يجرى فيه رافده الكبير المسمى قبقبة ، وطوله يزيد على الثلثمائة كيلو متر ، ويجرى من الجنوب إلى الشمال فى الجانب الغربى من العتباى ، ويتغذى من روافد كثيرة العدد قليلة المياه جداً ، معظمها يأتى من مرتفعات فى الشرق من مجراه ، وليست بعيدة عنه ، أى أنه لا يأتيه شىء من المرتفعات العالية الملاصقة للبحر الأحمر ، بل كل ما يحصل عليه من الماء مستمد من مرتفعات فى إقليم العتباى نفسه .

أما القسم الآخر لهذه المجموعة ، فهو وادى العلاق نفسه ، وقد يكون من حيث الطول أقل من وادى قبقبة ، ولكنه أكثر ماء ، لأن روافده العليا واقعة على المنحدرات الغربية من جبال البحر الأحمر ، وينتفع بما قد تحمله هذه الأودية من الأمطار ، وبعد أن يتلقى هذه الأودية ، يتجه نحو الشمال الغربى حتى يصب فى النيل كما ذكرنا .

والراجح أن هذه المجموعات التصريفية قد حفرت أوديتها فى وقت كانت الأمطار فيه أغزر مما هى اليوم ، وهذه الأودية تحكى فى جريانها ظاهرات التضاريس الأساسية للعتباى ، فهنالك المنحدرات الشرقية ، التى تجرى منها الأودية نحو الغرب ، وهذه تتحول بالتدريج إلى سهول منبسطة ، تكسوها الحصا أو الرمال الثابتة . فالمرتفعات هنا فى الشرق ، والمنخفضات تظهر بالتدريج فى الغرب . على عكس إقليم الجويف ، ولكن هذا الانحدار من الشرق للغرب ليس مطرداً ، بل تتخلله فى بعض المواضع كتل جبلية صغيرة المساحة قليلة الارتفاع كما هى الحال جنوب وادى العلاق الأعلى . ومعظم هذه الكتل جرداء قليلة الشجر والنبات ، وإن كان بعضها قد تنبع منه أودية تتصل بالعلاق ، أو بوادى كباو .

والحياة النباتية تتبع الظاهرات المناخية ، فالمطر أكثر ما يكون فى المرتفعات ،

حيث يكثر العشب والشجر ، ثم يقل النبات تدريجياً ، حتى يكاد ينعدم فى السهول البعيدة ، كما تقل فيها الآبار أيضاً .

(ح) والإقليم الثالث من مواطن البشاريين هو المسمى تماراب Tamarab ، وهو إقليم يحكى شكل مثلث قاعدته وادى عامور ، فى الشمال ، ورأسه فى الجنوب عند مشرع متاتب Mitateb ، على الضفة اليمنى لنهر العطبرة ، على بعد ٣٠ كيلو متراً إلى الشمال من قوز رجب . والتضاريس هنا تشابه من وجوه عديدة تضاريس العتباى ، أى أن الانحدار بوجه عام من الشرق للغرب ، مع شذوذ يبدو فى وجود كتل صخرية عالية وسط السهول ، كما أن الأستاذ ساندرز يشير فى مقاله الآنف الذكر إلى وجود سلسلة متقطعة من الكثبان الرملية تمتد من الشمال الغربى جنوب وادى عامور بالقرب من جراغابا (حيث توجد بئر مشهورة) فى انحناء نحو الجنوب الشرق ، مارة بأوباك Obak وأجرين Ogrein (حيث تخترق السكة الحديدية) ثم تستمر حتى تصل إلى يستنباى وستجوانب إلى الغرب من سكة حديد كسلا . هذه الكثبان الرملية تختلف عن الكثبان الصحراوية ، فى أنها أكثر ثباتاً واندماجاً ، وبعد المطر ينمو حولها العشب ، والرمال تساعد على حفظ المطر . وكثيراً ما تحدق الكثبان بمساحة من الأرض تجعلها بمثابة حوض من أحواض الزراعة ، مثل حوض يستنباى ، فتتيسر زراعته . ونظراً لأن هذا الإقليم أقرب إلى الجنوب كان مطره أغزر من العتباى بوجه عام .

(٤) الإقليم الرابع هو أقليم « النهر » . وإذا ذكر النهر بالنسبة إلى البجه عامة والبشاريين خاصة ، فهو نهر العطبرة . وإقليم النهر أصغر الأقاليم الأربعة مساحة ، وهو واقع كله على الضفة الغربية للنهر . فى صورة مثلث منفرج الزاوية قاعدته نهر العطبرة نفسه ما بين قوز رجب ، وبلدة جرمى على بعد نحو ٥٠ كيلو متراً من المصب ، ورأسه فى داخل البطانة عند آبار أم شديدة .

وعلى ضفتى النهر تتوافر الأشجار التى تعطى مرعى متوسط الجودة ، كما أن على الشواطىء والجزر مجالا للزراعة إذا انتفع به البشاريون ، وعلى النهر بعض السواقى لرفع الماء ولكنها قليلة ، وعيدان الذرة المتخلفة من الزراعة تمرىء الماشية

مرعى جيداً . وتمتاز التضاريس بالسهولة التامة ، فيما عدا بعض الكثبان الموازية للشاطىء الجنوبى للنهر . وبعد الأمطار يتوافر المرعى فى هذه السهول . ومعظمها أعشاب جيدة ، وهنالك أشجار من السنط قليلة الارتفاع مبثرة فى المساحة كلها . ويتخلل السهول بعض الأخوار ، التى تجرى فيها مياه المطر ، وهى ذات قيعان ضحلة واسعة ، وتصلح للزراعة بعد المطر ، وإذا جاد المطر أتت بمحصول وافر ، ويفضلها البشاريون على الزراعة النهرية .

هذا وصف إجمالى لمواطن البشاريين ، اتجهنا فى تقسيمه إلى هذه الأقسام الأربعة تبعاً للطريقة التى سار عليها ساندرز . لأن هذا التقسيم يمكننا من الأدلاء بصورة أكثر وضوحاً لهذه الأوطان ، وإن كانت هذه الأقاليم متصلة من الناحية البشرية ، ولا تمثل تقسيما للوحدات والأقسام القبيلية ، إلا على وجه التقريب ، والبشاريون المقيمون حول العطبرة بوجه خاص لهم طابع وتاريخ يميزهم نوعاً ما عن أقاربهم فى الجهات الشمالية .

* * *

فى هذه الأوطان المترامية الأطراف يعيش البشاريون ، وهم ليسوا جميعاً متصلى النسب والقرابة ، بل دخلتهم بعض العناصر غير البشارية واندمجت فيهم ، ولا تزال آثار هذا الاندماج واضحة فى أسماء بعض الجماعات « الدخيلة » وذلك بسبب التوسع الحديث فى القرون الثلاثة الماضية . وفيما عدا هذه الجماعات التى اندمجت فى البشاريين ينقسم هؤلاء بوجه عام إلى قسمين : وهما : (١) بشاريو أم على (٢) وأم ناجى .

(١) والبشاريون المنتسبون إلى أم على يشتملون على أربعة أقسام رئيسية ، وهى العلياب والعمراب ، وحمدوراب وشانطيراب . هؤلاء جميعاً فى السودان ، وهنالك بعض فروع لهم فى داخل حدود مصر . فللعلياب حلة بجوار أسوان ، وللحمدوراب أخرى بالقرب من دراو .

فالعلياب يحتلون أعالى نهر العلاق ومعظم المنحدرات التى تجرى منها روافده ، يليهم العمراب من جهة الجنوب فى مساحة أصغر وأضيق . أما الحمدوراب والشانطيراب فيحتلون المنحدرات الشرقية ، والسهول التى تليها على البحر الأحمر .

(ب) أما البشاريون المنتسبون إلى أم ناجي ، فيحتلون جميع أقاليم العطبرة والتماراب ، والأجزاء الجنوبية والغربية من العتباى ؛ ويمكن تقسيمهم إلى شعبتين : الشمالية في العتباى والتماراب وتشتمل على الإزاياب ويعيشون في الجانب الغربي ، والمنصوراتية في الشرق ، والنافعاب Nafaab ، والمديلوياب ، فيا بينهما ، وفيما يليهما من الجنوب .

أما في الجنوب فيعيش القسم الآخر ، بشاريو العطبرة ، وهم حمداب ، وإبراهيماب وويلاليياب ، وبطران ، وجاراب ، ومشبولاب ، ومداكر . وهذه الثلاثة الأخيرة لا تعد بشارية بالمعنى الصحيح ، ولكنها هي والمديلوياب من القبائل التي اندمجت في البشاريين ، وكانت بقايا لمجموعات أكبر .

وهذا القسم الجنوبي يطلق عليه أحياناً قسم العطبرة ولكنه يحتل إقليم العطبرة والنصف الجنوبي من إقليم تماراب ، وإن كان الأمرار قد احتلوا جزءاً منه غرب مسمار ، وعلى شواطئ النهر أيضاً .

وهنالك جماعة من البشاريين : تسمى هنار ، نتجت من اندماج بعض البشاريين والأمرار ، وتعيش منعزلة على شاطئ البحر حول دنجوناب والجبال التي تليها غرباً . وهذه الجماعة تعد جزءاً من بشاريي أم ناجي ، أو ملحقة بهم ، وإن بعدت مواطنها عن الأوطان الرئيسية لهم .

صلات النسب

رأينا كيف يصف المقريزي البجه بأنهم جيل من البربر . غير أن البشاريين اليوم لا يقرون مثل هذا النسب ، بل لا يكاد يخطر لهم ببال . ونحن نعرف أن البجه — سواء سموا بهذا الاسم ، أو باسم آخر — كانوا يقطنون هذا الإقليم منذ عهد طويل . وهم سكانه الأصليون وأن اسمهم « البجا أو البجاه » بضم الباء قد عرفوا به في العهد العربي ، ولكنهم اليوم يسمون أنفسهم البجه (بكسر الباء) . وليس في هذا وجه غرابة ، لأن حركة الضم كثيراً ما تتحول على مضي الزمن إلى الكسر . غير أن البجه اليوم ، مع اعترافهم بأنه قد سبقهم في ديارهم شعب يدعى

البُـجا ، يرى بعضهم أنهم يختلفون عنهم اختلافاً كلياً . والحقيقة أن نقطة الخلاف الوحيدة هي أن البجه في هذا العهد الأخير مسلمون ، يدعون الانتساب إلى أصل عربي . ولا شك أنهم قد دخلتهم دماء عربية في العهد الإسلامي ولكنها قليلة نسبياً لم تحدث بينهم أي أثر من الناحية الجسدية الطبيعية . ولكن المؤثرات العربية ظهرت في وضوح في المقتبسات اللغوية التي دخلت لغة تبداوى ، والدين الإسلامي الذي أصبح شائعاً بينهم . كما أن الاتصال بالعرب قد أثر في سالتهم النفسية ، التي جعلتهم يفتخرون أو يؤكدون نسبهم العربي على حداثته ، ويرجحونه على نسبهم البجاوى العريق القديم . وسنرى فيما يلي أن هذا النسب العربي له أساس من الواقع .

يزعم البشاريون أنهم من نسل كاهل ، وأن كاهلا هذا يرجع بنسبه إلى الزبير ابن العوام . وكاهل هو أيضاً جد الكواهلة الذين يعيشون في كردوفان ، ويرجعون بنسبه أيضاً إلى الزبير بن العوام[1] . والبشاريون يقولون أيضاً إن أجدادهم كانوا يعيشون في جبل عليه الواقع على بعد عشرة أميال إلى الغرب من عيذاب . ولعيذاب تاريخ مشهور سبق لنا شرحه . وقد ذكر ابن بطوطة في رحلاته إلى عيذاب (سنة ١٣٤٨) أنه صادف في رحلة جماعات من البجه ، ومن بني كاهل متجاورين ، وأن بني كاهل كانوا « مختلطين بالبجاه عارفين بلسانهم » . والكواهلة في كردوفان يتفقون مع البشاريين في بعض التفاصيل الخاصة بكاهل جدهم . وأنه كان له ثلاثة عشر ولداً من الذكور ، وأن أحدهم يدعى بشار . وهنالك اتفاق أيضاً في أسماء ثلاثة آخرين من أبناء كاهل . ومع بعد الشقة بين القبليتين البجاوية والعربية لا شك أن هذا الاتفاق له مغزاه

والظاهر أن العناصر العربية قد تم توغلها في بلاد البجه في القرن العاشر الميلادي ، وكانت أكثرها ينتمي إلى ربيعة (العرب الشماليين) ، وقوى الاتصال بين الفريقين ، وأصهر العرب إلى شيوخ البجه ، وكثيراً ما كان للبجه اتصال وثيق بالرؤساء والحكام في عيذاب . وكان أهم قبائل البجه التي يتحدث عنها المؤرخون العرب في ذلك الوقت هم المسمون الحدارب أو الحداربة ، وهم مسلمون .

---

(١) بعض البجه يرجع بكاهل إلى الوليد بن المغيرة .

أما اسم البشاريين فلم يكن له أى وجود فيما نعلم ، ولكن نستطيع أن نتصور أن بعض الأمراء من العرب قد أصهر إلى بعض البجه ، ثم ورث الإمارة والرئاسة فيهم ، ومن الراجح أن أحد الذين أصهروا إلى البجه على هذه الصورة كان فعلا ينتمى إلى بنى كاهل وإلى أحد أبنائه المسمى بشار أو بشارة ومنه اشتق اسم البشاريين .

ومهما يكن من شىء ، فإن بشارا ليس الآن سوى مجرد اسم ، وليس بين الأخبار والسير شىء آخر يدل على أعماله أو صفاته ، ومثل هذا يقال أيضاً عن معاصريه وأقاربه . وأول اسم له بعض الذكر فى تاريخ البشاريين هو اسم كوكا . أحد أبنائه وأحفاده . وتقول بعض الروايات إن بشارا له ولدان وبنت . فالولدان هما كوكا وكابان والبنت تسمى فاطمة ، ولم يكن لكابان أى أهمية فى تاريخ البشاريين وإن كانت هنالك جماعة صغيرة تحمل اسمه إلى اليوم ليست بذات خطر .

أما كوكا نفسه فكان رجلا فقيها وقاضيا وتاجراً فى آن واحد ، وكان يقضى الصيف فى جوار جبل علبة والشتاء عند مصب العلاق ، والرواية التى نحن بصددها ترجع به إلى القرن الحادى عشر والظاهر أنه كان يشتغل بالنقل والتجارة ما بين عيذاب ونهر النيل ، ولما زادت شهرته اتسعت رحلاته فشملت جهات أخرى من بلاد البجه ، وكان له سبعة أبناء لم يترك أحدهم أى أثر خطير فى القبيلة ، ولكن خلفهم إلى اليوم لا يزال يدعى باسم جدنا كوكا . أما أخته فاطمة فكانت تصاحبه فى رحلاته فى الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كانت تشغله واجباته كقاض فتقوم فاطمة بأعمال التجارة والبيع والشراء . والظاهر أنها اختطفت فى بعض الروايات وذهب بها خاطفها ، أو ذهبت هى معه حسب رواية أخرى ، إلى الجهات الشمالية فولدت من هذا العشيق أو الخاطف ولداً اسمه عنقو Anakw تقول الروايات إنه قد شب فتى وسيما فاتح اللون قوى الجسم طويل القامة ، وعندما كبر عاد إلى بلاده فانتزع ملك وادى العلاق من غاصبيه وبسط نفوذه عليه ، واتخذ له زوجتين من أسر البجه وهما أم على وأم ناجى . ثم تزوج فاطمة بنت هنار .

أما كوكا نفسه فقد قضى نحبه بعد عمر طويل ودفن بموضع يدعى كوكيلاى فى وادى إيكيدى ، بالقرب من آرياب ، الواقعة شمال مسمار بنحو خمسين كيلو متراً

واسم كوكا اسم غريب ، ليس له نظير الآن بين البجه ، ولعله اسم بجاوي قديم .

وهنالك رواية أخرى يرويها البشاريون لا تذكر شيئاً عن أبناء بشار ولكن تذكر أنه كان له حفيد يدعى حسب الله ، وكان له أربعة أبناء : كوكا ، وقدكوز ، وشيال ، وصالح ، ويجعلون لكوكا المكان الأول ، بينما الآخرون ليس لهم شأن ، ومن كوكا جاء بطريق التناسل الشرعي العادي حفيده المسمى عنقو Anakw وهكذا تلتقي جميع الروايات عند عنقو هذا . وسواء أ كانت قصة الاختلاف لها أصل ، ثم حولت إلى غير ذلك تبرأ من الوصمة ، فعلى كل حال يبقى أن هنالك ثلاثة أسماء بارزة في التاريخ القديم للبشاريين وهي بشار الجد الأول ، ثم كوكا الجد الثاني ، ثم عنقو الجد الثالث . وإلى هذا الأخير يرجع الفضل في تأسيس القبيلة بأقسامها الثلاثة التي نعرفها اليوم : وهي أم علي ، وأم ناجي ، وهنار . وقد يسمون أنفسهم أحياناً باسم Anakwiabab عنقو بآب تمييزاً لهم عن جدنا كوكا !

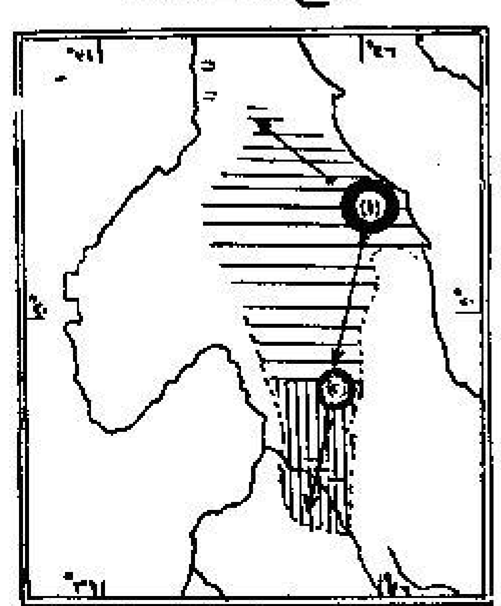
تزوج عنقو بثلاث نسوة ، أولهم أم علي ، وهي التي أنجبت أبناء وأحفاداً سميت بأسمائهم الجماعات المختلفة التي تشملها شعبة أم علي ؛ وأم ناجي كذلك هي التي أنجبت الأبناء والأحفاد الذين تنتمي إليهم القبائل الجنوبية . أما فاطمة بنت هنار فتنتمي إلى الأحرار حسب بعض الروايات ، ويتمثل نسلها في تلك القبيلة الضعيفة التي أشرنا إليها ، والتي تعيش بالقرب من دنجوناب ، ويدعى الأحرار الملكية في نصف نسبها .

ظاهر مما تقدم أن انتساب البشاريين إلى شخص من نسل كاهل ليس أمراً مستبعداً ، والراجح أن هذا الشخص كان اسمه — فعلا — بشاراً أو بشارة . والراجح أيضاً أن الأشخاص الذين خلفوا بشاراً في شجرة النسب كان منهم كوكا ومنهم عنقو ، وأن هذا الأخير هو الجد الذي تفرعت منه فروع البشاريين المختلفة . أما فيما عدا ذلك فلا تكاد نعرف من أمر هؤلاء الأجداد وظروف حياتهم وأعمالهم شيئاً .

المهاجرة والتوسع

تجمع الروايات المشتقة من مختلف المصادر على أن البشاريين جميعاً كانت نشأتهم الى جوار جبل عليه ، وأن احتلال الأقطار الجنوبية وعلى الأخص إقليم العطبرة لم يتم إلا بقوة السلاح فى العصور الحديثة ؛ والظاهر أن البشاريين يحكون فى نشأتهم وتطورهم جميع الظاهرات التى ننتظر أن نجدها فى الجماعات البادية ، وكيف يظهر بعضها على بعض ، ويندمج المغلوب فى الغالب ، ويعقد اللواء للقبيلة التى أمكنها أن تبسط نفوذها وتوسع سلطانها . وكل الشواهد تدل على أن تاريخ البشاريين ، عبارة عن أسرة نشأت فى جبل عليه منذ بضعة قرون ، ثم أخذت توسع

توسع البشاريين



١) نواة تكوين البشاريين حوالى ق ١٠ - ١١

توسع البشاريين حتى منتصف القرن الثامن عشر

٢) مقر محمد ود عمران - حوالى ١٧٦٠ م

الأراضى التى ضمها محمد ود عمران

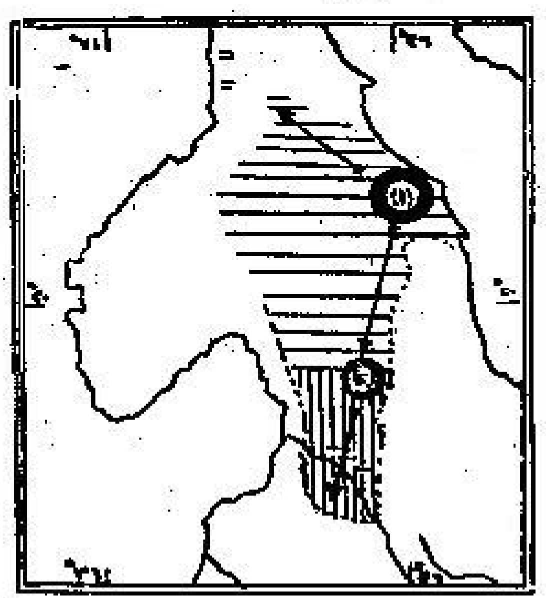
شكل (٢)

يوضح انتشار البشاريين من وطنهم الأصلى فى جبل علبة إلى الشمال والجنوب

المهاجرة والتوسع

تجمع الروايات المشتقة من مختلف المصادر على أن البشاريين جميعاً كانت نشأتهم إلى جوار جبل علبه ، وأن احتلال الأقطار الجنوبية وعلى الأخص إقليم العطبرة لم يتم إلا بقوة السلاح في العصور الحديثة ؛ والظاهر أن البشاريين يحكون في نشأتهم وتطورهم جميع الظاهرات التي ننتظر أن نجدها في الجماعات البادية ، وكيف يظهر بعضها على بعض ، ويندمج المغلوب في الغالب ، وينعقد اللواء للقبيلة التي أمكنها أن تبسط نفوذها وتوسع سلطانها . وكل الشواهد تدل على أن تاريخ البشاريين ، عبارة عن أسرة نشأت في جبل علبه منذ بضعة قرون ، ثم أخذت توسع

توسع البشاريين



(١) نواة تكوين البشاريين حوالى ق ١٠ - ١١

توسع البشاريين حتى منتصف القرن التاسع عشر

(٢) مقر محمد ود عراب - حوالى ١٧٦٠ م

الأراضى التي ضمها محمد ود عراب

شكل (٢)

يوضح انتشار البشاريين من وطنهم الأصلى في جبل علبة إلى الشمال والجنوب

شملت إقليما على الضفة اليسرى للعطبرة . وهم يدعون أن هذه الأوطان كانت تمتد على ضفتى العطبرة إلى نقطة « المقرن » أى حيث يلتقى بنهر النيل . وإذا صح هذا فمعناه أنهم فقدوا جزءاً من أراضيهم فى الطرف الغربى . أما من ناحية الجنوب ، فإنهم توسعوا توسعاً قليلا ، حتى وصلوا إلى الحدود التى يحتلونها اليوم .

وقد كانت السيادة أول الأمر لشعبة الحداب ، وظلت كذلك إلى آخر القرن الثامن عشر ، ومنتصف التاسع عشر .

فى أوائل القرن التاسع عشر مرّ السائح بوركهارت بأوطان البشاريين من الشمال إلى الجنوب . ويقول إن البشاريين فى أقصى الشمال كانو يعيشون هم والعبابدة فى شمال وجنوب حدود القطر المصرى ، يسود علاقاتهم الوئام والصفاء . ولكنه روى أنه كانت هنالك عداوة مستحكمة بين البشاريين والحداربة . ومعلوم أن الحداربة هؤلاء لابد أن يكونوا بقية من الحدارب القدماء ، الذين جاء ذكرهم فى رواية المقريزى ، ومن الغريب أنهم لم يأت لهم ذكر فى أحاديث البشاريين عن آبائهم وأجدادهم . ولا بد أن الذين جاء ذكرهم فى كلام بوركهارت ماهم إلا البقية الباقية من هذه القبيلة البجاوية القديمة ، الذين لم يبق لهم اليوم فيما نعلم أى أثر اللهم إلا تسمية الرأس الواقع جنوب عيذاب باسمهم (رأس الحداربة) [١] .

ولا بد لنا أن نفترض أنهم كانوا يوما ما هم المهيمنون على كثير من الأقاليم التى يحتلها بشاريو أم على اليوم ، وعلى الأخص فى الجهات الساحلية ، وأنه قد دارت بينهم وبين البشاريين حروب طويلة ، دوختهم وأدالت من سلطانهم ، وأن البقية الباقية منهم قد اندمجت فى البشاريين اندماجا تاما . وهكذا طوت الأحداث ذكرى هؤلاء الحداربة ، الذين يكثر ذكرهم فى أوائل العهد الإسلامى ، والذين كانوا أكبر القبائل البجاوية التى اتصلت بالحكام العرب ، على حدود مصر وفى عيذاب ،

---

(١) يكثر المقريزى وغيره من ذكر الحداربة دون أن يذكروا أى علاقة بين هذا الاسم وبين الحضارمة ، ودون أن يشيروا الى أن اسم الحداربة ما هو إلا تحريف للحضارمة (نسبة الى حضر موت) ، ومع ذلك فإن بعض الكتاب الأوربيين (مثل هارولد ما كما يكل فى كتاب تاريخ العرب فى السودان) يذكر ذلك صراحة بالنسبة لبعض الجماعات التى تعيش بالقرب من سواكن ، ثم جمع — من غير مبرر ظاهر — بين حضارمة الجنوب وبين الحداربة العباليين ، الذين أجمع كتاب العرب على أنهم من البجه . راجع الجزء الأول من ما كما يكل ص (٣٤٦)

يكن معترفاً بسيادته على بشارين أم ناجى فحسب ، بل كانت أم على تدين له أيضاً . والأرجح أن هذا الخضوع كان اسمياً ، لأن بعد الشقة يجعل من المستحيل أن يكون له سلطان قوى مفروض على الشعبة الشمالية . وان كان من الراجح أنه يكون له نفوذ كبير على بدنات أم على . كذلك يقول لينان إن البشاريين فى الجنوب كانوا خاضعين للحكومة ، ويؤدون الضرائب المفروضة عليهم .

والظاهر أنه بعد زيارة لينان بزمن قصير ، أى فى حوالى عام ١٨٤٠ انتقلت الزعامة من الحداب إلى الابراهيماب جيرانهم . كأنما هدوء النزاع بينهم وبين القبائل الأخرى ، من الشكرية والجمليين والهدندوه قد دفعهم إلى إثارة نزاع جديد فيما بين القبيلتين الشقيقتين ، طبقاً للتقاليد البدوية المأثورة :

وأحياناً على بكر أخينا ‍ ‍ ‍ ‍ إذا ما لم نجـد إلا أخانا

ويبـدو أن الحداب قد صدرت منهم مخالفات أحفظت رجال السلطة فى بربر والخرطوم ؛ ولذلك انحازت الشرطة إلى جانب الإبراهيماب . فتمت لهم الغلبة وأصبحت الرئاسة فيهم . ولا شك أن هذا أفضى إلى اضطراب الأمور فى بشارين أم ناجى . فلم يبق بعد هذا الحادث ذلك التركز القوى للسلطة فى يد رئيس واحد . لأن زعيم الإبراهيماب لم يكن له ذلك النفوذ الواسع على جميع القبائل الشمالية ، بل أصبح نفوذه مقصوراً على البشاريين فى منطقة المطيرة ، ولم يكن له على الشماليين سوى نفوذ اسمى . وكان الشيخ الأول من الإبراهيماب يدعى محمد أبو عيسى .

وتدل قائمة الضرائب التى كانت تجبى من البشـاريين فى ذلك الوقت ، على أن عددهم كان أكبر بكثير مما هو اليوم ، وثروتهم أعظم ، ونشاطهم الاقتصادى أوسع . فى هذه القوائم أسماء تسعة أقسام بشارية لم يعد لها اليوم وجود ، منها جماعة بنى قرب ، وكان ترتيبهم الثالث فى الثروة والجاه ، والذى يزور إقليم المطيرة اليوم يرى أن هنالك مواضع لسواق ونواعير قديمة لم يبق منها اليـوم سوى ما يقرب من ٦٠ ساقية ، تعمل اليوم ، ولا بد أن كان فى ذلك الوقت أربعة أمثال هذا العدد .

والمعلومات التى تركها لنا لينان دى بلفون عن البشاريين الشماليين (أم على)

لا تزيدنا شيئاً كثيراً عما نعلمه اليوم . فالأقسام التي رآها لا تكاد تختلف إلا اختلافاً يسيراً عما نعرفه الآن . وهو أيضاً يحدثنا أن العلاقات بين البشاريين والعبابدة كانت طيبة بوجه عام ، وأن أكثرهم ثراء هم قبائل جدوراب وشنطيراب الذين يعيشون في جبل علبه وعلى المنحدرات الشرقية ، فإن طيب المرعى مكنهم من تربية سلالات ممتازة من الإبل ، كذلك كانوا يصيدون أنواعا من الوعل ibex ويبيعون الجلود بسهولة في أسواق مصر والسودان . بل كثيراً ما كانوا يبيعـ للسفن التي ترسو على شواطئهم

ولم تكن حياتهم بوجه عام تختلف كثيراً عما هي عليه اليوم ، سوى أنهم لم يكن لهم رؤساء ذوو نفوذ قوي يخضعون لسلطانهم . والنساء كن أكثر حرية . ولم يكن في ذلك الوقت محتشمات في زيهن كما هن اليوم . وقد دهش لينان لجمال النساء في قبيلة بالجاب Balgab ، وقال إنهن أجمل نساء في البشاريين جميعاً ولو أن العفة لم تكن متوفرة كتوفر الجمال ، ويقول الأستاذ ساندرز إن الوصف في كلا الحالين لا يزال منطبقاً على هذه القبيلة إلى اليوم . ومن مظاهر الحياة عندهم في ذلك الوقت — ولم يعد لها وجود اليوم — أنه كانت تزورهم من آن لآن جماعات من المبشرين من الحجاز ، تبصرهم بأمر دينهم ، وتعلمهم تلاوة القرآن .

ويقول ساندرز عن بشاريي أم على إن الحكم المصري كان رفيقاً بهم ، ولم يحاول قهرهم أو السيطرة التامة عليهم ، بل كان يكثر من مجاراتهم على أهوائهم ، ماداموا مسالمين بعيدين عن كل عدوان ، والضرائب المفروضة عليهم كانت خفيفة بل لم يكن هنالك تشدد كبير في جمعها منهم

وفي عهد المهدية كانت حالة البشاريين في الشمال (أم على) ، تختلف اختلافاً كبيراً من حالهم في الجنوب (أم ناجي) . فالأولون كانوا بنجوة من سلطان المهدية من جهة ، حريصين على حريتهم واستقلالهم من جهة أخرى ؛ ولم تكن لهم زراعة تقيدهم بالأرض وتلزمهم البقاء في قراهم . وعند ما اتسع نفوذ المهدية ، أرسلت بعثات عديدة لإخضاعهم ، فكانوا دائماً يتغلبون عليها ، وكثيراً ما سحقوها

عن آخرها . ولا شك أن بعد الشقة ووعورة المسالك مما ساعد البشاريين (أم على) على النجاة من الوقوع تحت سلطان أتباع الخليفة .

أما بشاريو الجنوب (أم ناجى) ، فكانت حالهم مخالفة لهذا كل المخالفة . وظهور عثمان دجنة على رأس المدندوه ، ومشايعته للمهدية كانت من أهم العوامل فى التأثير فى البشاريين ، وقد كان عثمان دجنة يعطف على الحداب وشيوخهم ، ولذلك لم يلبث أن ناصرهم ، وقضى على زعامة الاراهياب ، وأخضعهم لسلطان جماعة عبد الكريماب ، الذين كانت أراضيهم فى الجزء الأسفل من العطبرة ، واتخذ عثمان دجنة مركزاً حربياً فى أدراما ، وبذلك أخضع جميع البشاريين فى الجنوب لسلطانه ، وجعلهم أحياناً يحاربون فى صفوفه ، وإن كان أكثرهم لم يفعل ذلك إلا مكرها .

وقد ترتب على ذلك كله أن ضعفت الصلات بين البشاريين فى الشمال وفى الجنوب . وزاد هذه الظاهرة تأكيداً تقدم الأمرأر وزحفهم نحو الغرب واحتلالهم إقليم سمار .

وكانت حكومة السودان ترى أن من المفيد لها توحيد جميع القبيلة تحت رئاسة ناظر واحد : على الرغم من اتساع المساحة التى يحتلها البشاريون . وحاولت أن تجد رئيساً يقبله الجميع ، فقامت دون ذلك صعوبات عديدة . ويقول ساندرز إن رؤساء العشائر أنفسهم لم يكونوا متحمسين لذلك ، أو لم يريدوا أن يحتملوا تبعة اختيار رجل واحد يرضاه الجميع فى الشمال والجنوب . وبعد زمن طويل ، وتردد كثير ، رأت الحكومة أن تفرض عليهم ناظراً من الحداب ، وهو أحمد كرار ، فعينته فى هذا المنصب فى سنة ١٩٢٨ ، وجعلت أخاه محمود كرار عمدة للبشاريين ، فى إقليم العطبرة ، لكى يدع ذلك مجالا للناظر للعناية بشئون القبيلة كلها .

حالة القبيلة فى الوقت الحاضر

لا تزال حكومة السودان تعد البشاريين قبيلة واحدة ، وذلك لتيسر على نفسها وسائل الاتصال بهم والتعرف عليهم . وهنالك بالطبع عناصر تشابه لاشك فيها ، كالبداوة المنتشرة بدرجات متفاوتة ، واللسان التبداوى ، والاحتكام إلى الشريعة

على الطريقة التى يفهمها قضاتهم ، وإلى العرف الجارى بينهم ، وهم يحترمون كل رجل اشتهر بالتقوى والصلاح ويجلونه ويعظمونه ويخضعون لحكمه ، على الرغم مما يقال عنهم من قلة التدين . ولكن وجوه الشبه بين الأفراد والجماعات ، يقابلها بعض وجوه الاختلاف فى أساليب الحياة ، وفى درجة البداوة ، وغير ذلك من التفاصيل ، لأن البيئة الواسعة التى يعيشون فيها ، واختلاف مظاهرها الطبيعية ، قضت بفرض بعض الاختلافات المحلية بين أقسام القبيلة .

والبداوة عند البشاريين لها طابع خاص بهم ، وليست مشابهة للبداوة فى إقليم كردوفان أو فى سهل البطانة مثلا . لأن البداوة فى هذه الجهات الأخيرة تجرى تبعاً لسقوط المطر . فتتحرك القبيلة كلها نحو الشمال أو نحو الجنوب . تبعاً لموسم المطر . وفى ذلك الموسم ترى كلها وهى تتحرك فى اتجاه واحد . وطبيعة المناخ فى إقليم البشاريين أو معظمه تحول دون هذه الحركة الجماعية . ولذلك يكون انتقالهم جماعات صغيرة جداً ، لا تتجاوز خمس أو ست أسر ، لأن المراعى ليست واسعة حتى تتسع لأكثر من هذا العدد . وسقوط المطر — وعلى الأخص فى الجهات الشمالية — غير مطرد ولا منتظم ، وربما سقط فى مكان ولم يسقط فى مكان آخر . لذلك تنتقل كل جماعة صغيرة إلى المكان الذى يبلغها سقوط المطر فيه . وقد يجيء عام يغزر فيه المطر بصفة استثنائية . فى هذه الحالة ينتشر النبات ويكثر المرعى فى العتباى والترواب . وفى مثل هذا العام قد تتحرك القبيلة كلها فى اتجاه مطرد . ولكن هذه الأحوال نادرة . وأكثر ما يحدث أن يسقط مقدار من المطر محلياً فى بعض الجهات فيؤمها عدد محدود من الناس بماشيتهم . .

والجهات الشمالية التى تتعرض لمطر غزير فى بعض الأعوام ، هى بوجه خاص الجهات الساحلية . وهنالك تتحرك جميع البدنات (من قسم أم على) نحو الساحل ولكن بشاريى أم ناجى لا ينتفعون بالإقليم الساحلى لأن إبلهم لم تتعود تلك المراعى الساحلية .

وبشاريو العطبرة ينزحون عن أوطانهم على شواطىء النهر فى الخريف ، عقب الأمطار ، بعضهم يذهب شمالا إلى منطقة الكثبان الرملية ، والآخر جنوباً إلى سهل البطانة وأخواره وأوديته .

ويصف لنا سانديرز فى مقاله المذكور حياة القبائل المختلفة وانتقالاتها ، وفيما يلى موجز لهذا الوصف :

العلياب والحدوراب : كلاهما له شعبة تعيش فى القطر المصرى . فالعلياب لهم « مستعمرة » قد استقرت بالقرب من أسوان . وعددها يبلغ المائة . والآخرون لهم شعبة أصغر عدداً تعيش بالقرب من دراو . وكلا الفريقين له شعب تتصل بالعبابدة فى داخل حدود القطر المصرى ، وبينهم مصاهرة ، وعلى الأخص مع قبيلة « الشباب » التى ترابط فى الجزء الشمالى لوادى العلاقى .

وثروة العلياب تتركز بوجه خاص فى إبلهم ، ويربون أشهر سلالات الإبل البجاوية وأحسنها وهى المعروفة باسم كيلايواو « Kileiwow » والعلياب أكثر البجه بداوة وانتقالا ، فيتحركون من الساحل إلى النهر ومن حدود مصر إلى المطبرة ، ولعل جودة إبلهم وسرعتها هى العامل المساعد على هذه الحركة الواسعة التى ليس لها نظير عند أية شعبة أخرى من شعب البجاه . ومما يؤكد بداوتهم أنهم لا يمارسون أية زراعة فى أى جزء من أقليمهم ، ويشترون حاجتهم من الحبوب من الأسواق المصرية أو السودانية .

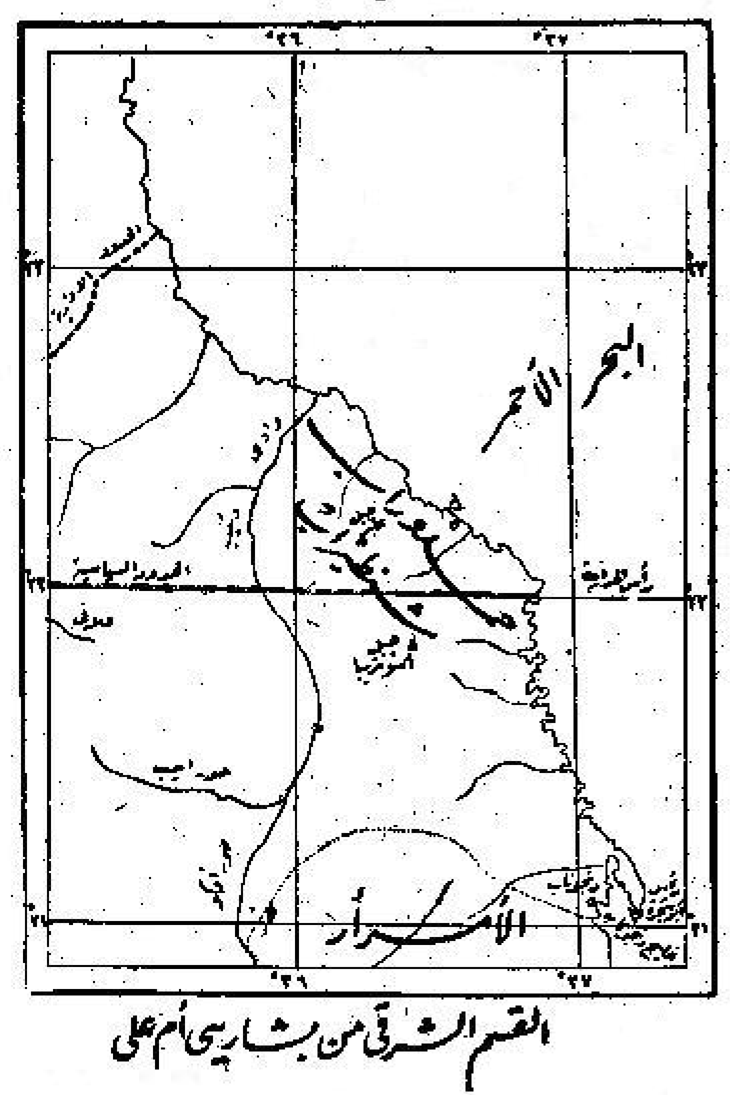
أما الحدوراب ، فلهم زراعة قليلة جداً فى الجزء الأسفل من وادى دئيب ، ولهم أيضاً قطعان كبيرة من الإبل أشهرها نوع يسمى البناجر ؛ ويربون نوعاً ممتازاً من الضأن الأبيض ، وأراضيهم أوفر مطراً وعشباً من أراضى العلياب ، وتشتمل على الأودية الخصبة التى تنحدر من جبل علبه نحو البحر الأحمر . وعلى الرغم من أنهم قد يصلون أحيانا فى رحلاتهم إلى نهر النيل والعطبرة ، فإنهم أقل بداوة من العلياب . وانتقالاتهم الموسمية أضيق مدى ، وقد ساعدهم اتصالهم بمراسى السفن ومراكز الحكومة فى عيذاب وحلايب ، على توسيع تجارتهم ، فأصبحوا أكثر تفهماً للحضارة واتصالا بها ، فالتحق كثير منهم بأقسام الحدود وقوات السواحل المصرية .

وأهم سلعة يبيعونها — وهذا ينطبق على العلياب أيضاً — هى الإبل والغنم . وأهم أسواقهم أسوان ودراو ، وزعما استخدموا بور سودان أيضاً ، وقد يصنعون

ويبيعون بعض الفحم النباتي في تلك الأسواق . وارتباطهم بوجه عام هو بالأسواق المصرية ، ولا يستخدمون أسواق السودان إلا قليلا .

والشنطيراب : يعيشون أيضاً على المنحدرات الشرقية ، ولكن جبالهم أكثر

شكل (٣)

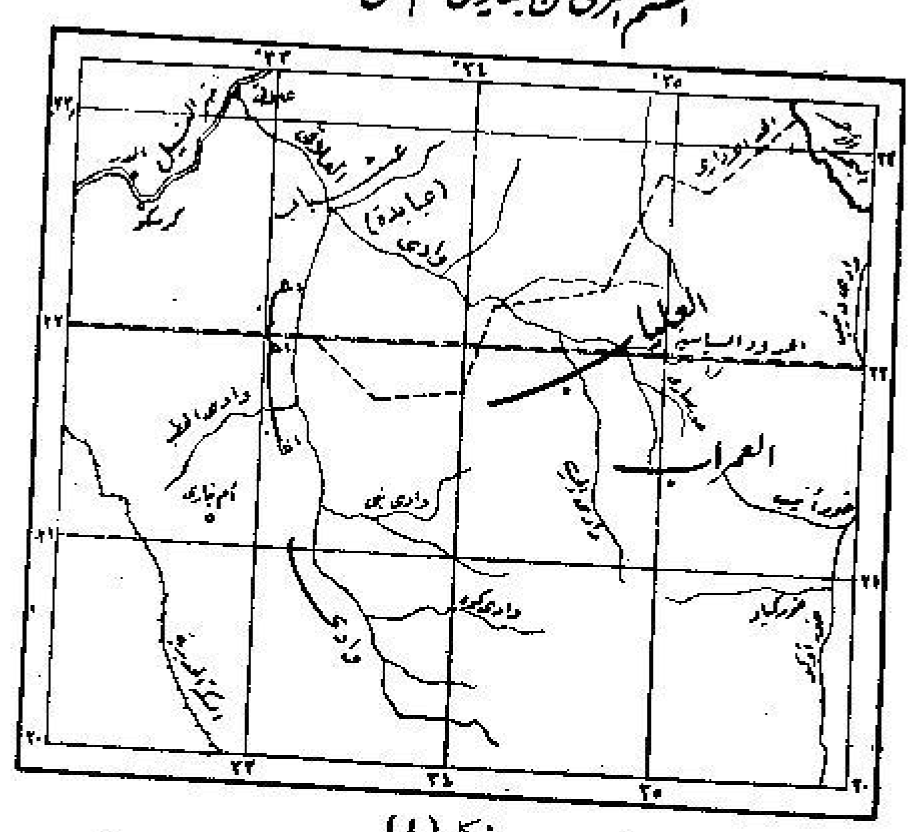


القسم الشرقي من بشاريين أم علي

وعورة ، والسهل الساحلي أقل اتساعاً . ويسكنون أوطانهم هذه في انقطاع شديد عن سائر القبائل ، وفي عزلة قل أن نجد لها نظيراً عند أية طائفة أخرى من البجة . وينفرون من الاختلاط ، ويتهربون من السلطان ، معتصمين بجبالهم . ويصفهم

ساندرز بأنهم أكثر البجة توحشاً ، وأقلهم ذكاء ، وهذا الحكم القاسي يمثل وجهة نظر الحاكم الذي يريد أن تصل يده إلى جميع السكان لأغراض الحكومة . والشنطيراب ظلوا زمناً طويلا بعيدين عن متناول الحكومة . وقد أنشئ في سنة ١٩٢٥ مركز للإدارة في نقطة سلالل ، بالقرب من أوطانهم فأمكن بذلك الاتصال بهم . ولكن هذا لم ينقص كثيراً من وحشيتهم وانقباضهم .

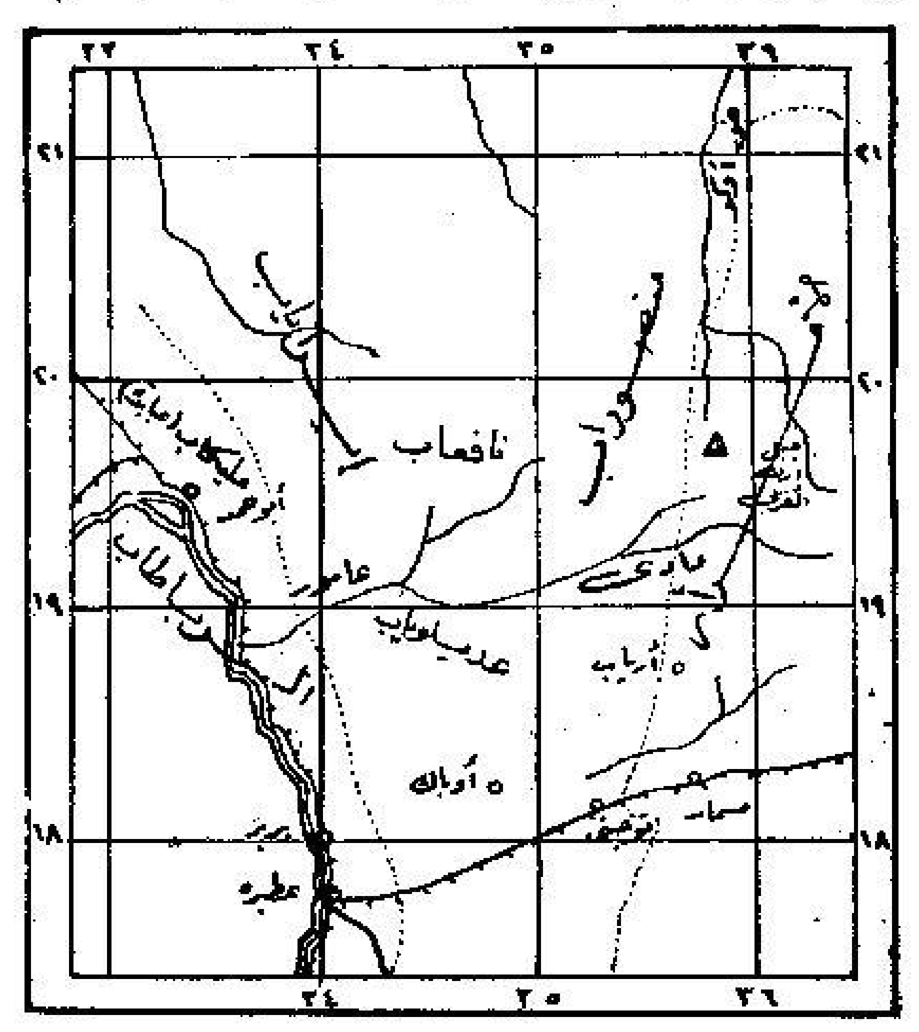
القسم الغربي من بشاريين أم علي



شكل (٤)

وجبالهم تشتمل على شجر كثير يرعى الحيوان ورقه . ولهم قطعان كبيرة من الضأن ، ولكن إبلهم ليست من طراز ممتاز . وليس هنالك ما يدعوهم لتربية أصناف ممتازة ، لأن حركتهم وانتقالاتهم قليلة . وهم من أقل الطوائف البجاوية بداوة ، لشدة التزامهم لأوديتهم وجبالهم ، ولهم زراعة محدودة في وادي دئيب الذي يخترق أرضهم ، ولكنها على كل حال أكثر مما يمارسه الحمدوراب .

أما العمراب : وهم الشعبة الرابعة من البشاريين (أم على) فأقل الأربعة خطراً ، تعيش فى أوطانها الواقعة جنوب أوطان الشنطيراب والعلياب ، فى أرض قليلة الماء والزرع حول خور يدعى خور أنيب ، وهو « رافد » من روافد وادى دئيب . وطبيعة بلادهم تدعوهم إلى الانتقال مسافات بعيدة أحياناً ، ولكنهم قلما



شكل (٥)

الجماعات البشارية الوسطى

يصلون إلى العطبرة ، وقد يزورون أسواق بربر أحياناً ، ولكن معظم تجارتهم مع أسواق أسوان ، ويمارسون بعض الزراعة فى وادى دئيب ، وفى الجنوب فى وادى عامور ، حيث يجاورون بشاريى أم ناجى . ومما يمتاز به نشاطهم صناعة

آخر يعتزون به ولو لم يكن من شيوخ شعبتهم أو من قبيلتهم . والوقت الوحيد الذى يلجأون فيه إلى زعيم الشعبة ، هو إذا جد الجد ودعا الداعى إلى جمع الجموع والتأهب للحرب

وتقسيم البشاريين إلى شعب أو طوائف ، مثل البليساب ، والمنصوراب ، والإراياب ، ليس هو التقسيم النهائى . بل إن كل شعبة تنقسم أيضاً إلى بدنات ، وهذا التقسيم يعترف به البشاريون ، وله تقاليده فى الرئاسة والوراثة ، وقد رأت الحكومة أن تقسم البدنات إلى حصص (جمع حصة) لسهولة تقسيم الضرائب وجمعها ؛ وهو أمر لا تلق فيه الحكومة توفيقاً كبيراً . ولكن الحصص أقسام لا يعترف بها البشاريون . ولا يقيمون لها وزناً .

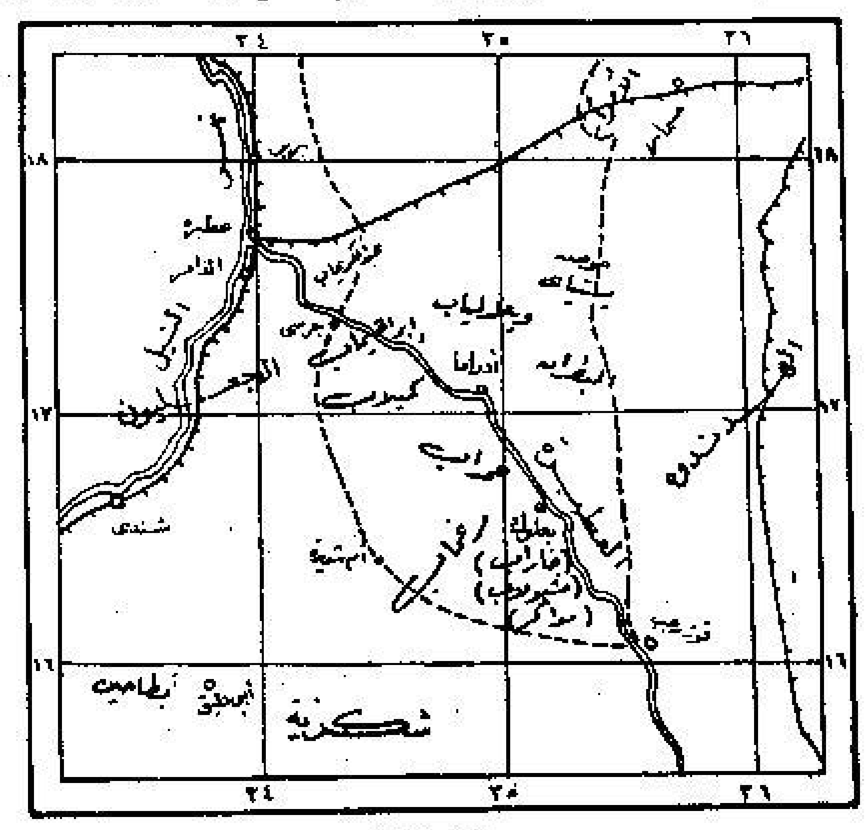
* * *

وهنالك — أخيراً — طوائف البشاريين فى المطيرة ، شمال النهر وجنوبه . وهؤلاء لهم عمدة واحد ، كما أن شياخة البشاريين جميعاً واقعة هنا أيضاً فى بلدة « بملوك » على الضفة الغربية للنهر . وهذا هو الإقليم الوحيد ، فى جميع الأقطار التى يسكنها البشاريون الذى نجد فيه قرى دائمة وحياة مستقرة فى بعض الجهات ، هذا إذا استثنينا بعض المواضع الساحلية مثل حلايب ودنجوناب ، التى لها وظيفة خاصة ، وهى المبادلة ، وقد يكون فيها مركز أنشأته الحكومة .

ولقرب المطيرة من الجهات العربية الصميمة ، نرى البشاريين هنا جميعاً يعرفون اللغتين العربية والبداوية معرفة متساوية ؛ ومع ذلك فإن عمدية المطيرة تشتمل على عناصر ، ليست كلها متساوية تماماً فى حياتها وأسلوب معيشتها ؛ ويمكن أن نميز ثلاث عناصر رئيسية :

أولها : الزراع ، الذين يعيشون عيشة نصف بدوية ، وهؤلاء هم البشاريون الحقيقيون ومعهم بعض عناصر من البجة امتزجوا بهم مثل الكمالاب . وهؤلاء يزرعون الجزر فى النهر والأودية الواقعة شرقه وغربه والشواطىء التى تحف به . ولهم أيضاً إبل وبقر وغنم ، وقطعان الغنم بوجه خاص كثيرة ، أما الإبل والبقر فعددها قليل . وهؤلاء ينقسمون إلى شعبتين : سكان الجانب الشرقى من الحداب

والإراهياب ، ومن والاهم ، من الكبابيش وغيرهم وهؤلاء حركتهم ورحلاتهم نحو الجنوب ، أما سكان الجانب الشرق ، فيتحركون نحو الشمال إلى منطقة الكثبان في يستياي وما يليها شمالا . وقلما تذهب بهم هذه الرحلات إلى أبعد من ١٥٠ كيلو متراً ، وعادتهم أن يقيموا على النهر — الموطن الرئيسي — من أكتوبر إلى آخر فبراير . ويبتعدون عنه من يونيه إلى أكتوبر ، وفيما بين الفترتين ، يعيشون



شكل (٦)
البشاريون في إقليم العطبرة

على بعد لا يزيد على الثلاثين كيلو متراً منه . ومعنى هذا أنهم يبتعدون عن النهر وقت فيضانه ، فإن الزراعة ليست متاحة حين يغطي الفيضان الجزر والجسور . وفي ذلك الموسم أيضاً تسقط الأمطار فليست هنا حاجة إلى التزام النهر .

العنصر الثاني : هم المرغاب ، وقسم كبير من الكبابيش ، وهؤلاء رعاة وأصحاب قطعان ، ولا يقيمون على النهر ولا يزرعون . وزراعاتهم بوجه عام قليلة ، وأكثرها

مركز فى أودية سهل البطانة . وعماد ثروتهم الإبل ، وقطعان أخرى من الضأن والماعز ، ومن أهم المواضع التى يستسقون منها آبار أم شديدة التى يدعى البشاريون ملكها ، وينازعهم فى ذلك قبائل أخرى .

العنصر الثالث والأخير : يشتمل على طوائف غير بشارية ، ولكنها تعيش مع البشاريين جنباً لجنب وأكثر من الجمليين ، ويسكنون دائماً على النهر لا يغادرونه وحرفتهم الأساسية الزراعة ويبنون قرى من طراز ما يبنيه الجمليون . وهؤلاء زراع قبل كل شىء ، وليست لهم حركات انتقال أو هجرة . وعلى الرغم من أن لهم بعض القطعان كما يكون للزراع ، فإن عمادهم الأساسى هو الزراعة . وهم مع ذلك يعيشون فى كنف البشاريين ، ويزرعون الأرض بإذن منهم ، ويدفعون لهم بعض الأجر نظير ذلك ؛ وقد أذن لهم البشاريون أيضاً أن يستغلوا شجر الدوم المنتشر على جوانب العطبرة ، وأن يجمعوه ويبيعوه . لأن البشارى قلما يرغب فى مثل هذا العمل . فهم يعيشون إذن تحت زعامة البشاريين . وبذلك تكون الشياخة البشارية تشتمل على نحو ثلاثة آلاف عربى .

* * *

هذا مجمل القول من حياة البشاريين ، التى تمتاز اليوم بشىء كثير من الهدوء وفى المساحة الواسعة التى يحتلونها ليس من السهل أن تراقبهم الحكومة أو تتبع حياتهم فى الصغيرة والكبيرة . وعزلتهم فى جبالهم وقيافيهم تحبب إليهم الحرية وتبغض إليهم أى تدخل كثير فى شئونهم ، وهم ينفرون من دفع الضرائب . لأنه لا بد لهم من قطع مسافات طويلة لبيع حيواناتهم ، ثم لا بد لهم من قطع مسافة أخرى إلى المركز الذى تدفع فيه تلك الضرائب . وفى العطبرة يمكن العثور عليهم بسهولة وقت نزولهم على النهر . أى موسم الجفاف . ولكن فى غير ذلك من الأوقات ليس من السهل العثور عليهم وتحصيل الضرائب منهم . ولا يكاد يظهر لهم شبح رجال الشرطة من بعيد ، حتى يختفوا عن الأنظار ومع ذلك فإنهم لا يضمرون عداء أو يقاومون رجال الحكومة أو يثيرون اضطراباً أو عصياناً ، وعلى كل حال ليست لديهم اليوم أسلحة نارية ، فلا يخشى أن يقوموا بعصيان مسلح جدى .

ويقول ساندرز إن أهم ما يميز أخلاق البشاريين التسامح والتسويف ، ولذلك تراهم يفصلون بسهولة فيما يشجر بينهم من خلاف أو نزاع ، ويحكّمون في كل ذلك رؤساءهم وتقاليدهم الموروثة . وقد ازدادت الزراعة انتشاراً بينهم عما كانت عليه فيما مضى ، بسبب تذبذب الأسعار في ثمن الإبل ، والماشية عامة .

وربما كانت خير وسيلة تقبع نحو البشاريين في المستقبل ، هي أن تتخذ الحكومة بعض الوسائل لتوفير المياه ، وتحسين الآبار ، حتى يتحول عدداً كبير منهم إلى حياة الإقامة والاستقرار مع ممارسة الزراعة . وقد تهيأت الأسباب لمثل هذا التطور ، بسبب الحكم المنتظم ، والاختلاط بالسكان الآخرين من غير البشاريين والبجه ، ومن كثرة غشيانهم المدن واطلاعهم على وسائل وأساليب الحضارة والحياة المستقرة .

ويعد البشاريون جميعاً قبيلة واحدة ، ناظرها يعيش على العطبرة في يملوك ، ويزور الشعب الشمالية مرة في كل عام في شهر مارس ، حيث يجتمع بالعشائر الشمالية (أم علي) ويفصل فيما بينها ، وهذا يجرى كله بالقرب من مرسى حلايب .

الفصل الخامس

الأمرأر

الجموعة الثانية من البجة ، التى تلى البشاريين ، إذا اتجهنا جنوباً وشرقاً ، هى الأمرأر [1] ، وهم اليوم أكثر عدداً وإن كانت أوطانهم أقل مساحة من البشاريين . وتوسع البشاريين نحو الجنوب جعلهم مجاورين لكل من الأمرأر والهدندوه ولكثير من القبائل العربية ، ولولا ذلك لكانت مواطن البشاريين كلها أبعد إلى الشمال من مواطن الأمرأر . وقرب البشاريين من مصر ، واحتلالهم للأقطار التى كانت ميادين الذهب تستخرج منها ، جعلهم أقرب إلى طرق الانتقال بين مصر والسودان ، وأكثر اتصالا بالعالم الخارجى . ولذلك كانت أعمالهم وأخبارهم وأحوالهم معروفة للسائحين ، الذين قلما صادفوا الأمرأر أو مكثوا بأرضهم زمناً طويلا . ولذلك لم تبرز أخبار الأمرأر ولم يتحدث عنها فى الأزمنة الماضية ، كما برزت أخبار البشاريين . ونظرة عاجلة إلى أوطانهم المنعزلة ، وبيئتهم التى يعيشون فيها كفيلة بأن توضح لنا السر فى ذلك .

القبيلة ومواطنها الحالية

اسم القبيلة — كما هو معروف الآن — مشتق من اسم جدها المزعوم أمر (والأرجح أنه محرف عن عمار أو عمرو) مضافاً إليه لفظ « أر » وهو فى اللغة التبداوية

(١) يراجع إلى جانب مقالة دائرة المعارف البريطانية عن الأمرأر ، مقالة فى مجلة National Geog. Magazine الأمريكية ، لسنة ١٩٢٩ ، عنوانها Two Fighting Tribes of the Sudan ، ومقالة ساندرز فى مدونات السودان لعام ١٩٣٥ ، وهى أهم ما كتب عن الأمرأر ، وقد اعتمدنا عليها كثيراً فى هذا الفصل .

جمع كلمة « أر » . بمعنى ابن ؛ فالأمرار إذن هم أبناء أمر[1] ، ويجيء ذكر الابن بعد ذكر الجد ، على الطريقة التي نجدها عند الإنجليز والاسكتلنديين ، في جاكسون وجونسن . أو عند الصقالبة في إيفانوف ، والأتراك في لاطوغلي ، وكثير غيرها من اللغات التي تضاف فيها كلمة الابن في الآخر بدلا من وضعها في الأول كما هي الحال في اللغات السامية — والظاهر أن العادة الحامية في إضافة المقطع إلى آخر الكلمة قد تسربت إلى العرب في السودان ، بإضافة آب في آخر الكلمة ، كما هي الحال في العبدللاب والرباطاب ، (بني عبد الله وبني الرباط) ويبدو أن هنالك فرقاً بين آب وأر ، إذا أضيفت كل منهما لآخر الكلمة لأن آب تفيد معنى الأهل ، وأر معنى الأبناء ، ولكن الفرق طفيف .

ويطلق اسم الأمرار في الاصطلاح العام على القبيلة كلها ، وعلى أقسامها المختلفة وهذا هو الاصطلاح الذي تواضع عليه الكتاب ، والذي يجري به اللسان عند الكلام عليهم ، في الأوساط العربية والمصالح الحكومية ، ولكن القبيلة نفسها ، بل وبعض جيرانهم من البجه ، يقصرون لفظ الأمرار على شعبة واحدة من القبيلة ، وهي الشعبة المسماة الفضلاب . أما سائر القبيلة فيطلقون عليه اسم « عثمان » وسيجيء شرح ذلك في الكلام على أقسام القبيلة . وإن كنا سنلتزم في كلامنا الاصطلاح العام ، وهو إطلاق اسم الأمرار على القبيلة كلها .

يحتل الأمرار مساحة من الأرض تبلغ ٨٠٠٠ ميل مربع ، وهي ترتكز من الناحية الشرقية على البحر الأحمر ابتداء من خط العرض ٢١ في الشمال إلى قريب من سواكن في الجنوب [illegible] بورسودان داخلة في أوطانهم [illegible] عدد غير قليل منهم . والحد الغربي من بلادهم عند محاذيا لوادي ديب ، ويحتلون الجزء الأعلى منه . وفي الطرف الغربي من بلادهم توسعوا جنوباً في الأزمنة الحديثة حتى احتلوا الأراضي الواقعة غرب بلدة مسمار وجنوبها الغربي . ولكن هذا التوسع نحو الجنوب اتخذ صورة لسان ضيق ، يمتد من خط عرض ١٩° إلى ١٨° ، وفيما

---

(١) يبدو أن الاسم الأصلي للأمرار هو أنهم أبناء عمار أو عمرو ؛ غير أن حرف العين لا وجود له في لغة البجه وبذلك حور الاسم إلى صورته الحالية . ولا بد من استخدامها كما هي .

عدا ذلك نرى أن معظم أوطان الأمرأر واقعة شمال خط عرض ١٩ وجنوب خط عرض ٢١ : وهي أطول من الشمال إلى الجنوب ، وعرضها من الحدود الشرقية إلى الغربية يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ ميلا .

وعلى الرغم من أن مواطن الأمرأر لا تمتد على البحر الأحمر ، إلا إلى نقطة تبعد بنحو عشرة أميال شمال بور سودان ؛ فإن لهم اليوم مساحة محدودة على الساحل جنوب بور سودان ، تحتلها جماعة نوراب ، وهي بمثابة جزيرة من الأمرأر في وسط أراضي الهدندوه ، في منتصف المسافة بين بور سودان وسواكن تقريباً ، وإن تكن أقرب إلى سواكن . وفوق ذلك يحتل نوراب منطقة طوكر ودلتا خور بركه ، ويجاورهم فيها جماعات أخرى من البجه ، وعلى الأخص بنى عامر .

والإقليم الذى يحتله الأمرأر يشابه الجزء الشرقى من أقاليم البشاريين ، أى أنه يشتمل على المرتفعات المجاورة للبحر الأحمر ، تخترقه من الشمال للجنوب . وهى له بمثابة العمود الفقرى ؛ يجاورها من الشرق السهل الساحلى ، أو الجويب ذى الأمطار الشتوية ، ومن الجانب الغربى المنحدرات التى تنخفض تدريجياً نحو الغرب ، وتسمى أولب . فهنالك إذاً ثلاثة أقاليم : السهول الساحلية ، والمنحدرات الشرقية والمنحدرات الغربية ذات الانحدار التدريجى . ويمتاز الإقليم كله بالوعورة الشديدة والأودية الضيقة التى تنحدر شرقاً وغرباً .

ويلاحظ أن توسع الأمرأر نحو الجنوب إلى منطقة السكة الحديدية غرب سمار ، قد ساعد عليه امتداد بعض المرتفعات الوعرة فى هذا الاتجاه . كأن الأمرأر قد ألفوا التزام المسالك الوعرة ، فلا يريدون الابتعاد كثيراً عن جبالهم ومرتفعاتهم .

ولكن إقليم الأمرأر يمتاز على نظيره فى الأوطان البشارية بأنه أقرب إلى الجنوب ، وحظه من المطر الصيفى أعظم من حظ الجهات الشمالية ، ومع أن وطن الأمرأر لا يدخل فيه إلا جزء يسير من العتباى والتراب ، فإن هذا الجزء أيضاً أوفر مطراً من الجهات الواقعة فى أوطان البشاريين .

فالوطن الذى يحتله الأمرأر فى الوقت الحاضر يمتاز إذن بالوعورة فى جملته ، ولا تكتنفه السهولة إلا فى الأطراف الشرقية والغربية ، المتاخمة للبحر الأحمر من

جهة ، وللعتباى من ناحية أخرى ، والكتلة الوعرة أعظم اتساعاً فى الجنوب منها فى الشمال ، وفيها عدد من القمم العالية ، أشهرها — ولعله أعلاها — جبل إربة ، الواقع إلى الغرب من محمد قل . ويقدر ارتفاعه بنحو ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر وهو القمة الشمالية فى سلسلة من القمم تمتد جنوبا إلى أن تحاذي السكة الحديدية إلى الشمال من تهاميم ، واتجاه السكة الحديدية هنا هو من الجنوب إلى الشمال ، والقمم واقعة غرب السكة الحديدية . وجبل إربة الشمالى هو أعلى هذه القمم كلها . وبعضها لا يزيد على ألف متر فى الارتفاع ، وهنالك جبلان آخران باسم إربة أحدها إلى الشمال من سنكات ، وغرب المحطة المسماة باسمه ؛ وهنالك جبل آخر منفرد اسمه إربة[1] فى أعالى وادى دئيب ، وهو على خط عرض بور سودان (١٩,٤٠) وهو منعزل عن سائر الجبال السابق ذكرها .

ويوشك ألا يكون فى بلاد الأمرأر فرجة وسط الجبال ينفذ منها نهر يخترق الكتلة المرتفعة من الشرق إلى الغرب ليصب فى البحر الأحمر على نحو ما رأيناه فى وادى دئيب ، فإن ارتفاع الكتلة متصل تقريباً من الشمال إلى الجنوب ، إلى ما بعد بلاد الأمرأر ، حتى تبلغ الانفراج الأكبر الذى يقع فيه مجرى خور بركة ، أما الأودية الكثيرة التى تكتنف هذه المرتفعات ، فتنحدر طائفة منها شرقا إلى البحر الأحمر ومن أشهر هذه الأودية وأطولها وادى أربعات ، وبعضها ينحدر غرباً إلى رافد وادى دئيب المسمى بوادى أوكو ، أو إلى وادى عامور ، ومن السهل تتبع خط تقسيم المياه فى معظم الأحوال ، ولو أن تخطيط هذه الأودية على الخرائط التى فى متناولنا ليس دقيقاً الدقة المطلوبة ، بل هو فى معظم الأحوال بعيد عن الدقة كل البعد .

ونظام المطر فى هذه الجهات كلها ، هو ما نتوقعه : أمطار أغلبها شتوى على الساحل والمنحدرات الشرقية ، وأخرى أغلبها صيفى فى المنحدرات الغربية . والمطر الصيفى أغزر .

---

(١) الراجح أن لفظ إربة وعلبة المتقاربين فى النطق وفى المدلول مشتقان من أصل واحد وبمعنى واحد فى لغة البجه ، وكذلك نجد لفظ إربة مضافا إلى لفظ آخر نسبة لبعض الجبال من Akareiriba الواقع فى الغرب من النقطة التى تنحنى عندها السكة الحديدية نحو الشرق إلى بور سودان .

وليست هنالك محطات ساحلية فى قلب أوطان الأصرار ، ولكن دعيوناب واقعة على حافتها الشمالية ، وبور سودان على حافتها الجنوبية ، وأرقام هاتين المحطتين تظهر لنا التدرج فى توزيع المطر من الشمال إلى الجنوب ، وهى بالمليمتر .

	يناير	فبراير	مارس	إبريل	مايو	يونيه	يوليه	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	الجملة
دعيوناب	١	٢	٠	٠	٢	٠	٠	٠	٠	٩	٢	١١	٣٧
بورسودان	٧	٤	١	١	١	٠	٦	٤	٠	١٤	٤٥	٢٦	١٠٩

فالأمطار الساحلية جلها شتوى ، وفى الجهات الجنوبية يتغذ قليل من المطر الصيفى إلى الساحل ، وهو لا يتجاوز عشر ما يتساقط من المطر كله . ومن الجائز أن المنحدرات العالية نوعاً يصيبها مطر أكثر ، إذا كان موقعها ملائماً . أما المنحدرات الغربية ، فمطرها صيفى دائماً ، ولا يكاد يصيبها من المطر الشتوى شيء ، ولا نستطيع أن نوازن بين الجهات الشمالية منها والجنوبية ، لأن المحطات كلها واقعة فى الجنوب ، ومثلها سنكات (ومقدار المطر السنوى فيها ١٢٤ مليمتر) وجبيت ، ومقدار مطرها السنوى ١١٩ مليمتر . والذروة فى كلا الحالين واقعة فى شهر أغسطس .

وارتفاع هذه الأمطار وانخفاض الحرارة فيها تبعاً لذلك من جهة ، والرطوبة الناشئة عن مجاورة البحر من جهة أخرى ، كانت سبباً فى نقص البحر نقصاً محسوساً ، وفى انتشار الرطوبة فى الهواء ، مما كان له أثر فى غزارة الحياة النباتية فى المرتفعات ، حيث نجد أنواعاً مختلفة من الحشائش والشجر ؛ أما المنحدرات والسواحل الشرقية ، فتنبت فيها أنواع من شجر السنط والنبخ ، والحشائش المرة ، التى تمتاز بها الجهات الساحلية على البحر الأحمر . والمنحدرات الغربية يقل نبتها وشجرها ، كلما اتجهنا غرباً ويتخللها شجر السنط .

والزراعة ليست سهلة فى هذه المنحدرات الوعرة ، ولكنها تكثر نوعاً فى الأخوار والأودية الغربية ، وبوجه خاص فى وادى أوكو Oko ، المتجه من الجنوب إلى الشمال وهو أهم رافد لوادى دئيب ؛ والأودية التى تأتيه من الشرق وتصب فيه مثل وادى هايت ، التى ينبع غرب بور سودان بنحو ٤٠ كيلو متراً .

والجزء الأسفل من هذه الأودية هو وحده الصالح للزراعة ، ومقالة ساندرز عن الأمرار تفيد أن الزراعة على المنحدرات الشرقية قليلة جداً ، أو هى فى حكم المعدومة ، اللهم إلا فى دلتا وادى أربعات .

أقسام القبيلة وفروعها

سبقت الإشارة إلى أن الأمرار أنفسهم ، بل وكثير من البجه يقصرون اسم الأمرار على شعبة واحدة من القبيلة ، وهؤلاء هم الأمرار القح Amar'ar Proper أما الشعبة الأخرى التى تسمى العثمان ، فإنهم يعتزون أيضاً بالنسب إلى أمر ولكن من طريق المصاهرة .

والشعبة الأولى تضم البدنات التى يطلق عليها إجمالا اسم فضلاب ، وهى تحتل ثلاث مواطن منفصلة .

١ — الوطن الأول وهو الأكبر ويمتد من منطقة السكة الحديدية حول محطة سلوم ، ويشمل الجزء الأوسط من مجرى وادى أربعات ، والجزء الأعلى من وادى عامور ، وهو كبير الامتداد من الشرق إلى الغرب ، محدود من الشمال للجنوب ، وبعض البدنات فى هذا الإقليم يطلق عليها اسم محمداب .

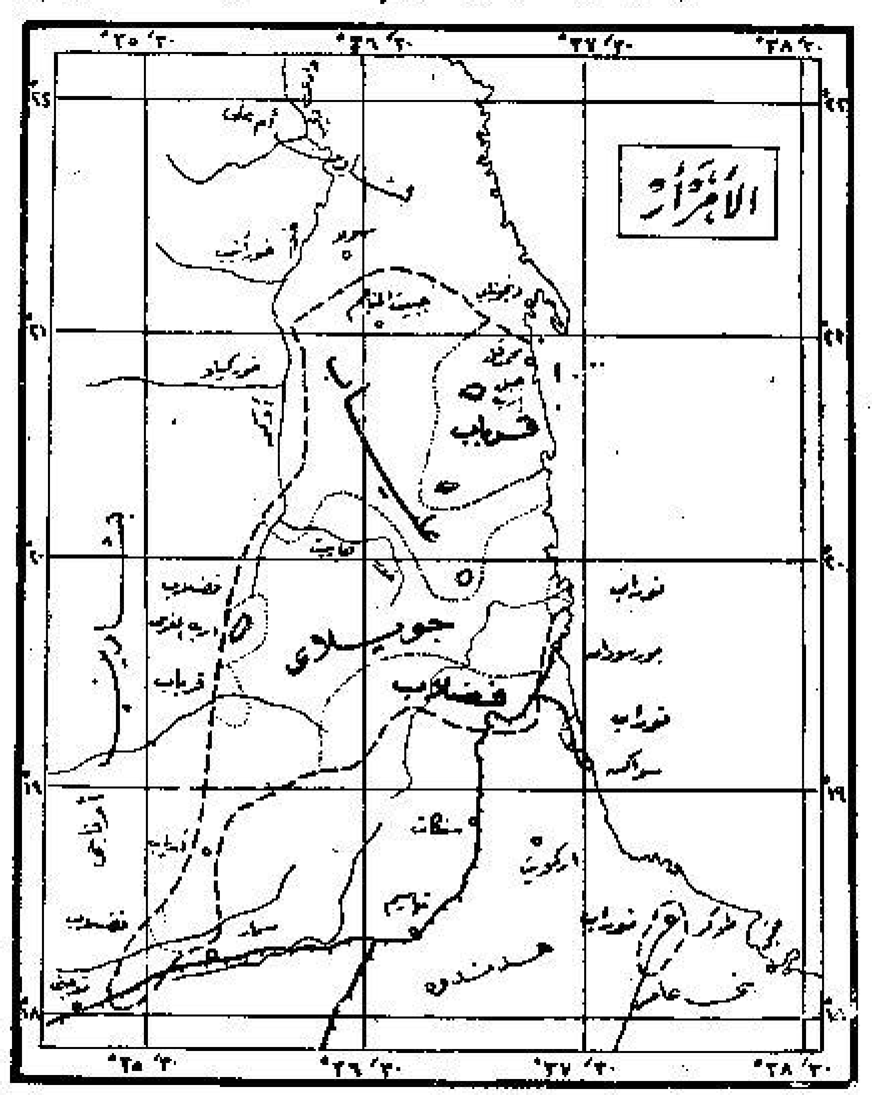
٢ — الوطن الثانى مساحة محدودة حول جبل إربة الغربى ، منفصل تماماً عن الإقليم الأول .

٣ — الوطن الثالث ، مساحة محدودة أيضاً ، فى إقليم الخط الحديدى غرب سمار وحوالى محطة توجنى Tojiny ، وهذا أيضاً إقليم منفصل ، وهو آخر امتداد للفضلاب نحو الجنوب ، ويطلق على جماعة الفضلاب فى الإقليمين الأخيرين اسم عشباب وواضح من هذا التوزيع أن الوطن الثانى والثالث ، منفصل عن الوطن الأول بواسطة مساحة عظيمة يحتلها جماعات جويلاى ، وهذا مما يحمل على الظن بأن أوطان الفضلاب كانت متصلة ، حتى فصل بينها امتداد هذه الجماعات نحو الجنوب ، واحتلالها أقطاراً كانت فيما مضى ملكا للفضلاب .

* * *

أما الشعبة الثانية ، المسماة عثمان فتحتل الشطر الأكبر من مواطن الأمرأر ، وتنقسم هذه الشعبة إلى أربعة أقسام رئيسية وهى :

١ — العَليَاب : وتشتمل على خمس بدنات ، تحتل مساحة كبيرة فى



شكل (٧)

أقسام الأمرأر (من ساندرز وغيره)

الشمال الغربى من أوطان الأمرأر ، ولهم مساحة ضيقة تمتد شرقاً حتى البحر الأحمر .

٢ — القرباب ، وهم يمثلون بدنة واحدة ، ويحتلون مساحة مربعة فى الشمال

الشرق من مواطن القبيلة ، ويحيط بهم البشاريون من الشمال ، والعلياب من الغرب والجنوب

ولهم فوق ذلك مساحة صغيرة منقطعة جنوب جبل إربه الغربي ، أي جنوب الفضلاب المنعزلين في الغرب ، والقرياب هنا في هذه الجهة المنعزلة قد اتصلوا بالبشاريين وتزاوجوا معهم ، فلا تكاد تصلهم بسائر القرياب أية صلة .

٣ — النوراب ، وهم أيضاً بدنة واحدة ، ولهم ثلاثة أوطان صغيرة موزعة، أولها حول دلتا وادي أربعات ، والثانية مساحة ضيقة مستديرة على الساحل بين سواكن وبور سودان ، والثالثة في طوكر ، حيث أمكنها بوضع اليد أو الرجل أن تكتسب حقاً شرعياً في أرض لم تكن داخلة في نطاق بلاد الأمرار .

٤ — الجويلاي ، ويكونون خمس بدنات تنتسب على التوالي إلى عبد الرحمن وعبد الرحيم ، وموسى ، وسندير ، وعمر جيصا ، ووطنهم يعادل وطن العلياب اتساعاً من البحر الأحمر شرقاً ، إلى قرب جبل إربه الغربي ومن حدود العلياب شمالا إلى غربي محطة مسمار جنوباً .

وبعض الأمرار قد استطاعوا فيما مضى أن يصلوا إلى العطبرة ودلتا الجاش ، ولذلك لا يزالون يدعون أن لهم أرضاً في هذين الإقليمين ، وإن لم يكن لهم اليوم مساكن دائمة هناك .

النشأة والتاريخ

إن إقليم الأمرار — وعلى الأخص في حدوده الأصلية — هو أشد أقاليم البجه عزلة ، وأبعدها عن طرق الانتقال ، وحركات الهجرة ، وهذا الموقع المنعزل يضمن لهم كياناً أدى إلى الاعتكاف ، والبعد عن الاختلاط إلا بقدر يسير ، مما يساعدهم على الامتناع على أعدائهم ، واتقاء عدوانهم . وإذا سلمنا بأن البجه سكنوا أوطانهم هذه منذ زمن مديد ، فلا شك أن الأمرار قد ضمن لهم موقعهم الجغرافي حياة متصلة مستمرة في مدى آلاف من السنين ، ومكنهم — إذا شاءوا ذلك — أن يحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم أكثر من أي قسم آخر من البجه . وقد

يضع سلجمان ، فى مقاله عن المشكلة الحامية فى السودان ، الأمرأر فى المكان الثانى بعد بنى عامر ، من حيث نقاؤهم وبعدهم عن الاختلاط بعناصر غريبة بخلاف الهدندوه والبشاريين ، واعتمد فى حكمه هذا على الصفات الطبيعية التى لاحظها فى الأمثلة القليلة التى اختبرها ، ولعله لو لقى الفرصة لاختيار أوسع وأشمل ، لحكم بأن الأمرأرهم أكثر البجه نقاء وصفاء ، واحتفاظاً بالصفات الحامية الأصيلة . فإن الموقع الجغرافى لمواطن بنى عامر ، ومجاورتهم للهضبة الحبشية يجعل من الصعب أن نتصور أنهم أصفى أرومة من الأمرأر . ولئن كانت قبيلة بنى عامر اكتسبت لغة الخاسة ، إلى جانب لغتها الحامية ، فمن غير المألوف أن تأثرهم بثقافة غريبة لم يكن مصحوباً بتأثرات أخرى ، واختلاط بدماء غريبة .

مما يمتاز به الأمرأر اليوم أن لهجتهم التى يتحدثون بها هى أنقى وأحسن اللهجات فى اللغة التبداوية . وجميع البجة يقرون لهم بالفضل فى سلامة لسانهم ، وتفوقهم فى هـذا على الجميع . ومن المقرر أن نسبة الأشخاص الذين لا يعرفون العربية ، ولا يتكلمون لغة سوى التبداوية ، هى أعلا عند الأمرأر منها عند أى قبيلة أخرى من البجة . وبعبارة أخرى إن الجهل بالعربية أكثر ذيوعاً وانتشاراً بين الأمرأر منه فى أى جماعة أخرى من البجة . ومعنى هذا أن النفوذ الثقافى العربى لم يتغلغل فى ديار الأمرأر وإن كانت الديانة الإسـلامية قد استطـاعت أن تبسط سلطانها على الجميع أسوة بسائر البجة . وهكذا نرى أن ما توحى به البيئة من قلة الاختلاط والاتصال ، قد صدقته الحالة الاجتماعية والثقافية .

ولئن كانت هذه الشواهد توحى لنـا بأن الأمرأر من صميم البجة ، وأنهم يمثلون عنصراً حامياً خالصاً ، فإن مما يزيد عجبنا أن نراهم يصطنعون الأنساب العربية ، ويتناسون الأدلة الواضحة التى ذكرناهـا والتى تميزهم على جيرانهم من العرب ، ولهم بالطبع فى ذلك عذر ، كما أن البشاريين لهم عذر فى انتسابهم للكواهلة كما رأينا من قبل ، لأن النسب العربى مهمـا كان متأخراً فى زمنه ، وضيقاً فى حدوده ، فإن الإسلام قد رفع من شأن هذه النسبة ، وأكسبها لوناً براقاً لم يلبث أن طغى على المجد القديم ، والنسب الحـامى العريق . ولعل البجة

لو ذكروا أنهم من أقدم وأعرق القبائل فى السودان ، لأدركوا أن فى ذلك من أسباب الفخر ما يجعل للخئولة الحامية مقاما ، قد لا يقل خطراً من العمومة العربية .

والأمرار قد لا يقلون فى عراقتهم عن البشاريين غير أن معلوماتنا عنهم أقل . وهم مثل البشاريين ينتسبون إلى الكواهلة ، وأن جدهم امر كان أحد أبناء أو أحفاد كاهل ، وكان أخاً شقيقاً أو أخاً من الأب فقط لبشار جد البشاريين . ذلك ما يزعمه الأمرار ، والبشاريون أنفسهم يسلمون ببعض هذه القرابة ، ولكنهم ينكرون أن أمر كان أخاً لبشار ، بل إنه أحد أبناء العمومة البعداء ، وأنه عاش بعد بشار بأجيال عديدة . . . وليس بمعروف عن أمر هذا أية أنباء أخرى .

ولكن الشواهد تدل على أنه كان زعيما ذا خطر ، وأنه كان أخاً شقيقاً لمرغم « جد المرغماب » وأخا من الأب لكمال و كميل جد الكمالاب والكميلاب . ولم يحدثنا الرواة بشىء عن والد هؤلاء الأبطال الأربعة ، ولعله كان رجلا خطيراً ، وربما كان فعلا من قبيلة عربية ، وأنه أمكنه بالمصاهرة أن يؤسس هذه القبائل الهامة بين البجة .

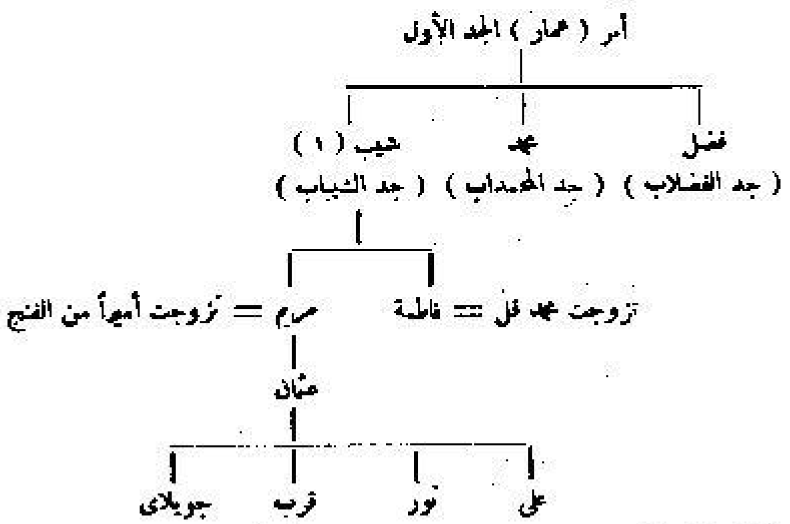
وصفوة القول ، أن كل ما نستطيع أن نستنتجه من هذه الروايات أنها تأييد للقصة المشهورة التى لا شك فى صحتها بأن الكواهلة قد نزلوا على شواطئ البحر الأحمر ، واتصلوا بالبجة ، وكانت بينهم مصاهرة . وأن نتيجة هذه المصاهرات ليست مقصورة على البشاريين بل تناولت الأمرار أيضاً . أما أن الأمرار قد اخترعوا هذه النسبة تقليداً للبشاريين كما يشير ساندرز فى مقالة فأمر مستبعد .

وتتفق الروايات على أن أمر أنجب خمسة من الذكور منهم فضل ومحمد وشيب ، الذين تنتسب إليهم الجماعات التى تحمل أسماءهم والتى سبقت الإشارة إليها . وأن إحدى حفيداته تزوجت من رجل يدعى محمد قل ، الذى يسمى باسمه المرفأ الواقع شمال بور سودان بنحو مائة ميل ، وكان مقره الأصلى سواكن . وأن حفيدته الأخرى مريم تزوجت رجلا من عظماء الفنج فى سواكن ، فأنجبت منه ولداً ، سمى عثمان وأن عثمان هذا تزوج امرأة من الأمرار ، وأنجب منها أربعة أولاد : على ،

ونور ، وقُرب وجويلاى ، الأجداد الأربعة للفروع الأربعة التي تنتمي إلى عثمان .

وكان جويلاى أصغر أبناء عثمان سناً ، وأكثرهم حيلة وأقوامهم مراساً ، فالرواة يزعمون أنه تزوج خمساً من النساء ، لم تكن منهن واحدة من الأمرار ، بل كلهن من البشاريين أو الارتيقا أو الحدندوه أو بني عامر ، ولا شك أن هذه الرواية ترسم لنا الصورة التي تم بها للأمرار عامة ، وللجويلاى بوجه خاص ، التوسع على حساب القبائل الأخرى عن طريق الزواج والمصاهرة ، وإذا كانت مصاهرات جويلاى المختلطة جاءت عن عمد وخطة مرسومة ، ولم تكن نتيجة الصدفة المحضة ، فإن هذا مما يؤكد حسن سياسته وبعد نظره .

وهكذا نستطيع تبسيطاً لهذه الروايات الكثيرة أن نرسم شجرة النسب للأمرار على الصورة الآتية مع استبعاد الأسماء التي لم تترك أثراً هاماً :



وهكذا نرى كيف تفسر لنا الروايات انقسام الأمرار ، إلى الفضلاب وإخوتهم وإلى العثمان وفروعهم الأربعة ، وأعظمها بلا شك الجويلاى . والظاهر أن عثمان كان يعيش حوالى ١٦٠٠ — ١٦٥٠ ؛ وقد أمكن لشعبة عثمان ، بفضل حسن سياستها ودهاء قادتها أن تصبح لها الزعامة على جميع قبيلة الأمرار ، بما في ذلك

(١) أنجبت شيب المذكور أبناء لاخطر لهم ، وابنتين فاطمة ومريم والثانية هي أم عثمان .

شعبة الفضلاب والعثمان ، وقد استطاعت جماعات العثمان أن تتوسع نحو الغرب فى نحو المائتى عام الأخيرة ، حتى أصبحت تحتل جميع الإقليم الذى تسكنه اليوم ، بما فى ذلك الامتداد الضيق إلى منطقة غربى مسمار . وبعض المهجرات إلى العطبرة ودلتا الجاش وخور بركة .

وقد ظلت الزعامة معقودة للعثمان على جميع القبيلة ، إلى أن جاء عهد المهدية ، وفى زعم سساندرز أن الخلاف بين العثمان والفضلاب بدأ يظهر قبل المهدية بزمن يسير ، بسبب التنافس على حراسة الطريق بين بربر وسواكن ، وتحصيل الإتاوة من القوافل فى هذا الطريق . والظاهر أن العصر السابق للمهدية كان يمتاز بالهدوء التام بالنسبة لجميع الأمرار ، وكان تدخل الحكومة فى شئونهم قليلا جداً ، ولم يكن لها اتصال وثيق إلا بالجماعات المجاورة لسواكن ؛ وقد بلغ ما تحصله منهم من الضرائب حوالى ٦٠٠ جنيه ، مما يدل على أن جزءاً صغيراً من القبيلة كان يدفع هذه الضرائب . ولعل أكثرها كانت تدفعه الجماعات التى تجنى أرباحا من جمع الإتاوة على القوافل وحراسة الطريق ، وتقديم الإبل للحكومة .

وقد أثرت المهدية فى القبيلة تأثيراً شديداً فأضعفت تماسكها ، ومزقت وحدتها . وكان أكثرها يفضل الحياد التام ، ولكن نفوذ عثمان دجنه من جهة ، ووجود الحامية المصرية فى سواكن ، واضطراب الزعماء وتقلبهم بين الفريقين قد أثار الحزازات بين أقسام كثيرة منهم ، فلم يولد هذا العصر عداوة بين العثمان والفضلاب وحدها ، بل كذلك بين أقسام وبدنات مختلفة .

وفى أوائل القرن الحالى كانت حالة الانقسام واضحة ، ولم يكن من السهل العثور على زعيم تدين له القبيلة ، أو تتعاون معه . وقد حاولت الحكومة أولا أن تعين شيخاً من الفضلاب ، فلم يفلح فى لم شمل القبيلة ، وفى النهاية عين أحد زعماء الجويلاى أحمد بن حمد محمود زعيما ، واتخذ مركزاً له فى أرياب ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مسمار بناء على رغبة الحكومة . وقد وجد المركز الجديد ملائماً كل الملاءمة ، لأنه نقطة التقاء البشاريين والهدندوه والأمرار ، وبذلك أمكنه بحسن سياسته أن يحسن العلاقات بين قبيلته والقبائل المجاورة .

الحالة العامة للقبيلة فى الوقت الحاضر

نلخص فيما يلى الصفات العامة للأمرأر كما وصفهم الأستاذ ساندرز مع بعض التعديل :

لا يختلف الأمرأر فى مظهرهم العام من سائر البجه ، وصفاتهم الجسدية هى السائدة بين نظرائهم من الحاميين ، وإن كانوا يبدون أصفى جوهراً من غيرهم ، ولذلك يمتازون بمظهر أكثر ملاحة ورشاقة من الباقين . وزواجهم الكثير ومصاهراتهم لجيرانهم من البجه ، وأحياناً غير البجة لم يؤثر فى سحنتهم وصورهم ، لأن مثل هذه المصاهرات محدودة ومقصورة على الزعماء . ولغتهم كما سبق أن ذكرنا ، هى أنقى اللهجات وأقلها اقتباساً من العربية ولهجتهم معتبرة فى نظر جميع البجه أحسن اللهجات البداوية ، وهم أبرع فى الحرب وأشد جرأة من سائر البجه ، ولذلك يتحامون جانبهم قدر الطاقة . وهم برغم دماثة طباعهم شديدو الإحساس بكرامتهم ، سريعو الغضب إذا توهموا أقل إهانة ، حتى ولو لم تكن مقصودة . ومعيشتهم فى بيئتهم ، والتزامهم هذه البيئة عودهم الصبر على الجوع والعطش وطول احتمال المكاره . وصحة أبدانهم جعلتهم مع ذلك أقدر من غيرهم على الاضطلاع بالأعمال الشاقة الجسدية مثل حرفة الحمالين وغيرها من الحرف التى تلزم لها الطاقة الجسدية العظيمة .

وغذاؤهم المألوف هو اللبن والذرة ، وقليل من اللحم . ولا يأكلون السمك ، اللهم إلا عدد قليل من القرى يشتغل أهلها بالصيد ، ويكتفون بالسمك عن اللحم . وقد ألفوا عيشة الجبال واعتادوها . ونساؤهم يتمتعن بقسط وافر من الحرية ؛ ويقول ساندرز أيضاً إنهن عادة يستخدمن هذه الحرية استخداماً تاماً .

ويقدر عددهم كما ذكرنا من قبل بنحو ٥٠٠٠٠ ، منهم نحو ٤٠,٠٠٠ من الشمال ، و ١٠,٠٠٠ من القضلاب . وأكثر هؤلاء يعيشون فى الجهات الجبلية السابق وصفها . ولكن منهم نحو ٥٠٠٠ من النوراب يعيشون فى طوكر ، كما أن هنالك عدداً منهم فى بور سودان يبلغ أيضاً نحو ٢٠٠٠ ، معظمهم لا يقيم

بصفة دائمة فيها ، بل يعود إلى بلده ويجيء غيره فيحل محله . ومنهم أيضاً نحو ٣٠٠٠ قد استوطنوا إقليم المطيرة ، ولا شك أن القبيلة قد ازداد عددها ازدياداً كبيراً في المائة عام الماضية . فقد كان البشاريون منذ مائة عام أكثر منهم عدداً وأوفر ثروة وقوة وأعظم خطراً . واليوم قد أصبحوا ثلاثة أمثال البشاريين في العدد ولا يقلون عنهم في الأهمية . ومع أن البشاريين قد نقص عددهم في الزمن الأخير ، غير أن هذا السبب وحده لا يكفي لتعليل هذا الفرق الكبيرة بين القبيلتين . بل السبب على الأرجح هو أن الأمرار زاد عددهم بتوسعهم نحو الغرب واندماج وحدات أخرى فيهم ، وحبهم للمصاهرة خارج القبيلة .

وهجراتهم وانتقالاتهم الموسمية محدودة . وفي المنحدرات الشرقية لا تتجاوز ٢٠ أو ٣٠ ميلا . وينزلون إلى السهل الساحلي في شهر نوفبر وديسمبر ، حين يبدأ ظهور الحشائش عقب الأمطار الشتوية ثم يعودون إلى سفوح الجبال في مارس ، وإلى المرتفعات في إبريل ومايو ، حيث يمكن تغذية الماشية من براعم الطلح والسنط . أما في المنحدرات الغربية ، فلا بد من النزوح إلى السهول الغربية في الصيف ، لتغذية الإبل بالأعشاب والحشائش بعد مطر الصيف ، ويظلون في هذه الجهات إلى شهر نوفبر ، ثم يعودون إلى السفوح والمنحدرات ، حيث الآبار أوفر ماء منها في فيافي العتباى . ويمكثون في السفح إلى شهر مارس أو إبريل ثم يصعدون إلى المرتفعات بعد ذلك لتغذية ماشيتهم من براعم الطلح والسنط فأشهر إبريل ومايو ويونيه ويوليه ، هي الأشهر التي يتفق فيها الجميع في سكنى المرتفعات .

والهجرات في الجهات الغربية أطول وأوسع مدى ، وقد تصل بالأمرار أحيانا إلى الجنوب حتى المطيرة . وقد تبلغ هذه الرحلات ٦٠ أو ٧٠ ميلا ، أو ثلاثة أمثال الهجرات الشرقية ، وقلما نجد بين الأمرار جماعة تجمع في رحلاتها بين المراعى الساحلية في الشرق ، ومراعى العتباى في الغرب ، لأن الإبل في الجهات الغربية لا تستسيغ الأعشاب الساحلية ، ذات الطعم الملح ، وإنما تستسيغها الإبل التي اعتادتها .

وهنالك فرق واضح في الحياة الاجتماعية بين سكان الشرق والغرب ، وهو فرق

قضت به البيئة . ذلك أن البدنات فى الجهات الشرقية تعيش متقاربة طول السنة وفى مختلف المواسم . فإذا أنجدوا أو أتهموا كان صعودهم ونزولهم فى مواسم متقاربة وكانت صلاتهم دائماً متقاربة ، ولذلك كانت وحدة البدنة أو الشعبة محافظاً عليها ، والزعيم له اتصال دائم ببدنته طول السنة .

أما الجهات الغربية ، فإن التوسع فى مدى الرحلات ، والانتشار فى السهول الغربية مسافات بعيدة ، وتوزع الرعاة بين الآبار القريبة والبعيدة ، وانقطاع بعض الأسر للزراعة فى جهات قد تكون خارج حدود القبيلة ، كل هذه الأعمال جعلت من الصعب على شيخ الشعبة أو البدنة أن يكون دائم الاتصال بشعبته ، ولذلك قويت سلطة زعيم الأسرة .

من أخص ما امتاز به الأمرار أن الجماعة منهم قد تتحول عن موطنها ، وتنزل موطناً جديداً بين أقوام غرباء ، ومع أنهم يثورون إذا اعتدى غريب على أرضهم ، فإنهم لا يجدون بأساً فى النزوح عن أرضهم والنزول فى أرض غريبة . وهذه من غير شك هى النزعة — أى نزعة التوغل السلمى فى الجهات المختلفة — التى مكنتهم بمضى الزمن من التوسع واحتلال الأقطار الكثيرة التى يعيشون فيها اليوم . ولا يعرف عن الأمرار أى فتح أو غزو منظم كالذى قام به البشاريون . ولكنهم بوسائلهم السلمية والدبلوماسية قد تمكنوا من توسيع رقعتهم على حساب جيرانهم ، وهكذا نراهم قد نزلوا طوكر وخور الجاش والعطبرة ، وجاوروا الهدندوه والبشاريين وبنى عامر ، من غير مشقة — ولم يلبثوا أن ادعوا الحق فى الجهات التى يحتلونها — ومنهم فى الأزمنة الحديثة من هاجر إلى القضارف وبربر بل وأسوان أيضاً[1] .

وعادة الأمرار إذا نزلوا فى أرض غريبة ، وهم عادة قليلو العدد جداً ، بحيث لا يتأذى من وجودهم أصحاب الأرض ، أن يبادروا بمصاهرة جيرانهم الجدد . وبذلك يكون لهم حق التمتع بالماء والمرعى ، ولكنهم متى كثر عددهم وأصبحوا يعادلون السكان الأصليين فى الثروة والعدد ، أخذوا يطالبون بحقوق لم تكن لهم ، وبذلك تنشأ الحزازات والخلافات التى لا يزال كثير منها قائماً إلى يومنا هذا .

(١) هذه النزعة إلى التوسع سنراها أيضاً فى صورة أعظم عند الهدندوه .

ويرى مستر ساندرز أن العامل الاقتصادى له الشأن الأكبر فى هذه الهجرات لأن البيئة الجبلية التى استوطنها الأمرأر هى بوجه عام فقيرة المرعى . ولا تلبث القطعان إذا كثر عددها أن تتطلب مراعى جديدة ، وهذا يضطر الأمرأر إلى الارتحال والبحث عن وطن جديد .

وقد أصبح للأمرأر بعد توسعهم بيئات عديدة ، يختلف بعضها عن بعض نوعا ما . وهذا الاختلاف له أثره فى حياة كل شعبة ، فالقرباب مثلا سكان جبال ، وبين مراعيهم فى الساحل وفى المرتفعات مسافة قصيرة ، وشيوخهم لهم نفوذ كبير فيهم . وأكبر ثروتهم قطعان الماعز وهى من نوع جيد كبير الحجم وهم أيضاً يربون أحسن أنواع الإبل الجبلية ، وهى سلالة صغيرة الحجم نوعاً ما ، خفيفة ، بطيئة ، ولكنها تستطيع أن تسلك أوعر المسالك الجبلية وأشدها انحداراً ، وتتسلق الثنايا الوعرة وحمولتها على ظهرها . وليس فى بلادهم أرض تصلح للزراعة ، وهم يحصلون على حاجتهم من الحبوب بالعمل فى ميناء بور سودان ، وبيع الألبان ومنتجاتها هناك . ومنهم جماعة نزلت فى محمد قل ، وتعلمت صيد اللؤلؤ .

أما التوراب ، فهم فى حالة انتقال سريع من الرعى إلى الزراعة والاستقرار ؛ وهذا نراه بوجه خاص فى مواطنهم فى دلتا وادى أربعات ، وفى طوكر والجاش ، وهم الوحيدون بين الأمرأر الذين يربون البقر بمقادير محسوسة ، وقد بدأوا صلاتهم فى الجهات التى نزلوها ببيع ألبانهم إلى الزراع . وهم الآن يموّنون طوكر باللبن ، وفى الوقت نفسه أخذوا أيضاً يشتغلون بالزراعة .

ويرى ساندرز أن العلياب هم أكثر الجماعات البجاوية توحشاً ، وليس لهم نظام يجمعهم ، وسواء فى أوطانهم الشمالية أو فى الجهات التى نزلوها بالعطبرة ، فإن علاقتهم مع أنفسهم ومع جيرانهم لا تبعث على الارتياح . وعماد ثروتهم الضأن ، ويربون منها أنواعاً طيبة فى المراعى الجيدة الواقعة شرق جبل ديروربه Deirurba وفى بلادهم منجم الذهب فى جبيت[1] ، وقد أمكن استخدامهم فى التعدين ، وبعد أن كانوا ينفرون نفوراً شديداً من العمل تحت الأرض ،

(١) جبيت المناجم واقعة إلى الشمال بخلاف بلدة جبيت المشهورة ، الواقعة فى بلاد الهدندوه .

أصبح كثير منهم يرتزق من هذا المورد ، وكذلك يجنون ربحاً طيباً من بيع اللبن واللحوم والسمن للمشتغلين بالتعدين فى جبيت .

والجويلاى هم أكثر جماعات الأمرأر نشاطاً وأوسعهم حيلة ، وهم بوجه خاص الذين قادوا حركة التوسع نحو الغرب ، ونشطوا فى الميدان الزراعى نشاطاً ملحوظاً ، ومع ذلك يربون قطعاناً صالحة من الإبل ، وهم يعملون فى الزراعة إلى جانب الهدندوه والبشاريين فى المطيرة ، وفى إقليم مسمار . وهم أبرع الأمرار فى معاشرة جيرانهم بحيث قلما يشجر خلاف بينهم وبين الهدندوه أو البشاريين .

وصفوة القول أن الأمرار فى حالة توسع مزدوج ، فهناك حركتان : من الجبل إلى السهول ، ومن الشرق إلى الغرب ، والجنوب الغربى ، ولكن حالة التوسع هذه بشرفة على نهايتها ، ومجالها اليوم أصبح أضيق مما كان فيما مضى .

إلى الجنوب مسافة تزيد على ٢٨٠ ميلا ، ومن الشرق إلى الغرب تبلغ المائة ميل أو تزيد فى الشمال ، ولكنها تضيق فى الجنوب بين حدود الأرتريا ونهر العطبرة . فهى إذن فى صورة مستطيل ينتهى فى الجنوب بما يشبه المثلث ، وسكة حديد كسلا ، من أول خشم القربة إلى شمال سنكات تجرى فى ديارهم وأوطانهم .

وليس للهدندوه على البحر الأحمر سوى مساحة قليلة تبلغ نحو خمسة وثلاثين ميلا ، تتوسطها مدينة سواكن ، وإن لم تكن هذه المدينة داخلة فى الأوطان البجاوية الصميمة . والحدود الشرقية للهدندوه تبدأ جنوب سواكن بنحو عشرين ميلا ثم تمتد نحو الجنوب بين خور ركة وخور لانجب ، حتى تصل إلى الحدود الأرتيرية ، ثم تتبع هذه الحدود فى انحراف نحو الجنوب الغربى إلى خشم القربة ، وهنا الحد الجنوبى لأوطان الهدندوه . أما الحد الشمالى فيبدأ شمال سواكن ثم يمتد غرباً مخترقاً السكة الحديدية شمال سنكات ، إلى نقطة فى شمال شرق آرياب . ومن هنا تتجه الحدود نحو الجنوب فى شبه خط مستقيم ، مخترقة خط السكة الحديدية غربى مسمار ، وممتدة نحو الجنوب إلى أن تتصل بنهر عطبرة عند قوز رجب ، ثم تلازم هذا النهر إلى خشم القربة .

يتبين من هـذا أن الهدندوه قد احتلوا شطراً من الضفاف الشرقية (اليمنى) للعطبرة يمتد إلى نحو المائة ميل ، وخور الجاش يجرى فى ديارهم . وبذلك أصبحوا مجاورين للهضبة الحبشية فى أطرافها الشمالية ، كما أنهم جاوروا بعض الأنهار والجداول التى تنحدر منها ، ولو فى حيز ضيق . وليس من السهل أن نقسم بلاد الهدندوه إلى المنحدرات الشرقية (الجويتب) والمنحدرات الغربية (أولب) كما هى الحال فى بلاد الأمرار ، لأن المرتفعات فيها تتناول أقطاراً أخرى ، خلاف منحدرات البحر الأحمر ؛ والمنخفضات أيضاً أكثر تنوعا مما نجده فى أوطان الأمرار . ومع ذلك فمن الممكن تقسيم أوطان الهدندوه إلى مرتفعات ومنخفضات ، وإن تميز الأنواع المختلفة التى تدخل فى كل من هذين القسمين .

فالمرتفعات ليست متصلة بعضها ببعض ، ومن الممكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام مختلفة ؛ أولها مرتفعات البحر الأحمر ، وهى فى بلاد الهدندوه أقل ارتفاعاً منها فى

الفصل السادس

الهدندوه(1)

تعد الهدندوه أحدث الوحدات البجاوية ظهوراً ، وأكثرها عدداً ، ولظروف تاريخية خاصة ، أوسعها شهرة فى العهود الحديثة . ومركزهم فى الاقتصاد الوطنى — بحكم موقع أوطانهم واتساعها — أهم من مركز أية جماعة بجاوية . وفى أوطانهم تقع مدينتان لهما شأن خطير فى تاريخ السودان ، وهما سواكن وتاكا (كسلا) . ولكن على الرغم من مركزهم وأهميتهم ، فإن نشأتهم غامضة ، وتاريخهم القديم يحيط به ظلام كثيف . ولم يكن لهم إلى وقت قريب أية نباهة أو ذكر . ومع أن كثيراً من هذا الوصف ينطبق على الأمرار ، غير أنه فى الهدندوه أظهر وأبلغ ، وعلى نطاق أوسع .

لا شك أننا هنا أمام ظاهرة قد سبق وصفها فى البشاريين والأمرار ، وليست بالأمر غير المألوف فى الشعوب البادية ، التى تظهر فيها بعض وحداتها ، ثم تنمو وتقوى على حساب الوحدات الصغيرة التى تندمج فيها فى زمن وجيز ، حتى تكبر تلك الوحدة وتحتل المكان الأول . وقد امتص الهدندوه فى المائتى عام الأخيرة عدداً كبيراً من وحدات البجه الصغيرة ، وربما اندمجت فيهم أيضاً وحدات من غير البجه حتى أصبحوا اليوم قبيلة عظيمة تعدادها نحو الثمانين ألفاً أو أكثر ، وتعيش فى إقليم تبلغ مساحته العشرين ألفاً من الأميال المربعة . وإن لم تكن هذه المساحة كلها خالصة لهم ، بل يشاركهم فى القليل منها جماعات أخرى من البجه وغير البجه .

تمتد أوطان الهدندوه امتداداً عظيماً من الشمال إلى الجنوب من شمال خط العرض التاسع عشر إلى جنوب الخط الخامس عشر . فأوطانهم تمتد إذن من الشمال

---

(1) قد يكتب البعض اسم الهدندوه بالألف الممدودة أو المقصورة فى الآخر ، ولكن كتابته بالهاء أكثر انتشاراً بين الهدندوه أنفسهم ، والمفرد هدندوى .

بلاد الأمرأر ، وتمثل هضبة متوسطة الارتفاع يزيد ارتفاعها بوجه عام على الألف متر . وتمثل هذه الهضبة تمثيلا حسناً بلدة إركويت ويبلغ ارتفاعها ١٠٩٤ متراً فوق سطح البحر . وفى هذه الكتلة العالية عدد من القمم مثل جبل أرباب وهو إلى الجنوب من إركويت ، وارتفاعه نحو ١٨٠٠ متر ، ويليه من جهة الجنوب رءوس عديدة تضارعه أو تدنو منه فى الارتفاع . وهذه الكتلة تنحدر انحداراً سريعاً نحو الشرق ، وانحداراً تدريجياً نحو الغرب . وتنتهى هذه الكتلة بفجوة منخفضة ، فى أطرافها الجنوبية . فتنحدر الأرض بالتدريج نحو الجنوب . حتى تنخفض إلى مستوى لا يزيد ارتفاعه على ثلثمائة متر .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن مرتفعات البحر الأحمر تكتنفها الفجوات من آن لآن ، وهذه الفجوة الواقعة جنوب أرض المدندوه هى من أشهر هذه الفجوات ، وهى التى تفصل بين تلك المرتفعات وبين هضبة الإرترية المتصلة بهضبة الحبشة . وفى هذه الفجوة يجرى خور بركة مخترقاً الهضبة الإرترية إلى سهل طوكر

وليس خور بركة هو الوحيد الذى يجرى فى هذا الإقليم ، بل يجاوره إلى الشمال خور آخر أقل منه ماء لأنه لا يستمد من الهضبة الحبشية ماء كثيراً ، وهو خور لنجيب ، وهو الذى يجرى فى أرض المدندوه ويحف بالمرتفعات الشمالية ، أما خور بركة فلا يجرى فى أرض المدندوه ، مع أن خور لنجيب يمد من روافده ، ولكن أكثر مجراه منعزل عن مجرى خور بركة . وبين الخورين كتلة جبلية مستطيلة ضيقة محدودة المساحة، وهى تمثل القسم الثانى من مرتفعات أرض المدندوه ، ويزيد ارتفاعها بوجه عام على الألف متر . وفيها جبل واحد بارز وهو جبل أدار باب ، ولا يزيد طولها من الشمال للجنوب على الخمسين ميلا ، وعرضها على العشرة الأميال .

هذه هى الكتلة الثانية من الأراضى المرتفعة فى مواطن المدندوه . أما الكتلة الثالثة فعبارة عن مساحة من الأرض المرتفعة نسبياً تحيط بالحدود الجنوبية لأوطان المدندوه ، والحدود الجنوبية الشرقية الملاصقة لبلاد الإرترية ، وهى مرتفعات يتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ من الأمتار ، وهى فى الحقيقة بمثابة السفوح الغربية للهضبة الإرترية .

أما المنخفضات ، فهي أيضاً تقبل التقسيم إلى ثلاثة أقسام تعادل أقسام المرتفعات ، وأولها السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر ، الذي تتوسطه بلدة سواكن ، مما يلي الكتلة الجبلية الشمالية . وهو لا يكاد يختلف عن نظيره في بلاد الأمرار ، اللهم إلا أنه يصيبه مقدار أكبر نوعاً من الأمطار . والإقليم المنخفض الثاني هو تلك الفجوة الضيقة التي يجرى فيها وادى لانجب ، وهى الواقعة بين الكتلة الجبلية المنعزلة ، حول جبل أداراباب ، وبين المرتفعات المحاذية للبحر الأحمر . وفى هذا المنخفض الضيق يجرى وادى لانجب ، فى اتجاه من الجنوب إلى الشمال ، حاملا ما يستطيع جمعه من الماء المنحدر من المرتفعات الإرترية ، والمرتفعات الشمالية ، وهى على كل حال مياه قليلة تنساب نحو سهل طوكر ولا تصل إلى البحر .

أما القسم الثالث من الأراضي المنخفضة فعبارة عن سهل فسيح يشغل الجانب الغربي والجنوبي من بلاد الهدندوه ونهايته فى الجنوب إقليم كسلا ، وهو عبارة عن الامتداد الجنوبي لسهل العتباى أو التراب . وتجرى فيه طائفة من الأخوار يزداد ماؤها كلما اتجهنا جنوباً .

والظاهرات المناخية فى بلاد الهدندوه توافق النظام الذى رأيناه فى بلاد الأمرار فالمطر شتوى على السهل الساحلي والمنحدرات الشرقية ، ويتسرب إليه مع ذلك مقدار قليل من المطر الصيفى . وتوزيع المطر فى طوكر على مدى السنة هو كما يلي :

يناير	فبراير	مارس	أبريل	مايو	يونيه	يوليه	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	المجموع السنوى
٢٢	٤	١	١	٣	٢	٤	٣	٠	١٠	١٧	٢١	٨٨ ملليمترا

وفى سواكن :

يناير	فبراير	مارس	أبريل	مايو	يونيه	يوليه	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	المجموع السنوى
١٧	٧	١	١	١	-	٨	٧	-	٢٦	٧١	٤٢	١٨١ ملليمترا

أما المنحدرات الغربية فى جبال البحر الأحمر ، فخير مثال لها بلدة سنكات فمطرها صيفى ولا يصيبها من المطر الشتوى شيء والمقدار السنوى ١٢٤ ملليمتراً مركزة حول شهر أغسطس الذى يسقط فيه ما يقرب من ٦٠ ملليمترا .

والسهول الغربية يمثلها مناخ كسلا ، ولكن بشيء من التطرف ، لأنها واقعة

فى الطرف الجنوبى من بلاد الهدندوه ، ومطرها أغزر من سائر جهات تلك السهول .

وتوزيع المطر فيها كما يلى .

يناير فبراير مارس أبريل مايو يونيه يوليه أغسطس سبتمبر أكتوبر نوفمبر ديسمبر المجموع السنوى بالمليمتر

٠ ١ ٢ ١١ ٣٠ ٩٣ ١٢٥ ٥٧ ٩ ٠ ٠ ٣٢٨

وقرب كسلا من المرتفعات الأرترية سبب فى ازدياد أمطارها ، لا عن الجهات الأخرى فى السهول الغربية من بلاد الهدندوه فقط ، بل إن مطرها أغزر بكثير من الجهات الواقعة على نفس خط العرض فى إقليم نهر النيل ، حيث نجد أن الخرطوم الواقعة على نفس خط العرض لا يزيد مطرها السنوى على ١٦٠ ملليمتراً ، أو أقل من نصف ما يسقط فى كسلا .

وليس هنالك محطة لقياس المطر فى الجزء الشمالى من السهول الغربية ببلاد الهدندوه ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن هذا المطر الغزير نسبياً فى كسلا ، يتناقص بسرعة كلما ابتعدنا نحو الشمال ، حتى لا يكاد يبلغ الثمانين ملليمتراً فى الأطراف الشمالية لتلك السهول ؛ وأقرب مثال نستدل به على المطر فى تلك الجهات الشمالية هو بلده تَـلْـجُـوَارِب وهى واقعة على السفوح الغربية لمرتفعات البحر الأحمر ، على حافة السهول من جهة الشمال ، ومطرها لا يزيد على ٧٥ ملليمتراً مركزاً حول شهر أغسطس .

ومع ذلك فإن المطر بوجه عام أكثر فى أوطان الهدندوه منه فى أراضى البجه الشمالية . وإلى جانب المطر يشارك الهدندوه فى الاستفادة من نهر العطبرة فى جزء غير قليل من مجراه . ولهم فوق ذلك دلتا خور الجاش الذى يقذف بمياهه فى مساحة واسعة شمال كسلا ، وقبل أن ينظم فيضان الجاش لكى يستفاد به فى الزراعة الحديثة ، كانت هذه المياه مورداً منتظماً للرعى ولبعض الزراعة . وكانت تكتنف الإقليم نباتات وأشجار كثيرة ؛ وكانت تأوى إليه ضروب من السباع . والحياة النباتية بوجه عام أغزر فى إقليم الهدندوه تبعاً لازدياد الأمطار ، وإلى جانب الحشائش والمراعى فى السهول والمنحدرات الشرقية والغربية ، تنمو أشجار السنط والطلح ونخيل الدوم وغيرها من ضروب الشجر .

فى هذه المساحة الكبيرة تعيش قبيلة « الهدندوه » ، ومن التواضع أن نصفها

بأنها قبيلة ، وهى التى يزيد تعدادها على ٨٠٫٠٠٠ نسمة . وتوشك أن تكون شميا ، وعددها لا يزال آخذاً فى النمو . ومهما يكن من شىء ، فهى قبيلة تتألف من عدة عناصر بجاوية صميمة . اندمج بعضها فى بعض والتحمت أعضاؤها وأوصالها التحاماً قويا ، ومع ذلك لا تزال محتفظة بقدرتها على النمو وامتصاص عناصر جديدة .

وليس من شك فى أن الهدندوه — وإن دخلهم بعض الدماء غير الحامية — من أصل بجاوى صميم ، والكثرة العظمى من العناصر التى تدخل فى تكوين الهدندوه عناصر حامية ، يشهد بذلك طابعهم الحامى الذى يغلب على جميع الأفراد .

ومع ذلك لم يكن بد من أن يجارى الهدندوه جيرانهم من الأمرار والبشاريين فى الانتماء إلى أصول عربية أو إلى نسب عربى ، وهى دعوى لا بد أن يكون لها أساس من الحقيقة ، إذا ذكرنا أن بلدة سواكن ، كانت دائماً مجالا لنشاط عربى مصدره جزيرة العرب من جهة والقطر المصرى من جهة أخرى .

والرواية التى يذكرها مستر أوين فى مقاله[١] ، ولا تكاد تختلف عما رواه بعض زعماء الهدندوه للمؤلف تتلخص فيما يلى :

يرجع أصل الهدندوه إلى أمير بجاوى عظيم يدعى شكايتل (أوشكايتلو) ، لا نعرف مع الأسف عن تاريخه ولا عن أعماله شيئاً ، سوى أنه كان ملكا على البجه أو على الأقل على النصف الجنوبى منهم ، وإلى الغرب من سنكات جبل ارتفاعه نحو ١٧٠٠ متر يحمل اسم هذا الجد القديم إلى يومنا هذا .

وقد هاجر من الحجاز إلى أرض البجه شريف عربى يدعى محمد هداب ولم يلبث أن تزوج أميرة من أحفاد شكايتل وأنجب منها فتى يدعى محمد مبارك ، الذى لم يلبث أن أطلق عليه الهدندوه اسم محمد براكوين أى محمد الجرىء الذى لا يهاب شيئاً . وهنا نلاحظ أن اسم الشريف العربى محمد هداب نفسه يتألف من كلمتين : محمد وهو اسم عربى ، وهداب ومعناه الأسد فى اللسان التبداوى ولعلهم ترجموا اسمه العربى

---

(١) T.R.H. Owen : The Hadendowa, S.N.R. Vol. XX. 1937, Part II
وهذه المقالة على ما بها من قصور أوفى ما لدينا من المراجع عن هذه القبيلة .

إلى لغتهم ، أما نجله محمد مبارك ، فقد استطاعوا أن يحولوا كلمة مبارك العربية إلى لفظ تبداوى يدل على الشجاعة المتناهية ، وساعدهم فى ذلك سهولة تحويل اسم مبارك إلى راكوين .

والرواية تقص علينا أيضاً أن محمداً الجرى، هذا لم يكفه أن يكون من أب عربى وأم تنتمى إلى أشرف البيوت البجاوية ، بل تمكن هو أيضاً من الزواج بفتاة عربية شريفة الأصل ، تدعى هدات بعد أن قدم لوالدها الشريف العلى خدمات جليلة ، لم يكن أقلها انقاذ ابنته هذه من مخالب خاطفيها من الفنج : ولم تلبث هذه السيدة العظيمة أن أنجبت له سبعة أولاد[1]، وهؤلاء قد تأصلت فيهم الدماء العربية عن طريق أمهم وجدهم .

والرواية التى بين أيدينا تشير إلى أن الفنج أرادوا أن يأخذوا بالثأر فأحاطوا بالحصن المنيع الذى كان يحتله محمد راكوين ، فى جبل أوكور ؛ وأرادوا اقتحامه ، غير أنه استطاع أن يحمل عليهم حملة شديدة وأن يشتت شملهم ، وبذلك استقام له الأمر وعاش فى دعة وأمن . وجبل أوكور هذا واقع إلى الجنوب الغربى من سنكات لا يزيد ارتفاعه على ١٦٠٠ متر ، ولعل فى هذه الرواية ما يشهد بأن الوطن الأول للهدندوه هو هذا الجبل والأراضى التى تحيط به ، كما أن أصل البشاريين إلى جوار جبل علبه .

ولا تزال هنالك آثار فى هذا الجبل يقول الهدندوه إنها قبر محمد راكوين وآثار أخرى تدل على قبر هدات .

ولا شك أن هذه الرواية تستند إلى حقائق تاريخية ، وإن حاك الخيال حولها بعض التفاصيل . فنحن نعلم من غير مصدر واحد أنه كان بين العرب النازلين على البحر الأحمر وبين البجه مصاهرات عديدة ، وأن هذه المصاهرات قد اكسبت بعض الأسر البجاوية تجارب رفعت من شأنها ووطدت مركزها بين البجه .

واسم الهدندوه هو على الأرجح نسبة إلى هداب « الأسد » أى قبيلة الأسد

---

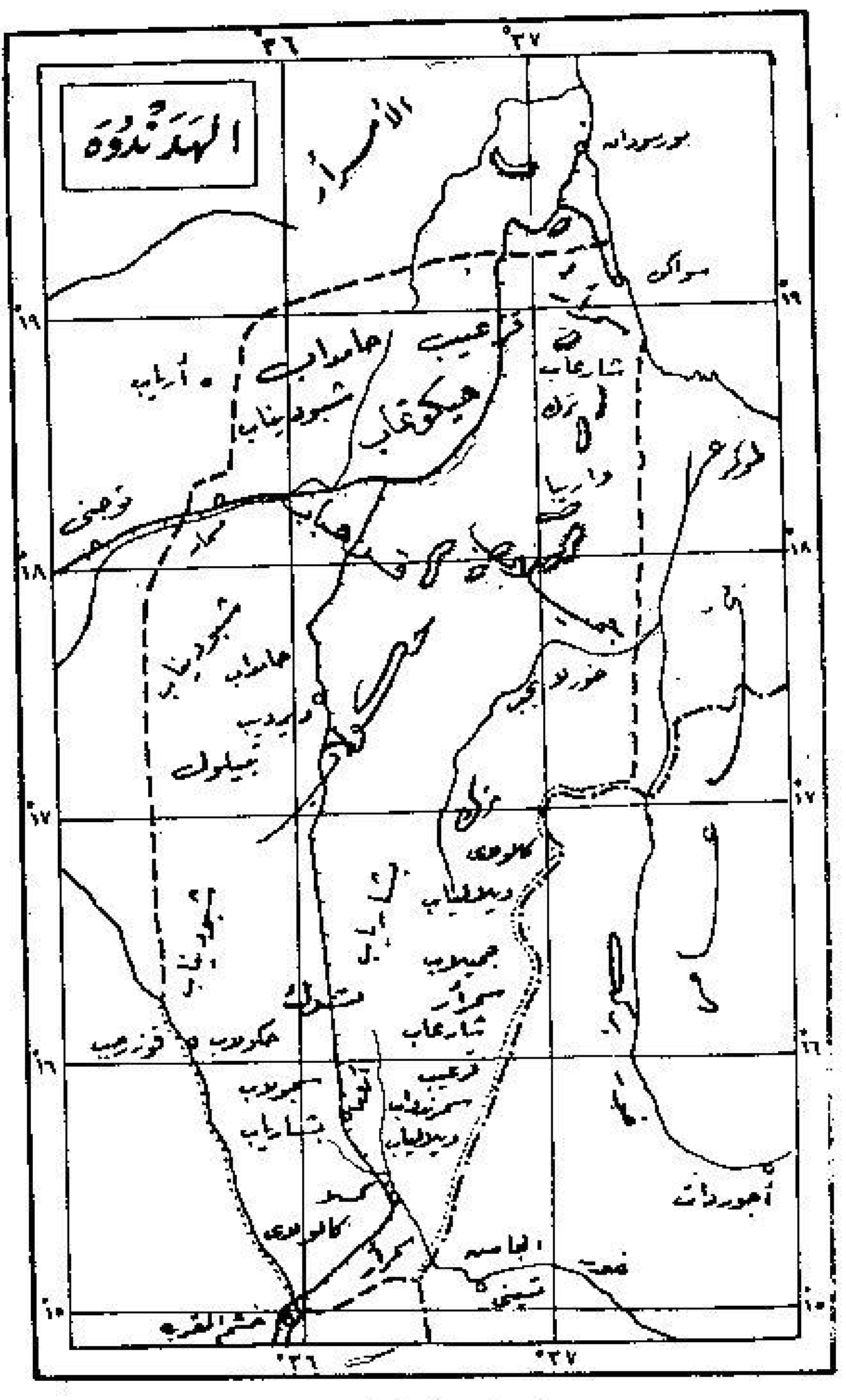
(١) ذكر أوين أسماءهم هى : شتاب أبو بحرين ، كلاى أبو هميس ، باشك أبو حكول ، اشادين أبو جيل ، وفورهب أبو هدل ، أى الأسود ؛ وعلاب أبو قايد وويل حد أبو سمر ، وروايته مطابقة لما ذكره بعض الهدندوه للمؤلف .

وهذا التأويل هو السائد بين القبيلة إلى وقتنا هذا . والرواية على علاتها تدل على أن الأسرة التي أسست القبيلة لا ترجع إلى أبعد من عصر الفنج ، بل إلى الشطر الأخير من عصرهم . ولذلك لا نستطيع أن نرجع بمحمد براكوين إلى أبعد من النصف الأخير من القرن السابع عشر ، أو أوائل القرن الثامن عشر ؟ ولكن هذا التاريخ يحدد لنا اسم المدندوه وظهوره ؛ ولكن المدندوه أنفسهم كسائر البجه يرجعون إلى قرون عريقة في القدم .

والرواية التي يتداولها المدندوه إلى اليوم تقول إن أحد أحفاد براكوين الشجاع ، واسم هذا الحفيد ويلالى تولى الزعامة والقيادة العسكرية للقبيلة الناشئة . أما الزعامة الدينية فكانت من نصيب حفيد آخر يدعى سمره ، وهو الجد الأكبر لشعبة السمرندواب ، ولم تزل الزعامة الدينية قائمة في هذه الشعبة إلى وقت قريب[١] أما زعامة القبيلة المدنية والعسكرية ، فكان لواؤها دائماً — ولا يزال إلى اليوم — معقوداً لشعبة ويلاليباب ، ومع أن لكل شعبة شيخها ورئيسها ، فإن المدندوه لا يسلمون بزعامة القبيلة إلا إلى أحد أحفاد ويلالى ، فولاء القبيلة لهذا الفرع ولاء لا يتزعزع .

وهكذا نظمت الشئون الدينية للقبيلة ، وأخذت تمضي في اتساعها ونموها المطرد ، ومصاهراتها التي لا تكاد تنتهي . من ذلك أن تركيا يدعى لق لق Loglog تزوج امرأة من حفيدات الزعيم ، فنشأ عن هذا الزواج جماعة السمرأر وهي من أكبر شعبيات المدندوه اليوم ، وتزوجت أخرى رجلا يدعى بشاره من قبيلة الشكرية ، فنشأ عن هذا شعبة البشارياب ، وأخرى تزوجت من أحد الجمليين ، فتولدت من ذلك شعبة الشرعاب ؛ وحفيدة أخرى تزوجت من أحد الفنج ، وكنيته أبو قرعة ، فتولد من هذا الزواج شعبة القرعيب ، ويقال إن هذه الكنية ترجع إلى أنه كان يحمل قرعة فيها نقوده ، فسقطت من يده فتحطمت . فآلى ألا يبرح مكانه هذا ؛ وكان بالقرب من جبيت فتزوج هناك من إحدى المدندويات . وأصبح جدا لشعبة سميت باسمه . ويزعم أوين أن هذه الشعبة لا تزال مشهورة بالحرص على

(١) يلاحظ أن الزعامة الروحية أصبحت الآن معقودة للسيد على الرغنى ، وإن كانت هذه الشعبة لا تزال مشهورة بالتدين .



شكل (٨) أقسام الهدندوه

دراهمها . وعلامة إبلهم دائرة تشبه الريال . وهى الشعبة الوحيدة ، التى يسمح رجالها للنساء باقتناء وتربية الدجاج ، ثم بيعن البيض ويحصلن بذلك على الدراهم اللازمة لهن ، بدلا من أن يأخذنها من الأزواج[١] .

وهكذا أخذت القبيلة تنمو وشعبها تتكاثر . ولكن لم يكن توسعهم كله بالمصاهرة . وقد كانت ماشيتهم أول الأمر قليلة ، ومواطنهم فى الجبال الشمالية محدودة ؛ فلم يلبثوا أن رأوا أن توسعهم يجب أن يتجه نحو الجنوب . حيث المرعى أغزر والماشية أوفر . ولا بأس من الالتجاء إلى النهب والسلب إذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أمكن لبعض الشعب أن تطرد بنى عامر من إركويت وتدفعهم نحو الجنوب ؛ وشعبة أخرى زحزحت البشاريين نحو الغرب بقدر الإمكان ، واشتهر وبلالى محمد (ولعله عاش حوالى ١٧٦٠) بالتوسع نحو الجنوب ، على حساب الفنج ، الذين أخذ سلطانهم يضمحل وعلى الأخص فى هذه الأطراف الشمالية ، وكلما انكمش سلطانهم نحو الجنوب ، تركوا فراغاً ولم يلبث الهدندوه أن ملأوا ذلك الفراغ .

وجاء ابنه وحفيده من بعده يتبعان سياسة الوالد والجد ، حتى أمكنهم فى نهاية القرن الثامن عشر (حوالى سنة ١٨٠٠) أن يحتلوا دلتا الجاش وهى أغنى بقعة فى جميع بلاد الهدندوه ، وجعلوا عاصمتهم فى بلدة فليك ، وقد استدعى هذا التوسع التغلب على جماعات كثيرة من بنى عامر والحلانقه وملهتكناب . وهذا الامتداد إلى الجنوب لم يصحبه توسع نحو الغرب ، ولعل مقاومة البشاريين وشدة بأسهم حالت دون هذا التوسع .

وهكذا لم يكد الربع الأول من القرن التاسع عشر أن يتكامل حتى كان الهدندوه قد بسطوا سلطانهم كقبيلة موحدة متماسكة فى الإقليم الذى يحتلونه اليوم . ونظراً لقربهم من مراكز الحكم ، ولأن الطريق من سواكن إلى بربر يمر من أرضهم ، وهو من أهم الطرق التى كانت تستخدم بعد اتصال السودان بمصر ، لذلك لم يكن بد من أن يكون للهدندوه اتصال بالحكومة أكثر مما كان للأمرار . وقد استغلوا

---

(١) من القريب صديقنا الشيخ عمر أبو آمنة عمدة جبيت . وهو من أكرم الناس وأسخاهم يداً . ولا شك أن أكون مبالغ فى وصفه هذا .

هذا الاتصال لمصلحتهم بما كانوا يحصلون من الإتاوات من القوافل المارة ببلادهم ، وينتفعون ببيع بعض الماشية والغلات للحكومة . كما ساهموا فى التقدم الزراعى فى منطقة الجاش الذى بدأ فى منتصف القرن الماضى ، ولكنهم كانوا كسائر الشعوب البدائية يمتعضون أشد البغض أن تطالبهم الحكومة بدفع ضرائب ، وكانوا يتفننون فى التهرب من دفعها بمختلف الوسائل السلمية والعدوانية . وكانت هذه عادتهم أيضاً فى الربع الأول من القرن العشرين . وإلى وقت قريب كانت جباية الضرائب هى سبب النزاع الأكبر بين الحكومة والرعية . إلى أن ظهر سبب آخر وهو محاربة الحكومة لتجارة الرقيق فأثار هذا حفيظة بعض المشايخ ممن يشتغلون بهذه التجارة .

لذلك كان للهدندوه فى الثورة المهدية دور أكبر وأخطر مما كان لسائر البجه . فقد رأى المهدى أن الطريق من سواكن إلى بربر من أخطر الأمور التى تهدد سلطانه . وهداه الحظ إلى رجل يستطيع أن يكل إليه قطع هذا الطريق . وشاءت الصدفة أن يكون هذا الرجل موتوراً لأن سفينة انجليزية استولت على بعض مراكب كان له ولأهله فيها تجارة عظيمة أهمها الرقيق الذى كانت تحمله . فأصيب وأسرته بخسارة فادحة . هذا الرجل الذى يحتل مكاناً واضحاً من صفحات التاريخ ، وهو عثمان دجنه ، يرجع نسبه فى القرن السابع عشر إلى رجل من الأكراد هاجر إلى سواكن ، بعد أن استولى عليها الأتراك ، ولم يلبث أن حدثت المصاهرات بين أسرة دجنه وبين الهدندوه وغيرهم من البجه ، ولم يتبوأ أحد أفرادها مكاناً ممتازاً بين البجه من قبل ، ولكن عثمان بفضل ذكائه واستغلاله للعاطفة الدينية أمكنه أن يقود عدداً كبيراً من أبناء القبائل . وأن يكون شوكة فى جنب القوات المرابطة فى سواكن وفى شرق السودان زمناً طويلا ، ولم ينته خطره إلا بالقبض عليه وهو فى كهف مظلم فى جبال واريبا ، وحمله أسيراً إلى رشيد ، ثم إلى وادى حلفا حيث ظل فى الأسر إلى أن توفى عام ١٩٢٦ .

وليس هذا المقام بمتسع لسرد أعمال هذا الرجل ، الذى ملأت أعماله صفحات كثيرة ، لأن أنباءه معروفة فى كتب التاريخ ، ولم يكن فى الحقيقة قائداً للهدندوه ،

بل لطائفة من المحاربين المتحمسين جمعهم من مختلف القبائل . حتى كان فى نهاية أمره يعتمد على بعض التعايشة لتدعيم سلطانه فى كسلا وإقليم المطبرة . فحديشه وإن كان له مكانه فى تاريخ السودان الحديث ، فإنه قليل الاتصال بتاريخ الهدندوه كقبيلة اللهم إلا ما كان لهذه الاضطرابات والثورات من الأثر السيئ فى تماسك القبيلة واضطراب أمورها .

وبعد انتهاء عهد المهدية ظل الهدندوه قبيلة تعوزها الوحدة ، ومما ساعد على ذلك أن بلادهم كانت مقسمة بين مديريتين ، فلما أنشئت مديرية كسلا سنة ١٩٢٥ واشتملت على جميع بلاد الهدندوه ، وصادف ذلك أيضاً التوسع فى استغلال دلتا الجاش بواسطة شركة كسلا للقطن ، وبعد سنتين وفقت الحكومة لاختيار ناظر جديد ، من رجال شعبة وبلال العريقة ، وأمكنه أن يكتسب ثقة القبيلة بالتدريج ، فعاد للهدندوه عيش الهدوء والتقدم . وأصبحوا القبيلة المبرزة بين جميع البجه .

حالة القبيلة فى الوقت الحاضر

لدينا أوصاف للهدندوه من أقلام كثير من السائحين الأجانب ، وعلى الأخص من الإنجليز ، تشتمل على كثير من الظلم وقلة الإدراك لحقيقة أحوالهم ، فقال منهم جوان دى كاسترو البرتغالى وهو يكتب فى سنة ١٥٤٠ ، إنهم يعبدون محمداً وعاداتهم دنيئة وقذرة . ووصفهم بركهارت ، وكانت زيارته لبلادهم فى أوائل القرن التاسع عشر ، فقال إنهم يجمعون الصمغ فى دلتا الجاش ويصدرونه إلى سواكن ، وأن لهم ماشية (أى بقرا) من النوع ذى السنام . وأن هذه الماشية كثيراً ما كانت فريسة السباع التى تغير على دلتا الجاش ، والظاهر أن الأحوال قد تغيرت كثيراً منذ زيارة بركهارت ، لأن هذا النوع من الماشية ليس له اليوم وجود ، كما أن أشجار الصمغ اليوم قليلة جداً عندهم .

ثم يمضى بركهارت فى وصفه فيقول ، بعد أن أشار إلى وجود السباع الضارية حول خور الجاش ، « غير أن أشد الوحوش شراسة هو البجاوى نفسه »[1] . ووصفه

(١) راجع الطبعة الثانية من رحلات بركهارت (لندن سنة ١٨٢٢) فى صفحة ٣٠١ وما بعدها .

بأنه كسول ، نفور من الناس ، لا يجيب على سؤال يوجه إليه ، وكذلك زعم بركهارت أنهم قد يشربون الدم المتجمد بعد أن يضيفوا إليه قليلا من الملح والسمن . ويقول أوين إن هذا كله صحيح ، وإن كانت عادة تعاطى الدم قد انقرضت . ولكن بركهارت لا يكتفى بهذا بل يزعم أن الهدندوى بخيل شحيح نحو الغرباء وإن كان كريماً نحو أبناء جنسه ، يميل إلى السرقة والسكر ، وأن نساء الهدندوه تمتاز بالجرأة وقلة العفة ، ويرى أوين فى هذا الوصف ظلماً للهدندوه ، ويؤكد أن الهدندوى على شدة نفوره من الناس ، كريم لا يمنع القرى عن الضيف ، وليس من معتادى السرقة اللهم إلا فى إغاراته أحياناً على الماشية . ولا يكاد يمس الخمر منهم سوى بعض سكان المدن وإذا استثنينا شعبة صغيرة تعيش فى أقصى الشمال بالقرب من بور سودان ، فإن نساء الهدندوه على جانب كبير من العفة . ويفسر أوين وصف بركهارت المزرى بالهدندوه بأنهم كانوا يعبثون به كعادتهم . ولكن من الجائز أيضاً أن حكم عثمان دجنة لهم ، وإصراره على مراعاة أحكام الدين ، وقسوته فى معاقبة من يرتكب أقل جرم ، قد كان له أثره فى تهذيب الهدندوه ورفع مستوى السلوك بينهم ، حتى أصبحوا أرقى فى هذه الناحية من سائر البجه .

ووصفهم آخرون ، فقال منهم صموئيل بيكر إنهم قبيلة رديئة جداً ، وقال عنهم تاجر إنجليزى فى عصر المهدية إنه لاشىء يحسن من شأنهم سوى أن يمحوا من الأرض . ووصفهم إنجليزى آخر بالكسل والكذب ، وهذه الأوصاف كلها مصدرها التحامل والجهل . فأما الكسل الذى يوصفون به ولا يرى أوين بأساً فى التصديق على هذا الوصف ، فيرجع إلى أنهم يطالبون بأعمال لا يرغبون فى أدائها ، وأما توحشهم ونفورهم من الناس ، ومن الغرباء بوجه خاص . فرده إلى بيئتهم فى الجبال التى تفرض عليهم العزلة وقلة الاختلاط ، وقد سرى هذا الخلق فى دمائهم حتى لازمهم بعد أن نزلوا السهول وعاشوا وسط الناس ؛ ومارسوا الزراعة وسكنوا القرى فى دلتا الجاش .

وقد كتب أحد فضلاء الهدندوه — بناء على طلب المؤلف — وصفاً لبعض

أخلاقهم وأحوالهم ، يقول فيه : إن المدندوى فنوع صبور إلى أقصى حدود الصبر ، يحتمل المشاق ويستهين بالصعاب ، ويصبر على الحرمان ، ولا يشكو مهما بلغ به الألم . وهو — كسائر البجه — شجاع إلى درجة الاستماتة . ولا يميل إلى المزاح . وهو يثور ويغضب بسرعة . ولذلك كثرت المداوات بين القبائل والبطون . .

وهو أقرب إلى الشك فى الناس وإساءة الظن بهم حتى يعرفهم ، ولذلك لا يبوح بشىء أو بأمر من أموره ، إلا لمن يثق بهم . ولا يثق بشخص حتى يجربه مرتين أو ثلاث مرات ، فإذا آمن بك ، فلن يتحول عن إيمانه مهما سمع عنك من الأقوال والتهم ، ولشدة نفورهم من الغريب — سواء أكان من المدندوه أو غيرهم — ليس من السهل التفاهم معهم ؛ وإن كان لهم مع ذلك شغف كبير باستقصاء الأخبار من كل إنسان حتى من الغرباء ، كما يبدو من العادة الشائعة عندهم . والتى يسمونها « سكـنـاب » . والسكناب بلغتهم الخبر ، أو النبأ ؛ واستقصاء الأخبار من كل قادم عمل شائع عند المدندوه يحرصون عليه أشد الحرص ، حتى يلموا إلماماً دقيقاً بكل ما يجرى ، فى بلادهم والبلاد المحيطة بهم .

ويقول الكاتب إن طريقة تبادل السكناب طريقة قديمة تتخذ دائماً صورة خاصة : فيسأل الواحد منهم القادم بلغته التبداوية . « مرحباً ! سلامات ! كيف أحوالك وأحوال قبيلتك . وأحوال البلد ؟ . . هات السكناب ! من أين قمت ومتى ، وماذا رأيت وسمعت ، وهل قابلت أحداً فى الطريق ، وهل مررت فى طريقك على سكان ومنازل ، وهل مررت بماء وهل رأيت شيئاً من الدواب ، وهل سمعت خبراً من أحد الناس فى الطريق . . ؟

فيجيب المسئول عن هذا كله ليس عندى خبر ، حتى يكرر السائل سؤاله مرتين أو ثلاثاً ، ويأنس إليه المسئول شيئاً فشيئاً ، فيبدأ بذكر الأشياء القليلة الأهمية ، ويستغرق فى ذلك وقتاً طويلا ، ويسكت من آن لآن لكى يأخذ نفساً من « الكدوس » ، أو غليون التدخين ، الذى يحشونه بنوع خاص من الطباق يسمى الكركوج : وقد يستغرق السكناب ساعة أو ساعتين . ولكن السائل

لا ينفد صبره ، لأنه يعلم أن الأخبار الهامة لا تجيء إلا فى النهاية ، بعد أن يزداد التعارف بين السائل والمسئول .

وهذا السكتاب بين الغرباء ، يجرى وهم على ظهور دوابهم ، أو واقفين على قارعة الطريق . ولكن أهم سكتاب هو ما يجرى بين أشخاص بينهم معرفة سابقة ، حول حلقة « الجَبَنَة » أو القهوة . وفى هذه الأحوال يطول الحديث ، فى هدوء واطمئنان .

وللقهوة عندهم شأن أى شأن . لأنها عند البجه عامة ، وعند الهندوه بوجه خاص بمثابة الغذاء بل أكثر من الغذاء . ولها قواعد وأصول وآداب يحافظون عليها أشد المحافظة ، فهى تعمل دائماً على قدر الجماعة الموجودين ، وإذا أقبل قادم جديد ، فلا بد له أن ينتظر حتى يعد له نصيبه . ولعل مجاورة البجة للحبشة جعل للقهوة تلك المنزلة الهامة ، التى نجدها للشاى عند القبائل الليبية .

هذه خلاصة الوصف لبعض طباع الهدندوه ، كما رواها واحد من زعمائهم ، وهو يرى أن الهدندوى قلما يتحدث بصراحة إلى الغريب ، حتى لو سألته عن البطن أو البدنة التى ينتمى إليها ، فإنه لا يزيد على أن يقول إنه هدندوى ، حتى يعرفك تمام المعرفة .

* * *

ويصف لنا مستر أوين حياتهم الاقتصادية وصفاً نلخصه فيما يلى :

فى الجهات الشمالية التى تغلب عليها الصفة الجبلية تعتمد القبيلة على رعى الإبل والماعز بوجه خاص ، وقلما تسمح الظروف الطبيعية بتربية أى نوع آخر من الماشية وإن كانت الصور المنقوشة على الصخر تشير إلى احتمال وجود البقر فى عصر لعل المطر كان فيه أغزر مما هو اليوم . والزراعة فى هذا الإقليم الشمالى قليلة ، وأكثرها فى بطون الأخوار .

أما الإقليم الجنوبى عامة ودلتا الجاش بوجه خاص . فالحالة الطبيعية فيه تسمح برعى البقر والغنم ، وبنشاط زراعى أكثر . وإن كانت الماشية هى العماد الأكبر للثروة .

وعلى منحدرات الجبال الشمالية تكون حركة الرعاة فى طلب الكلأ من الجبال إلى السهول وبالعكس ، على الصورة التى رأيناها عند الأمرار . أما فى الجنوب ، فالحركة والانتقال يكون بين الشمال والجنوب ، وهى فى كلا الحالين حركة محدودة ، ومقصورة على الطوائف التى تشتغل — أكثر ما تشتغل — بالرعى .

وفى العصر الحديث . بعد التوسع الزراعى فى الدلتا ، نشأت قرى كثيرة مستقرة سكانها لا يكادون يبرحونها . ومع أن الهجرات الموسمية محدودة عادة ، فإنه نظراً لما امتازت به الجهات الجنوبية من وفرة المطر والنبات ، ربما نزح بعض سكان المنحدرات الشرقية الشمالية . فى السنين القليلة المطر ، وانتقلوا إلى جهات الجنوب طلباً للكلأ والمرعى .

وقلما تعنى القبيلة بالصيد — لا صيد البر ولا صيد البحر — على قلة ما لديهم من الزاد ، وجل غذائهم من الألبان ، وقليل من لحوم الحيوانات التى يغتنمونها بالإغارة والنهب ، وقد يتغذون بثمار الدوم ، فيمضغون قشورها . أما حرفة التجارة فلم يعيروها اهتماما كثيرا ، وكل ما غنموا منها تحصيل الإتاوة من القوافل التى كانت تمر ببلادهم ، أو تأجير إبلهم أو بيعها للتجار . ومعظم هؤلاء من جزيرة العرب .

وحبهم للعزلة جعلهم ينفرون من الاختلاط بغيرهم — حتى بأبناء جنسهم — ومن التجمع إلا لغرض مؤقت ، وجل همهم أن يتركوا لأنفسهم لا يتعرض لهم أحد ، ولا يتعرضون لأحد . ذلك كان دأبهم وطبعهم ، غير أن العالم الخارجى غشا كله وحضارته ونزعاته لم يدعهم لأنفسهم ، وجاءت السلطات تريد التقرب منهم والاتصال بهم ، سواء أرغبوا فى ذلك أم لم يرغبوا . ووضعت خطة لاستغلال بلادهم ، ولمشروعات زراعية على نطاق واسع لم يألفوه . ولكن الهدندوه قد أدركوا بما فطروا عليه من الذكاء أن فى هذا مصلحة لهم ، فبذلوا جهداً محموداً لكى يلائموا بين أنفسهم وبين الحياة الجديدة التى امتدت إلى بلادهم ، فأقبلوا على الزراعة ، حتى على زراعة أصناف جديدة مثل القطن .

وعلى الرغم من أنهم لم يصبحوا مهرة فى زراعة القطن — وحداثة العهد بهذا الأمر تكفى لتفسير ذلك — فإنهم على كل حال لم ينفروا من هذه النقلة الجديدة

الغريبة ، كما ينفرون من الغرباء الفضوليين ، بل أقبلوا على ممارستها جهد طاقتهم . وأصبح البجه أكبر المشتغلين فى الزراعة فى دلتا الجاش ، إذ يبلغون نحو ٧٥ ٪ من مجموع الزراع ، و٥٥ ٪ من الزراع جميعاً من الهدندوه وأخذ مستوى الزراعة عندهم فى التحسن حتى بات قريباً من مستوى الجماعات الأخرى فى الدلتا ، وأكثرها من سكان غرب إفريقية ، ممن مارسوا الزراعة زمناً طويلا . وللهدندوه فوق ذلك نشاط زراعى ملحوظ فى منطقة طوكر ، على الرغم من وقوع هذه المنطقة خارج بلادهم .

وإلى جانب القطن ينتفع الهدندوه باستغلال ثمر الدوم ، بأن يبيعوا الحب ، بعد جمعه ، فى الأسواق وهو يستخدم بوجه خاص فى صناعة الأزرار ، ويسميه بعض الكتاب العاج النباتى . ونخيل الدوم ينمو نمواً طبيعياً ، وهو واسع الانتشار فى بلاد الهدندوه الجنوبية ، وهـذا النشاط الاقتصادى أيسر خطباً وأكثر ملاءمة لطبع الهدندوه . ولذلك يقبلون عليه عن رغبة صادقة . فليس هنالك فلاحة ولا رى ولا تطهير للأرض من الحشائش ، ولا تدخل من المفتشين أو الحكام ، ومع ذلك فإن هـذا النشاط الاقتصادى حديث العهد أيضاً ، فعلى الرغم من أن نخيل الدوم منتشر فى البلاد منذ قرون بعيدة ، غير أن الأسواق التى تستهلكه بكثرة جديدة ، فازداد شأنه بازدياد الحركة التجارية فأصبح مورداً جديداً للثروة لم يكن معروفاً لقدماء البجه .

وقد استدعى استغلال الدوم نشوء صناعة جديدة عند الهدندوه لا تخلو من المهارة ؛ وهى صناعة استخراج الحبة من باطن الثمرة ، وذلك بطرقها بالحجارة بمهارة حتى تتحطم القشرة الخارجية . وتخرج الحبة من باطنها . فيطارح الهدندوى القشر للماعز ، ويستبقى الحبة ليبيعها . وفى وسع الشخص المدرب أن يستخرج ألف حبة فى اليوم الواحد ؛ وهو ما يعادل ثلثى قنطار من العاج النباتى . وقد يصل ثمن القنطار إلى خمسين أو ستين قرشاً .

ويقول مستر أوين إن الهدندوه أكثر تأخراً وأشد تمرداً على النظام من سائر البجه . وأن لهجتهم أكثر خشونة ، وأسلوب النطق أقبح أسلوب بين جميع

البجه . وأن نسبة القتل والمشاجرة عندهم أكثر ؛ كما أنهم أكثر البجه نفوراً وانطواء على أنفسهم . حتى إنهم يحتقرون الجماعات التى تخضع للنظام مثل بنى عامر ومع ذلك فإنهم قد أثبتوا أنهم وإن كانوا أكثر البجه تأخراً ، أسرعهم إلى الأخذ بأسباب التقدم . وقد أمكنهم بعد أن توفرت لهم القيادة الصالحة من رؤسائهم أن يتحدوا ويؤلفوا نظاماً قبلياً قوياً . واستطاعوا أن يحتلوا مكانهم وسط الجماعات التى تزدحم فى منطقة كسلا ، وهى جماعات متعددة اللهجات والسلالات . ومع ذلك أمكن للهدندوه أن ينظموا علاقاتهم بتلك الجماعات ، ومنهم من هو غريب عن السودان ، مثل المهاجرين من غرب إفريقية . وهم دائماً حريصون على حقوقهم ومكانتهم ، شديدو الحساسية لأقل شىء يتوهمون أن فيه اعتداء على حقوقهم .

ونظراً لأنهم قد أصبحوا وحدة كبيرة منظمة ، لهم عصبية وشوكة ، فإن معظم القبائل البجاوية الصغيرة المنتشرة بين خور بركة والعطبرة قد انضمت إليهم وانضوت تحت لوائهم . وهكذا نرى الهدندوه لا يزالون يدمجون فى صفوفهم القبائل الصغيرة بالوسائل السلمية وحدها . ولعله لن يمضى زمن طويل حتى يكون اسم الهدندوه شاملا لجميع البجه الجنوبيين ؛ وإن كان كثير من الحالنقة والأرتيقا والأشراف لا يزال متمسكا بوحدته وتقاليده .

الفصل السابع

بنى عامر

يذكر اسم بنى عامر دائماً على هذه الصورة ، سواء أكان سياق النحو يتطلب الرفع أو النصب ، ولعل السبب فى هذا غلبة العامية ، وليس هنالك سبب يمنع من استخدام صيغة الرفع برغم العرف الشائع .

وبنو عامر هم القبيلة البجاوية التى تحتل آخر أقاليم البجه من جهة الجنوب . وكما أن البشاريين لهم أوطان فى السودان ومصر ، كذلك لبنى عامر أوطان فى السودان والإرتريا . ولكن القياس مع الفارق ، لأن البشاريين فى القطر المصرى قليلو العدد ، بينما بنو عامر فى أرتريا يبلغون الستين ألفاً ، أو ما يقرب من ضعف عددهم فى السودان ؛ والمساحة التى يحتلونها فى السودان محدودة ، لعلها لا تزيد على خمسة آلاف ميل مربع ، وهى فى أقصى الجنوب الشرقى من مواطن البجه ، فى صورة مثلث ، أحد أضلاعه ساحل البحر ، من حدود إرتريا إلى جنوب سواكن بنحو ١٠ كم . والضلع الثانى خط يمتد من ساحل البحر الأحمر ، فى اتجاه شمالى جنوبى مخترقاً سلسلة جبال أداريباب ، إلى أن يلتقى بحدود إرتريا ؛ والضلع الثالث هو الخط المتعرج الذى يمثل الحدود الأرترية السودانية فى هذا الإقليم .

أهم مظاهر التضاريس فى هذا الإقليم السودانى من أوطان بنى عامر ، هو السهل الساحلى . وهو هنا أكثر اتساعاً منه فى أى جزء آخر من السودان . وذلك بسبب تراجع الجبال نحو الغرب من جهة ، وبسبب تقطعها الذى سبقت الإشارة إليه من جهة أخرى . هذا السهل هو أوسع ما يكون فى الشمال حيث تتوسطه مدينة طوكر ، ثم يضيق بالتدريج نحو الجنوب ، بالقرب من حدود إرتريا ، وفيما وراء مرفأ عقيق ، حيث نجد كتلة جبلية بارزة تحتل هذا الركن البعيد من السودان وتستمر إلى ما وراء حدود إرتريا وهى كتلة جبل أدراو ، التى يربو ارتفاعها على ٢٧٠٠ متر فوق سطح البحر .

وهنالك كتلة جبلية سبقت الإشارة إليها وهى كتلة جبل أدارياب ، ولكنه ضيق وأصغر وأقل ارتفاعاً ، وبين الكتلتين يجرى خور بركة إلى السهل الشمالى ، ووادى بركة نفسه تغلب عليه السهولة والاتساع .

وهكذا نرى أن أوطان بنى عامر فى السودان تشتمل على أربعة مظاهر تضاريسية : سهل ساحلى ، ينحدر إليه واد نهرى ، وهذا النهر ، أى خور بركة ، يعد بالنسبة لهذه الأقاليم نهراً عظيم الخطر ، وإن كان فى ذاته ضئيلا إذا قيس إلى الأنهار عامة ؛ ثم جبل عظيم فى الجنوب الشرقى ، وآخر أصغر منه فى الطرف الغربى .

ويجوز لنا أن نعتبر خور بركة هو المحور الذى تتألف حوله بلاد بنى عامر فى السودان ، بل وفى بلاد الإرتريا نفسها ، ونظراً لأن هذا الخور يجرى نحو الشمال ، ويلتقى بمائه فى صورة دلتا فى إقليم طوكر ، فقد احتل بنو عامر جزءاً كبيراً من هذا السهل الشمالى أيضاً .

وأوطان بنى عامر فى إرتريا تزيد فى مساحتها على أوطانهم فى السودان ولعلها تبلغ الضعف أو أكثر . وإن كانت كلها تقريباً مركزة حول وادى بركة وروافده ، وهو الإقليم الذى يطلق عليه هناك اسم أغوردات ، وقد يصلون فى رحلاتهم وجولاتهم فى طلب المرعى إلى التوغل فى الجنوب صيفاً إلى وادى مارب (أعالى خور الجاش) وهى على كل حال لا تبعد كثيراً عن أعالى خور بركة .

وبلاد بنى عامر ينالها كلها تقريباً نصيب من الأمطار الشتوية ، التى تأتى مع الرياح الشمالية ، وهذا يتزايد كلما اتجهنا من الشمال إلى الجنوب فبينما المطر فى طوكر لا يزيد على ٨٨ م م إذا هو يصل فى عقيق إلى ١٣٨ م م ؛ وفى كلا الحالين يتساقط قليل من المطر فى الصيف على السهول الساحلية . غير أن هذا المطر الصيفى يزداد ويصبح هو الظاهرة الناخية الهامة إذا صعدنا فى وادى بركة وتوغلنا جنوباً إلى إقليم المرتفعات ، ذات المناخ الحبشى الملطف ، حيث يصل المطر إلى ما يقرب من ٤٠٠ و ٥٠٠ م م . وقليل من المطر الشتوى يصل أيضاً إلى الهضبة الإرترية . وقد شمل بعض أوطان بنى عامر هناك . ولئن كان من الصعب تحديد مدى انتشار الأمطار

الشتوية ، فإن السهل الساحلي في إرتريا ينالهُ النصيب الأكبر منها . ولذلك يخرج بنو عامر نحو الشرق في الشتاء لرعي ماشيتهم .

وظاهر من هذا الوصف الموجز أن أوطان بني عامر لموقعها الجنوبي ينالها من المطر نصيب أوفر ، ويزداد نبتهـا وعشبها وشجرها تبعاً لذلك ، وإن لم يكن المطر من الوفرة بحيث يساعد على الاستقرار التام . ولذلك كانت الحرفة الغالبة هي الرعي وإن أمكنت الزراعة في بعض الجهات الملائمة ، بقطع النظر عن المشروعات الخاصة التي تمت في منطقة طوكر ، ومكنت لـكثير من بني عامر وغيرهم من البجة أن يعيشوا عيشة الاستقرار في أكمل مظاهره .

إن موقع بلاد بني عامر يعرضهـا لطائفة من المؤثرات الخارجية ، فالإقليم الساحلي ، كما هي الحال في الشمال ، يقابل هضبة العسير واليمن ، ويتعرض لجميع المؤثرات التي تتخذ طريقها في البحر الأحمر . والهضبة الحبشية تمتد نحو الشمال حتى تتـاخم بلاد بلاد بني عامر . وهي تنحدر انحداراً تدريجياً من الجنوب إلى الشمال ، ممـا يجعل أوطان بني عامر عرضة للتأثر بالمؤثرات المختلفة ، ثقافية أو اجتماعية ، التي مصدرها الهضبة الأثيوبية ، وعلى الأخص الأطراف الشمالية منهـا . فإذا كان بنو عامر فيما مضى شعبة خالصة من الجماعات البجاوية ، يشاركون غيرهم من البجه في ثقافتهم وتقاليدهم ، وكانت أوطانهم الأصلية في الأودية المحيطة بخور بركة ومرتفعات البحر الأحمر ، فإنهم على مضى الزمن قد تأثروا بالاختلاط بسـكان السواحل ، وأكثرهم من جزيرة العرب . وبوجه خاص تأثروا بالهضبة الأريترية في لغتهم وثقافاتهم . وتنازعتهم هـذه المؤثرات من الشرق والجنوب ؛ وكانوا هم الشعبة الوحيدة البجاوية التي تسربت إليها جميع هذه المؤثرات . ولا شك أن هذا التأثير لم يكن مقصوراً على اقتباس لغة أو ثقافة غريبة في الأصل عنهم ، بل تناول أيضاً اختلاطاً جنسياً ، تسربت به عناصر لم تكن كلها قوقازية إلى بعض طوائف بني عامر في آخر أوطانهم من جهة الجنوب . وربمـا كان بنو عامر في السودان أكثر نقـاء وأبعد عن الاختلاط بالعناصر الغريبة ممن سكنوا إريتريا . ولذلك وجـد بينهم سلجهان خير أمثلة للبجه النقيين ، الذين يشبهون المصريين القدماء أقرب المشابهة .

ولئن كانت المؤثرات الحبشية مصدرها الأول جزيرة العرب وإقليم اليمن ، فإن الهضبة الحبشية لم تكن قبل ذلك خالية من السكان ، بل كان فيها عناصر حامية وأخرى زنجية ، ثم جاءت الهجرات الحبشية ، تتدافع كالموج من الجنوب إلى الشمال ، وكل موجة تحمل معها عناصر جديدة تدفع العناصر التى كانت قبلها نحو الشمال . ولذلك كانت اللهجات الشمالية فى الهضبة الحبشية والأرترية أقدم من اللهجات الجنوبية ، وهذه اللهجات القديمة ، ومعها بعض السكان القدماء ، هى التى أثرت فى بنى عامر .

ومن أقدم اللغات السامية التى دخلت الهضبة لغة الجيز ، وتشبه اللغة الحميرية اليمنية ؛ واللهجة السائدة فى شمال أثيوبيا اليوم وهى اللغة التجرينية ، مشتقة من لغة الجيز القديمة . ولما كان مركز السلطان والحكم فى أثيوبيا فيما مضى فى الشمال ، كانت هذه اللغة ذات نفوذ واسع ، وصل إلى إقليم البجه ، وأثر فيهم وترتب على هذا التأثير نشوء لغة جديدة ، وهى خليط من الحامية والتجرينية ؛ وتسمى هذه لغة الخاسة أو لغة تجرة . وهى تختلف عن لغة شمال الحبشة اختلافاً جوهرياً ، بحيث يتعذر التفاهم بين سكان شمال الحبشة وبين بنى عامر ومن حولهم من القبائل التى تتكلم لغة تجره . من أجل هذا يرى بعض الكتاب تجنبا للبس أن نسمى اللغة السائدة فى شمال أثيوبيا اللغة التجرينية ، ولغة بنى عامر ومن حولهم من القبائل لغة تجره أو لغة خاسة نسبة إلى قبيلة من بنى عامر تعيش بالقرب من طوكر .

وهكذا نرى أن من بنى عامر جماعات تتكلم لغة تبداوى ، ولهجتهم فيها تقرب من لهجة الهدندوه ، وجماعات تتكلم لغة تجره ، وبعضهم يتكلم اللغتين ، وكثير منهم يجمع إلى هذا الإلمام بالعربية أيضا .

يختلف بنو عامر عن سائر البجه كما قدمنا بأن ديارهم موزعة بين السودان والأرترية ، وهذه حالة لا حول لهم فيها ولا حيلة . وهم أيضاً يختلفون عن سائر البجه بأنهم — فى الوقت الحاضر — أكثر جنوحاً إلى السلم والهدوء . وقد اغتر سلجمان بهذا المظهر فوصفهم بأنهم تنقصهم صفات الشجاعة وشدة المراس التى تبدو عند

النسبة التقليدية للهدندوة

محمد هداب (الشريف) = ابنة شكايتل ملك البجه

محمد مبارك (براكوين) = هدات (ابنة الشريف العلوى)

- عتاب (أبو عرين)
  - كالولاى
  - ويلاليلاب (١)
  - غالبية أقسام ترك
  - هيكولعاب
- جيلاب (٢)
- شبادين أبو جيل
  - ابنة = أحمد الشكرية
    - بشارياب
- شبوديناب
- جلاب أبو قايد
  - قايداب
- باشك أبو حكول
  - ابنة = افاق (ترك)
    - سمرار
  - ابنة = أحمد الفنج أو الجمليين
    - قرعيب
  - ابنة = أحمد المكاراب (جعلى)
    - الشارعاب
  - حكولاب (٣)
- قورهب أبو عدل
  - قرعاب
- كلاى أبو هيس
  - تيق
  - سمرندواب (٤)
  - حامداب
  - هيباب
  - عمراب
- ويل حد أبو سمر

تبين شجرة النسب هذه القصص الثمانى عشرة التى تتألف منها قبيلة الهدندوة ، وتفيد علامة = بعد كلمة ابنة ، أنها تزوجت من الشخص المذكور بعدها ؛ ويلاحظ تنويع المصاهرة مع العرب والترك والفنج

(١) كانت هذه الشعبة دائما مركز الزعامة لجميع الهدندوة

(٢) اشتهر أعضاء هذه الشعبة بالفروسية

(٣) أجاويد القبيلة والهيئة الاستشارية لها

(٤) كانت فيهم الزعامة الدينية قبل انتشار الختمية

مع ذلك قبائل وثنية . بعد أن انتشر الإسلام وتوطدت أركانه فى نجران وغيرها من البلاد العربية . وذلك بالرغم مما يقال بأن بلاد المسير لم تكن تخلو من بقايا الوثنية حتى القرن السابع عشر .

لذلك يبدو لنا أن البلو كانوا قبيلة بجاوية الأصل ، وربما جاز أن نظن أن قبيلة أو بيتاً من نجران نزل بينهم ، وساعد فى نشر الإسلام فيهم ، وسميت الدولة أول الأمر دولة نجران ، ثم غلب عليها اسم البلو أو اسم الشعب الأصلى بعد ذلك ، كما حدث فى سلطنة الفور ، وهذا يوضح أن البلو أنفسهم كانوا جماعة بجاوية تسربت إليها مؤثرات عربية ، وبسطت نفوذها على جماعات أخرى بجاوية تخالطها بعض الدماء الأجنبية .

ومهما يكن من شىء ، فإن وجود جماعة أرستقراطية بين بنى عامر ، دون سائر البجه ، ظاهرة تتطلب بعض الإيضاح . وإذا أردنا أن نحكم فى هذا الأمر بالقياس إلى نظائره فى أقطار أخرى ، لا بد لنا أن نفترض أن غزواً منظماً قد حدث ، بواسطة جماعة متماسكة منظمة ، لم تلبث أن فرضت سلطانها على جماعة أخرى كانت تحتل هذا الإقليم من قبل . وليس فى هذا وحده مايدل على أن تلك الجماعة لم تكن بجاوية ، بل يكفى أن تكون هنالك قبيلة بجاوية تعيش فى إقليم محدود ، تأثرت بنظام خاص ، أو بمؤثرات خاصة ميزتها فتكونت لها شخصية قائمة بذاتها ، وجماعتها تحس بوحدتها ، وبما بينها وبين سائر الجماعات من الاختلاف ، على نسق يقرب مما حدث فى تكوين دولة الفنج . ومن الراجح أنها تأثرت بمؤثرات مصدرها الجزيرة العربية[1] . ثم أخذت هذه الجماعة المتميزة بوحدتها وكيانها الخاص ، تغزو الأقطار

---

(١) هنالك بعض شواهد تدل على أن البلو تعرضوا فى أثناء تكوينهم كجماعة مستقلة لمؤثرات تختلف عما تعرض لها سائر البجه . فيقول مانسفيلد باركنس Mansfield Parkyns (١٨٥٣) : إن البجه فى جوار مصوع كانوا يمثلون طبقة المحاربين ، ومن السهل تمييزهم عن غيرهم ممن حولهم من الرعاة ، بأنهم كانوا يحلقون شعر رءوسهم ، بينما الجماعات الأخرى تصفف شعرها فى صورة كتلة متجمعة على رأسهم . وليس هذا الوصف مقصوراً على المقيمين حول مصوع . وقد ذهب الأستاذ نادل Nadel (فى S.N.R. لسنة ١٩٤٥) إلى أن النجاب ، الذين خلفوا البلو ، من أصل عربى ، وسائر السكان من البجه . وقد لاحظ أن الطبقة الأرستقراطية تحلق رأسها وتلبس العمامة ، بينما عامة البجه — ويسميهم تجرة — يرسلون شعرهم فى خصلات مضفورة على الطريقة البجاوية (ص ٧٩) .

حدث هذا الانقلاب فجأة فى غضون القرن السابع عشر ، وفى وقت امتداد نفوذ سنار ؛ ولكن لا يعرف أن هنالك صلة بين زوال نفوذ البلو ، وحلول النبتاب محلهم . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما سبقت الإشارة إليه من أن البلو طبقة من المحاربين ، إلى جانب توليهم مناصب الزعامة القبيلية . فهذا يفسر لنا أنهم إذا اشتبكوا فى حرب ، ودامت هذه الحرب زمناً غير قصير ، وكان نصيبهم الهزيمة إثر الهزيمة ، فلا بد لهم بعد ذلك أن يزول نفوذهم تماماً ، وأن يسرف عدوهم فى الانتقام منهم حتى يبيدهم عن آخرهم .

ومع ذلك فليست لدينا عن هـذا الحادث الخطير سوى رواية تكاد تشبه الأساطير ، يرويها بنو عامر إلى وقتنا هذا . وهذه الرواية — على علاتها — تحدثنا أن فقيهاً عالماً ورعاً من قبيلة الجعليين[1] ، وفد من النيل الأبيض ونزل فى ديار بنى عامر . فالتف حوله خلق كثير ، كما هى العادة ، ولم يلبث أن أصبح يتمتع بنفوذ كبير بين أتباعه وأنصاره ؛ بل فى بلاط الملك نفسه . وهنا مرة أخرى تفتش عن المرأة البجاوية . فإن هذا الفقيه الورع تاقت نفسه إلى الزواج بامرأة من البلو ولم يرض ، حسب بعض الروايات عما دون حفيدة الملك نفسه ، ولعل هذا الزواج تم بغير رضى أهلها أو بعضهم . فلم يمض على هذا الزواج شهر أو بعض شهر ، وفى بعض الروايات بضعة أيام ، حتى كان هذا العنصر أو الشخص الساخط على هذه الزيجة الجعلية ، قد ازداد سخطه ، ولم يلبث أن جمع عصابة من أنصاره وأغار على الفقيه فقتله ، ولاذت زوجه بالفرار .

ثم تجري القصة بعد ذلك فى مجراها المألوف — وقد رأينا مشابهاً لها عند البشاريين وغيرهم — فإن هذه السيدة البلوية لا تلبث أن تلد فتى يفوق الفتيان بأساً وعزماً ، فلا يلبث أن يبلغ أشده حتى يعرف ما حل بأبيه ، فيبادر إلى طلب الثأر ولا يزال يشن الحرب على البلو حتى يوقع بهم الهزيمة إثر الهزيمة . وينتهى به الأمر إلى تأسيس طبقة حاكمة جديدة وهى النبتاب ، التى لا تلبث أن تحل محل البلو ،

(١) هذا التقى الورع يدعى حسب أشهر الروايات على أبو عامم ، واسم ملك البلو ، التى زوجه ابنته أو حفيدته إدريس محمد ، ويفسرون اسم النبتاب بأن أبو عامم وصف نفسه بأنه نبت من الأرض (راجع مقال Paul المذكور ص ٢٢٤) .

وتصبح لها السيادة والزعامة فى جميع قبائل بنى عامر وشعبها فى إرتريا والسودان .

وأيا كانت الظروف التى استولى بها النبتاب على زمام الأمور ، فإن النظام القديم ، لم يتغير بأكثر من تغير اسم الطبقة الحاكمة . أما النظام نفسه فقد ظل قائماً كما كان . وقوام هذا النظام وجود طائفة ممتازة ، منتشرة بين جميع شعب بنى عامر ، وهذه الطائفة هى المعترف لها بالسيادة والحكم ، وما سواها من أبناء الشعب ، هم الرعية . والرئيس الأعلى أو الدقلال ، هو الزعيم المعترف بزعامته لجميع قبائل بنى عامر .

والأستاذ لونجرج يرى بحق أن وجود هذه الطبقة الحاكمة من النبتاب كان قوة لها أثر فعال فى توحيد بنى عامر ، وجمع كلمتهم ، بصورة لا نجدها عند سائر البجه ، وهذا الاتحاد كان يشمل القبيلة وشعبها المختلفة فى إرتريا والسودان ، وقبل استيلاء الإيطاليين على إرتريا ، وقيام حدود سياسية بين شعبى بنى عامر ، لم يكن للقبيلة سوى دقلال واحد : ولكن فى أول القرن العشرين ، عند ما فصلت الحدود بين السودان وإرتيريا رأت إدارة السودان من المصلحة أن يكون لبنى عامر دقلال فى السودان ولو أن إدارة السودان لا تدعوه دقلالا بل ناظراً ؛ وهو وإن كان من نفس الأسرة التى ينتمى إليها دقلال إرتيريا ، فإن سلطانه مقصور على شعبة بنى عامر التى تعيش فى السودان ، وعلى الرغم من هذا الانقسام يعترف جميع بنى عامر بقرابتهم وبالأواصر التى تربط بينهم ، على رغم الحدود السياسية التى شطرتهم شطرين . وليس بين الشعبتين عداوة أو خصومات ، كما كان بين بنى عامر والهدندوه . ولكن اختلاف الحكومتين ، اللتين تنتمى إليهما كل شعبة ، قد وجه كلا منهما وجهة مستقلة فى الحياة ، فاشترك بنو عامر فى السودان فى المشاريع الزراعية فى منطقة طوكر وكسلا ولم يقبل على هذا من شعبة إرتريا أحد إلا فى القليل النادر . وكثير من سكان إرتيريا قد ينتقلون للرعى أو التجارة إلى سهول السودان ، ولكنهم يعودون إلى أوطانهم فى إرتريا . أما الشعبة السودانية فإن انتقال أفرادها إلى إرتريا قليل جداً .

ويتحدث الأستاذ سلجمان عن النبتاب ومركزهم الممتاز فى قبائل بنى عامر ،

الفصل الثامن

بعض القبائل العربية التي جاورت البجه

في الفصول التالية ستتاح الفرصة للتحدث عن المجموعات العربية الرئيسية، التي تتألف منها الكثرة العظمى من سكان السودان الشمالي؛ ولكننا — وقد قدمنا الحديث عن البجه بسبب قدمهم في السودان، ورأينا كيف تأثروا بالعروبة تأثراً شديداً، وجاء في سياق الحديث إشارات لبعض القبائل العربية التي اتصلت بهم، وعلى الأخص الكواهلة — يحسن بنا أن نخصص هذا الفصل للحديث عن هذه القبائل بالذات، وإن كان بعضها لم يرد ذكره في الفصول السابقة.

الكواهلة

تعد مجموعة الكواهلة في السودان اليوم مجموعة صغيرة محدودة الأوطان، إذا قيست إلى المجموعتين الكبيرتين: الجعلية أو العباسية والمجموعة الجهنية، وهم ينتسبون في أصولهم في جزيرة العرب إلى كاهل بن أسد بن خزيمة[1]. فهم إذن من عرب الشمال، ولكنهم منفصلون تماماً عن المجموعة الجعلية، ونسبهم منفصل من نسب الجعليين.

ولا شك أن الكواهلة هم أهم قبيلة اتصلت بالبجه اتصالا وثيقاً من ناحيتي الجوار والنسب، وإذا كان غيرهم من العرب قد دخلوا السودان الشرقي قبل الإسلام وبعده، فإن الروايات لم تحفظ لنا من أنبائهم شيئاً، بينما أثر اتصال الكواهلة بالبجه لا يزال واضحاً تردده كل قبيلة من قبائلهم، وكل بطن من بطونهم، حتى أصبحت كل مجموعة بجاوية تنتسب إلى بني كاهل، مفضلة النسب العربي الجديد، على النسب البجاوي التليد.

---

(١) قبيلة أسد وبطونها، هي التي كان يحكمها حجر أبو امرىء القيس الشاعر، والتي ثارت عليه وقتلته لظلمه. وكانت مواطنها في شمال نجد. وقد انتقلت بعد ذلك إلى غرب الجزيرة العربية بالتدريج، ومن هذا الجانب الغربي دخلت السودان.

والأمر الوحيد الذي يعجب له المتأمل في توزيع القبائل والبطون في السودان اليوم ، أن الكواهلة لم يبق لهم في السودان الشمالي الشرقي مكان يستحق الذكر ، وليس هنالك وحدة قبلية من بني كاهل تعيش اليوم وسط البجه ، ولولا أن الكواهلة قد اتخذوا أوطاناً أخرى في السودان ، لكانوا اليوم مجرد أحاديث تروى ، بعد أن اندمجوا في البجه كل الاندماج .

ومن دواعي الأسف أن المعلومات التي دونت عن الكواهلة بوجه عام قليلة . برغم ما لهم من المكان الواضح في التطور التاريخي لبعض القبائل[١] ، وبرغم انتشارهم الواسع في شرق السودان قديماً ، وفي الوسط والغرب بعد ذلك ويكاد أن يكون من المؤكد أن الكواهلة — أو معظمهم — قد دخلوا السودان من الشرق ، ووصلوا إليه من الجزيرة العربية مباشرة . وبدأوا حياتهم فيه باحتلال الإقليم الساحلي . أو جزء عظيم منه . من سواكن إلى عيذاب ، حيث اختلطوا بالبجه وتعلموا لسانهم وصاهروهم . وربما كان لهم الأثر الأكبر في نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم . وكان لهم أثرهم أيضاً في تنظيم التجارة والقوافل بين وادي النيل والبحر الأحمر .

وليس للكواهلة اليوم — كما ذكرنا — أوطان في أرض البجه ؛ وأوطانهم اليوم مبعثرة في جهات متعددة ، أخصها إقليم النيل الأبيض ، وأواسط كردوفان ، ولم يحاول أحد من الكتاب أن يجد صلة بين الكواهلة الذين يعيشون في أوطانهم الحالية ، وبين تلك القبيلة التي اتصلت بالبجه وصاهرتهم واندمجت فيهم ، غير أن الشواهد التي بين أيدينا تدل كلها على أن جميع الكواهلة — بما في ذلك القبائل التي تفرعت منهم ودعيت بأسماء أخرى — قد كانت لهم هجرة واحدة من مصدر واحد ، وأنهم انتشروا على مدى القرون من الشرق إلى الغرب ، انتشاراً تدريجياً .

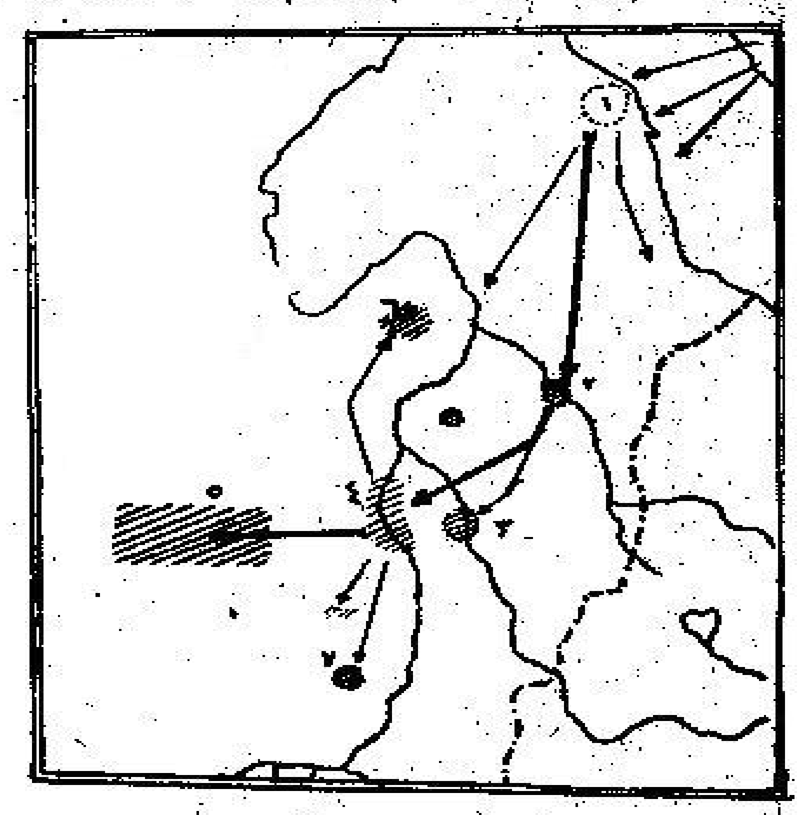
فنازلهم الأولى في السودان كانت السواحل الشرقية ، وما يليها من الأقاليم ، وقد عاشوا فيها زمناً ، وازداد عددهم ، ثم أخذت بعد ذلك بطون منهم تنزح عن

---

(١) يراجع ما كتبه ماكمايكل في كتابه عن تاريخ العرب في السودان ، وكتابه عن قبائل كردوفان . وهنالك بحث أوفى عن الكواهلة في إقليم النيل الأبيض في مقال المستر ريد في مدونات السودان S.N.R. لسنة ١٩٣٠ ص ١٤٩ وما بعدها ، عنوانه Some Notes on the Tribes of the White Nile Province

تلك الأقاليم ، وتتحول نحو الغرب ، فنزلوا بإقليم البطيرة ، والنيل الأزرق ، ثم ارتحل منهم نفر كثير إلى النيل الأبيض ، واحتلوا جزءاً كبيراً منه على الضفتين الشرقية والغربية ، ثم أخذوا يتوغلون في بلاد كردوفان الوسطى والشمالية ، وخالطوا الكبابيش فترة من الزمن ، ثم ارتحلوا عنهم واتخذوا لهم أوطاناً مستقلة في النصف الشمالي من كردوفان .

وهكذا يبدو أن من الممكن أن نقسم تاريخهم في السودان إلى مراحل :



(شكل ١١) هجرات الكواهلة

(١) الوطن الأول (٢) بعض الكواهلة على البطيرة (٣) النيل الأزرق
(٤) الكواهلة والحسانية الخ على النيل الأبيض (٥) في شمال كردوفان
(٦) الحسانية في بيوضه (٧) الكواهلة في تقلى

الأولى : نزولهم بالجهات الساحلية واستقرارهم فيها : وهذا قد تم في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر ، لأن ابن بطوطة يحدثنا أنه وجدهم مخالطين البجه ،

ناطقين بلسانهم فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى[1]. وقد زال أثر الكواهلة فى هذه الأقاليم كما ذكرنا، بسبب اندماجهم التام فى قبائل البجه.

والثانية : تمثل نزوحهم إلى جهات عطبرة وخور الجاش وسنار، ولا تزال لهم أوطان محدودة فى هذه الجهات.

والثالثة : نزوحهم إلى النيل الأبيض ثم إلى كردوفان وبيوضة وغيرها. وهكذا تعددت أوطانهم فى مختلف الأنحاء. وإن كانت قد زالت من الجهات الساحلية الشرقية، ولسنا نعرف على وجه الدقة تاريخ انتشار الكواهلة وتاريخ نزوحهم من إقليم إلى إقليم آخر. غير أن ما كما يكل يرجح أنهم لم يصلوا إلى كردوفان ويجاوروا الكبابيش إلا فى وقت متأخر لعله فى أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل التاسع عشر، أى قبل وصول إسماعيل بن محمد على بعدة وجيزة. ويرى أنهم لو دخلوا قبل ذلك بزمن طويل لكانوا أكثر اندماجاً فى الكبابيش واختلاطا بهم.

فإذا أردنا أن نملأ الفراغ بين دخولهم السودان ووصولهم إلى كردوفان أمكننا أن نفترض أن الكواهلة نزلوا السواحل فى القرن الحادى عشر ثم تكاثروا واحتشدوا فى هذا الإقليم على مدى ثلاثة أو أربعة قرون. وهاجروا إلى عطبرة والنيل الأزرق فى القرن الخامس عشر، ثم احتشدوا فيه، وفى السادس عشر هاجرت شعبة منهم إلى النيل الأبيض، وثبتت أقدامها فيه، ثم جاءت طوائف منهم من الشرق، لم ترض بحياة الاستقرار على النيل فهاجرت إلى كردوفان فى أواخر القرن السابع عشر، وبلغت بلاد الكبابيش فى القرن الثامن عشر، ثم انفصلت عن الكبابيش واتخذت لها أوطانها الخاصة فى كردوفان فى أواخر القرن التاسع عشر.

والأنباء القليلة التى لدينا عن الكواهلة، تشعرنا بأن لهم ميزة خاصة امتازوا بها، وهى سهولة اختلاطهم بغيرهم من القبائل، ونجاحهم فى استعمار أقطار بالاختلاط بأهلها. وبسط نفوذهم عليها بعد ذلك. ومقدرتهم على استيعاب عناصر غريبة عنهم

---

(١) راجع مهذب رحلة ابن بطوطة (بولاق ١٩٣٢) الجزء الأول ص ١٨٨ و ص ٢٢٢ ويشير ابن بطوطة إلى وجود جماعات عربية أخرى فى بلاد البجه، مثل كنانة ودغيم، وبعض بنى جهينة، وهؤلاء جميعاً لا وجود لهم بين البجة اليوم.

فالأصل فى الكواهلة أنهم من العرب العدنانيين ، ويرجعون بنسبهم إلى الزبير ابن العوام ، وهو من بنى هاشم . وعلى الرغم من نسبهم العدنانى ، نراهم فى ظروف متعددة يحتضنون جماعات من قبائل أخرى ، بعضها من أصل قحطانى ، وبعضها مثل العبابدة أقرب إلى البجه . ولقد كان لهذه السياسة بعض الفضل فى الإكثار من عددهم واتساع سلطانهم ، غير أن التوسع الكبير الذى انساقت إليه القبيلة ، وما أدى إليه من احتلال أقطار متباعدة قد جعل من المستحيل عليها أن تحتفظ بوحدتها ، فترتب على ذلك أن أصبح للكواهلة فروع وقبائل متعددة ، منفصل بعضها عن بعض . ولا تكاد أن تكون بينها رابطة ، بل قد يتخذ بعضها اسماً جديداً خلاف اسم الكواهلة كما هى الحال فى القبائل التى تعيش على النيل الأبيض لأن بُعد الشقة واختلاف ظروف الحياة وجه كل شعبة وجهة تختلف من وجهة الأخرى .

وإلى جانب الشعب الثلاثة الرئيسية التى ذكرت من قبل ، نرى أن جماعات صغيرة من الكواهلة انفصلت عن الجذع الرئيسى للقبيلة ، واتجهت وجة مستقلة إلى أقطار لم نكن نتوقع أن نراها فيها . ومن أغرب الأمثلة على هذا ما ذكره ما كا يكل[1] من أن جماعة صغيرة من الكواهلة تعيش فى الجزء الشمالى من جبال النوبا ، أى فى أقصى الجنوب من كردوفان . وكان الدافع إلى ذلك تأسيس مملكة تقلى الإسلامية ، التى هيأت فرصة جديدة لهجرة القبائل العربية ، وقد انتفع الكواهلة بهذه الفرصة كما انتفعوا بغيرها[2] .

على أن الأقسام الثلاثة الرئيسية هى التى ذكرناها . وأولها شعبة العطبرة والنيل الأزرق ، وهى كثيرة العدد ولكنها قليلة التماسك لأن بعضها لا يزال على البداوة ، وله قطعان من الإبل والغنم والماعز . والبعض يعيش إلى الجنوب من سنار ، شرق وغرب النيل الأزرق ، وعلى نهرى رهد ودندر . وكثير من هؤلاء قد جنح إلى الزراعة وحياة الاستقرار .

أما القسم الثانى الذى يعيش حول النيل الأبيض فلدينا عنه معلومات أوفى ،

---

(١) فى كتابه قبائل كردوفان Tribes of N. & C. Kordofan p. 204

(٢) راجع مقالة مستر R. J. Elles عن مملكة تقلى مدونات السودان S. N. R لسنة ١٩٣٠ الجزء الأول .

وإن كانت قد فقدتها قلية ، وهم أكثر الأقسام عدداً على الرغم مما تكبدته من الخسائر في زمن المهدية. ونحن مدينون بالقليل الذي نعرفه عنهم إلى مقال حستريد عن قبائل النيل الأبيض [1].

وعلى الرغم من أن قسما واحدا من القبائل العربية على النيل الأبيض يسمى «الكواهلة» ، فإن هنالك قبائل أخرى مثل الحسانية والحسينات تنتسب أيضا إلى بني كاهل . وكذلك هنالك قبائل أخرى يصفها ريد بأنها من البقارة ، وهي أيضا متأثرة بالكواهلة . والظاهر أن الكواهلة كان لهم أثر كبير في الاستقرار العربي على ضفاف النيل من خط العرض الثاني عشر جنوبا إلى إقليم جبل الأولياء شمالا : أي مسافة تتراوح بين ٣٥٠ و ٤٠٠ كيلو متر ، وهذه المنطقة هي أبعد توسع للنفوذ العربي على ضفاف النيل الأبيض نحو الجنوب . ويقسم المستر ريد هذه المساحة إلى قسمين متساويين تقريبا ، ويخصص النصف الشمالي منها للكواهلة والنصف الجنوبي للبطون الحلية والبقارة ، وهذا النصف الشمالي موزع بين ثلاث قبائل : الكواهلة ، والحسانية ، والحسينات . وهم موزعون من غير نظام مطرد في هذه المساحة غرب النهر وشرقيه ، فالكواهلة مثلا منهم شعبة في الشمال وأخرى في الشمال الغربي وثالثة في الغرب بعيدة عن النهر . والحسينات لهم أوطان في الشمال وأخرى في الجنوب ، والحسانية أوطانهم أكثر تجاوزا وتحتل الجزء الأوسط ، وأكثرها إلى غرب النهر (شكل ١٢) .

والظاهر أن نزول بني كاهل في هذا الإقليم ، كان جزءاً من هجرات اتجهت نحو الغرب ، على مدى أجيال عديدة . فأما البطون الغنية بإبلها فلم تطب لها الإقامة على ضفاف النهر ، واستأنفت أو تابعت هجرتها نحو الغرب . وأما الذين قلت إبلهم فالتزموا النهر ومارسوا الزراعة .

كذلك لا بد لنا أن نذكر أن بني كاهل لم يجدوا أوطانهم على النيل الأبيض خالية من السكان ، بل وجدوا فيها عناصر بعضها قوقازي والبعض مولد . وقد تمكنوا بالحيلة والحرب من توطيد أقدامهم حتى تمت لهم السيادة في هذا الإقليم . وأول من نزل هذا الإقليم فريق من بني كاهل ينتمي إلى الشعبة التي تدعى عرواب :

---

(١) المقال السابق ذكره .

وهؤلاء نزلوا الأطراف الشمالية . ثم جاء من بعدهم الحسينات ، وزاحوهم فى هذا القسم الشمالى ، وصالحوهم على تعويض دفعوه لهم من الإبل . وعلى أثر الحسينات جاءت الحسانية . ولعلهم جاءوا أول الأمر لمساعدة الحسينات فى حروبهم مع



(شكل ١٢) بعض قبائل النيل الأبيض كما أوردها مستر ريد

الشلفية . أو لعل الشلفية استنجدت بهم لمساعدتهم فى الحرب مع قبائل الجنوب . فلما تم النصر بفضل تدخل الحسانية ، زاحموا الشلفية فى أوطانهم ثم دارت حروب

كان فيها الحسانية والحسينات حلفاء. وكان لهم فيها الفوز على السلمية وغيرهم من القبائل التي تحتل ضفاف النهر.

وعلى الرغم من أن الحسانية جاءوا بعد أبناء عمهم الحسينات، فإنهم أصبحوا أقوى القبائل الثلاثة التي تمثل بني كاهل. وهنالك مثل سائر في هذه الجهات يرويه مستر ريد يقول «لا تأمن الحسانى، إن كان غريب بلدان.» والإشارة في هذا المثل إلى السياسة التي اتبعوها، والتي يبدو أنها متأصلة في بني كاهل، أن ينزلوا غرباء، ويدفعوا لأصحاب البلاد أجراً من الأراضي التي يحتلونها، حتى إذا كثر عددهم ادعوا الحق فيها والتجأوا إلى القوة لإثبات حقهم وقد كان الحسانية والحسينات حلفاء دائماً في حروبهم مع جيرانهم. وتروى قصص كثيرة عن أبطالهم القدماء وكيف حاربوا الشكرية أحياناً وأمكنهم بذلك أن يضموا الأراضي الواقعة شرق النهر، والكبابيش تارة، حتى أمكنهم التوسع نحو الغرب؛ وحاربوا البقارة إلى الجنوب وأجلوهم عن بعض أراضيهم على النهر. والتجأوا إلى الحيلة والمسالمة في علاقتهم مع الفنج، بحيث كانوا يدفعون لهم إتاوة من آن لآن. وبذلك تم لبني كاهل بمزيج من القوة والحيلة أن يسيطروا على أوطانهم الممتدة من جبل الأولياء إلى شمال جزيرة آبا، وتمتد شرق النهر وغربه مسافة تبلغ من ٥٠ إلى ٧٠ كيلومتراً.

ويقول ريد إن الحسانية تنقسم إلى ٢٧ شعبة منها قسم يدعى قشقشاب، وهو الذى ينتمى إليه زعيم القبيلة. وللحسينات ١٨ شعبة، والزعامة فيها لشعبة العرماب Aramab، أما الكواهلة فلهم ستة بطون فقط في إقليم النيل الأبيض.

ومما تقدم يبدو أن بنى كاهل قد استوطنوا هذا الإقليم الذى يجرى وسطه النيل الأبيض، بالتدريج، وتم لهم تعميره والاستئثار به واندمجت فيهم العناصر التي كانت تسكنه من قبلهم. ولا بد لنا أن نفترض أنهم كانوا قبل أن ينزلوه بدوا يرعون الإبل، ولهم ضروب أخرى من الماشية الصغيرة، أى أنهم لم يمارسوا الزراعة قبل نزولهم هذه الديار، والظاهرة التي تبدو لأول وهلة على جانب من الغرابة أن الزراعة وما يتصل بها من عرف وعادة تبدو متأصلة فيهم، وليست عادة مقتبسة في عصر حديث، فليست الأرض الزراعية ملكا مشاعاً للقبيلة كلها، وليس هنالك دليل على أنها كانت كذلك في أى وقت من الأوقات، بل الملكية الفردية وحق

التصرف فى الأرض ، بمختلف الطرق ظاهرة واضحة ، وحق مقرر . ويعلل مستر زيد ذلك بأن القبيلة عندما احتلت الأرض أخذت كل أسرة تعنى بزراعة قطعة منها عاماً بعد عام ، دون أن تتحول عنها ، لأن الأرض تتجدد تربتها كل سنة بواسطة الفيضان ، ولأن الأراضى التى تروى بالمطر هى أيضاً ذات تربة صلصالية ثقيلة ، وفى كلا الحالين لا يحتاج الزارع لأن يغير أرضه بعد بضعة أعوام كما هى الحال فى الأراضى ذات التربة الخفيفة فى الجهات الغربية مثلا . فإذا ظلت كل أسرة تزرع نفس الأرض على مدى السنين اكتسبت الحق فى امتلاكها والتصرف فيها بعد ذلك .

ولكن هـذا التعليل وحده قد لا يكون كافياً لأن فيضان النيل الأبيض لا يجدد التربة تجديداً ملحوظاً لقلة رواسبه ، والأرجح أن الملكية الفردية كانت ظاهرة مقررة وتقليداً محترماً فى النيل الأبيض قبل أن ينزله بنوكاهل بقرون عديدة. ثم زيدوا عندما نزلوه على أن اتبعوا السُّنة السائدة فى البلاد التى نزلوها ، وفى ظل دولة الفنج كانت الملكية الفردية للأراضى أمراً مقرراً محترماً ، وقد وصل نفوذ الفنج إلى النيل الأبيض .

ومهما يكن من شىء فإننا نجد الملكية الفردية حقاً مقرراً على النيل الأبيض وكذلك حق الميراث والرهن والبيع حتى للأجانب المنتمين إلى قبيلة بعيدة ، وكذلك حق الإيجار . وبعد الوفاة تقسم أرض المالك وتوزع طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية .

أما الإيجار فيختلف حسب جودة الأرض . والأراضى الساحلية التى يغطيها الفيضان يقسم ريعها مناصفة بين المالك والمستأجر . أما أراضى المطر فنصيب المالك منها الربع . والأراضى التى ترهن لا تتحول ملكيتها إلى الدائن ؛ بل يظل لصاحبها حق الانتفاع بها فقط إلى أن يسدد الدين . ولأهمية الملكية الزراعية نرى كل صاحب أرض يغرس أحجاراً بارزة توضح حدود أرضه . ومع ذلك فإن الاختلاف على الملكية أصبح ظاهرة شائعة فى الأزمنة الحديثة بوجه خاص ، ولعل لازدحام البلاد بالسكان دخلا فى ذلك .

وإلى جانب الزراعة لا يزال لبنى كاهل عناية خاصة بإبلهم . ولألبانها ووبرها ولحومها مكان فى توفير غذائهم وثيابهم ومساكنهم . وهم يربون الإبل لألبانها ،

ويزاحمون ذلك في انتخاب الفحول ، ولذلك تكون إبلهم من الطراز الثقيل . وعلى الرغم من أنهم يستخدمونها في حمل أثقالهم من بلد إلى بلد ، فإنهم لا يربون إبلا مدربة للركوب . والحقيقة أن إبل الركوب الجيدة قلما تربى في الجهات الغربية من السودان ، وإذا وجدت فإن أصحابها في الأكثر قد اقتنوها بالشراء من أسواق بربر أو من الأقاليم الشرقية .

وبنو كاهل يسقون إبلهم من النهر أو الآبار أيام الجفاف ، وتظل بذلك قريبة من ديارهم ؛ ولكن عند ما يبدأ موسم المطر ، ترحل الإبل إلى الجنوب للتغذي بالعشب الطرى ، ولا تعود إلى الجهات النهرية إلا بعد أن يجف العشب ويزول .

وبسبب تغير منازلهم بين الظعن والإقامة ، نرى لبنى كاهل ضروباً مختلفة من المنازل ، منها بيوت الشعر التي يكون نسجها من وبر الإبل وشعر الماعز ، وبيوت من الطين والخشب على ضفاف النهر ، ونوع آخر يدعى القوطية وهو مثل الشكل السائد في جنوب السودان . ولا شك أن بيوت الشعر قد أدخلها بنو كاهل وتمثل عهد بداوتهم أما البيوت المبنية من الطين فن صنع الذين سبقوهم في هذه الديار ، وقد ورثوا الصناعة عنهم . كذلك الإبل التي يقتنونها اليوم ، ورعيها حرفتهم القديمة . أما البقر وقد أصبح لهم منه عدد لا بأس به فلم يقتنوه إلا بعد نزولهم على ضفاف النيل الأبيض . أما الماعز والضأن فمشتركة بين البدو والحضر ، وبين الجهات القليلة الماء والتي تتوفر فيها المياه .

هؤلاء هم بنو كاهل في أوطانهم النيلية[1] ، التي استقروا بها منذ نحو ثلاثة قرون . أما القسم الثالث من الكواهلة ، ولعله اليوم هو أشهر قسم فيهم ، فهم الشعبة الغربية ، التي استوطنت شمال كردوفان ، وتمتاز بالتماسك واتحاد الكلمة . وليست لهم زراعة مطلقاً ، بل ثروتهم إبلهم الكثيرة جداً ، وما يتبعها من الماشية الصغيرة . ومواطنهم في شمال كردوفان حول خط العرض الخامس عشر ، إلى الجنوب مباشرة من ديار الكبابيش ، ومن الصعب أن نصف الجهات التي ينتقلون

---

(١) هنالك جماعات أخرى من الحسانية ، يعيش بعضهم في صحراء بيوضة والبعض بالقرب من شندى .

فيها بأنها أوطانهم ، لأنهم إنما ينتقلون فيها من موضع لموضع ويحلونها برضى سكانها ، الذين قد يقاسمون منهم بعض الأجر نظير استخدامهم للآبار فى بعض الجهات — ويروى ماكمايكل أن الكواهلة فى شمال كردوفان يقضون الشتاء ، أو فصل الجفاف (من ديسمبر إلى شهر يونيه) فى منطقة الخيران ، حول مركز بارا . وهذه الخيران (جمع خور) ليست أخواراً تجرى فيها المياه اللهم إلا فترة قصيرة من الزمن . وإنما تمتاز بوفرة مياهها الباطنية القريبة ، بحيث لا تزيد أعماقها على ثلاثة أو أربعة أمتار. وأصحاب هذه الخيران يزرعون شطراً منها ، ويدعون شطراً للمراعى ، التى ينتفع بها الكواهلة بدون مقابل ، ولكنهم يؤدون ثمناً من المياه التى يستخرجونها من الآبار . وعندما تتساقط الأمطار ينزح الكواهلة إلى أعالى وادى الملك بإبلهم وقطعانهم ، ويظلون هناك حتى يستنفد المرعى ، ورحلة الصيف هذه تحملهم أيضاً إلى بلاد غير بلادهم ، إلى الكبابيش .

وهذه الحال التى تعيش عليها الكواهلة : وفرة فى القطعان ، وقلة فى الأراضى والآبار التى يستطيعون أن يدعوا ملكيتها تؤكد نزوحهم الحديث إلى هذه الجهات والظاهر أنهم عندما هاجروا إلى الغرب صاحبوا الكبابيش حيناً من الزمن ، ورافقوهم ، وسمحوا لأنفسهم أن يكونوا شعبة منهم ، حتى كثر عددهم وقويت شوكتهم ، وعندما ظهر المهدى ، انضم إليه زعماء الكواهلة . ومنذ ذلك الحين أصبح لهم كيانهم المستقل . ولكنهم منذ انفصالهم من الكبابيش لم تعد لهم دار خاصة بهم . بل يرعون قطعانهم فى أرض واسعة أكثرها تابع لغيرهم ، للكبابيش فى الشمال ، وللبقارة فى الجنوب ، ومما يدل على مرونة الكواهلة التى رأينا أثرها غيرمرة فى تاريخهم ، أنهم قد أدخلوا فى عدادهم شعبة من قبيلة من البقارة ، تدعى دار حامد ، ورضوا بأن يكون زعيمهم منها .

هذه خلاصة قصة الكواهلة الذين رأيناهم يتصلون بالبجه فى أقصى الشرق أول أمرهم ، ويتصلون آخر الأمر بالكبابيش والبقارة فى أقصى الغرب فى القرون الحديثة ، وقد اضطرنا سياق الحديث لأن نتبع الكواهلة إلى ديار بعيدة جداً عن بلاد البجه ، ولم يكن من ذلك بد حتى نصل الكواهلة القدماء بالمحدثين .

الشكرية

ينتمي الشكرية ، حسب التقسيم الحالي للقبائل العربية إلى الجانب القحطاني ويشحهم النسابون ، ويقيمهم ما كمايكل ، في إحدى مجموعات جهينة ، وهم أنفسهم مع تسليمهم بأنهم من جهينة يفضلون أن يرجعوا بنسبهم إلى قريش ، ولهم جد بعيد يدعى شكر ، هو الذي من أجله اتخذوا اسم الشكرية ، وفي بعض الروايات أن هذا الجد يدعى يشكر . والظاهر أنهم نزلوا السودان منذ زمن بعيد ، ولكن لا يمكن تقدير في شيء يقرب من الدقة ، والأغلب أنهم كانوا فيما مضى جماعة قليلة الخطر لأن أخبارهم وأشعارهم ، التي يروونها اليوم يرجع معظمها إلى الفترة الثانية من عصر الفنج ، في الوقت الذي أخذ فيه الهمج يتمتعون بالسلطة : أي في أواسط القرن السابع عشر ومن الممكن أن نفترض أن وقت نموهم وتكوينهم يسبق هذا التاريخ بنحو قرن آخر أو أكثر قليلا ، بحيث لا يعدو القرن الخامس عشر .

يعيش أكثر الشكرية في إقليم البطانة ، وينتقلون فيه بإبلهم شمالا وجنوبا وفي الماضي كانت انتقالاتهم تبلغ بهم إلى جوار شندي ، ولم يخل الأمر من بعض الاحتكاك بينهم وبين الجعليين . وجنوبا يصلون أيضاً إلى النيل الأزرق ، حيث يعيش زعيمهم الآن في بلدة رفاعة . (شمال وادي مدني بنحو خمسين كيلو مترا) . ومن أهم مراكزهم بلدة أبو دليق إلى الجنوب الشرقي من شندي على دائرة العرض السادسة عشر . ويحتل جبل جيلي ، الواقع جنوب أبي دليق ، مكانا واضحاً في رواياتهم وأخبارهم ، وعلى قمته مقبرة لبعض رؤسائهم القدماء .

وهم يجاورون البشاريين (أم ناجي) في سهل البطانة . كما أن لهم فرعا صغيرا بالقرب من كسلا ، له اتصال بالهدندوه أيضاً . وهم رعاة إبل وغنم وماعز ، وزراعتهم قليلة . وقد مرت بهم في تاريخهم أحداث كثيرة ، فارتفع شأنهم فترة من الزمن ثم قاسوا الويلات في أزمنة أخرى . وكانت لهم حروب مع كثير من جيرانهم ، وفي أخبارهم ما يشير إلى أنهم كانوا يتحدون سلطة الفنج ، وأن أحد رؤسائهم استطاع أن يتزوج من ابنة ملك سنار .

ولكن العصر الذهبي للشكرية كان من غير شك هو من عهد محمد على إلى الثورة المهدية . فقد كان للشكرية أسرة حاكمة يتزعمها الشيخ أحمد أبو سن ، وقد كان من سياسة ذلك العهد مجاملة الرؤساء واكتساب ثقتهم ومعرفتهم ، وكان الشيخ أحمد هذا من أعظم المقربين من المشايخ فى ذلك العصر ، وكان موضع ثقة الحكومة ولا شك أنه كان رجلا ذا شخصية عظيمة ، وقد وصفه صمويل بيكر بالنبل والكرم ، وجميع المآثر والفضائل التى اشتهر بها العرب فى جميع العصور .

وفى عصر المهدية لم يكن بد أن يكون الشكرية أعداء لحكامها . وأن يعانوا من جراء ذلك عذابا وبلاء شديدين وقد صادف أيضاً أن كانت سنة ١٨٨٩ من سنى الجدب والجفاف فعانت القبيلة ضروبا من الجهد والمشقة ، إلى جانب ما تكبدته بسبب البغى والاضطهاد .

وتحسنت أحوالهم بعد ذلك كثيرا وعاد إليهم مجدهم القديم ولعلهم اليوم أعظم قبائل البطانة شأنا .

وقد قسم هارولد ما كايكل الشكرية إلى ثلاثة عشر بطنا ، وكثير من هذه البطون تنتهى أسماؤها بلفظ آب ، مثل نوراب ونايلاب الخ ولكن ليست بنا حاجة لأن نستنتج من هذا أن لهذه القبيلة أية صلة نسب بالبجة ، فإن الرأى الذى ذهب إليه سلجمان ، بأن كل اسم ينتهى بآب يدل على تأثير بجاوى ، رأى سطحى : ولو جاريناه فيه لما كان هنالك عرب خالصون فى جميع السودان فيما عدا دارفور وكردوفان لأننا لا نكاد نجد قبيلة عربية ليس بين بطونها بطن أو أكثر له هذه الصفة ، وكلها ليس لدينا دليل على أنها من أصل بجاوى . وعلى فرض أن هذا الاصطلاح من أصل بجاوى أو حامى ، فان هذا لا يمنع أن يشيع وينتشر بين العرب لسهولته وسهولة تداوله .

الرشـايدة

من أهم القبائل العربية التى تعيش فى وسط البجه وتجاورهم قبيلة الرشايدة . وهم يمثلون أحدث الهجرات من الساحل الشرقى للبحر الأحمر (من الجزيرة العربية) إلى الساحل الغربى (السودان) . والراجح أن هجرتهم ترجع إلى أبعد من القرن

التاسع عشر ، وقد نزلوا من إقليم طوكر إلى حدود أرتريا ، ثم انتقل بعضهم مغرباً إلى إقليم عطبرة .

كذلك نزحت شعبة منهم إلى أرتريا في منتصف القرن الماضي ونزلت الإقليم الساحلي شمال مصوع ، وهم مثل أقربائهم رعاة إبل وبقر وضأن وماعز .

ولا تزال شعبة من الرشايدة تعيش في جزيرة العرب على الأقاليم الساحلية . وقد اضطهدوا وأوذوا في زمن المهدية ، ففضل أكثرهم أن يهاجر إلى أرتريا بجوار أقاربهم الذين كانوا يعيشون هناك شمال مصوع ؛ وبعد زوال عهد المهدية عاد كثير منهم إلى السودان . وعددهم الآن قد يبلغ نحو ألفي نفس أو يزيد قليلا ، ولعلهم القبيلة العربية الوحيدة المنتشرة وسط البجه وإن لم ينشأ بينهم مصاهرة أو مودة . وكلا الفريقين يحتفظ بتقاليده وعاداته ، وأسلوبه في الحياة ، فالرشايدة يعيشون في بيوت من الشعر والوبر ، مظهرها يختلف تماماً عن الأبراش التي تبنى بها بيوت البجه ، وكثيراً ما نجد فيما يكتب عن البجه مقارنات بين أسلوبهم في الحياة وبين مظاهر الحياة عند الرشايدة ، وقلما تكون المقارنة في صالح البجه .

الحُمْران

من القبائل الصغيرة نسبياً التي تجاور البجه ، وعلى الأخص الهدندوه وبني عامر ، في الوقت الحاضر ، قبيلة الحمران ، ويجب ألا نخالط بينها وبين الحمَر والحُمْر ، الذين يعيشون في غرب السودان وإن كانت بعض الروايات تجعل بين الثلاثة صلة نسب بعيدة . ومواطن الحمران بالقرب من نهر ستيت (تكازى) حيث يلتقي بالعطبرة . وقد كانت بينهم وبين الهدندوه ثارات ، وهم أيضاً رعاة إبل ، وكانت لهم خيل كثيرة فيما مضى ، وقد وصفهم صمويل بيكر بأن ملامحهم قوقازية ، وشعرهم مستطيل ، ولهم دروع مستديرة من جلد الخرتيت أو غيره من الحيوان . وسلاحهم السيف المستقيم ذو الحدين ووصفهم بالجرأة والشجاعة الهائلة ، والمهارة في صيد الحيونات والوحوش ، حتى الفيلة والأسود ، بالسيف ، وكثيراً ما يصيدون وهم على ظهور الخيل .

وقد فتك بهم الدراويش فتكاً ذريعاً ، ولا شك أنهم اليوم أقل عدداً مما كانوا ، إذ أصبحوا لا يزيدون على بضع مئات .

وزعم باركنس Parkyns أنهم بشاريون من أصل بشارى . ولا شك أنه فى هذا واهم . ولعل هذا ظاهر فى قوله : إنهم بشاريون يتكلمون الهدندوه ، وهم على كل حال يقولون إنهم عرب ، وأنهم أنقى وأصفى سلالة عربية .

وقد جعل ما كايكل الحران جزءاً من المجموعة الجهنية الكبيرة ، وهم على كل حال قبيلة صغيرة ، وإن كانوا قد أحرزوا بعض الشهرة بسبب ما كتبه عنهم صمويل بيكر ، عند ما نزل بلادهم ، فأكرموه فتوه بكرمهم فى كتابه عن الروافد الحبشية للنيل .

وللحمران شهرة أخرى فى السودان ، بسبب قصة تاجوج ، التى اشتهرت وشاعت بسبب ما اشتملت عليه من مغزى روائى مسرحى . ولا بأس من أن نورد هنا خلاصة لهذه القصة ، لأنها تشتمل إلى جانب مغزاها الروائى ، على إيضاح ما بين الحمران والهدندوه من الصلات .

يعيش الحمران فى أوطانهم وأكثر عملهم رعى الإبل والماشية الدقيقة وبعض البقر ، ومع ذلك فهم على قلة عددهم مولعون بالفروسية والصيد . وقد اشتهروا رجالاً ونساء بالجمال ، غير أن تاجوج كانت ذات جمال فائق يضرب به المثل . والظاهر أنها كانت تعيش فى الربع الأول من القرن التاسع عشر .

وكان بين الحمران والهدندوه غارات وحروب ، وأمكن الحمران أن يحرزوا فيها النصر مراراً بسبب شجاعة وبراعة بطلهم المحلّق . وكان المحلق مغرماً متيماً بتاجوج ، ينظم فيها الأشعار ، معلناً غرامه للناس . فغضب والد الفتاة لهذا التشهير بابنته وأبى أن يزوجه منها ، وقد كان هنالك آخرون يرغبون فى الزواج منها ، من بينهم بطل هدندوى يدعى أكاد .

وكاد المحلق أن يموت كمداً ، لولا تدخل زعماء القبيلة وإلحاحهم على والد الفتاة حتى قبل أن يزوجها منه . فلم يكد أكاد يسمع بذلك حتى أسرع إلى المحلق يطالبه بالقتال والنزال فدارت بين الاثنين معركة هائلة ، لم يلبث البطل الهدندوى أن لقى

فيها حتفه ، فمات وهو يردد اسم تاجوج .

ولعل تاجوج كانت تميل إلى الفتى المدندوى ، لأن زواجها من المحلق لم يكن زواجاً ناجحاً ولم تلبث أن اضطرته لأن يطلقها ، وقاء بوعد قطعه على نفسه أن لا يرد لها طلباً . فلما بانت عنه حبيبته لم يلبث أن ركبه السقم وقضى نحبه .

وجاء المدندوه ليثأروا لقتل بطلهم أكاد فلم يستطع الحمران أن يثبتوا لهم بعد أن فقدوا قائدهم فى الحرب . وفى إحدى هذه الغارات الموفقة وقعت تاجوج سبية فى أيدى المدندوه .

وشجر الخصام بين أبطالهم : أيهم تكون السبية الفتانة من نصيبه ، وكادت الدماء تجرى ، وثمرات النصر تضيع هباء . فاجتمع شيوخ المدندوه لتدبير الأمر وبينهم شيخ هرم طلب أن يؤتى بتلك الأسيرة لكى يتعرف على سبب الفتنة فلم يكد يراها مقبلة حتى امتشق حسامه وفتك بها قبل أن يتحرك أحد من مكانه .

وهكذا قضت تاجوج ، ودفنت فى قبر بين كسلا وجبل يدعى أبو كمال ، وسط غابة من النخيل . ولقصتها كما ذكرنا شهرة واسعة[1]، وقبرها كعبة المشاق إلى اليوم .

* * *

هذه أهم القبائل العربية التى لها صلة جوار فى الحاضر أو فى الماضى بالبجه ، وهنالك قبائل أخرى عربية اتصلت بهم مثل الجعليين ولكن قصتهم أطول من أن تذكر فى مثل هذا المقام .

---

(١) كانت قصة تاجوج موضوع رواية قصصية ألفها الأستاذ عثمان محمد هاشم ، وأخرى مسرحية مثلت مراراً فى الخرطوم ، وكتب عنها مستر هاروود مقالا بالإنجليزية فى مدونات السودان S.N.R. ١٩٤٤ ص ١٩٧ .

الفصل التاسع

الجعليون

لقد رأينا فى الفصول السابقة ، كيف تنزل القبائل العربية على سواحل السودان ، آتية من الجزيرة العربية مباشرة ، فتتخذ من الشمال الشرقى للسودان وطناً لها فترة من الزمن ، مخالطة للسكان ، مؤثرة فيهم وفى ثقافتهم ، ثم تجعل من هذه الأوطان مجالا ومنبعثاً تنتشر منه نحو الغرب ، وتتوغل فى أنحاء متعددة ، متخذة لها أوطاناً جديدة . ولعل قصة بنى كاهل هى خير مثال لهذا التأثير العربى ، الآتى من الجزيرة العربية مباشرة ، والذى اتخذ اتجاهاً من الشرق إلى الغرب . ويحق لنا ، إذا تأملنا فى الكواهلة وقصتهم فى أدوارها المختلفة ، أن نتساءل عما إذا كانت هذه القصة فريدة فى نوعها ، أم أنها مثال حديث العهد ، لهجرات مشابهة حدثت فى مختلف العصور ، قبل الإسلام أو بعده . ولكن هذا التساؤل لن يذهب بنا بعيداً ، لأننا وإن رجحنا أن هجرة الكواهلة لا يمكن أن تكون الوحيدة من نوعها فإننا عاجزون — لقلة ما بأيدينا من الأدلة التاريخية أو ما يقرب منها — أن نورد أمثلة أخرى .

وحسبنا أن نقرر أن هذا الجانب الشرقى من السودان ، كان واحداً من الأبواب ، التى دخلت منها الدماء العربية ، ومعها الثقافة العربية ، إلى السودان . وأن تأثيرها لم يكن مقصوراً على الجهات التى تقابل الجزيرة العربية ، بل تجاوزتها إلى السودان الأوسط والسودان الغربى أيضاً .

هذه الأبواب التى كانت مدخلا للجماعات والثقافات العربية ، هى ثلاثة أبواب ، يفضى كل منها إلى طريق للهجرات ، وإلى أوطان وأماكن للاستقرار . ولا بد أن تلتقى هذه الطرق فى النهاية — على الأقل فى بعض الأحيان — ويجتمع الوافدون من الشرق مع الوافدين من الشمال ، فى بعض الجهات .

والباب الثانى الذى كان مدخلا للقبائل العربية ، هو الباب الشمالى فى وسط

السودان ، الذى يفضى إلى مجرى النيل ، والذى أدى إلى تكوين القبائل العربية التى تعيش حول نهر النيل فى شمال ووسط السودان .

أما الباب الثالث ، فهو الطريق الشمالى الغربى ، أو الطريق الليبى ، الذى كان مصدرا لكثير من الهجرات قديماً وحديثاً ، ولعل هذا الباب لم يكن مصدراً للثقافة العربية إلا بعد الإسلام .

والباب الثانى ، أو الأوسط ، الذى كان له تأثيره القوى فى القبائل التى تلازم النهر شمال الخرطوم وجنوبها هو بلا شك من أقدم الطرق ، وهو الذى أدى فى النهاية إلى تكوين مجموعة القبائل الجعلية ، التى تحتوى الجمليين وغيرهم ، وهم أعظم القبائل العربية فى السودان خطراً ، وأعزهم نفراً ، وأكثرهم عدداً . ولا نعدو الحقيقة إذا قررنا أن هذا الباب الأوسط ، هو أهم الأبواب الثلاثة ، التى دخلت منها الثقافة العربية إلى السودان ونزحت بواسطته القبائل العربية إلى مواطنها الحالية فى السودان الشمالى ، كما أن له الفضل الأكبر فى نشر العروبة فى السودان .

هذا الطريق لا يتبع نهر النيل فى كل جزء منه ، ولا يلازم النهر من مصر إلى السودان ؛ بل يتابع النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو أو قبلها ؛ ثم يخترق صحراء العتمور مباشرة إلى أبى حمد ، حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلازمه نحو الجنوب ، وعلى الرغم من أن طريق العتمور هذا طويل ، يقرب من مائتى ميل ، وتغلب عليه الوعورة والجدب ، فإنه أقصر بكثير من الطريق النهرى ، ويتجنب الأقاليم النوبية ، الكثيرة السكان ، والتى لا بد لمن يختارها طريقاً لهجرته أن يخضع لما يفرضه سكانها من الشروط ، أو يخضعهم لسلطانه ، وهذا لم يكن بالأمر السهل . والطريق وإن غلب عليه الجفاف والوعورة ، لا يخلو من أخوار وأودية ، ينالها شيء يسير من المطر ، وبها بعض العشب ، وعلى كل حال لا تخلو من المياه الباطنية ، التى يمكن أن تساعد على حفر آبار ، يكفى ماؤها لكى تتزود القوافل بحاجتها من هذه المادة النادرة الثمينة . وقد سلك هذا الطريق حتى فى العصور الحديثة عدد كبير من الرحالة وتركوا لنا من أنباء رحلتهم ما يدل على أنها لم تكن شاقة مجهدة بدرجة لا تطاق . وفى كتاب رحلة بركهارت ما يدل على أن هذا الطريق كانت تمر منه القوافل باطراد وانتظام طوال الأعوام .

ولعل غلبة المشقة والجفاف على هذا الطريق لم تخل من فائدة ، لأنها جعلته مسلكا خالياً ، أو يكاد أن يكون خالياً ، من السكان المستقرين ، بحيث تستطيع القافلة أن تجتازه دون أن يكون في عملها هذا اغتصاب لحق بعض القبائل ، ودون أن تخشى أن تطالب بدفع أتاوة ، وإذا كانت تتعرض أحياناً لغارة أو عدوان من جماعة تقطع الطرق ، فلا شك أن كل قافلة تتخذ لمثل هذ الأمر أهبته ، وتعد له عدته [(١)].

وطريق العتمور قديم معرق في القدم ، ولا شك أنه استخدم في العصور المصرية القديمة ، والاتصال بين مصر وبين الأقطار التي يحتلها الجمليون اليوم ، حقيقة يشهد بصحتها ألف دليل ، فمناصبة الجمليين اليوم في شندي ، ما هي إلا خليفة مروى القديمة ، والآثار الفرعونية حول شندى من أروع وأعز الآثار المصرية في أي جهة من جهات وادي النيل ، وقد كان الاتصال المستمر بين الشمال والجنوب أمراً عادياً مألوفاً .

فالطريق الشمالي الأوسط إذن من أقدم — بل لعله أقدم — الطرق للاتصال بين الشمال والجنوب ، ويمتاز على الطريق الشرقي الذي وصفناه من قبل ، بأنه لا تعترضه قبائل مثل البجة ، التي لا تكاد أوطانها أن تصل إلى هذه الأطراف الغربية .

وقد كان هذا الطريق هو السبيل إلى تعمير الإقليم النهري بالثقافة والدماء العربية التي تبدو لنا اليوم ممثلة في المجموعة الجملية ، ومن الصعب أن نتصور أن تأثير هذا الطريق على مدى القرون ، ظل مقصوراً على هذه الشقة من النهر ، أو الجهات التي تليها شرقاً وغرباً ، بل لم يكن بد من أن يتجاوزها إلى نواح أخرى من السودان ، في سهل البطانة شرقاً ، وفي كردوفان ودارفور غربا ، ولكن المركز الأساسي والمحور الرئيسي ، والمواطن الثابتة ، التي نشأت في هذا الطريق ، هي تلك الأقطار التي تحتلها المجموعة الجملية .

---

(١) لعل من الطريف في رحلة بركهارت أن خطر الإغارة والسلب والنهب لم يظهر إلا عند ما اقتربت القافلة من أبي حمد ، وتعرضت لغارات الزعيم نعيم الرباطابي ، ولذلك اضطرت إلى الابتعاد عن النهر والذهاب مباشرة إلى بربر .

وقبل أن تنفذ المؤثرات العربية إلى هذا الإقليم ، كان بلا شك وطنا لعناصر حامية ، شأنه فى ذلك شأن وادى النيل فى مصر ، ولم يكن بدّ أن يتأثر بما يتأثر به الوادى الشمالى ، بعد أن ظهر الإسلام فى مصر ، وتوطدت أركانه واشتد بنيانه .

وبوصول المؤثرات العربية ، بعد اختراق صحراء العتمور ، إلى أبى حمد ، ينفتح أمامها طريقان معبدان ، أحدهما إلى الجنوب الشرقى ، والآخر إلى الجنوب الغربى وكلا الطريقين يلتزم النهر ، الذى يرسم من أبى حمد طريقين : نحو عطبرة والخرطوم من جهة ، ونحو مروى والدبة ، والبلاد النوبية الجنوبية من جهة أخرى . وكلا الطريقين كان معروفا مسلوكا منذ العصور القديمة ، فلقد كان هنالك مركزان للحضارة القديمة مشهوران ، أحدهما فى نپتا ، بجوار مروى الحديثة ، والآخر فى مروى القديمة ، المجاورة لشندى . فكان من الطبيعى أن تسلك المؤثرات العربية كلا الطريقين وأن تطبع بطابعها كلا الإقليمين ، متبعة بذلك الطرق التى كانت تسلكها المؤثرات الثقافية المختلفة فى جميع العصور ، ومتى توغلت الثقافة العربية نحو الجنوب ، إلى ملتقى النيل الأبيض والأزرق ، انفسح أمامها المجال للمضى فى الأقطار الجنوبية ، تلازم النهر أحيانا ، وتبتعد عنه أحيانا إلى الغرب أو الشرق .

وهذا الإقليم كله من دنقلة إلى جنوب الخرطوم لم يكن بالطبع خاليا من السكان حينما نزحت إليه القبائل العربية ، بل الثابت الذى لا يحتمل أدنى شك أنه كان عامراً بالسكان منذ عصور بعيدة ، وليس من الممكن عمل إحصاء دقيق يوضح هذه العناصر أو صفاتها الأصلية ، وثقافاتها على مدى القرون ، ومع ذلك يجب أن نسلم بأن السكان الأصليين من السلالة القوقازية ، التى نجدها ممثلة فى شمال السودان ، وبلاد النوبة ومصر العليا أحسن تمثيل ولم تكن الثقافة السائدة فى العصور القديمة تختلف اختلافا كبيراً عما كانت عليه فى مصر العليا ، وكذلك كانت المؤثرات النوبية ذات مكان قوى فى هـذا الإقليم كله . إذ من الثابت أن للنوبيين آثاراً واضحة فى أرض الجزيرة تتبينها فى أسماء كثير من الأماكن[1] ولكننا لا نستطيع أن نغلو فنقول إن هـذا الإقليم كان كله نوبيا لحما ودما وثقافة منذ العصور القديمة

---

(١) راجع رسالة شاطر بصيلى بالإنجليزية عن المؤثرات النوبية واليونانية فى وادى النيل الأزرق (طبع واد مدنى ١٩٤٠)

مع كل هذا الاتصال بين الشمال والجنوب ، لأن بعض العلماء يرى أن اللغة النوبية من اللغات السودانية القديمة ، وإذا عثرنا على آثارها فى أسماء بعض الأماكن البعيدة ، فإن هذا لا يدل دائماً على وجود سكان تربطهم بالنوبيين أواصر القرابة والدم كذلك لا نستطيع أن نستبعد أن وادى النيل فى السودان الشمالى كان خالياً تماماً من العناصر البجاوية ، لأن آثار هذه العناصر قد تبينها بعض العلماء فى بعض جهات كردفان ، لدى بعض القبائل مثل الكبابيش .

أما الدماء الزنجية الجنوبية ، فليس هنالك دليل واضح على أن السودان الشمالى كان فى يوم من الأيام وطناً لها ، على الرغم من السخافات السياسية التى نسمعها من بعض غلاة الاستعمار الأوربى ، بأن العربى دخيل متعصب وأن أصحاب السودان الحقيقيين هم القبائل الجنوبية ، مع أن الكثير من هذه القبائل لم يدخل السودان إلا فى زمن متأخر .

وصفوة القول أن الثقافة العربية ، شأنها فى السودان كشأنها فى مصر تماماً ، دخلت بلاداً عريقة فى الحضارة والعمران ، فطبعتها بالطابع العربى ، وأدخلت فيها الدماء العربية بكثرة وغزارة ، تجعلنا على حق تماماً فى أن نصف هذه البلاد بأنها عربية لحما ودما وثقافة .

وهكذا تألفت وتكونت فى السودان الشمالى تلك المجموعة العربية العظيمة ، التى دعوناها باسم المجموعة الجعلية ، نسبة إلى الجعليين ، وهم أكبر وأهم قسم فيها . وقد رأى هارولد ماكمايكل أن يدعوها باسم المجموعة الجعلية الدنقلاوية . لأن بعض فروعها يعيش فى مديرية دنقلة ، يوم أن كان هنالك مديرية بهذا الاسم ، والآن وقد ضمت هذه المديرية إلى كل من مديريتى حلفا وبربر وأصبحت كلها تدعى باسم المديرية الشمالية ، لم يبق هنالك ما يبرر تسمية هـذه المجموعة باسم الجعلية الدنقلاوية ، خصوصا أن هـــذا يحدث اضطرابا فى التسمية ، لأن الدناقلة فى الاصطلاح الجنسى ، هم فرع من السلالة النوبية ، وليسوا مجرد سكان مديرية دنقلة ، وهؤلاء الدناقلة يتكلمون لهجة نوبية ؛ ومع التسليم بأنهم دخلتهم الدماء العربية ، فإن هذا أيضا يصح فى الكنوز والمحس ، والأوفق مع ذلك أن ننظر إلى كل منها

على أنه فرع من السلالة النوبية ، لأنه ظل محتفظا بلغته الأصلية ولم يتحول عنها . بخلاف المجموعة الجعلية التي ليس لها لغة أو ثقافة سوى العربية .

هذه المجموعة الجعلية إذن تركزت على نهر النيل ما بين الخرطوم وبلاد النوبة ، ثم انتشرت من هذا المركز العظيم فى شعب وفروع ، نحو البطانة والنيل الأزرق ؛ ونحو النيل الأبيض جنوب الخرطوم ، ونحو الغرب إلى كردوفان ، وفى الشمال قد توغل بعضهم حتى أصبح (مثل الجوابره والركابية) يعيش وسط الجماعات النوبية .

وإلى جانب هذه المجموعات التى نشأت عن هجرات موازية للنهر ، من المركز الأوسط المذكور ، هنالك أمثلة قليلة للتوغل من شمال أسوان ، مع التزام النهر إلى بلاد النوبة ؛ ومثل هـذه الهجرة تبين لنا فى قبيلة الجمافرة ، الذين نزلوا جنوب القطر المصرى بين قوص وأسوان ، ثم انتشروا جنوبا إلى بلاد المحس ؛ ومع ذلك فإن لهم شعبة الآن تعيش فى كردفان ، وتتصل بالجوامعة ، وهـذه على الأرجح سلـكت الطريق الآخر ، أى طريق العتمور إلى النيل ؛ أو هاجرت من بلاد النوبة إلى كردوفان فى زمن متأخر .

وهكذا تألفت المجموعة الجعلية ، التى تشتمل على الـكثرة العظمى من العرب العدنانيين ، بخلاف المجموعة الجهنية التى تشتمل على الـكثرة العظمى من العرب القحطانيين ، ولـكن المجموعة الجعلية لا تشتمل على جميع العدنانية ، بل هنالك مجموعات أخرى صغـيرة مثل الـكواهلة والرشايدة ، ليسوا من جهينة ولا من الجعليين ، بل لهم نسبهم الخاص ، كما أن هنالك قبائل قليلة ، مثل الأحامدة على النيل الأبيض ، تنتسب تارة إلى بنى كاهل وتارة إلى الجعليين ، والأغلب أنها مزيج من الاثنين .

والجعليون ينتسبون إلى إبراهيم الملقب بجعـل ، وهو حسب الروايات ، ابن سعد بن فضل بن عبد الله بن عباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، فالجعليون إذن ينتسبون من ناحية جدهم إلى الأرومة الهاشمية ، ولذلك يطلق عليهم أحياناً اسم المجموعة العباسية . ومن العبث أن يحاول بعض الـكتاب — كما فعل ماك مايكل — الزراية بهذه النسبة ، أو الشك فى حقيقتها ، فقد سبق أن رأينا الـكتاب يشـكون فى انتساب البشاريين وغيرهم إلى بنى كاهل ، ثم أظهرت الأدلة التى لا تنكر والتى

التى تنضوى تحت لوائه « جعلنا كم منّــا » وهذه العبارة ليس معناها We have made you « لقد خلقناكم » كما يزعم ما كما يكل ، بل معناها أنكم أصبحتم منا ، أو جزءاً منا . لـكم مالنا وعليكم ما علينـا ؛ والظاهر أنه كان كثير الترديد لهذه العبارة ، كلـا شمل برعايته جماعة من السكان الأصليين ، حتى صار مشهوراً بهذا اللفظ ، وليس هنالك ما يدعونا لأن نشك فى صحة هذه العبارة . وهى قد تفهم بأنها تدل على أن التوغل العربى كان كله أو جله سلمياً ، مبنياً على التودد إلى السكان الأصليين ، وأخذهم بالرفق واللين .

ونحن لا نعرف على وجه التحقيق فى أى قرن نزل إبراهيم جعل هذا على ضفاف النيل الأعظم ، وأسس الشعب الذى أصبح يهيمن على السودان الشمالى اليوم ولـكننا — إذا قدرنا الزمن الذى استغرقه توسع هذه القبائل ، وانتشارها ما بين الخرطوم ودنقلة ، وما تم لها من التوسع فى النيـل الأبيض والجزيرة وكردوفان ، وكيف توطدت أركان الثقافة العربية والديانة الإسلامية فى كل هذه الأقطار — لا بد لنا أن نرجع بإبراهيم جعل إلى زمن متقدم لعله يرجع على الأقل إلى القرن العاشر الميلادى [1] . وسابق ببضعة قرون على فتح بلاد النوبة نفسها ، الذى لم يتم إلا فى القرن الرابع عشر .

* * *

بعد أن تم للقبيلة العربية الأولى توطيد مركزها على ضفاف النيـل الأعظم ، وأخذت تنمو فروعها فى الشمال والجنوب لم يكن بد من أن تتعـدد القبائل بتعدد الأوطان ، وأن يتعذر ، بل يستحيل المحافظة على وحدتها ، من أجل ذلك أصبحنا لا نتحدث عن قبيلة الجعليين ، بل عن قبائل الجعليين أو مجموعة القبائل الجعلية أو العباسية .

هذه المجموعة تشتمل على عدد كبير جداً من القبائل ، ولـكن بعضها صغير

---

(١) إن النسبة السابق ذكرها التى تجعل إبراهيم جعل هو ابن سعد بن فضل بن عبد الله ابن عباس ؛ أى تجعل بينه وبين النبى أربعة أجيال فقط ، ينقصها من غير شك بعض الأسماء ، وإن كانت لا تطعن فى نسبة إبراهيم إلى بنى العباس .

١ — الجمليون الذين ليس لهم أى اسم آخر : وهم من غير شك أهم أقسام المجموعة ومواطنهم تمتد من خانق سبلوقه الى المطيرة .

٢ — الميرفاب : الى شمال المطيرة حول بربر .

٣ — الرباطاب : من بربر الى أبى أحمد .

٤ — المناصير : من أبى حمد الى آخر الشلال الرابع .

٥ — الشايقية من الشلال الرابع الى إقليم الدبة .

٦ — الجوابرة (بنى جابر) فى داخل بلاد النوبة بين الدناقلة والمحس .

٧ — الركابية : ويشك فى نسبتهم الى الجمليين ، وهم على كل حال من العرب الشماليين ، ومواطنهم وسط بلاد المحس .

٨ — الجوعية : وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان الى حدود الكواهلة .

٩ — الجمع : غرب النيل الأبيض — الى الجنوب من بلاد الكواهلة .

ثانياً : القبائل المقسمة بين النهر وبين كردوفان .

١٠ — البديرية . بعضهم فى بلاد النوبة والبعض فى كردوفان .

ثالثاً القبائل التى ابتعدت عن النهر .

١١ — الجوامعة فى أواسط كردوفان شمال وشرق الأبيض .

١٢ — الغديات : إلى الجنوب من الأبيض .

١٣ — البطاحين : فى النصف الشمالى من البطانة .

هذه القبائل تمثل الأقسام الرئيسية للمجموعة الجعلية أو العباسية ، وهنالك وحدات أخرى صغيرة جداً لايعرف عنها شىء يستحق الذكر ، ولذلك سنكتفى فى هذا الفصل بالكلام على القبائل التى تقدم ذكرها .

وسيجد القارىء أن كلامنا على كل وحدة من المجموعة الجعلية ، حتى على المجموعات الكثيرة العدد ، العظيمة الخطر ، مثل الجمليين والشايقية ، سيكون كلاما موجزاً مختصراً إذا قيس إلى الفصول التى قدمناها عن قبائل البجة . مع أن المجموعة الجعلية تمثل القسم الأكبر من سكان السودان الشمالى ، وتنهض بالعبء الأكبر فى حياته المدنية والاقتصادية والاجتماعية . وهم يعيشون فى الأقاليم النهرية

التى تشتمل على المراكز الرئيسية للحياة بمختلف مظاهرها . ولذلك قد يبدو لأول وهلة غريباً أن يكون الكلام عليهم موجزاً مركزاً فى فصل واحد ، مع أن الكلام على البجة تناول عدة فصول . ولكن هذه الغرابة لاتلبث أن تزول إذا ذكرنا أن السكان المستقرين الذين ينهضون بأعباء الحياة اليومية ، يمثلون الشيء المألوف الذى يعرفه الجميع ، ولغتهم العربية هى اللغة السائدة . أما المجموعات التى تخرج عن المألوف قليلا فى زيها أو عاداتها أو مظهرها أو ثقافتها ، فإنها تلفت الأنظار ، وتكثر فيها الكتابة ؛ وإذا كانت أوطانهم فى جهة نائية ، كان فى هذا مايدفع الباحثين إلى استقصاء أنبائهم وأخبارهم . ولذلك نجد لدينا كثيراً من المقالات عن البجة وعن الفور وعن الفنج ، ولكن ما كتب عن المجموعة الجعلية يعد ضئيلا إذا قيس إلى الدراسات التى كتبت عن غيرهم . وحسبنا أن نذكر أن ماكمايكل لم يخصص للجعليين فى كتابه عن العرب فى السودان ، وهو يربو على أربعمائة صفحة ، سوى أربعين صفحة أكثرها قوائم بأسماء البطون .

وفيما يلى فصول موجزة عن كل من المجموعات السابقة الذكر .

١ — الجعليون

الجعليون — المسمون بهذا الاسم — يمثلون كما ذكرنا قسما واحداً من المجموعة العباسية العظيمة ، التى تحتل مجرى النيل من دنقلة شمالا إلى خط العرض الثانى عشر جنوبا ، وإن شاركهم فى بعض أجزاء من هذا الوادى وحدات قبلية أخرى ، وهذا القسم الأول الذى يتمثل فى الجعليين هو فى الأرجح أكبر الأقسام عدداً ، وأعظمها خطراً . وقد قدمنا الكلام عليه لهذا السبب من جهة ، ولأنه يحمل اسم الجعليين من جهة أخرى . ومع أن هذه الخطة لاتتمشى مع الترتيب الجغرافى ، فإنها فى الغالب تتمشى مع الترتيب التاريخى ، لأن الوطن الرئيسى للعباسيين جميعاً هو الإقليم الممتد على النيل من أبى حمد إلى الخرطوم . وتمتد أوطان الجعليين من خانق سبلوقة فى الجنوب إلى العطبرة فى الشمال وتتناول الضفتين الشرقية والغربية . غير أن الجعليين منتشرون فى كثير من جهات السودان ، ويعيش عدد كبير منهم فى

الناصية الثالثة ، وعلى الأخص فى أم درمان ، كما يعيشون فى مدن وجهات أخرى عديدة . وعاصمة الجعليين شندى ، حيث مقر ناظر القبيلة . وإن كانت المتمة ، المقابلة لها على الضفة اليسرى ، تمثل مركزاً رئيسياً لهم أيضاً .

وفى زعم ما كايكل أنهم أحدث القبائل الجعلية تكويناً ، فإن صح هذا الزعم جاز لنا أن نتعجب كيف تكون أحدث القبائل الجعلية هى الوحيدة التى تحمل هذا الاسم . وهو يزعم أن تكوينهم لايرجع إلى أكثر من ٤٥٠ سنة مضت . ولكن ليست بنا حاجة لأن نجارى ما كايكل فى زعمه هذا ، لأن كل مايستند إليه هو الرجوع بزعماء القبيلة فى الوقت الحاضر إلى جد يدعى غانم ، وابنه دياب أو دؤاب ولكن قدم الأسرة الحاكمة شيء ، وقدم القبيلة شيء آخر ، ولذلك لاحاجة بنا لأن نعلق أهمية كبيرة على هذه الحجة .

وقد مر بركهارت ببلاد الجعليين فى الربع الأول من القرن الماضى ، وكان الرئيس الأعلى ملك نمر مقيماً فى شندى . ومدح السائح السويسرى أهل شندى وهو الذى لم يكن من السهل أن يرضى عن أحد ، ولكنه بعد تجاربه القاسية فى بربر رأى فرقاً كبيراً بين أهلها وأهل شندي وأهم شيء أعجبه أن حكومة الجعليين لم تكن تجبى إتاوة من التجار والمسافرين بل تترك القوافل تمر فى الذهاب والإياب دون أن تطالب بشيء وإن جرت العادة على تقديم هدية زهيدة لبعض الزعماء . وبسبب هذا التسامح كانت شندى مركزاً عظيماً للتجارة بين الشمال والجنوب ، وإن لم يكن جميع التجار من الجعليين ، بل كان كثير منهم من الدناقلة ، الذين وصفهم بركهارت بأنهم يتولون كثيراً من أعمال الوساطة ، ووصفهم بأنهم يلعبون نفس الدور الذى يتهم به اليهود فى المجتمع الأوربى وغيره . وإلى جانب التجارة التى كانت من أكبر مظاهر النشاط كان الناس يشتغلون بالزراعة والرعى . وأخص زراعتهم الذرة والدخن وقليل من القمح . وكذلك يزرعون البصل والخضروات المختلفة والبطيخ ونحو ذلك من الغلات . ويزعم بركهارت أن الجعليين كانوا يستخدمون كثيراً من العبيد فى الزراعة التى كانت تمارس فى الجهات التى تحف بالنهر .

وإلى جانب الزراعة التى كانت تبعث على الإقامة والاستقرار ، كانت هنالك

عشائر من الجعليين تشتغل برعى الإبل والبقر ، وهى من نوع جيد ، والضأن والماعز . والرعاة بالطبع بدو يرعون دوابهم فى سهل البطانة أو فى السهول الغربية ، وقد لاحظ بركهارت أن البدو من الجعليين أصفى ألواناً من المستقرين ، وأن تقاطيعهم القوقازية مشابهة لتقاطيع القبائل العربية فى شمال جزيرة العرب ، كما رآهم بركهارت فى بادية الشام وغيرها من الجهات ، وهذا على الأرجح صحيح ، لأن المستقرين على ضفاف النيل ، تكثر فى بلادهم تجارة الرقيق ، وقد وصف بركهارت هذه التجارة وصفاً مسهباً ، ولا شك أن وفرة الرقيق تدعو إلى تسرب بعض الدماء الغريبة . وكثيراً ما تبدو الصفات غير القوقازية فى الأسر الغنية ذات الحول والطول أكثر مما تبدو فى العامة والأسر الفقيرة ، وليست هذه الظاهرة مقصورة على الجعليين ، وسنراها واضحة عند الجوعية .

ولاحظ بركهارت أن الجعليين أيضاً يمارسون الصيد وأنهم يصيدون بالقرب من أوطانهم طائفة من الحيوان ذكر منها الأيل والتيتل والنعامة والزرافة[1] .

ولا يزال الجعليون فى أوطانهم الأصلية يمارسون الزراعة والرعى كما كانوا فى عهد بركهارت ، وإلى جانب استخدام الساقية للرى ، قد أنشئت مشروعات عديدة ، تستخدم فيها طلمبات قوية لرى مساحات واسعة من الأراضى ، وقد أظهر الجعليون كفاية ومقدرة فى هذا الضرب من النشاط ، غير أن للجعليين كما ذكرنا جاليات عديدة منتشرة فى السودان ، وكثير منهم يشتغل بالأعمال الحرة ، وعلى الأخص التجارة ، التى أظهروا فيها دائماً ميزات واضحة ؛ وليس هذا بمستغرب ممن كانوا بحكم الموقع الجغرافى لبلادهم ، هم الواسطة بين الشمال والجنوب .

والنظام القبلى لا يزال يشمل أفراد القبيلة الذين يعيشون فى الوطن الرئيسى بين المطيرة وسبلوقه ، والأراضى التى حوله فى سهل البطانة ، أما الذين هاجروا إلى جهات نائية ، فإنهم وإن ظلوا محتفظين بنسبهم فإن بعد الشقة لا يساعد على دوام الاتصال بينهم وبين المراكز الأصلية للقبيلة .

ويقول بركهارت إن الجعليين فى زمانه أو قبل وصوله بقليل كانوا فى حرب مع الشايقية ولم يكن النصر دائماً حليفهم ، غير أن الشايقية اضطروا إلى مهادنة

---

(١) راجع النسخة الإنجليزية لرحلات بركهارت (الطبعة الثانية) ص ٢٧٢ وما بعدها .

الجمليين ، لـكى يتفرغوا لمحاربة المماليك وكذلك كان هنالك نزاع أحياناً مع الشكرية فى سهل البطانة وغيرهم وليس شىء من هذا بمستغرب .

والنيل يجرى فى بلاد الجمليين فى مجرى خال من العقبات سهل الملاحة ، والشلال السادس إلى الجنوب منه ، والشلال الخامس بعيد نحو الشمال ، وفى هذا تيسير للملاحة ، مما ساعد على سهولة الاتصال النهرى بين الجهات الشمالية والجنوبية ، والأراضى التى تحف بالنهر تمتاز بالسهولة بوجه عام ، وهنالك سهول فيضية فى كثير من المواضع تغمرها مياه الفيضان ، ولـكننا إذا ابتعدنا شرقاً فى سهل البطانة بدت الأرض وعرة وظهرت فيها كثبان من الخرسان تارة ومن الصخور البللورية تارة أخرى ، والمطر الصيف يقل كلما اتجهنا شمالا ، وهو لا يكفى للزراعة ، وقلما يستخدم لهذا الغرض ، ولـكنه ساعد على نمو الأجم وأنواع من شجر السنط والسيال والأراك وقد تطعم الماشية من أوراقها ، بعد أن تجف الأعشاب وتزول .

وقد أصبحت بلاد الجمليين كلها داخلة فى المديرية الشمالية ، بل أصبحت إحدى المدن الجملية وهى الدامر ، الواقعة إلى الجنوب من مصب العطبرة ببضعة أميال ، هى عاصمة المديرية الشمالية ، والـكلام على الجمليين لا يكمل دون أن نشير إلى مدينة الدامر هذه ، وإلى وظيفتها الخطيرة فى حياة الإقليم ، لا لأنها عاصمة المديرية الشمالية بل لظروف أقدم من تـكوين هذه المديرية بأجيال وقرون ، فإن الدامر ، وإن لم تـكن مركز الحـكم بالنسبة للجمليين ، فإنها كانت دائماً العاصمة الروحية لهم ، بل ولـكثير من جهات السودان .

وقد دهش بركهارت عند ما انتقل من بربر إلى الدامر ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٨١٤ ، وشاهد الفرق الهائل بين البلدين ، وأعجبه من الدامر أنها بلدة نظيفة ذات شوارع منظمة ، يسودها الأمن والطمأنينة ، ولم يحاول أحد أن يجبى منه إتاوة أو أن يرهقه فى بيع أو شراء ورأى البلدة يسودها جو من التقوى والصـلاح ، وعلم أن الفضل فى ذلك يرجع إلى أن الرئاسة والسيادة فى الدامر لرجال الدين ، الذين ينتمون جميعاً إلى أسرة كبيرة سماها خطأ أسرة المجدولين ، والصحيح أنها أسرة المجذوبين أو المجاذيب ، والمجذوب فى عرف الصوفية — كما هو مشهور —

اسم يعبر عن التناهى فى الزهد والتقوى والإيمان ، وقد أطلق هذا الاسم على جد الأسرة ، ولعل الأولى أن ندعوها المشيرة ، وهو الفقيه حامد بن محمد المجذوب وربما كان تاريخه يرجع إلى القرن الخامس عشر ، والمجاذيب على كل حال قسم من الجعليين ، وإن كانوا من أشهر أقسامهم ، وقد نما عددهم على مضى القرون ، حتى أصبح يبلغ نحو أربعة آلاف[1] منتشرين فى مختلف أنحاء السودان ، وإن كان مركزهم الرئيسى لايزال فى الدامر . وقد اتسع نشاطهم حتى شمل طوكر وبورسودان وسواكن والقضارف وغيرها من الجهات .

وقد كان لهذه المشيرة فضل كبير فى نشر التعاليم الإسلامية فى السودان وكان كثير من أبنائها يسافرون إلى القاهرة ومكة للتحصيل فى الأزهر ؛ ثم يعودون إلى الدامر ، حيث ابتنوا مسجدين كبيرين . إلى جانب الزوايا الكثيرة ، التى كانت تتخذ إلى جانب منازل رؤسائهم . وكان المسجدان والزوايا الصغيرة مدارس ومعاهد للتعليم ، وكانت تفد الطلاب من دارفور بل والبلاد الواقعة وراء دارفور غرباً ، وبالطبع من جميع أنحاء السودان ، لكى يتلقوا علوم الدين على أبناء هذه المشيرة ، ثم يعودون إلى بلادهم بما حصلوه .

وهذه المشيرة هى التى أنشأت مدينة الدامر منذ نحو أربعة قرون على أقل تقدير ، وقد كان موطنهم قبل ذلك فى قرية صغيرة تبعد عن موقع الدامر بنحو عشرة أميال ؛ ولم يلبثوا أن بنوا فيها مسجداً عظيماً . وعمرت المدينة وازداد سكانها ، فاضطر فقهاؤها إلى بناء مسجد آخر ، إلى جانب الزوايا الكثيرة المنتشرة بها .

واليوم أصبحت العاصمة الروحية للجعليين ، بل ولكثير من جهات السودان ، عاصمة المديرية الشمالية للسودان ، فأضيف النشاط السياسى والإدارى ، إلى مااشتهرت به من النشاط الدينى والروحانى .

* * *

(١) راجع مذكرة Lorimer عن المجاذيب فى الدامر ، فى مدونات السودان لعام ١٩٣٦ الجزء الثانى ص ٢٣٥ .

٢ — الميرغاب

إذا اخترقنا نهر العطبرة ، من الجنوب إلى الشمال ، عند مصبه فى النيل ، انتقلنا من بلاد الجعليين إلى بلاد الميرغاب ، التى تمتد على ضفتى النيل من مصب العطبرة إلى بلدة عبيدية حيث يبدأ الشلال الخامس ، مسافة لا تزيد على الخمسين ميلا أو ربع المسافة التى يحتلها الجعليون . وإذا اخترقنا العطبرة ، قابلتنا المدينة المسماة بهذا الاسم ، وهى ، وإن كانت داخلة فى إقليم الميرغاب ، غير أنهـا ليست ، فى صورتها الحالية ، من صنعهم . إنما هى وليدة حركة النقل بالسكة الحديدية ، وقد اختارتها الإدارة لتكون المركز الرئيسى للمواصلات الحديدية . وبذلك نشأ فيها نشاط مستحدث زاد فى عدد سكانها وفى عمرانها واحتشد فيها الناس من قبائل وبلاد شتى . فهى بلدة خلقتها ظروف المدنية الحديثة ولم ينشئها سكان البلاد وهم فى حالة الفطرة يمارسون أعمالهم التى ألفوها ، والتى أملتها عليهم بيئتهم .

أما المدينة التى أنشأها الميرغاب والتى أصبحت عاصمتهم ، فهى بلدة بربر الواقعة على العرض الثامن عشر ، والتى تتوسط الإقليم الذى يعيشون فيه ، ويمارسون فيه حرفهم المختلفة من تجارة ورعى وزراعة ، وتمتاز بربر من حيث موقعها بأن الطريق منها إلى البحر الأحمر ، لا يخترق نهر العطبرة ، بل يذهب إلى الساحل مباشرة . وقد اشتهر طريق سواكن — بربر ، فى أثناء حكم محمد على وإسماعيل ، وكان يستخدم أكثر من أى طريق آخر لنقل الغلات من شواطىء البحر الى وادى النيل فى السودان ، ومن الممكن للسفن أن تحملها بعد ذلك الى الخرطوم ، دون مشقة كبيرة لأن جنادل سبلوقة ليست عائقاً خطيراً للملاحة .

وقد أساء بركهارت كثيراً الى سمعة الميرغاب بما كتبه عنهم ، وتحامل عليهم تحاملا شديداً . ومن الغريب أن ماكايكل فى كتابه عن تاريخ العرب فى السودان يكتفى بتلخيص ما ذكره السائح السويسرى ، دون أن يضيف شيئاً من عنده . ويتهم بركهارت زعماء الميرغاب بالتعسف وإرهاق التجار أو « الجلابة » بالضرائب الكثيرة ، فى كل مرحلة من مراحل رحلتهم ، منذ اقترابهم من المدينة إلى أن يبتعدوا عنها وطول مدة إقامتهم بها . وقد كان دفع الضرائب من الأمور التى ينفر

منها بركهارت أشد النفوز ، ولعل هذا هو السبب الأكبر في تحامله وإسرافه .

وليست الميرفاب من اسرنا الجاهلية الكبيرة ، ولكنهم يوصفون بشدة المحافظة على أنسابهم ؛ وتقاليدهم أنثروبولوجية واضحة ، وقد وصفهم بركهارت بأنهم لا يتزوجون من غيرهم .

ونظراً لأن برر بلدة تجارية وسوق من أهم الأسواق ، فقد نزلت بها جماعات غير سكانها الأصليين ، وفيها الآن كثير من العبابدة ، كما يؤمها جماعات من قبائل أخرى تنزلها لمدة قصيرة أو طويلة .

وقد بدأ بركهارت سياحته النوبية من مصر عند بلدة دراو ، ثم اخترق مع القافلة صحراء المتمور ، وقد اضطروا لأن يبتعدوا عن النيل بالقرب من أبي حمد ، خوفاً من إغارات نمير ، ولم يصلوا إلى النهر إلا عند ما اقتربوا من برر . وبذلك تجنبوا إقليم الرباطاب كله ، فلم يستطع بركهارت أن يتحدث إلينا عنهم .

٣ — الرباطاب

يعيش الرباطاب على ضفتي النيل الأعظم من شمال عبيدية ، حيث يبدأ الشلال الخامس ، إلى أبي حمد ، ثم إلى امتداد النهر غرب أبي حمد بنحو خمسين كيلو متراً إلى موضع يدعى شمخية .

يحتل الشلال الخامس جزءاً عظيماً من هذا الإقليم ، حيث يجرى النهر متدفقاً سريعاً . تكتنفه جزر كثيرة العدد في النصف الجنوبي من مجراه ، وفي الجزء الشمالي جزيرة مجرات . ومعظم هذه الجزر يتألف من قاعدة صخرية مكونة من الصخور البلورية القديمة ، ولكن كثيراً منها تراكمت عليه بعض الرواسب ، ونما عليه العشب والشجر .

وقد قطع النهر بمجراه السريع وادياً مرتفع الجوانب ، ولذلك كانت المساحة التي يفيض عليها النهر ، حين يرتفع ، وينحسر عنها حين ينخفض ، مساحة ضيقة ضئيلة في معظم الإقليم ، وهي عبارة عن شريط يمتد متقطعا ، شرقا وغربا ، محاذيا للنهر ؛ لا يزيد اتساعه في معظم المواضع عن بضعة أمتار ، ولكن هذه

المساحة ، على قلتها ، تبدو زاهية يانعة بغزيرة الغابات والشجر ، إذا قورنت إلى الهضبة الجدبة التي تليها شرقا أو غربا ؛ والتي لا يكثر فيها النبت إلا حيث تجرى الأخوار ، مثل وادي عمور ، منحدرة إلى النهر .

في هذه المساحة الضيقة على ضفتي النهر يزرع النخيل ، وتنمو أشجار السنط والطلح ، وبعض الحشائش والعشب ويزرع الفلاحون ما يستطيعون زرعه من الغلات ، على أثر هبوط الفيضان ، وبالاستعانة بالسواقي والنواعير . وعلى الجزر كثير من الآثار للعهد القديم والإسلامي . والإقليم كله ملىء بتلك الآثار ، أسوة بالجهات التي تليه في الأجزاء العليا والسفلى من النهر .

ووراء الشاطئ من الناحية الغربية ، ترتفع الأرض ويكسوها الحصا ، إلى مسافة تتراوح بين نصف كيلومتر ، إلى أربع كيلو مترات ، ثم تنتهي إلى مرتفعات صخرية داكنة اللون ، معظمها من صخور بللورية قديمة . أما الجانب الشرقي ، فيتعرض للرياح الشمالية الشرقية ، التي تسوق الرمال ، وتحيلها كثبانا تحدق بالنهر في مواضع عديدة ، وتكاد تصل إلى مجراه ، ولذلك كانت الزراعة في الجانب الشرقي أقل كثيراً منها في الجانب الغربي .

وفي هذا الإقليم يزرع نخيل التمر كما قدمنا ، وها هنا آخر امتداد لهذه الزراعة من ناحية الجنوب ولا يعد التمر هنا معادلا في الجودة لما ينتجه الإقليم النوبي في الشمال .

والرباطاب ، الذين يعيشون في هذا الإقليم ، ينتسبون بالطبع إلى بني العباس . وهم فخورون بنسبهم العربي الصميم ، ولا يعترفون بأن في تكوينهم دماء أخرى نوبية أو سواها ؛ ويرجعون بنسبهم إلى جد يدعى رباط ، ويساوون بين أنسابهم وبين كل من الميرفاب والجمليين من جهة ، وبين الشايقية والمناصير من جهة أخرى .

وتتألف القبيلة من سبع عشرة فرقة أو شعبة[1] ، بين كبيرة وصغيرة ، وأكثرها ينتهي بالمقطع اب ، كما هو مألوف . ويقول لوريمر إن هنالك شعبة

---

(١) راجع Lorimer عن الرباطاب في مجلة S.N.R. لسنة ١٩٣٣ (الجزء الأول) ص ١٦٤

أخرى ، تدعى أنهـا من الرباطاب ، واسمها العبابسة ، تزعم أنهـا تنتسب إلى هرون الرشيد . وهو لا يظن أنهم من الرباطاب حقاً ، بل يمثلون هجرة متأخرة ، انضم أفرادها إلى الرباطاب . ويعيش أكثرهم حول بلدة أبى حمد ؛ وهذا وحده دليل على حداثة هجرتهم . وليس لدينا معلومات وافية عن تاريخ الرباطاب ، منذ نزلوا هذا الإقليم ؛ ومع ذلك فلا شك أنه كان من أقدم الأقاليم التى غزتها الثقافة العربية فى السودان . وبلدة أبو حمد فى شماله ، بحكم موقعها الجغرافى على نهاية طريق المتمور ، هى من أول الجهات التى تستقبل المؤثرات الشمالية ، وبفضل هذا الموقع كان لإقليم الرباطاب ، وبالتالى للقبيلة نفسها دور كبير فى تاريخ هذه الأقطار الشمالية كلها ، ونستطيع أن نؤكد أنه لولا فقر الإقليم [1] لـكان للرباطاب شأن آخر من حيث القوة والجاه .

وأقصى ما نعرفه عن تاريخ الرباطاب ، يرجع إلى زمن الفنج ، وقد امتد نفوذ سلاطينهم إلى هذه الجهات ، ولـكنه كان نفوذاً اسمياً إلى درجة بعيدة ، وكان للرباطاب فى عهد الفنج زعيمان ، واحد فى الشمال وآخر فى الجنوب ، وفى القرن التاسع عشر زاد العدد إلى ثلاثة ثم تركزت الرئاسة حديثاً فى ناظر واحد مركزه أبو حمد وهو ينتهى إلى شعبة البديراب .

والزراعة هى الحرفة الأساسية على قلتها ، والظاهر أن الرباطاب فيما مضى كانوا يعتمدون على استخدام الرقيق ، لأن الزراعة شاقة مجهدة ، وحفر السواقى قد يضطر المرء إلى قطع الصخر الصلب الذى يغطيه الطين . ولذلك يرى لورعر أن الزراعة نقصت اليوم عمـا كانت عليه فيما مضى ، وأن كثيراً من الرباطاب قد اشتغلوا بالتجارة وبمختلف الأعمـال ، عدا الزراعة ، ونزح كثير منهم إلى بلاد أخرى فى السودان .

والتمر أهم الغلات ، ويبدو أن للرباطاب نحو مائتى ألف نخلة ، ولهم قطعان ولـكنها قليلة . ومن الصعب زراعة غلات أخرى ، لأن رفع المياه عمل شاق مجهد .

---

(١) يروى الرباطاب قصة طريفة يعللون بها فقر إقليمهم . ذلك أن جدهم رباط ، وكان الابن الأكبر جمع إخوته بعد وفاة الوالد ، وقال لهم إن من الواجب ألا يشعر بينهم خلاف على الميراث ، وضرب لهم المثل الصالح بأن اختار أفقر الجهات . ويقولون إن هذا هو التقسيم الصحيح لما يشاهد من فرق شاسع بين بلادهم وبلاد الجعليين والشايقية .

٤ — المناصـــــير

يطلق على هذه القبيلة اسم المناصرة أحياناً ، وأحياناً المناصير . والمفرد في كلا الحالين منصوري ؛ ولعل هذا هو السبب الذي دعا إلى الرأي بأن أصلهم من مدينة المنصورة عاصمة الدقهلية ، غير أن أنصار هذا الرأي قليل ، ومع ذلك فإن تقرير النسب الصحيح للمناصير ليس بالأمر السهل ؛ وقد رأى ما كمايكل أن يحشرهم في زمرة الجمليين ، ولا شك أن مواطنهم على النيل ، وتقاليدهم وصفاتهم الطبيعية تجعل من الصعب أن نضمهم إلى مجموعة أخرى ، ولكن بعض النسابين يرجعون بالقبيلة إلى منصور الكاهلي ، أي أنهم يردون نسب القبيلة إلى بني كاهل وإلى الزبير بن العوام أسوة بالعبابدة والكواهلة ، أي أنهم لا يرجعون بنسبهم إلى العباس ، كما يفعل الجمليون .

وتأييداً لهذا الرأي يزعم بعضهم أن أوطانهم الأصلية في كردوفان (حيث يعيش الكواهلة الآن) ، وأنهم هاجروا إلى أوطانهم الحالية لقلة المرعى في تلك البلاد ، وهذا الزعم يصعب التسليم به . فإن مراعي كردوفان أغزر وأوفر ، من بلاد المناصير المحدودة ، وفوق ذلك فإن وجود الكواهلة في كردوفان شيء حديث جداً .

ولعل تفسير هذا التناقض والتضارب في الأنساب ، أن بعض المناصر من الكواهلة قد هاجرت فعلا إلى بلاد المناصير ، ولذلك اختلطت الأنساب العباسية بالأنساب الكاهلية ، ومجاورة الحسانية في صحراء بيوضة مما يؤيد ذلك .

وقد كانت بينهم وبين جيرانهم الرباطاب والشايقية منازعات وحروب ، بسبب التزاحم على الديار المحدودة التي يعيشون فيها ، ومن الجائز أن هذه هي الظروف التي جعلتهم يقبلون مساعدة بعض الكواهلة ، الذين أيدوهم ونصروهم ، فأدى ذلك إلى اختلاط أنسابهم بأنساب الكواهلة .

أما وجودهم في كردوفان فجاء متأخرا نسبياً . ويذكر ما كمايكل [١] أن شعبة من المناصير هاجرت منذ مائتي عام من أوطانهم على النيل إلى إقليم دارفور ، وبعد ذلك نزحوا إلى غرب كردوفان ، إلى جوار قبيلة الحمر ، الذين استعمروا هذا الإقليم ،

---

(١) الجزء الأول ص ٢٠٩ .

واستعانوا على الحياة فيه بتجويف شجر التبلدى وملئها بالمـاء المدخر من أيام المطر لأيام الجفاف . فأصبح للمناصير مستعمرة صغيرة فى غرب كردوفان ، انضم إليهم فيها معظم أقاربهم الذين كانوا فى دارفور ، وعدد آخر من الوطن الأصلى على النيل ولم يبق منهم فى دارفور سوى عدد قليل جداً ، ويقول جاكسن[1] إن كلا من الرباطاب والشايقية يعدون المناصير « دخلاء » ، ويرجع بسبب ذلك أن المناصير أحدث عهداً فى أوطانهم من الرباطاب والشايقية ، ولعل الأوفق الا نعلق أهمية كثيرة على هذا التنابذ والتشاتم ، الذى قد يكون سببه رغبة المناصير فى التوسع شمالا وجنوباً على حساب جيرانهم ، خصوصاً بعد أن عاد كثير منهم من كردوفان إلى الوطن الأصلى .

وصفوة القول أن جميع الشواهد تدل على أن المناصير هاجروا من النيل إلى كردوفان ، وأن العكس غير صحيح ، إلا على اعتبار عودة بعضهم إلى الوطن الأصلى . وهنالك أمثلة عديدة للهجرة من النيل إلى دارفور ، وعلى الأخص من هذا الإقليم بالذات كما هى الحال فى البديرية والنوبة أنفسهم . وقد دام النزاع بين المناصير وجيرانهم إلى وقت محمد على ، فتدخل الحكام بينهم ، وأقروا المناصير فى أوطانهم التى يحتلونها اليوم . وهى تبدأ إلى القرب من جزيرة مجرات إلى نهاية الشلال الرابع . وينقسم المناصير حسب ما ذكره جاكسون إلى ستة أقسام ، وهم : الوهاباب و Kagabab (لعله يقصد بعقوباب) وسليمانية ، والخيرا ، والحامير Hamamir والدقيساب Digisab . ويقول إن سكان الإقليم النهرى على اتصال بأقاربهم فى كردوفان ، يكاتبونهم ويزورونهم أحياناً ويحملون إليهم الهدايا . ولو أن أقاربهم فى كردوفان حريصون على أن لا يؤكدوا هذه الروابط ، خوفاً من أن يتهموا هم أيضاً بأنهم دخلاء فى أوطانهم .

والحياة فى إقليم المناصير لاتكاد تختلف عنها فى إقليم الرباطاب ، وإن كانت أشد قسوة ، لأن موارد الإقليم أقل ، والعزلة فيه واضحة ، إذ ليس لبلاد المناصير

---

(١) فى مقالة Trek in Abu Hamed District, S.N.R. 9, 1926 صفحة 4 وما بعدها .

ذلك الموقع الجغرافى ، الذى يجعل من إقليم أبى حمد موقعاً تجاريا هاماً ، لوقوعه على طريق القوافل .

والضفة اليمنى للنهر — وهى تسمى دائماً الضفة الشرقية ، فى بلاد المناصير والشايقية . برغم وقوعها فى الغرب — تكاد تكون خالية من الزراعة ، إذ تمتد الرمال الصفراء تتخللها الصخور إلى حافة النهر ؛ وهذا من أثر هبوب الرياح الشمالية . أما الضفة اليسرى فتمتاز بشريط ضيق من الرواسب النيلية ، قد يصل اتساعه إلى مائة متر أو أكثر ، ولكنه فى المتوسط دون ذلك بكثير . وقد يضيق أحياناً حتى يكاد يختفى تماماً . وفيما يليها من الجنوب ترتفع الأرض ويكسوها مزيج من الحصا والرمال ؛ حتى نصل إلى صحراء بيوضه ، التى تمتاز ، على الأقل فى الجزء الأوسط منها — ببراكين مبعثرة ، ترجع إلى عصر جيولوجى حديث ، وهى الآن خامدة ووجودها مما يساعد على سقوط بعض المطر .

والمطر على كل حال قليل جداً ، وهيهات أن يبلغ حتى فى إقليم البراكين خمسين ملليمتراً ، ومع ذلك فإنه يكفى ، لتركزه حول شهر أغسطس ، لتكوين سيل وحفر أودية ، ولإنبات شجر شوكى قصير ، من نوع السلم والسيال وضروب من الأعشاب الصالحة لرعى الإبل والضأن والماعز .

فى هذه البيئة الفقيرة يعيش المناصير حياتهم المحدودة ، يمارس بعضهم الرعى ، ويعيشون عيشة البدو ، ويحترف بعضهم الزراعة ويلتزم حياة الاستقرار . وقد يكون بعض أفراد الأسرة الواحدة بدواً والآخرون زراعاً . وأهم الغلات عندهم التمر — كما هى الحال عند الرباطاب — ولكن النوع ليس ممتازاً . ويقول جاكسن إنه يوشك ألا يكون فى السودان كله إقليم يعانى فيه الزراع من المشقة ما يعانيه فى مركز أبى حمد . وإلى جانب النخيل يحاول الأهالى زراعة محصول ضئيل من الذرة الرفيعة ، ومن آن لآن بعض القمح . والصعوبات التى يعانيها الرباطاب فى حفر السواق ، هى بعينها عند المناصير ولذلك تسود الإقليم مظاهر الفقر والحاجة ، وفى هذا يقول جاكسن :

« يبلغ من فقر الأهالى ، أن أى نوع من أنواع الحلى مهما كانت رخيصاً ،

يوشك أن يكون معدوماً . وأكل اللحم أمر نادر جداً . وأهم غذاء لهم التمر . والقليل جداً من الحبوب ، يصيبون منها — حسب تعبيرهم — بقدر ما تصيبه الفراخ الصغيرة ، ويبذلون جهداً شديداً لكي يشتروا القليل من السكر ، وذلك بأن يسيروا على أقدامهم مسافات طويلة ، لأن الحمير القليلة التي لديهم مسخرة في أعمال الزراعة ، حتى يصلوا إلى بعض الأسواق ، ومعهم بعض التمر أو الحصير المصنوع من ألياف الدوم . فيبيعون هذه السلع ويشترون بها حاجاتهم المحدودة » .

وليس بمستغرب والحال هذه أن كثيراً من السكان قد اجتذبتهم الأعمال الجديدة في السكك الحديدية وغيرها ، حيث يستطيعون الحصول على أجر أكبر لعمل أيسر وأهون . ومعظم الرجال يرحلون في طلب الرزق . ولكن أكثرهم يعود بعد ذلك إلى وطنه ، لأن المناصير يحنون إلى بلادهم ، على فقرها ، ولا يتركونها إلا على كره منهم .

ووجود الآثار الكثيرة في إقليم المناصير والرباطاب ، وفي الأول بوجه خاص ، يدل على حالة من الرخاء فيما مضى أكثر مما نراه اليوم . ومع أن احتمال تغير يسير في الأحوال المناخية ليس بالأمر المستحيل ؛ غير أنه ليس من الضروري أن نلجأ لهذه الأسباب المنيفة لتفسير ما طرأ على الإقليم من التغيرات . بل يكفي لتفسير التغيرات التي طرأت أن ترجع إلى الظروف السياسية والاجتماعية ، في العصور القديمة ، وما كانت عليه من الاستقرار ، واتحاد الإقليم كله تحت سلطة واحدة عليا . والارتباط بينه وبين الأقاليم التي تليه في الأجزاء العليا والسفلى من النهر . وإلى الكراهية المعروفة عند الشعوب التي ألفت حياة البادية ، لكل عمل زراعي مرهق . كل هذه الظروف البشرية كافية لتفسير نقص العمران في هذا الإقليم وعلى الأخص بعد إلغاء تجارة الرقيق ، وامتناع الأيدي العاملة التي كان يمكن تسخيرها لهذا العمل الكريه .

٥ — الشايقية

ينتسبون إلى شايق ، وهو أخو غانم جد الجمليين ؛ وعلى الرغم من الجد المشترك نرى الشايقية معتزين بأنفسهم ومكانتهم ، وفي البعد بين الوطنين ما يقوي هذه

النزعة الاستقلالية . وتمتد أوطان الشايقية على ضفتي النيل من نهاية الشلال الرابع إلى مصب وادي الملك ، في مسافة تزيد على مائتين من الكيلومترات ، وفي نهاية أوطانهم في الجنوب يلتوي النهر مرة أخرى ، لكي يستأنف اتجاهه نحو الشمال ؛ ومن نقطة الالتواء هذه تمتد نحو الجنوب الغربي فياف تتخللها أخوار وأودية ويتالها بعض المطر الصيف ، وهذه المساحة يتوغل فيها الشايقية أيضاً ، فيرعى فيها بعضهم إبله . وفي هذا الإقليم تصب في النيل أودية عديدة أهمها وادي أبو الدوم ويصب عند مروى ووادي مقدم عند كرتي ووادي الملك عند الدبة ؛ ولكن ليس للشايقية في هذه الأودية مواطن ، اللهم إلا في أطرافها السفلى القريبة من النيل .

ويمتاز هذا الإقليم باعتدال مجرى النهر ، واتساع واديه ؛ وقد ساعد بطء جريان النهر على الإرساب فتكونت سهول فيضية صالحة للزراعة بواسطة الحياض والسواقي ، ورفع المياه هنا أيسر وأسهل بكثير مما هو في بلاد الرباطاب والمناصير . لذلك أمكن لحياة قوامها الزراعة أن تتوطد وأن يعمها الاستقرار والعمران ، وأن تنشأ فيها المدن في العصور القديمة والحديثة . والآثار القديمة منتشرة انتشاراً واسعاً ، وكذلك الكنائس وبقايا الأديرة من مخلفات العهد المسيحي . وهذا العمران القديم له نظيره في الحياة الاقتصادية التي تسود الإقليم اليوم . حيث لا نجد تلك الشدة والمشقة التي نجدها في أقاليم الرباطاب والمناصير .

ويزعم ما كايكل أن الأساس الجنسي ، وإن كان واحداً عند كل من الجعليين والشايقية ؛ فإن الظواهر تدل على أن عنصراً غريباً قد أضيف في حالة الشايقية ، إلى العنصر الأصلي المشترك ، فكان هذا العنصر الإضافي مميزاً للشايقية في مظهرهم ، عن أبناء عمومتهم . ولعله يقصد بهذا أن الشايقية أصفى دماً وأبعد من الاختلاط من الجعليين . وبذلك يكون التفسير الحقيقي لاختلاف مظاهر القبيلتين وأشكالهم راجعاً إلى أن مواطن الشايقية أكثر عزلة وأبعد عن الاختلاط بالعناصر الجنوبية . وبذلك لا يكون الشايقية هم الذين أضيف إليهم عنصر غريب .

ويصف ما كايكل الشايقي في مظهره بأنه شاحب الوجه ، نحيف الجسم ، خفيف

الحركة ، مكب على الشراب ، والقمار ومفطور على الكذب (a born liar)[1] ، والصفات الثلاثة الأولى يسهل التسليم بها . أما الثلاث الأخيرة فمن الظلم أن تطلق على شعب بأسره من غير تمييز . ويصفه أيضاً بأنه يمتاز على جميع القبائل السودانية ، بأنه أكثر ميلا للمغامرة ، والمشاجرة ، وبوجه خاص أنه مستعد دائماً لكي يحترف كمقاتل مأجور (مرتزق) عند أي قائد يستخدمه . وفي مظهره يصعب تمييزه من « المولدين » ، الذين لهم أب « ترکی » وأم سودانية أو العكس ؛ وينقل ما كما يكل وصف الرحالة الألمانی ثرن للشايقية ، وما يتضمنه هذا الوصف من نظريات يملل بها شكلهم ، الذي يختلف عن النوبيين والجعليين في آن واحد . وفيما يلي خلاصة ما شهد به هذا السائح الألماني ، الذي زار هذه البلاد في أواسط عهد محمد علي .

من السهل أن يتعرف المرء لأول وهلة على الشايقي ؛ ولكن ليس من السهل أن تفسر لماذا يختلف كل هذا الاختلاف عن سائر العرب . الوجه طيب (good ولعله يقصد بذلك أنه معتدل التقاطع) نحيل واضح القسمات والطبقة العليا تمتاز بملامح وسيمة (fine features) . الجبهة عالية والعيون حادة واسعة ، والأنف محدب وطرفه مدبب (وهذا يميزهم على النوبيين ذوي الملامح الصغيرة) . والشفاه معتدلة ، وشعر اللحية خفيف ، ولون البشرة أحمر ، أو أحمر داكن . والقوام نحيل ، ولكنه متناسب ، مما يساعد على جميع ضروب النشاط الجسدي ، وهم جميعاً مولعون جداً بالشراب ، وملامحهم تدل على أنهم أقرب إلى العرب منهم إلى النوبيين ؛ ولكنهم ينكرون نسبتهم إلى العرب أو إلى النوبيين[2] ، ويزعمون أنهم مستقلون استقلالا تاماً ، وأنهم أصحاب هذه الأرض منذ أقدم العصور . ويمثلون الطبقة المحاربة . ذلك ما فهمته من قادتهم وزعمائهم ؛ أما رجال الدين فيؤكدون غير ذلك ويعترفون بأن القبيلة من أصل عربي ، ولكن هذا يرجع إلى أن رجال الدين وحدهم ينتمون إلى أسر عربية . ومن الجائز أن اسم الشايقية مشتق من زعيم ديني عباسي .

---

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب في السودان ص ٢١٣ ولا شك أن مكما يكل يحكيه هذا على أمثلة قليلة ممن اتصل بهم في البوليس أو الجيش ولهذه الأمثلة نظائرها بين الجنود في جميع أنحاء العالم .

(٢) من الغريب أن يكون هذا ما فهمه ثرن ، لأن الشايقية جميعاً يؤكدون أنهم عرب .

ولكن أليس من الجائز أن الشايقية يمثلون طبقة المحاربين من المصريين القدماء ، أو أنهم نسل أولئك المحاربين الثائرين ، الذين هاجروا إلى الجنوب ، فاستقبلهم ملوك أثيوبيا بالترحيب[1] ومما يؤيد هذه النظرية موقع بلادهم ، وقربها من مروى القديمة (؟)[2] ، التى حموها من غارات برابرة الجنوب ، وروحهم الحربية . وكونهم غير خاضعين لزعيم واحد ، بل كانوا دائماً يعيشون أحراراً فى ظل ملوك صغار ، ولعل الأسر الحاكمة فيهم يمثلون طبقة السادة المصرية القديمة ، التى لم تعترف بسلطان أحد سوى ملوك أثيوبيا ، فلما زال ملكهم أصبحوا أمراء مستقلين كما حدث لقواد الإسكندر المقدونى ، بعد وفاته . ومن الملاحظ فى الشايقية أنهم يقصرون شعر رأسهم كما هى عادة المصريين ، وطبقاً لدواعى النظافة ، بخلاف العادة السائدة عند العرب والنوبيين ، ولكنهم مع ذلك يشاركون العرب والنوبيين فى أنهم يشلخون وجوههم . والشلوخ عند الشايقية خطوط أفقية .

هذه العبارة المقتبسة من رحلات قرن ، نسوقها هنا على علاتها ، ولا شك أن وصفه لمظهر الشايقية هو الجزء الذى نستطيع الاعتماد على صحته ، أما نظرياته ففيها مجال للقيل والقال وليست بنا حاجة لأن نؤمن بصحتها وإن كان وجود عنصر مصرى قديم فى جميع سكان السودان الشمالى ليس بالأمر الغريب . والسلالات فى كلتا [illegible]ة ومتقاربة .

ويروى ما كما يكل تأييداً لرأى قرن ، مشاهدات للرحالة كايو ، الذى رأى الشايقية فى إقليم الجزيرة يقيمون نصباً على صورة إنسان ، يعين حدود الجهات التى غزوها . ويقول ما كما يكل إنه مما لا شك فيه أن هذه العادة مقتبسة من الفراعنة الذين كانوا يقيمون تمثالا على حدود فتوحهم ، ولكن اقتباس عادة من العادات لا يبرر الزعم بوجود صلة دم وقرابة نسب .

ومع أن ما كما يكل لا يميل إلى قبول نظرية قرن عن انتماء الشايقية إلى أصل مصرى ، فإنه يسوق نظرية أخرى يفضلها . وهى أن الشايقية مولدون من الجنود

(١) إشارة إلى ما جاء فى الكتاب الثانى من تاريخ هيرودوت عن جماعة من المحاربين ثارت وأبت العودة إلى مصر . وقد كانت هذه القصة مثاراً لتأويلات عديدة .

(٢) مروى القديمة أقرب إلى شندى وبلاد الجعليين ، والقريب من أوطان الشايقية هو النباتة القديمة [illegible] .

المرتزقة من الترك والألبان والبشناق ، الذين كانوا يؤلفون الحاميات والحرس فى بلاد النوبة منذ الفتح التركى لمصر ، كما نزل اليونان المرتزقة أرض مصر فى عهد إبسماتيك الأول . ولا يكتفى ماكما يكل بهذا بل يزعم أن هذا التزاوج استمر حتى فى عهد الأسرة العلوية إلى سنة ١٨٨٢[١] .

ومما يؤسف له أنه ليست لدينا دراسة للشايقية بواسطة رجل من علماء الأجناس ، حتى نستطيع بالدراسة العلمية للمقاييس ، وعلى الأخص مقاييس النسبة الرأسية ، أن نحكم على وجه الشبه بين الشايقية وأولئك الجنود ؛ الذين إذا كانوا حقيقة لهم نسب ألبانى أو تركى أو بشناق فإن هذا كفيل برفع النسبة الرأسية عندهم . ومثل هذا الاختلاط يتنافى مع ما نعرفه من صفات الشايقية الجسدية ، كنحول الجسم والوجه وشكل العيون . أما بروز الأنف فمعروف لدى كثير من العرب حتى فى السودان نفسه . وقد لاحظته لدى الحسانية فى إقليم بيوضة (كما يرى فى الصورة) وكذلك لدى بعض الدناقلة والكبابيش . ولا يسع المرء إلا أن يقرر أنه إذا لم يكن بد من الاختيار بين الرأيين ، فإنه لن يختار رأى ماكما يكل الذى لا ينهض به دليل ، وإن يكن الرأى الأول لا يرقى عليه كثيراً ، لأنه يستند إلى أن المصريين القدماء كانت فيهم طبقة محاربين . وكانت فيهم سلالة للقيادة أو جنس متزعم « Leader Race » ؛ وهى فكرة جرمانية تذكرنا بالعبارات التى كانت سائدة فى العهد النازى . وإذا كان رجل مثل ڤرن السابق لعهد هتلر بمائة سنة يستخدم هذه المصطلحات ، فلا شك أن هذا النوع من التفكير متأصل فى الشعب الألمانى بصورة تبعث على الدهشة .

وإذا كان الأمر الذى دعا إلى كل هذا الشطط هو أن لون الشايقية أقرب إلى لون المولدين ، فمن الممكن تفسير هذا بقلة تسرب السلالات الجنوبية ، وبالاختلاط الذى حدث فى العصور القديمة ، لأن هذا الإقليم كان دائم الاتصال بالشمال . وإذا

---

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب فى السودان ص ٢١٥ . لقد أرسل إلى بلاد النوبة عدد من الضباط فى العهد التركى ، ويسمونهم الكشاف ، ولا يزال نسلهم فى بلاد النوبة إلى اليوم يعرف بهذا الاسم . وهم منتشرون فى جهات محدودة جداً ، وبأعداد قليلة جداً ، ولا يعرف أن لهم أثراً فى بلاد الشايقية .

كانت المشكلة هي الروح العسكرية ، فإن الهجرات العربية كفيلة بتفسيرها وتعليلها تعليلا مقبولا من غير حاجة إلى أن نجلب الأتراك والأرناؤوط وسكان البوسنة والهرسك من بلادهم إلى هذه الأقاليم النائية .

وفي القرون الماضية كان للشايقية أربعة زعماء كل منهم يدعي ملك ، وهم : كرم في مروى ، وحنك وكجبي وعمرى . وإلى نهاية القرن السابع عشر كانوا خاضعين — مثل كثير من القبائل — لنائب الفنج المسمى منجل والذي كان مقره في بلدة قرى ، أى أن نفوذ الفنج قد امتد إلى بلاد النوبة ، ولا تزال في بلدة الدبة إلى اليوم جماعة تسمى نفسها « فنج » . ولكن الشايقية لم يخضعوا طويلا لهذا الحكم . وفيما يلي خلاصة لتاريخهم كما استخلصه ما كايكل :

في حوالي عام ١٦٩٠ رأى الشايقية في النزاع الداخلي بين الفنج والعبد اللاب ، فرصة ينتهزونها للظفر بالاستقلال فثاروا بزعامة قائدهم عثمان واد حاد ، وقد جاء في طبقات واد ضيف الله ، أنه كان بارعاً في الرماية لا يخطىء الهدف ، وأنه كانت لديه أسلحة نارية ، وبفضلها انتصر على الفنج في معركة وقعت أمام جزيرة دلقة .

ومنذ تم لهم النصر أصبح الشايقية لا يدينون بالخضوع لأحد سوى « الملك » التابعين له . ولكن هذه الحرية لم تزدهم إلا حباً في الاضطراب ، وأفسحت لهم المجال للإغارة والعدوان .

ويروي الرحالة بونسه poncet أنه في عام ١٦٩٩ ، تابع النهر حتى وصل إلى كرتى ، ولم يستطع المضي إلى أبعد من ذلك مع ملازمة النهر ، فاضطر لأن يخترق صحراء بيوضة .

وفي غضون القرن الثامن عشر نشر الشايقية غاراتهم وعدوانهم على بلاد النوبة ، في دنقله والمحس والسكوت ، حتى اضطروا كثيراً من السكان الأصليين إلى المهاجرة إلى كردوفان ، والظاهر أنهم في غاراتهم هذه لم يلقوا أية مقاومة تستحق الذكر ، فكانوا يسطون من غير تمييز على السكان المسالمين فيسلبونهم أمتعتهم وخيرات بلادهم .

والظاهر أنهم وصلوا إلى كردوفان أيضاً ، حيث يروى لنا التونسي أنهم اشتركوا في الإغارة على دارفور . وبعضهم بركهارت في أوائل القرن التاسع عشر ،

بأنهم يتمتعون بالاستقلال التام ، ولهم ثروة عظيمة من الماشية والحبوب . ولهم شهرة بالكرم ، وحماية الضيف من كل عدوان كأنه واحد منهم . لا يتكلمون غير العربية ، وكثير منهم يحسنونها قراءة وكتابة ويمجدون رجال العلم . ولهم مدارس يتعلمون فيها جميع العلوم التي تتصل بالدين ، ما عدا الرياضة والفلك . ويفرضون على الزراع أتاوة عن كل ساقية نحو ٤ أرادب ذرة ، ورأسين أو ثلاثة من الضأن ، ومقدار من النسيج ؛ ومثل هذا يجبي لكل ملك من الأراضي الخاضعة له .

ولم يسلم من عدوانهم أبناء عمهم الجمليون ، فكان الملك نمر في حرب متصلة معهم — وقت رحلة بركهارت — وكانوا يسطون بخيلهم ورجلهم ينشرون الدمار والخراب في الشاطئ الغربي للنيل .

كذلك اعتدوا على أمراء العبداللاب في حلفاية الملوك ، حتى هبط سكان البلدة من نحو ٩٠٠٠ إلى نحو ٤٠٠٠ نسمة في ذلك الوقت .

وكأنما أرادت الأقدار أن تكسر شوكة هذا العدوان ، فكان أول معارضة قوية لقيها الشايقية من المماليك الذين هاجروا في أول عهد محمد علي إلى بلاد النوبة وانتشر نفوذهم هناك حتى بلدة الخندق ، ولم يكن بد من أن يصطدموا بالشايقية وأن تدور بينهم معارك كانت الغلبة فيها أول الأمر للمماليك ، ثم تكررت المعارك بين الفريقين ، وكل منهما يتناوب النصر ، حتى جاءت حملة إسماعيل ، فاتحد جميع الشايقية تحت قيادة اثنين من أمرائهم (الملك صبير والملك شاويش) ، وأبلوا في القتال بلاء حسناً ، وأظهروا شجاعة فائقة ، ولكنهم انهزموا في النهاية بالقرب من كورتي .

ولكن الشايقية — وإن قبلوا الهزيمة — لم يشاءوا أن يحتملوا نتائجها ، فيعيشون عيشة الهدوء والسلم ؛ يزرعون ويحصدون ، فقد كانوا من قبل يسخرون النوبة الذين يعيشون في بلادهم والرقيق وطبقة الخدم لزراعة الأرض ، فكيف يرتضون أن يمارسوا حرفة كانوا يزدرونها بالأمس ؟ لهذا لم يلبثوا أن حولوا هزيمتهم إلى وسيلة يتذرعون بها لممارسة حرفتهم المفضلة وهي حرفة الحرب والقتال فألفوا جيشاً بزعامة رئيسهم ، وانضموا ليحاربوا في صفوف جيش إسماعيل ،

واشتركوا فى غزو الفنج وفتح الجزيرة ، وأمكنهم بذلك أن يقبضوا ثمناً لمعاونتهم مساحات من الأراضى بالقرب من مصب النيل الأزرق وحول خانق سبلوقة ، فأصبح لهم وطن جديد فى حلفاية الملوك ، والجهات التى تليها فى الشمال .

وظلوا طول مدة محمد على وإسماعيل مخلصين كل الإخلاص للسلطة التى ناصروها وكانوا من أهم العناصر التى يمكن الاعتماد عليها فى المحافظة على الأمن ، وجمع الضرائب ولعل هذا العمل الأخير أكسبهم سمعة غير مستحبة .

وظلوا على ولائهم هذا لم يخرجوا عنه حتى فى عصر المهدية ، وبعد سقوط الخرطوم فى أيدى المهدى وصدور الأمر بالعفو عن جميع القبائل ، لم يشمل هذا الأمر الشايقية .

وفى الوقت الحاضر يجد الشايقية مجالا لنزعاتهم العسكرية فى الانضمام إلى فرق الهجانة ، أو السوارى أو البوليس الراكب ، ولا يزالون محتفظين بسمعتهم الحربية وبغيرتهم على مصالحهم ، وذلك برغم جيرانهم ، وكثير منهم يشتغل فوق ذلك بالتجارة فى مختلف المدن .

وقد أصبحوا اليوم موزعين فى أقاليم بربر والبطانة والخرطوم وبعض المدن إلى جانب انتشارهم فى مديرية دنقلة ، لذلك لم يكن من الممكن للقبيلة أن تحافظ على وحدتها ، ومع ذلك فإنهم حيثما وجدوا يبدون ميزة على كثير من السكان فى مختلف جهات السودان بفضل ما رزقوه من قوة الشخصية .

ولايزال أكثر الشايقية فى الإقليم الذى وصفناه من قبل ، غير أن لهم مع ذلك دياراً فى إقليم بربر والعاصمة المثلثة ، إلى جانب انتشارهم بصفة فردية فى مختلف المدن

ويقسمهم ماكايكل إلى نحو اثنى عشر فرعاً ، وكل فرع يقسم إلى عدة أقسام بحيث يبلغ مجموع الأقسام نحو ٥٥ قسما ، منها نحو عشر فقط خارج الإقليم الأصلى وعددهم كبير قد يعادل الجمليين أو يقرب منهم ، ولكن ليس من السهل الوصول إلى تعداد دقيق يمكن الركون إليه .

* * *

٦ — قريش جد العامراب .

٧ — نافع جد النافعاب .

٨ — مريس جد المريساب .

٩ — سالم جد البطن المسمى أم سالم .

١٠ — كدنجا جد الكدنجاب .

ولا شك أن أهم هذه الأقسام هم الكدنجا ، والسواراب ؛ والكدنجا أعظم ، وقد تفرع من الكدنجا عدة بطون ، من بينها الحنكاب ، والمدلاناب والعمراب وقد كان منهم بيوت الملك ؛ وهي متفرعة من جد واحد من الكدنجا اسمه صالح أمه بنت أمير الفنج واسمه عيسى ، وكان مقر حكمه في بلدة كجبي ولم ينجب عيسى الذكور نسلا ، فورث الإمارة من بعده صهره صالح ، وبعد وفاته قسمت البلاد ثلاثة أقسام بين الأبناء الثلاثة من الحنكاب والمدلاناب والعمراب ، وكان آخر ملوكهم صبير ملك الحنكاب ، وشاويش ملك المدلاناب وحمد ملك العمراب .

٦ — الجوابرة

إذا تجاوزنا الإقليم الذي يسيطر عليه الشايقية ، ملتزمين نهر النيل ، نرى النيل يغير اتجاهه مرة أخرى ، عند بلدة الدبة ، منحدراً نحو الشمال ، وهنا تبدأ الأوطان النوبية إلى نهايتها في شمال أسوان ، غير أن هذه المسافة الطويلة من مجرى النيل ليست خالصة للنوبيين ، بل يتخللها جهات تسكنها قبائل عربية . مثل البديرية ، والجوابرة ، والركابية والجمافرة .

وأول القبائل التي نصادفها ، بعد أن نغادر بلاد الشايقية متجهين شمالا بمحاذاة النهر هم البديرية ، ولكن نظراً لأن نصفهم يعيش على النهر ، والنصف الآخر في كردوفان . فسنتكلم عليهم فيما بعد ، طبقاً للترتيب الذي اتخذناه أساساً لمعالجة هذا الموضوع ، كما سبق إيضاحه في أول هذا الفصل ، حيث التزمنا أن نتحدث أولا عن القبائل التي اتخذت من شواطئ النهر أوطانها الأساسية ، وليس لها بعيداً عنه سوى أوطان ثانوية .

وطبقاً لهذا الترتيب تكون القبيلة التالية للشايقية هي الجوابرة ، وهي آخر مجموعة عربية كبيرة في شمال السودان ، على شواطئ النهر . وقد جمل ماكمايكل كلا من البديرية والجوابرة في مجموعة واحـدة ، وحاول أن يلق كثيراً من الشك على انتسابهم إلى أصل عربي . وقال : إن الاسم الوحيد الذي يمكن أن يطلق عليهم بشيء يقرب من الدقة ، هو اسم دناقلة ، أي سكان مديرية دنقلة ، وقد سبق لنا أن اعترضنا على إطلاق اسم المديرية على جميع سكانها دون تمييز بين الذين يُدعون ، ويدعوهم الناس ، دناقلة ، وبين الذين لهم اسم آخر ، ولا يريدون أن يدعوا دناقلة . أما التمسك بتسميتهم دناقلة ، بسبب اشتمالهم على بعض الدم النوبي ، وهو أمر مسلم به فلا يقدمنا في بحثنا كثيراً . إذ من اللازم أن نضع الناس حيث وضعوا أنفسهم . وإذا ترتب على هذا التمييز أن بعض الناس يفخر على البعض . فإن هذه نعرة قدعة مصيرها إلى الزوال ، وهي تنافى التعاليم الإسلامية كل المنافاة . وإذا كان الميدان ميدان تفاخر ، فإن للنوبيين في تاريخهم الطويل مفاخر جليلة ، ومآثر معروفة مشهورة .

لذلك لا بد لنا أن نسلم بصحة انتساب الجوابرة إلى العرب ، ما دامت النسبة العربية قد غلبت عليهم ، والثقافة العربيـة قد طغت على ما سواها من الثقافات ؛ وإذا كانوا ينتسبون إلى أصل عباسي ، فذلك ما يدعونا لأن نضمهم مع الجمليين .

والمركز الرئيسي للجوابرة في جزيرة بادين ، الواقعة وسط النيل ، إلى الجنوب من الخط الذي يفصل بين بلاد المحس شمالا ، ومركز دنقلة جنوباً . وتمتد أوطانهم في الشمال إلى أبعد من جزيرة بادين قليلا ، حيث تعترض النهر جنادل حنك ومن الجنوب تمتد نحو ثمانين كيلو متراً مختلطة ببلاد الدناقلة . وفي هذا الإقليم تقع جزيرة أرجو وجزيرة مقاصر ، وبلدة أبو فاطمة وكرمه على الضفة الشرقية ، وبلدة دنقلة ونبتي على الضفة الغربية . ومع ذلك فإن هذه البلاد ليست كلها للجوابرة ، بل يحتلون أجزاء منها . وهكذا تكون أوطانهم منحصرة بين المحس في الشمال وبين الدناقلة في الجنوب ، وتنتهي في الشمال عند بداية الشلال الثالث .

والظاهر أن الأوطان التي يحتلها الجوابرة اليوم أقل مساحة مما كان في حوزتهم

فيا مضى . فإن بركهارت يروى أنهم كانت لهم أوطان فيا بين الشلال الأول والثانى أى فى إقليم وادى حلفا ، وما يليه نحو الشمال . وقد نازعهم على هـذه الأوطان الشمالية ، جماعة من عرب المغرب . وقد فزع هؤلاء الغربيون فى أول العهد العثمانى إلى السلطان لكى ينصرهم على الجوابرة . فأمدهم ببعض الجنود ، فاضطر الجوابرة إلى النزوح نحو الجنوب ، حيث عاشوا فى الأوطان التى يحتلونها اليوم ؛ ولا يزال معظم الأرباب من سكان دنقلة ينتمون إلى الجوابرة[1] ؛ ويروى بركهارت فوق ذلك أن بعض الجوابرة ظلوا مقيمين فى الدر ووادى حلفا .

ولعل هذه الهجرة الاضطرارية إلى الجنوب التى أشار إليها بركهارت ، لم تكن إلى جهات غير معروفة لهم ، أو غريبة عليهم ، بل كانت تحتلها الشعبة الجنوبية منهم .

وكلمة جوابرة مفردها جبرى ، والنسبة إلى جد قديم يدعى جابر ومتصل فى شجرة النسب بسائر الجمليين .

وقد انتشر الجوابرة مثل كثير من القبائل الجعلية ، فى مختلف مدن السودان ، حيث يشتغلون بالتجارة ، وقد نزلت جماعة منهم أواسط كردوفان فى مركز بارا ، شمال الأبيض ، حيث يشتغلون بالزراعة منذ عدة أجيال ، وقد أمكنهم باستخدام الساقية والشادوف أن يستغلوا خور البشرى ، فى منطقة الخيران المعروفة[2] .

٧ — الركابية

يطلق اسم الركابية على قبيلة صغيرة العدد ، ولكن لها مكان محترم بين قبائل السودان ، مواطنها الرئيسية فى مركز دنقلة ، ولكنهم لا يحتلون إقليما خاصاً بهم لقلة عددهم ، بل يعيشون وسط الدناقلة ، وهم ينتسبون إلى جد من نسل الحسين ابن على بن أبى طالب ، أى أنهم عدنانيون قرشيون ، وإن لم ينتسبوا مثل الجمليين إلى العباس ولكن قرابة أنسابهم من الجمليين هى التى تدعو إلى ذكرهم معهم ، وإن كانوا مختلفين فى النسب عنهم بعض الاختلاف ، والظاهر أن هجرتهم أحدث

---

(١) رحلات بركهارت . الطبعة الإنجليزية صفحة ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) راجع الجزء الأول من تاريخ العرب فى السودان لماكايكل ، ص ٢١٣ .

فى أقطار أخرى ، ترجح أن هجرة الكواهلة أحدث ، وأنهم هم الذين زاحموا القبائل الجعلية على أوطانهم .

والراجح أن الطريق الذى سلكه الجمع إلى أوطانهم الحالية هو الجانب الغربى للنهر ، لأن الطريق شرق النيل محفوف بالمكاره ، ولا بد لمن يسلكه من اختراق النيل الأزرق ، ثم عبور النيل الأبيض إلى الضفة الغربية حيث يعيش الجمع الآن . واتجاههم نحو الجنوب على هذه الصورة هو استمرار للهجرات المتدافعة للقبائل الجعلية التى تعد قبيلة الجمع أبعد امتداد لها نحو الجنوب ، ونستطيع أن نؤكد أن الجماعات الجعلية المستقرة ، فى القرى والبلدان النهرية ، التى تمارس الزراعة وتعيش مستقرة فى ديارها ، لم تكن هى التى قامت بذلك التوسع نحو الجنوب بل كان هذا التوسع من عمل الشعبة البدوية ، التى تملك وسائل التوسع والانتشار ، واتخاذ أوطان جديدة ، وأوطان الجمع فى الوقت الحاضر تبدأ إلى الشمال من جزيرة آبا ، (وليست الجزيرة داخلة فيها) وتمتد على الضفة الغربية إلى خط عرض ٣٥ ,١٢° أى إلى مسافة تقرب من المائة كيلو متر ، يليهم على شواطئ النهر فى الجنوب قبيلة سليم (وليسوا من الجعليين) وفى الداخل قبيلة الأحامدة وهى على الأرجح مزيج من الكواهلة والجعليين ؛ وتمتد هذه الأوطان غرب النيل مسافة تقرب من المائة كيلو متر ، إلى حدود كردوفان . وتجرى السكة الحديدية إلى الأبيض فى النصف الشمالى من ديارهم .

أما الضفة الشرقية للنهر ، فإن أراضى الجمع فيها أضيق مدى ، ولا يزيد اتساعها على العشرين كيلو متراً فى المتوسط ، ويحتلها قبيلة دار محارب ، وهم إحدى القبائل المندمجة فى الجمع .

ونظراً للموقع الجنوبى لهذه الأقطار يزداد فيها سقوط المطر عن سائر الأوطان الجعلية فالمطر فى كوستى يبلغ زهاء ٤٠٠ ملليمتر (وكله صيفى بالطبع) . ويزداد كلما توغلنا نحو الجنوب ، كما يزداد كلما ابتعدنا عن النهر شرقاً أو غرباً ، وهذه الحال تساعد على وفرة المرعى فترة طويلة من السنة ، ولذلك تمكن السكان من اقتناء الماشية وعلى الأخص البقر . ومن أجل ذلك وصفهم بعض الكتاب بأنهم بقارة ،

ولا بأس بهذه التسمية على شرط أن يفهم منها أنها إشارة إلى الحرفة التي يحترفونها ، لا على أن لهم صلة نسب بالقبائل التي تعيش في جنوب كردوفان ودارفور ، وهي التي يطلق عليها عادة اسم بقارة ، وجلها — إن لم يكن كلها — ينتسب إلى مجموعة جهينة .

ويرى ما كايكل أن الجمع قد وصلوا إلى أوطانهم الحالية على النيل ، بأن هاجروا من الإقليم الجبلي في دنقلة ، ثم نزحوا نحو الجنوب الغربي إلى كردوفان ، ثم عادوا فاتجهوا شرقاً إلى النيل الأبيض حيث يعيشون الآن . ومع ذلك لا يورد أي دليل على أنهم سلكوا هذا السبيل الملتوى بدلا من الطريق المباشر نحو الجنوب . بل كل ما ذكره يشير بغير ذلك ، لأنه يقول إنهم لم يختلطوا بعناصر النوبا أو دارفور كما فعل أقرباؤهم الجوامعة ، بل اختلطوا في أوطانهم الحالية بالبقارة وتملوا بعض عاداتهم ، مثل عادة تصفيف الشعر الخ . . ولسنا ننكر أنه كان لبعض الجمع هجرات نحو الغرب إذ يقال إن عدداً منهم كان يهاجر من آن لآن من أوطانه الحالية أو القديمة متجها نحو الغرب ، حيث اشتركوا في مغامرات فردية أو جماعية ، في جهات بعيدة ، ورحلات واسعة وصلت بهم أحياناً إلى أعالي النيجر ، والسودان الفرنسي (١) . وهناك روايات عديدة تدل على أن بعض هؤلاء المغامرين قد أكرهوا على أن يعودوا إلى الشرق ، فهل كانت هذه الرحلات إلى الشرق هي وحدها التي مكنت الجمع من النزول في أوطانهم الحالية ؟ أم أن العائدين إلى الشرق لم يفعلوا أكثر من الانضمام إلى أقاربهم النازلين في تلك الجهات ؟ لا شك أن هنالك مجالا لاختلاف الرأى في هذا الأمر . وربما كان الأرجح أن الجمع — مثل الكواهلة — نزلوا على شواطئ النهر أولا ثم نزح فريق منهم نحو الغرب ، فيعود أكثرهم بعد ذلك إلى ديار أقاربه .

ومهما يكن من شيء ؛ فإن الفترات السابقة لعهد محمد على كانت ملأى بالحروب والمنازعات بين الجمع وخلفائهم من جهة ، وبين جيرانهم من جهة أخرى . ومن الغريب أننا نرى في هذه المنازعات أن الجمع يتحدون مع سليم لقتال دار محارب ، مع أن هؤلاء يعدون من الجمليين . فاضطرت دار محارب للمهاجرة إلى الشاطئ

(١) راجع مقال المستر ريد Reid في S.N.R. لسنة ١٩٣٠ ص ١٧٤ وما بعدها .

ولا بأس بهذه التسمية على شرط أن يفهم منها أنها إشارة إلى الحرفة التي يحترفونها ، لا على أن لهم صلة نسب بالقبائل التي تعيش في جنوب كردوفان ودارفور ، وهي التي يطلق عليها عادة اسم بقارة ، وجلها — إن لم يكن كلها — ينتسب إلى مجموعة جهينة .

ويرى ما كايكل أن الجمع قد وصلوا إلى أوطانهم الحالية على النيل ، بأن هاجروا من الإقليم الجبلي في دنقلة ، ثم نزحوا نحو الجنوب الغربي إلى كردوفان ، ثم عادوا فاتجهوا شرقاً إلى النيل الأبيض حيث يعيشون الآن . ومع ذلك لا يورد أي دليل على أنهم سلكوا هذا السبيل الملتوي بدلا من الطريق المباشر نحو الجنوب . بل كل ما ذكره يشير بغير ذلك ، لأنه يقول إنهم لم يختلطوا بعناصر النوبا أو دارفور كما فعل أقرباؤهم الجوامعة ، بل اختلطوا في أوطانهم الحالية بالبقارة وتعلموا بعض عاداتهم ، مثل عادة تصفيف الشعر الخ . . ولسنا ننكر أنه كان لبعض الجمع هجرات نحو الغرب إذ يقال إن عدداً منهم كان يهاجر من آن لآن من أوطانه الحالية أو القديمة متجها نحو الغرب ، حيث اشتركوا في مغامرات فردية أو جماعية ، في جهات بعيدة ، ورحلات واسعة وصلت بهم أحياناً إلى أعالي النيجر ، والسودان الفرنسي[١] . وهناك روايات عديدة تدل على أن بعض هؤلاء المغامرين قد أكرهوا على أن يعودوا إلى الشرق ، فهل كانت هذه الرحلات إلى الشرق هي وحدها التي مكنت الجمع من النزول في أوطانهم الحالية ؟ أم أن العائدين إلى الشرق لم يفعلوا أكثر من الانضمام إلى أقاربهم النازلين في تلك الجهات ؟ لا شك أن هنالك مجالا لاختلاف الرأي في هذا الأمر . وربما كان الأرجح أن الجمع — مثل الكواهلة — نزلوا على شواطئ النهر أولا ثم نزح فريق منهم نحو الغرب ، فيعود أكثرهم بعد ذلك إلى ديار أقاربه .

ومهما يكن من شيء ، فإن الفترات السابقة لعهد محمد علي كانت ملأى بالحروب والمنازعات بين الجمع وحلفائهم من جهة ، وبين جيرانهم من جهة أخرى . ومن الغريب أننا نرى في هذه المنازعات أن الجمع يتحدون مع سليم لقتال دار محارب ، مع أن هؤلاء يعدون من الجمليين . فاضطرت دار محارب للمهاجرة إلى الشاطئ

---

(١) راجع مقال المستر ريد Reid في S.N.R. لسنة ١٩٣٠ ص ١٧٤ وما بعدها .

الشرق ، وقد ظلت العلاقات الطيبة سائدة بين سليم وجيرانهم الأقوياء فترة من الزمن وحدثت بينهم مصاهرات ، وهكذا استقرت الحدود القبيلة قبل عهد محمد على على الصورة التى نراها اليوم . وفى عهد محمد على وإسماعيل كانت العلاقات بين الجمع وبين الحكومة الجديدة على العموم طيبة . والكتاب الإنجليز يزعمون غير ذلك . ولكن لو كان ما يزعمونه صحيحاً ، لما رأيناهم يمتنعون عن مناصرة المهدى . كما امتنعوا على الخليفة من بعده . فاضطر إلى أن يرسل لهم جيشاً للإغارة عليهم وتخريب ديارهم . ونفى أكثرهم من البلاد إلى ديار بعيدة . غير أنهم عادوا بعد زوال عهد المهدية إلى أوطانهم الأولى ، حيث يعيشون اليوم . ويؤكد ماكايكل أنهم اليوم لايقلون عدداً عما كانوا عليه قبل المهدية أى حوالى ٣٠٫٠٠٠ نسمة للجمع وحدهم ، عدا جيرانهم من سليم ودار محارب والأحامدة ومن إليهم .

عندما نزل الجمع فى أوطانهم الحالية كانوا رعاة إبل ، ثم لم يلبثوا أن تحولوا إلى رعاة بقر كما قدمنا ، فأصبحت إبلهم قليلة أو معدومة . أما الزراعة فلم يكونوا يعبأون بها كثيراً ، وكانوا يكلون القيام بها إلى خدمهم وعبيدهم والمستضعفين من رجالهم . وكان غذاؤهم الأساسى هو الحليب ، والقليل من اللحم من آن لآن . أما الحبوب فإن الأسرة الصغيرة يكفيها أردب واحد من الذرة فى العام كله . لذلك لم يعيروا الزراعة ما تتطلبة من العناية . كذلك شغلهم الرعى عن استثمار أشجار الصمغ وتركوا هذا المورد الهام لجيرانهم من سكان كردوفان .

هكذا كانت حالهم إلى أن جاء عهد المهدية ، وشتت شملهم وحرموا من قطعانهم . ورأوا أنفسهم بعد العودة إلى الأوطان ، مضطرين إلى ممارسة الزراعة لكى يعيشوا ويدخروا من المال ما يمكنهم من اقتناء الماشية . ومع ذلك فإن كثيراً منهم لم يعودوا إلى حياة البادية والرعى ، بعد أن مارسوا الزراعة والاستقرار عدداً من السنين . بل أخذوا يبنون قرى مستقرة ، ويمارسون الزراعة بجد أكثر مما كانوا عليه من قبل . وانتشرت بالتدريج عادة الملكية ووزعت الأرض بين المشايخ فى كل قسم ، ووزعها كل شيخ بين الأسر المختلفة . بذلك استقرت حرفة الزراعة بين الجمع وغيرهم من « بقارة » النيل الأبيض . غير أن عدداً عظيما

منهم لم يلبثوا أن اقتنوا الماشية ، وآثروا حياة الرعاة ، وساعدتهم على ذلك وفرة المراعى الغنية . وقلة الحاجة إلى رحلات بعيدة فى طلب الكلأ ، وهم يعنون بتربية البقر ويختارون لها الفحول التى اشتهر قطيعها بوفرة الألبان . ويفضلون اللون الأبيض أو الأغبش ويستخدمون الماشية كدواب للحمل ، ولكنهم لا يرهقونها بأكثر مما تحتمل . وأمتعتهم التى ينقلونها وقت ظعنهم قليلة . وبيوتهم من الحصير خفيفة الحمل .

وتربية الماشية الثقيلة هى الأمر المفضل ، غير أنهم اضطروا لأن يعنوا بتربية الضأن أيضاً ولهم منها قطعان كبيرة . فقد هدتهم التجارب إلى أن الضأن أقل تعرضاً للأمراض من البقر . فلم يهملوا أمرها ، وكثيراً مايفقدون جزءاً كبيراً من قطعان البقر ، فيجدون فى تربية الضأن مايعوضهم عن بعض الخسارة الناجمة عن هذه الكارثة .

ويربون الضأن لألبانها ولحومها ، ويصنعون من ألبانها جبناً وزبداً . أما أصوافها فليست بهم حاجة كبيرة إليها ، وبيوتهم من الحصير المصنوع من لحاء بعض الشجر ، لا يستخدم الصوف فى صناعتها . وقلما يقومون بجز الصوف بأنفسهم بل يحضر إلى ديارهم أفراد من القبائل الشمالية فيقومون بذلك العمل ، ويأخذون الصوف لأنفسهم .

وهكذا نرى أن الجمع ومن حولهم من القبائل الصغيرة ، مثل دار حامد وسليم ، ممن اتصلوا بهم وأصبحت بينهم قرابة دم ؛ يمثلون آخر انتشار للقبائل الجملية نحو الجنوب . مبتدئين من بلاد النوبة فى الشمال ، إلى أول بلاد الدنكا فى الجنوب .

وننتقل الآن إلى ذكر القبائل الجملية التى اتخذت أوطاناً بعيدة عن النهر فى كردوفان ، وسهل البطانة ، سواء أظل بعضها مقيما على النهر ، أو أصبحت أوطانه كلها أو جلها بعيدة عنه .

١٠ — البديرية

كثير من الجمليين انتقلوا من ديارهم الأصلية إلى جهات مختلفة من السودان إما فى هجرات فردية ، أو مجموعات قليلة ، ولكن البديرية يمتازون بأنهم قد هاجرت

منهم كتلة عظيمة إلى كردوفان بحيث أصبح للقبيلة وطنان منفصلان ، وشعبتان متساويتان تقريباً ، شعبة تعيش على النيل ، والأخرى فى كردوفان .

والجد الأكبر الذى ينتسب إليه البديرية يدعى بدير ؛ وفى رواية أخرى يدعى بدر ، ومع أن ما كمايكل يفضل الاسم الأخير ، فليس هنالك سبب لاستبعاد الاسم الأول[١] والوطن الأصلى للبديرية هو على النيل ، ما بين الشايقية والجوابرة ، أى أنهم يجاورون الدناقلة ويقاسمونهم بلادهم ، ونظراً لأن فى الدناقلة نسبة عالية من الدماء العربية ، يرى بعض الكتاب أن من الناحية الجنسية الصرفة ليس هنالك فرق جوهرى بين البديرية والدناقلة ، وليس من السهل فى جمع يضم أفراداً من الطرفين أن يميز المرء بين البديرى والدنقلاوى ، ولذلك اختلط الأمر على بعض الكتاب حتى زعم بعضهم أن البديرية عنصر نوبى فيه مزيج من الدماء العربية ، وأن أفراده يتكلمون الرطانة النوبية فيما بينهم[٢] .

ويبدو أن البديرية كانوا فيما مضى منتشرين فى مساحات يحتلها الشايقية اليوم وأنهم كانوا أصحاب كرتى وأمبيكل ، ولكن ضغط الشايقية أجلاهم نحو الشمال ، وفى القرن الثامن عشر وقبله بزمن لا يعرف مداه ، كان زعيمهم أو الملك يقيم فى دنقلة القديمة على الضفة اليمنى للنهر ، وكان ذا نفوذ واسع ، والبديرية فى وطنهم النهرى يمارسون الزراعة ، ويعيشون مستقرين فى قراهم ؛ وأصحاب القطعان فيهم قليل .

أما أوطان البديرية فى كردوفان فواقعة إلى الغرب والشمال الغربى والجنوب الغربى من الأبيض ، وهنا أيضاً نجد كثيراً منهم مستقرين يمارسون الزراعة والتجارة ، ولكن عدداً غير قليل منهم رعاة ويصاحبون الحوازمة (وهم من جهينة) فى رحلاتهم فى طلب المرعى ، ولهم ماشية كثيرة وقطعان من البقر .

(١) من الغريب أن ما كمايكل فى كتابه عن قبائل كردوفان (١٩١٣) يعترض على ولسن (١٨٨٧) بأن اسم بدير غير مقبول لأنه اسم يعطى للأطفال ، وينسى أن الرجل يبدأ حياته طفلا ، ويعطى اسمه وهو طفل ، وأن اسم بدير منتشر بين الكبار حتى فى الوقت الحاضر ، وكانت العرب تسمى التطفيل ، ويكبر الرجل وله هذا الاسم ، كأن الطفل : قد يسمى عند ولادته باسم كهل من باب التيمن بأنه سيكبر ويصير كهلا (راجع الهامش على ص ٧١)

(٢) مقال السر تشارلس ولسن (١٨٨٧) ، رواية ما كمايكل (١٩١٣) ص ٧٢

بصفة دائمة فيها ، بل يعود إلى بلده ويجيء غيره فيحل محله . ومنهم أيضاً نحو ٣٠٠٠ قد استوطنوا إقليم المطيرة ، ولا شك أن القبيلة قد ازداد عددها ازدياداً كبيراً فى المائة عام الماضية . فقد كان البشاريون منذ مائة عام أكثر منهم عدداً وأوفر ثروة وقوة وأعظم خطراً . واليوم قد أصبحوا ثلاثة أمثال البشاريين فى العدد ولا يقلون عنهم فى الأهمية . ومع أن البشاريين قد نقص عددهم فى الزمن الأخير ، غير أن هذا السبب وحده لا يكفى لتعليل هذا الفرق الكبيرة بين القبيلتين . بل السبب على الأرجح هو أن الأمرار زاد عددهم بتوسعهم نحو الغرب واندماج وحدات أخرى فيهم ، وحبهم للمصاهرة خارج القبيلة .

وهجراتهم وانتقالاتهم الموسمية محدودة . وفى المنحدرات الشرقية لا تتجاوز ٢٠ أو ٣٠ ميلا . وينزلون إلى السهل الساحلى فى شهر نوفبر وديسمبر ، حين يبدأ ظهور الحشائش عقب الأمطار الشتوية ثم يعودون إلى سفوح الجبال فى مارس ، وإلى المرتفعات فى إبريل ومايو ، حيث يمكن تغذية الماشية من براعم الطالح والسنط . أما فى المنحدرات الغربية ، فلا بد من النزوح إلى السهول الغربية فى الصيف ، لتغذية الإبل بالأعشاب والحشائش بعد مطر الصيف ، ويظلون فى هذه الجهات إلى شهر نوفبر ، ثم يعودون إلى السفوح والمنحدرات ، حيث الآبار أوفر ماء منها فى فيافى المتباى . ويمكثون فى السفح إلى شهر مارس أو ابريل ثم يصعدون إلى المرتفعات بعد ذلك لتغذية ماشيتهم من براعم الطالح والسنط فأشهر إبريل ومايو ويونيه ويوليه ، هى الأشهر التى يتفق فيها الجميع فى سكنى المرتفعات .

والهجرات فى الجهات الغربية أطول وأوسع مدى ، وقد تصل بالأمرار أحياناً إلى الجنوب حتى المطيرة . وقد تبلغ هذه الرحلات ٦٠ أو ٧٠ ميلا ، أو ثلاثة أمثال الهجرات الشرقية ، وقلما نجد بين الأمرار جماعة تجمع فى رحلاتها بين المراعى الساحلية فى الشرق ، ومراعى المتباى فى الغرب ، لأن الإبل فى الجهات الغربية لا تستسيغ الأعشاب الساحلية ، ذات الطعم الملح ، وإنما تستسيغها الإبل التى اعتادتها .

وهنالك فرق واضح فى الحياة الاجتماعية بين سكان الشرق والغرب ، وهو فرق

شعبة منهم قد اندمجت فى المحس ، وتولت منصب الزعامة فيهم ، أما الرأى الذى ذهب إليه ما كما يكل من أن اسم هذا الزعيم يبعث على الظن بأن الجوامعة كلهم تصلهم بالمحس صلة القرابة related to the Mahass[1] فأقل ما يقال فيه إنه بعيد الاحتمال جداً .

على كل حال ليس للجوامعة مواطن على النيل لا فى بلاد النوبة ولا فى غيرها من الجهات النيلية ، والأرجح أن هجرتهم إلى كردوفان ودارفور لم تكن من الإقليم النوبى مطلقاً ، بل من إقليم أم درمان حيث يعيش أقاربهم الجوعية . وقد حدثت هذه الهجرات فى القرن السابع عشر على أرجح الروايات ، أو على الأقل يرجع معظمها إلى ذلك العصر وهو وقت توسع دولة الفنج وانتشارها فى كردوفان ، وكان الجوامعة من أنصارها وجنودها الذين أعانوا على ذلك التوسع .

وينتسب الجوامعة إلى جد اسمه جامع ، ومفرد الجوامعة جَمْعى ؛ ويتمسكون بالنسب العباسى وبقرابتهم من سائر الجمليين

ولكن ما كما يكل يرى أن الجوامعة لا يشتملون إلا على نواة فقط من الدم العربى الأصيل ، وقد تجمع حول هذه النواة عناصر غريبة ، يرجع أنهم من زنوج دارفور ، ويصفهم بأنهم جنس منحط a much debased race[2] وأن فى وصفهم بأنهم عرب تجاوزا كثيراً ، أكثر من إطلاقنا هذا الاسم على أى قبيلة عربية أخرى فى السودان . وقد فسر على الهامش فى كتاب آخر له[3] أنه يريد بالانحطاط ، قلة احتفاظهم بالتقاطيع العربية الصميمة ، وعلى ذلك فإن الصورة التى أوردها فى كتابه لا تؤيد هذا الزعم .

ولا يزال هناك عدد لا يستهان به من الجوامعة يعيش فى دارفور ، كما أن منهم عدداً فى واداى ، غير أن الكثرة الهائلة منهم تعيش فى شرق كردوفان . وقد زعم ما كما يكل مؤيداً لأقوال بعض السائحين ، أن لديهم عادة ذكرها ، وهى أن البنت لا يسمح لها بالتزوج حتى تهدى طفلا إلى خالها ، وأنها هى التى تختار الرجل الذى

---

(١) راجع الجزء الأول من تاريخ السودان ص ٢٢٣

(٢) قبائل كردوفان (١٩١٢) ص ٧٦

(٣) تاريخ العرب فى السودان ص ٢٢٣

باسم الفديات ، ولذلك يوصفون بأن الدماء النوباوية فيهم لا تقل عن الدماء العربية ، وقد وصل تأثيرهم إلى صميم بلاد النوبا فى الوقت الحاضر ، وبفضل هذا التأثير نرى النوبا الشماليين فى دلنج وما جاورها يقلدون العرب فى زيهم وأكثرهم يتكلم العربية وكثير منهم يدين بالإسلام ، وقد أقلع غير المسلمين منهم عن بعض الحرف التى ينفر منهم العرب مثل تربية الخنازير .

١٣ — البطاحين

قبيلة البطاحين — وإن جاء ذكرها فى آخر الكلام عن الجمليين — تمثل عنصراً من أقدم عناصرهم . وقد ظل الشكرية ولهم السيادة والزعامة فى سهل البطانة زمناً طويلا ، إلى أن قويت شوكة البطاحين وارتفع شأنهم فى هـذا الإقليم فى العهود الحديثة وإن كانت الشكرية لا تزال لها المكان الأول فيه .

وهم عبارة عن قبيلة بدوية مركزها الرئيسى بلدة أبى دليق ، الواقعة شرق الخرطوم بنيف ومائة كيلو متر ، أى فى وسط سهل البطانة الشمالى ، ومع ذلك فإن هذه البلدة أسستها أسرة من بنى كاهل ، وكانت فى وقت من الأوقات خاضعة للشكرية ، ولكنها اليوم المقر الرئيسى للبطاحين . وتمتد أوطانهم من غير حدود واضحة حتى تصل إلى مركز رفاعة فى الجنوب وشرقا إلى منتصف البطانة ، وغربا إلى مسافة تبعد عن النهر نحو عشرة أميال ، اللهم إلا القليل منهم الذى نزل فى خرطوم بحرى . ولا شك أن هـذه الجهات متداخلة فى مواضع عديدة فى أوطان الشكرية ، وقد حدثت منازعات عديدة حول الماء والمرعى .

واسم البطاحين مشتق من البطحاء ، والإشارة فيما يبـدو إلى بطحاء مكة ، والقياس فى هذه الحال يستدعى أن نسميهم البطاحيين ، غير أن الصيغة الأولى هى الغالبة اليوم . والمفرد بطحانى .

وهم رعاة إبل وغنم وماعز . ولهم قطعان كبيرة ، تغلب عليهم البداوة ، ويزرعون مع ذلك بعض الأخوار والأودية الضحلة المنتشرة حولهم ، ويصفهم ماكايكل ، بأن مظاهرهم تغلب عليه الصفات العربية (القوقازية) والجسم نحيل ، خفيف

الحركة ، والتقاطيع معتدلة ، والبشرة ذات حمرة وشحوب . ويصف أخلاقهم بسرعة الغضب وحب المشاكسة مثل الشايقية ، ومع ذلك يميلون إلى الفكاهة ويمتازون بالجرأة والشجاعة ، كذلك يصفهم بأنهم لصوص لا يرجى إصلاحهم ولا يستحون من السرقة . غير أن سرقتهم ليست من الطراز الإجرامى كالسطو على المنازل ، بل بقية من عهد الجاهلية ، حين كان اختطاف جمل يعد من الأعمال المرغوبة المحمودة .

وقد كانوا قبيلة قليلة الخطر ، عاجزين عن مجاراة الشكرية ، جيرانهم الأقوياء . وفى عهد محمد على وإسماعيل ازدادت هذه الحالة وضوحا ، بفضل ما كان للشكرية من النفوذ الواسع . وانقلبت الحال فى عهد المهدية حينما تعرض الشكرية لضروب من العنت والاضطهاد ، فضعفت شوكتهم وارتفع شأن البطاحين . ولكن فى العهد الحديث استرد الشكرية بالتدريج مكانتهم القديمة ، بل زادوا عليها ، واتسع نفوذهم فى جميع أنحاء البطانة شمالا وجنوبا . ومع ذلك فإن البطاحين لا يزالون من أعظم القبائل التى تعتمد على رعى الإبل كحرفة أساسية لها .

* * *

ويلحق بالبطاحين قبيلة أخرى من أقربائهم الجمليين ، وطالما كان بين الاثنين حلف وتأييد مشترك فى الدفاع والهجوم ، ألا وهى قبيلة الخوالدة ، وكانت لهم فيما مضى غارات وحروب على الكواهلة والشكرية يناصرهم دائما أقاربهم البطاحون ، وينتسب الخوالدة إلى جد يدعى خالد ، وتشير الأنباء المتواترة إلى أنه أنجب ثمانية من الأبناء ، تنتسب إليهم البطون الثمانية التى تتكون منها القبيلة اليوم ، وتجمع الروايات على أنهم وصلوا إلى السودان بعد أن نزحوا إلى مصر وأقاموا فترة من الزمن فى الدلتا ، حيث لا تزال بقية منهم بالقرب من طنطا . أما الكثرة العظمى فقد دخلت السودان فى حوالى القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر ، ونزلوا أولا إقليم شندى ، ثم لم يزالوا ينتقلون تدريجيا نحو الجنوب ، فى سهل البطانة . ولشدة ضغط الشكرية عليهم اضطروا إلى عبور النيل الأزرق بالقرب من واد مدنى؛ ونزلوا فى الجزء الشمالى من الجزيرة . فيما بين واد مدنى وبلدة مناقل ، حيث يعيشون

فيما يقرب من خمسين قرية تمتد ما بين البلدين . ولا تزال هذه هي أوطانهم الرئيسية إلى وقتنا هذا[١] .

* * *

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل أن نؤكد ما ذكرناه من قبل ، من أن الوحدات المختلفة للمجموعة العباسية ، التي تكلمنا عنها ، ليست هي كل القبائل الجعلية . بل هنالك وحدات صغيرة ، لا يكاد يعرف عنها شيء أكثر من أسمائها . وهي في العادة تخضع لناظر قبيلة من القبائل ذات النفوذ ، التي تجاورها .

ولم تكن معالجتنا لكل قبيلة بحسب أهميتها ، بل بمقدار ما أمكن الوصول إليه من أنبائها ومختلف أحوالها . لذلك يجب ألا تقاس أهمية القبيلة بمقدار ما خصص لها من الفقرات أو الصفحات . والواقع أن القبائل الجعلية لم يكتب عنها شيء يطفئ الغلة ، إذا استثنينا كتيباً صغيراً للمستر نكلز Nicholls عن الشايقية[٢] .

وواضح مما تقدم أن المجموعة الجعلية هي أهم مجموعة في السودان ، وأن مراكز احتشادها كانت في الإقليم الأوسط من أوطانها الحالية . ثم انتشرت منه نحو الشمال منحدرة مع النهر من جهة ، ونحو الجنوب مصعدة في النهر من جهة أخرى . لذلك رأينا أن انتشارها يتضاءل بالتدريج في الأطراف السفلى والعليا من أوطانها .

---

(١) راجع مقالة H. C. Jackson عن الحوالدة في المجلد الأول (سنة ١٩١٨) من S.N.R. ص ١٦٧ وما بعدها .

(٢) لم يتح للمؤلف الانتفاع بهذا الكتاب (المطبوع في دبلن ١٩١٣) . ومع ذلك فليس في هذا ضير ، إذ لا يتفق مع التناسب في فصول الكتاب ، أن يطول الشرح والوصف لقبيلة واحدة مع اختصار الكلام على سائر القبائل . ومن الملاحظ أن ما كما يكل في كلامه على الشايقية لم يشر كثيراً إلى ما جاء في كتاب نكلز المذكور .

الفصل العاشر

قبائل جهينة — ١

المجموعة الثانية الكبيرة من القبائل العربية فى السودان هى التى يصفها الكتاب بأنها تنتمى إلى « جهينة » أى إلى فرع من فروع العرب العاربة أو القحطانيين ، كما أن المجموعة الجعلية تنتسب إلى فرع من فروع العرب العدنانيين . . أى أن إحدى المجموعتين تنتسب إلى العرب الجنوبيين أو اليمنية ، والأخرى إلى العرب الشماليين ، طبقاً للتقسيم القديم فى جزيرة العرب نفسها . ولو أن عبارة شمال وجنوب لم تلبث حتى فى عصور الجاهلية أن أصبح مدلولها اسمياً فقط ، لأن عرب اليمن ، كما هو معروف ، قد نزح كثير منهم إلى الشمال ، حتى نزل بعضهم الشام ، مثل غسان ، والبعض على حدود العراق ، مثل المناذرة . ولكن ظلت عبارة جنوبى وشمالى محتفظة بمعناها بحسب الأصل الإقليمى للقبائل قبل أن تنزح القبائل اليمنية وتنتشر فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية

وقد انقسمت قحطان إلى شعبتين كبيرتين : كهلان ، وحمير ؛ وتفرعت عن كهلان عدة قبائل مشهورة مثل جذام ولخم وكندة وطيْ ومذحج وهمدان والأوس والخزرج .

ومن حمير تفرعت قبائل مشهورة أيضاً منها قضاعة وبَلِى ، ومنها جهينة التى نحن بصددها . وقبل ظهور الإسلام ، كان للقبائل الجنوبية شأن عظيم ؛ وكانوا أكثر عدداً وأعظم خطراً من القبائل العدنانية . وكان منهم كثير من البيوت المالكة ، بل إن معظم الملوك كانوا منهم .

ولكن ظهور الإسلام فى قريش قد جعل كفة العدنانيين ترجح ، وموقفهم فى ميدان التفاخر يسمو ويعلو ، وبذل النبى مجهوداً عظيما لكى يمنع هذا التفاخر بالأنساب والألقاب ، مؤكداً ألا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، فلم يكتف

بأن ساوى بين العدنانى والقحطانى ، بل رمى إلى المساواة بين الشعوب والأجناس ، فأطاعه فى ذلك الصحابة والتابعون وعقلاء المسلمين ، غير أن العصبيات القديمة لا تموت بسهولة . والنسب القرشى أو حتى العدنانى قد ارتقى بفضل النبى ، إلى منزلة ليس من السهل أن يتجاهلها من يمتون إليها بصلة القرابة ولو من بعيد . ولذلك بقى الحرص على الانتساب إلى الدوحة الهاشمية متأصلا فى النفوس . وظهرت آثاره فى السودان كما ظهرت فى سائر الأقطار الإسلامية .

ومع ذلك فإن القحطانية ، نظراً لوفرة عددها ، كان لها فى الفتوح الإسلامية الأولى مكان ملحوظ ، وكان بعض الجيوش التى أرسلت إلى إفريقية ، يشتمل أكثره على عرب من الدوحة اليمنية ، ولذلك كان لهم من الفضل فى نشر العروبة والإسلام فى أفريقية ما لا يقل عما لغيرهم من القبائل العربية . . وقبل الإسلام بقرون عديدة كان لليمنيين انتشار فى القارة الإفريقية ، وكان لهم بها علم ، أكثر مما كان لغيرهم من العرب . وهذا كان له أثره عند ما غزت الجيوش العربية القارة الإفريقية .

ويحدثنا المقريزى أن جيش عمرو بن العاص كان يشتمل على نسبة عالية من اليمنية ، وعلى الأخص من جهينة ، ثم يخبرنا أن القبائل التى تألف منها هذا الجيش ، قد خفى أمرها بعد ذلك ، وغابت أنباؤها ، فهل نحكم من هـذا بأنها اندمجت فى سائر السكان واتحدت فيهم ؟ أو أن بعضهم قد اتخذ طريقه نحو الجنوب ، إلى صعيد مصر وإلى ما وراء الصعيد من ديار وأقطار ؟ ليس من السهل أن نجيب على هـذا السؤال ، ولـكن الجيش الذى غزا جنوب الصحراء الشرقية فى القرن التاسع الميلادى كان يشتمل على عدد كبير من بنى جهينة ، وكذلك الأمر فى الجيوش العربية التى جاءت بعد ذلك .

كذلك يجب أن نذكر أن قبيلة جهينة كانت أوطانها فى غرب الحجاز ، حول ينبع ، مشرفة على البحر الأحمر ، ممـا يمكنها من الانتقال عبر البحر إلى الحدود الشرقية لحوض النيل .

هذه الشواهد تشير بأن بعض المؤثرات العربية الجهنية قد دخلت السودان

من الشمال والشرق ، ولكننا إذا درسنا توزيع القبائل التي تنتسب إلى جهينة في السودان اليوم ، نجد أكثرها انتشاراً في دارفور وكردوفان ، وليس من السهل أن نفترض أن هذا جاء عن محض الصدفة ، بل إن هذا يبعث على الترجيح بأن كثير من الجهنيين قد دخلوا السودان من الشمال الغربي ، من طريق الأربعين أو من أي طريق آخر من الصحراء الليبية .

والقبائل الجهنية في السودان ترجع بنسبها إلى عبد الله الجهني الصحابي ، وهو وإن لم يكن من جهينة مباشرة فإنه على كل حال من قضاعة التي تنتسب إليها جهينة . والظاهر كما يقول ماكايكل ، أن العرب في السودان ، الذين ينتمون إلى جهينة ، قد أعلنوا هذه النسبة وتمسكوا بها ، وأيدتها شواهد عديدة . ولعل بعضهم توهم بعد ذلك أن عبد الله الجهني الصحابي لا بد أن يكون من جهينة . وجعله محور النسبة في القبائل كلها . فالأجيال القديمة لم تقل شيئاً عن عبد الله ، واكتفت بالانتساب إلى جهينة . أما الأجيال التالية ، فقد تسرب إليها هذا الوهم . فجعلته أساساً للنسبة الجهينة .

وهنالك فرق جوهري بين العدنانيين والقحطانيين في جزيرة العرب ، وبينهم في السودان . ففي البلاد العربية الأصلية كان الناس يفخرون بأنسابهم اليمنية ، دون أن يحاولوا خلطها بأنساب أخرى . أما في السودان ، فإن الجهنيين كثيراً ما اتصلوا بالمصاهرة بالجعليين فنشأت بينهم وبين العباسيين صلات وروابط .

ويلاحظ أيضاً أن المجموعة الجعلية على اختلاف أنسابها وأوطانها ، تصف نفسها بأنها جعلية أو عباسية ، فالبديري — كما يقول ماكايكل — إذا سألته إلى أي القبائل تنتمي قال : إلى الجعلية . ولكن إذا سألت شكريا قال : إنه ينتمي إلى الشكرية ، ولا يقول إلى جهينة . ولا بد من سؤاله مراراً عن نسبه الأصلي وعن الأرومة الأصلية التي تنتمي إليها قبيلته ، ففي هذه الحالة قد يجيب بأنه من جهينة وأحيانا يقول إنه من جهينة من جهة الأم فقط ، أما من جهة الأب فينتمي إلى علي بن أبي طالب أو إلى أي فرع آخر من الدوحة الهاشمية .

على الرغم من هذا ، فإن الحقيقة المؤكدة هي انتماء جميع هذه القبائل إلى أصل

واحد ، وهو القبيلة العربية جهينة ، ذات الأصل اليمنى ، التى كانت مواطنها الدائمة بعد اليمن ، فى إقليم يقع على البحر الأحمر .

ونلاحظ فرقاً جوهرياً آخر بين الجعلية وجهينة ، وهو : أن مجموعة القبائل اليمنية تنتمى إلى قبيلة عربية مشهورة . أما الجعلية فيسمون باسم شخص : وهو ابراهيم جعل : أو على أحسن الفروض ينتسبون إلى العباس ، أى إلى شخص أيضاً . ويفسر ما كما يكل ذلك ، بأن الجهنيين ظلوا على بداوتهم ، وهم فى السودان فلم يمتزجوا كثيراً بالسكان الأصليين ، فاحتفظوا بوحدتهم وتبعيتهم القبلية ، أما الجعليون فقد اختلطوا اختلاطا شديداً بالسكان السابقين لهم الذين كانوا مستقرين ويمثلون جماعات مختلفة من الناس . ومعنى هذا فى نظر ما كما يكل أن الجعليين كانت لهم قبيلة عربية واحدة ينتمون إليها ، وقد ضاعت معالمها بعد كل هذا الاختلاط .

وهذا رأى له وجاهته . ولكن لعل الأوفق أن الجعليين لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة ، بل جماعات عديدة من قبائل ذات نسب متقارب هاجرت على دفعات وعلى مدى قرون ، محتلين الأقطار التى يعيشون فيها اليوم والتى بسطوا نفوذهم عليها قطراً بعد قطر إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية تولت الزعامة ووحدت القبيلة ، وهذه الأسرة الحاكمة هى التى كان لها فضل فى إدماج المجموعة كلها بعضها فى بعض ، وفى إدماج السكان الأصليين فى المجموعة العربية .

وهنالك سؤال قد يخطر لنا فى هذه المناسبة ، وإن لم يكن من السهل الإجابة عليه ، وهو أى المجموعتين أقدم عهداً فى السودان ، وأقدم تكويناً وانتشاراً . وإذا أردنا أن نستعين بالتوزيع الجغرافى فى الإجابة على هذا السؤال ، رأينا أن الجعليين يحتلون أواسط السودان ، وكان انتشارهم دائماً على طول هذا المحور الممتد من الشمال إلى الجنوب . وإذا ابتعدوا عنه شرقاً أو غرباً كان ذلك فى صورة إشعاعات وتفرعات خاضعة للمصدر الذى تفرعت عنه . أما القبائل الجهنية فتحتل من السودان أقاليم موزعة بين الشرق والغرب ؛ من حوض العطبرة شرقاً إلى أقاصى دارفور غرباً .

ولأول وهلة قد يذهب بنا الظن إلى أنه ما دام الجهنيون منتشرين من الشرق إلى الغرب يتوسطهم الجعليون ، فلا بد أن قبائل جهينة كانت منتشرة انتشاراً

متصلا ، حتى جاء الجمليون فاحتلوا الإقليم الأوسط ، وتكون هجرة الجمليين فى هذه الحالة أحدث من هجرة القبائل الجهنية .

غير أن هذا الرأى لا يلبث أن يبدو خطؤه ، عند ما نبحث عن طرق الهجرة التى سلكتها كل مجموعة ، وهنالك يبدو لنا فى غير لبس ولا غموض ، أن القبائل الجهنية الشرقية تمثل هجرات مستقلة تماماً عن هجرات الجماعات التى تعيش فى كردوفان ودارفور . فهنالك فى الواقع ثلاث طرق مختلفة ، الأولى من الشرق أو الشمال الشرقى ، وقد سلكتها جهينة الشرق ، والطرق الشمالية التى سلكها الجمليون ، والطرق الشمالية الغربية أو الليبية ، التى سلكتها جهينة الغرب ، وسنورد فيما بعد الأدلة التى تثبت أن هجرة كل من الشعبتين الجهنيتين كانت مستقله عن الأخرى .

والأرجح أن الهجرات الثلاثة ، ترجع إلى عصور متقاربة ، ولعلها كانت متقاربة فى الزمن ؛ ومع ذلك فإن تتابع الهجرات فى مختلف العصور يشير إلى أن الباب الشرقى كان أقدم نوعاً ، يليه الباب الأوسط ، ثم الطريق الليبى فى النهاية . ومع ذلك فإن هجرة القبائل الجهنية إلى كردوفان قديمة بدليل ما يرويه ما كمايكل من أنه فى أوائل عصر الفتح كان لجهينة ٥٢ وحدة قبلية فى النيل الأزرق وأكثر منها فى الأقاليم الغربية[١] .

ومما يلفت النظر أن ما كما يكل يذهب إلى أن معظم القبائل الجهنية فى الشرق والغرب نشأت من هجرات شرقية ، استقر بعضها فى الشرق ، واندفع البعض مغرّباً حتى وصل إلى بلاد برنو . وأن هذا كله حدث فى القرن الرابع عشر . مع أن المخطوط الذى يستند إليه يميز صراحة بين المجموعتين الشرقية والغربية ، ويشير إلى الصلات التى تربط بين القبائل الغربية فى السودان وليبيا[٢] . مما يدل على أن المجموعة الغربية ذات تاريخ مستقل . وليس من السهل أن نتصور هجرات تبدأ من سواحل البحر

---

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب فى السودان (ص ١٣٩ و ٢٧٦) نقلا عن بعض المخطوطات . والإشارة إلى الجهات الغربية ليست فيما يبدو مقصورة على السودان ، بل تمتد إلى غرب دارفور ، وإلى ليبيا وتونس .

(٢) راجع الوثيقة رقم BA فقرة ١٢٣ فى الجزء الثانى من نفس الكتاب فى صفحة ٢٨ .

الأحمر وتنتشر بواسطتها القبائل إلى إقليم بحيرة تشاد ويتم هذا كله فى غضون قرن واحد .

يدلى ماكايكل برأيه هذا وهو يتحدث عن الجهنيين بوجه عام ، ولكنه عندما يتحدث عن البقارة بعد ذلك ، وهم أعظم مجموعة جهنية فى كردوفان ودارفور ، يعود فيرجح ، أنهم جاءوا من طريق ليبى قريب من نهر النيل ، وقد استرشد فى رأيه هذا بعبارة رواها ابن خلدون ، عن تدفق قبائل من جهينة إلى بلاد النوبة ثم نزوحهم عنها بعد ذلك[١] . وقد ذكر ابن خلدون صراحة أنهم كانوا موزعين على الضفة الشرقية والغربية .

والرأى الذى يسهل به تفسير توزيع القبائل الجهنية فى مختلف الأنحاء ، هو التسليم بأنها كانت قبيلة عظيمة وأنها لم تقتصر فى انتشارها على طريق واحد . وحسبنا دليلا على قوة هذه القبيلة ما أورده ابن خلدون فى وصفها وهو يتكلم عن القبائل العربية عامة فيقول : إن مواطن جهينة « ما بين الينبع ويثرب إلى الآن ، فى متسع من برية الحجاز إلى عقبة أيلة ، وهم على العدوة الشرقية من بحر القلزم . واجتاز منهم أمم إلى العدوة الغربية ، وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا هناك سائر الأمم ، وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم ، وأزالوا ملكهم ، وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد »[٢] .

وفى عبارة ابن خلدون هذه ، مع ما هو معروف عنه من دقة التعبير ، ما يدل دلالة صريحة على أن جهينة كانت قبيلة عظيمة ، تسلك فى هجراتها مختلف السبل ، إلى صعيد مصر ، وإلى بلاد النوبة ، وإلى شرق السودان إلى حدود الحبشة ، ومع ذلك يظل منها جماعات عددها كاف لاحتلال أوطانها الأصلية فى الحجاز ، ما بين يثرب وينبع جنوباً والعقبة شمالا . وأوطانها فى الحجاز اليوم لا تزال بالقرب من

---

(١) من الغريب أن هذا التناقض يحدث ما بين صفحات متقاربة ، راجع الجزء الأول من الكتاب نفسه (ص ٧٤ ، ٧٦) ، أما عبارة ابن خلدون فواردة فى الجزء الخامس من تاريخه (ص ٤٢٩) طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

(٢) راجع الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون (ص ٢٤٧) ، ولا أدرى كيف فات ماكايكل هذا النص أيضاً .

ينبع والجهات التى تليها شمالا . وليست بالطبع بنفس الاتساع الذى كانَ لها فيما مضى ، لأن فترة الهجرات المتتالية على مدى القرون الطويلة ، مما يضعف الوطن الأصلى .

* * *

هذا وتنقسم القبائل الجهنية فى السودان إلى ثلاث مجموعات رئيسية على النحو التالى .

١ — رفاعه (ومعها أقرباؤها من القواسمة والعبداللاب والمسركين وغيرهم) .
٢ — اللحويون والحلاويون[1] .
٣ — العوامرة والخوالدة الخ[2] .
٤ — الشكرية .

ومواطنهم جميعاً فى أقاليم النيل الأزرق والبطانة ، أى فى النصف الشرقى من السودان ثم :

٥ — دار حامد .
٦ — بنى جرار .
٧ — الزيادية .
٨ — البزعة .
٩ — الشنابلة .
١٠ — المعاليا .

ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة وهم يعيشون فى الجهات الشرقية والوسطى من كردوفان ، ثم

---

(١) قبيلتان صغيرتان من بنى جهينة ، الأولى تعيش فى البطانة تحت رعاية الشكرية ، أما الحلاويون فلهم بعض الاستقلال ، ويعيشون فى الجزيرة حول بلدة حصاحيصا .

(٢) تتألف هذه المجموعة من العوامرة والعمارنة والفادنية والخوالدة ، وكلها قبائل رعوية صغيرة فى الجزيرة ويمارسون بعض الزراعة . والخوالدة فى الجنوب ، وهم خلاف خوالدة شمال الجزيرة أقارب الجعليين .

١١ — الدويحية .
١٢ — المُسَلمِيّة .
١٣ — البقارة .
١٤ — المحاميد ، والماهرية . الخ .
١٥ — الكبابيش .
١٦ — المغاربة : (الذين جاءوا من المغرب) .
١٧ — الحَمَر : (خلاف الحُمْر ؛ وهم من البقارة) .

وهؤلاء منتشرون فى كردوفان ودارفور ، وإن كان بعضهم مثل المسلمية والدويحية لهم أوطان فى الجزيرة والنيل الأزرق .

وليست هـذه القبائل متساوية فى الأهمية سواء من حيث العدد أو الثروة أو النفوذ ، لأن البقارة مثلا يضمون عدداً كبيراً من القبائل بعضها مثل الرزيقات على جانب عظيم من الخطر . ولكن هذا التقسيم له بعض الوجاهة ، لأنه مبنى على أساس إقليمى من جهة ، وعلى أساس القرابة من جهة أخرى ؛ وسنكتفى فى هذا الفصل بالكلام على أهم الوحدات فى الشرق والغرب[1] .

قبيلة رُفاعة

رفاعة ، بضم الراء ، على الأقل فى الوقت الحاضر ، قبيلة كثيرة العدد واسعة الانتشار ؛ وفيما مضى كانوا مجاورين للبجه ولهم أوطان على حدود الحبشة ، وفى عصر الفنج كانوا بدواً كلهم ، ومواطنهم تمتد على جانبى النيل الأزرق فى السودان من السفوح الحبشية إلى القرن . أما بلدة رفاعة فى الطرف الشمالى من النيل الأزرق ، فلم تنشأ إلا فى وقت متأخر ، بعد أن أخذ فريق من أهل الشمال منهم ينزعون إلى حياة الاستقرار ، ومع ذلك لم تعد هذه البلدة خالصة لهم كما رأينا من قبل عند الكلام على الشكرية .

---

(١) سبق الكلام عن الشكرية وهم أهم القبائل الجهنية الشرقية — وذلك فى الفصل الثامن .

وفى الوقت الحاضر لايزالون منتشرين على جانبى النيل الأزرق ، على الأخص فى النصف الجنوبى إلى الرصيرص . لأن ضغط القبائل الشمالية أدى إلى تسرب عناصر أخرى إلى النصف الشمالى .

والظاهر أن قبيلة رفاعة كانت قبيلة مستقلة بنفسها عن أخواتها من جهينة حتى فى الأوطان الأصلية فى جزيرة العرب ، وكان بين الفريقين خصومات ومنازعات شأن هذه القبائل البدوية .

ويقول بركهارت فى رحلاته ، إنه عند ما كان فى شندى قابل أعرابياً آتياً من سواكن ، يقول إنه رفاعى (بكسر الراء) أى ينتمى إلى القبيلة العظيمة جهينة التى تعيش بالقرب من ينبع . وأن هذا الأعرابى قد سمع بأن فرعاً عظيما من قبيلته يعيش فى الجنوب من سنار وأنه ينوى زيارتهم ، لأنهم قد اشتهروا بعطفهم على أقاربهم فى الحجاز ، الذين يقصدونهم فى أوطانهم بالسودان .

وبركهارت كاتب مدقق ، ولذلك يمكننا الاعتماد على شهادته . والظاهر أن هذا الأعرابى ، وهو مثال لآخرين سواه ، انتقل أولا إلى سواكن ومنها إلى بربر . ثم انحدر جنوباً إلى النيل الأزرق ، وهذا طريق أسلم من اختراق بلاد البجه ؛ وإن كان الطريق الثانى أقرب .

ويلفت ما كايــكل نظرنا إلى عبارة وردت فى كتاب كاترمير ، رواية عن مخطوط عربى ، أن معركة دارت فى صحراء عيذاب بين رفاعة وجهينة سنة ٦٨١ هجرية (١٢٨١ م) وأن القبيلتين كانتا متجاورتين فى ذلك الإقليم لمدة أجيال كثيرة ، وهكذا نستطيع أن نستخلص من هذه العبارة دليلا على الطريق الذى سلــكته رفاعه ، بل وبعض القبائل الجهنية الأخرى إلى جهات السودان الشرقية .

ووجود قبيلة رفاعة فى إقليم ينبع يؤيد أن طريق الهجرة كان إلى الصحراء الشرقية ، صحراء عيذاب ، ثم الانحدار تدريجياً نحو الجنوب ، مع المحافظة على البداوة التى ظلوا محتفظين بها إلى زمن الفنج .

وينقسم الرفاعة تقسيما إقليمياً ، إلى الشماليين والجنوبيين .

وقد أصبحت المجموعة الشمالية الآن مستقرة فى قرى ، ومعظم نشاطها زراعى

أو تجاري ، أو غير ذلك مما يلازم حياة الاستقرار . وكثير من القرى يشاطرهم فيها عدد غير قليل من الشكرية أو الدناقلة أو الجعلية أو الحس . ولو أن هنالك قرى كثيرة سكانها كلهم من رفاعة ، وبوجه عام يعتبر الرفاعة والحس أصحاب الديار الأصليين على ضفتي النيل الأزرق كما يقول ماكايكل . فإن صح هذا ، ونحن نعلم قدم الحس في هذا الإقليم ، فمعنى ذلك أن الرفاعة استقروا هنا منذ زمن طويل .

أما رفاعة الجنوب فالبداوة سائدة بينهم ، والاستقرار أقل . وكثيراً ما يطلق عليهم اسم جهينة[1]، وهم ينقسمون إلى قسمين : رفاعة الشرق (ناس أبوجن) شرق النيل الأزرق ، ورفاعة الهُـوىْ (أوناس أبوروف) . والنسبة إلى أبوجن وأبوروف ، ترجع إلى اسم الأسرتين الحاكمتين لمدى أجيال طويلة وهذا التقسيم إلى شرقيين وغربيين تقسيم إقليمي صرف ، وليست له أية صفة للتمييز بين الشعبتين من ناحية النسب .

والانقسام إلى شرق وغرب أدى إلى أن تتغير حركات الجماعة وهجراتها الموسمية . فالشرقيون يقضون الصيف في البطانة الجنوبية . وأوطانهم على جوانب نهر دندر . والغربيون أوطانهم إلى الغرب من الرصيرص ، حيث تمتد شمالا وجنوباً . ورحلتهم الصيفية تصل بهم إلى جبل مويا .

أما الأقسام القبلية فيذكر منها ماكايكل ٢٤ قسما بين الجنوب والشمال ، والشرق والغرب مثل القواسمة والعركيين ، والطوال والهلالية وبنى حسن وبنى حسين . وهنالك قسم واحد يدعى باسم « جهينة » ، وهو عبارة عن قبيلة بدوية صغيرة تعيش في الجنوب الغربي من البطانة بالقرب من المجرى الأسفل لنهر رهد . وهي قبيلة غير ذات خطر .

ومع أن الكثرة العظمى من رفاعة تعيش في إقليم النيل الأزرق ، فإن قليلا منهم يعيش على النيل الأبيض ، وبعضهم مع الكبابيش في كردوفان ، وقليل منهم ربما ذهب إلى دارفور .

* * *

(١) يروى ماكايكل أن بعض السودانيين يطلقون على القبيلة اسم جهينة العول أى الذين لا يعتدون ولا يقاتلون ، ويروى مثلا سائرا : جهينة العول العشرة فوق الزول : أى أنهم ضعفاء في الحرب يكفي واحد لقتال عشرة منهم .

العبداللاب :

ومن مجموعة القواسمة شعبة تستحق أن يفرد لها ذكر خاص ، وهى الشعبة المسماة بالعبداللاب أصحاب حلفاية الملوك ؛ وهم فى الحقيقة عبارة عن أسرة عظيمة كبيرة العدد والخطر . تتركز اليوم حول حلفاية والخرطوم (بحرى) ؛ ومنها جماعات موزعة على ضفاف النيل الأزرق ما بين رفاعة والخرطوم ، حيث يمارسون الزراعة . ولهم قطعان قليلة .

ولكنهم على قلة عددهم النسبى ، ومواردهم المحدودة ، لهم شأن كبير وخطر عظيم . لأن مؤسس الأسرة عبد الله جماع ، وهو من شعبة القواسمة من قبيلة رفاعة هو الذى ساعد عمارة دنقس على القضاء على مملكة سوبه ، وتأسيس مملكة سنار ؛ وكان هو العضد الأكبر لهذه المملكة فى الإقليم الشمالى . وكان أصله من قِرِّى شرق خانق سبلوقة ، وظلت قرى عاصمة لهم فترة من الزمن ، ثم انتقل مقرهم بعد ذلك إلى حلفاية الملوك ، وكانت هذه الأسرة تتوارث الحكم فى أثناء مملكة سنار ، وكانت هى ذات الحول والطول فى الإقليم الشمالى من تلك المملكة .

وكان اللقب الرسمى لأمراء العبداللاب هو « منجل » وهو اصطلاح غير عربى فيما نعلم . وقد لقب به عدد من الولاة فى عصر الفنج ، ولكنه كان يطلق بوجه خاص على العبداللاب .

ولا بد من الإشارة إلى أن أمراء العبداللاب لم يكونوا مجرد زعماء للشعبة الشمالية من رفاعة أو حتى القواسمة ، بل حكام إقليميون ، لهم السلطة التامة على جميع القبائل التى تعيش فى الشطر الشمالى من مملكة سنار .

فالمنجل العبداللابى هو نائب الملك فى الجزء الشمالى من مملكة سنار ، وهو منصب وراثى ، وصاحبه له حق جباية الضرائب والتصرف فيها . وكان ملكه يمتد من مصب دندر إلى بلاد دنقله . وبعض مناجل العبداللاب كانوا ذوى شهرة لا تقل عن ملوك سنار أنفسهم . وكانت لهم وسائل لجباية الضرائب من البدو الرحل لعلها أبرع مما وفقت له الحكومات الأخرى التى جاءت بعدهم .

وبعد أن ضعفت الحكومة المركزية فى سنار وتغلب سلطان الهمج وازداد نفوذهم ، صار العبداللاب مستقلين استقلالا تاماً . وانقضت صلة التبعية بينهم وبين سنار . وقد تعرض العبداللاب لكثير من إغارات الجمليين ، فكان ملكهم يتناقص أحياناً فى الشمال ثم يستردون بعض ما فقدوه بعد ذلك .

وقد أورد ماكايكل بعض البيانات الطريفة عن منصب المنجل . فقال إن أصل الاسم مشتق من الهمج . وهذه عبارة لا تفيدنا كثيراً عن أصل هذه الكلمة ، فالهمج هم عبارة عن القبائل أو الجماعات التى بسط عليها الفنج سلطانهم . وهم خليط من القبائل ، ولغاتهم متعددة . فكل ما نستطيع تقريره هو أن الكلمة من أصل سودانى .

ومنصب المنجل يخول صاحبه حق لبس الطاقية ، وهى عبارة عن طاقية لها ذؤابتان أو زائدتان عن اليمين والشمال محشوتان بالقطن كأنهما قرنان . وكان هنالك بضعة أمراء فى عصر الفنج يتمتعون بهذا الحق ، منهم أمير فازوغلى ، وأمير الجمليين ، وزعيم الغديات ، وبعض زعماء الرفاعة .

ويصف بعض الكتاب « تتويج » المنجل فى العبارات الآتية ، والوصف ينطبق على تتويج العبد اللاب . يحضر الأمير إلى سنار ، وفى يوم الاحتفال يمنحه السلطان الطاقية ثم يجلسه على الكرسى (الكوكور) ويخاطب بأنه الملك ويدعى له بالعمر المديد والحكم السديد ، ثم يقبله السلطان ويتمنى له أطيب الأمانى . ويأمر بأن يدق له الطبل الملكى ويعلن بأن الملك قد توج . ثم يعود بعد ذلك إلى وطنه متوجا معرشاً (بالتاج والعرش) .

وإلى جانب التاج أو الطاقية . كان يمنح عمامة وسيفاً وعباءة وسلسلة من الذهب وهنالك إشارة إلى بعض ملوك النوبة فى القرن الثانى عشر ، فى الإقليم الواقع بين أسوان وكرسكو وأن أحد ملوكهم كان يلبس العمامة ذات القرنين ، والسوار (السلسلة الذهبية) ومن الجائز أن هذه العادة قديمة فى البلاد التى امتد إليها النفوذ النوبى ، وورثها الفنج فيما ورثوه من تقاليد الحكم والدولة . وهنالك أقوال أخرى عن الصلة بين هذه التقاليد ، وأشباهها فى العصر الفرعونى . غير أن الموضوع لا يزال يفتقر إلى الدراسة .

بنى فزارة

يحدثنا ماكايكل أن بنى فزارة — بهذا الاسم — لم يعد لهم وجود فى السودان ؛ ولكن فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هذا الاسم يطلق على أكبر مجموعة من رعاة الإبل فى كردوفان ودارفور ، وقد تمزقت هذه المجموعة الكبيرة إلى وحدات منفصلة كل وحدة تسمى باسمها الخاص . وقبيلة فزارة العربية قبيلة عدنانية ، وتنتمى إلى قيس عيلان . وقد هاجرت شعبة كبيرة منها إلى مصر. فكيف أصبحت اليوم فى السودان تعد من قبائل جهينة ؟

فى الغالب أن ما ذهب إليه ماكايكل صحيح ، وهو أن أوطان فزارة كانت متاخمة لأوطان جهينة فى الجزيرة العربية ، ولعل هجرة القبيلتين إلى مصر حدثت فى وقت واحد ، فكانت جماعات من الفريقين تنتقل معاً ، وكانت بينهم مصاهرات على الأرجح أدمجت القبيلتين إحداهما فى الأخرى .

وأهم القبائل الداخلة فى مجموعة فزارة هى بلا شك تلك التى يطلق عليها اسم « دار حامد » : وهى قبيلة منقسمة إلى عدة شعب ، ولا يجمعها زعيم واحد ، بل كل شعبة لها شيخها الخاص بها .

وهنالك قسمان صغيران من دار حامد ، التحق أحدهما بالكبابيش ، والآخر بصاحب الكواهلة ، وكلا هاتين الشعبتين يعيش عيش البداوة ولا يعرف الاستقرار . وكانت القبيلة كلها بدوية ترعى الإبل فيما مضى ، غير أن القسم الأعظم من القبيلة نزل فى منطقة الخيران شمال الأبيض ، حيث يقوم ببعض الزراعة ، وعلى الأخص زراعة الذرة الرفيعة ، ومع ذلك له قطعان من الإبل يرعاها ، فى الوقت الذى لا تشغله الزراعة .

ومن الجائز أن دار حامد هم من أول القبائل استعماراً لمنطقة الخيران ، ولكن شاركهم فيها بعد ذلك كثير من القبائل الأخرى : مثل البديرية وكثير من الدناقلة ، الذين يحسنون استخدام السواق والشواديف للرى .

وتنتسب القبيلة إلى جد يدعى حامد ، وهذا الجد بدوره يرجع إلى عبد الله

بنى فزارة

يحدثنا ماكايكل أن بنى فزارة — بهذا الاسم — لم يعد لهم وجود فى السودان ؛ ولكن فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هذا الاسم يطلق على أكبر مجموعة من رعاة الإبل فى كردوفان ودارفور ، وقد تمزقت هذه المجموعة الكبيرة إلى وحدات منفصلة كل وحدة تسمى باسمها الخاص . وقبيلة فزارة العربية قبيلة عدنانية ، وتنتمى إلى قيس عيلان . وقد هاجرت شعبة كبيرة منها إلى مصر. فكيف أصبحت اليوم فى السودان تعد من قبائل جهينة ؟

فى الغالب أن ما ذهب إليه ماكايكل صحيح ، وهو أن أوطان فزارة كانت متاخمة لأوطان جهينة فى الجزيرة العربية ، ولعل هجرة القبيلتين إلى مصر حدثت فى وقت واحد ، فكانت جماعات من الفريقين تنتقل معاً ، وكانت بينهم مصاهرات على الأرجح أدمجت القبيلتين إحداهما فى الأخرى .

وأهم القبائل الداخلة فى مجموعة فزارة هى بلا شك تلك التى يطلق عليها اسم « دار حامد » : وهى قبيلة منقسمة إلى عدة شعب ، ولا يجمعها زعيم واحد ، بل كل شعبة لها شيخها الخاص بها .

وهنالك قسمان صغيران من دار حامد ، التحق أحدهما بالكبابيش ، والآخر بصاحب الكواهلة ، وكلا هاتين الشعبتين يعيش عيش البداوة ولا يعرف الاستقرار . وكانت القبيلة كلها بدوية ترعى الإبل فيما مضى ، غير أن القسم الأعظم من القبيلة نزل فى منطقة الخيران شمال الأبيض ، حيث يقوم ببعض الزراعة ، وعلى الأخص زراعة الذرة الرفيعة ، ومع ذلك له قطعان من الإبل يرعاها ، فى الوقت الذى لا تشغله الزراعة .

ومن الجائز أن دار حامد هم من أول القبائل استعماراً لمنطقة الخيران ، ولكن شاركهم فيها بعد ذلك كثير من القبائل الأخرى : مثل البديرية وكثير من الدناقلة ، الذين يحسنون استخدام السواق والشواديف للرى .

وتنتسب القبيلة إلى جد يدعى حامد ، وهذا الجد بدوره يرجع إلى عبد الله

الجهني . وقد هاجر حامد وأخوه حماد على رأس القبيلة منذ زمن لا يقل عن قرنين ، وقد يبلغ أكثر من ذلك ، وطريق هجرتهم على الأرجح كان عن طريق الجانب الغربي للنيل ، إما بواسطة درب الأربعين ، أو بالتزام الجانب الغربي للنيل في بلاد النوبة ، ثم الاتجاه جنوباً إلى كردوفان . وهم يزعمون أن جدهم هذا كان معاصراً لأبي زيد الهلالي ، وأن أبا زيد نصحه بأن يتجنب دارفور ، ويذهب إلى كردوفان ، وأن يختار لمقامه الجزء الأوسط من كردوفان . ولم تتح للمؤلف زيارة دار حامد ، ولكن أبلغه غير واحد أنهم تظهر فيهم أحياناً صفات جسدية تذكر بسكان بلاد المغرب ، ومع أن قصة معاصرة جدهم لأبي زيد الهلالي قد تقبل الشك ، غير أن المفاضلة بين دارفور وكردوفان قد تفيد أن الهجرة كانت عن طريق وسط بين الإقليمين ، وأن جزءا من دار حامد قد هاجر فعلا عن طريق مغربي أو تونسي ؛ وإن كانت الروايات تدل على أن معظمهم جاء عن طريق غرب بلاد النوبة[١] .

الزيادية

ينتمون أيضاً إلى مجموعة بني فزارة ، التي أكثر التونسي من ذكرها ، وكانت أوطانهم فيما مضى موزعة بين دارفور وكردوفان ، ولكن شعبة دارفور كانت أعظم بكثير . ثم تعرضت القبيلة للاضطهاد الشديد زمن المهدية ، حتى كادت تفنى عن آخرها ، ثم لقيت من اضطهاد علي دينار في دارفور ، ما سبب نقصاً كبيراً في عددهم هناك ، واضطر معظمهم إلى المهاجرة إلى كردوفان . وبذلك انعكست الحالة فأصبح اليوم أكثرهم رعاة إبل بالقرب من مواطن دار حامد . ولم يبق منهم في دارفور إلا القليل .

بني جرار

كان لهم فيما مضى شأن كبير في كردوفان ودارفور ، وكانوا هم والحمر أعظم القبائل التي تنافس الكبابيش في النصف الشمالي من كردوفان إلى حدود بلاد النوبة ؛

(١) ماكمايكل تاريخ العرب في السودان الجزء الأول ص ٢٠٧ .

ولكثرتهم فى ذلك الوقت كان اسم فزارة ألصق بهم منه بأية قبيلة أخرى . وكانت لهم أوطان فى دارفور أيضاً ، ويرى ماكايكل أنه كانت تربطهم أواصر القرابة بقبيلة فزارة التى كانت تعيش فى صعيد مصر فى القرن الخامس عشر .

وفى القرن الماضى انتهت المنافسة بينهم وبين جيرانهم إلى تغلب خصومهم ، وعلى الأخص الكبابيش . فأصبح بنو جرار اليوم وليست لهم أوطان فى دارفور ، ويعيشون فى إقليمين محدودين من كردوفان ، الأول بالقرب من النيل الأبيض ، حيث يعيشون فى قرى عديدة ، يمارسون الزراعة وحياة الاستقرار ، والآخر فى أواسط كردوفان حيث يرعون الإبل وصغار الماشية .

البزّعة

قبيلة قليلة العدد ، يصلون نسبهم ببنى جرار جيرانهم ، ولهم قرى مبعثرة فى إقليم الصمغ شرقى كردوفان ، وفى الجهات القليلة الآبار جنوب بلدة أم دَم ، حيث تضطرهم قلة المياه للاعتماد على البطيخ كمورد للماء فى بعض فصول السنة[1] وهنالك شعبة منهم لها قليل من الإبل يرعونها فى غرب كردوفان .

الشنابلة

يشبهون البزعة فى أن لهم شعبتين ، الأولى رعاة إبل فى إقليم دار حامد والكواهلة ، والأخرى أكثر استقراراً على النيل الأبيض ، والظاهر أنهم أقرب نسباً إلى دار حامد منهم إلى أية قبيلة أخرى من قبائل فزارة . وبعضهم قد اندمج فى قبيلة الحمَـر ، واكتسبوا ثروة كبيرة من الإبل . كما انضم فريق منهم فترة من الزمن إلى الكبابيش ، وفى صعيد مصر على الضفة الشرقية قبيلة تدعى الشنابلة ، والراجح أنهم من أقارب القبيلة السودانية[2] .

---

(١) ماكايكل نفس المرجع ص ٢٦٥ .

(٢) نفس المرجع والمكان .

المماليا

تعد المماليا قبيلة كبيرة إذا قيست إلى أكثر قبائل فزارة ، ولكنها لا تعد من القبائل الكبيرة بوجه عام . وقد كانت أوطانها موزعة بين دارفور وكردوفان والأكثر فى دارفور . وبعد المهدية ، أخذوا يهاجرون بكثرة إلى المكان الثانى . وبعضهم أمعن فى هجرته إلى الجنوب حتى جاور الرزيقات ، وبعد هزيمة على دينار فى سنة ١٩١٦ ، أخذ عدد منهم يعود إلى شمال دارفور ، لعله يسترد بعض الجهات التى كانت تابعة للقبيلة من قبل .

ومعظم أوطانهم فى الغرب من دار حامد ، كما أن بعضهم يعيش فى مركز النهود والأبيض والدلنج وأم روابه ، وفى مركز الدلنج كان لهم اتصال بالنوباويين ولعل بعض الفضل يرجع إليهم فيما يشاهد فى هـذا الإقليم من المؤثرات العربية . هذا ولا يزال أكثرهم رعاة إبل وإن كان بعضهم مستقراً فى القرى ، والبعض يرعى البقر فى الجنوب الشرقى من دارفور ، والجنوبى الغربى من كردوفان .

وهم يعيشون فى الجزيرة حيث سمى أحد المراكز باسمهم وعلى ضفتى النيل الأبيض وأكثرهم مستقرون يمارسون الزراعة . ولهم فى البطانة شعبة صغيرة تعيش عيشة البداوة وقد تحدث عنهم جون بترك وقد زار بلادهم وأقام بينهم فترة من الزمن فى عهد محمد على ، ويدل وصفه لهم على أنهم كانوا أكثر عدداً فى ذلك الوقت مما هم عليه اليوم .

والذين يعيشون فى البطانة يلازمون الجانب الشمالى الغربى ، بالقرب من النيل الأزرق ، ومن أخص عاداتهم أنهم يحتفرون « حفيراً » يملأونه بالماء وقت المطر ، ليستقوا منه فترة من زمن الجفاف . وحفيرهم بالقرب من أم دبان مشهور ، وفى القرية قبتان عظيمتان ومن تحتهما ضريح يضم رفات بعض زعمائهم .

البقارة

كلة بقارة كما هو واضح ، معناها رعاة البقر ، والمراد بهذه التسمية تمييزهم من جيرانهم فى الشمال من رعاة الإبل ؛ غير أن للكلمة معنى اصطلاحياً فى السودان خلاف المعنى اللفظى ، وهذا المعنى الاصطلاحى لايخرج الكلمة عن معناها الأصلى ولكنه يضيق حدود هذا المعنى . ففى السودان كثير من رعاة البقر ، ولكنهم لايدعون بقارة . أى أن رعاة البقر كلة عامة ، والبقارة كلة خاصة ، فالدنكا رعاة بقر ، ولكن أحداً لايدعوهم باسم البقارة ، إنما هم دنكا ، ويجب أن يدعوا بهذا الاسم ، لابالاسم العربى بقارة ، الذى لايطلق إلا على العرب رعاة البقر .

وفوق ذلك فإن اسم بقارة لايطلق على العرب الذين يرعون البقر على نهر النيل الأعظم ، أو شرق النيل الأبيض والأزرق . بل هو مقصور على العرب فى غربى النيل الأبيض ؛ فى كردوفان ودارفور ؛ وعلى القبائل الجهنية بوجه خاص .

فالأصل فى استخدام لفظ بقارة أنه للتمييز بين صنفين من الرعاة فى هذا الإقليم الواسع الفسيح رعاة الإبل فى الشمال (شمال ١٣°) ورعاة البقر فى الجنوب . ففى هذا الإقليم الواسع الفسيح تتدرج الحياة النباتية من الكثرة والوفرة فى الجنوب إلى الشح والقلة فى الشمال ؛ من السفانا الغنية إلى الأعشاب الصحراوية المبعثرة فى

الأودية والخيران . هذا الإقليم كله تسوده حرفة الرعى ، ولكن الأحوال الطبيعية تجعل من الضرورى أن يختص الإقليم الشمالى برعى الإبل والجنوبى برعى البقر . والإقليمان متجاوران ، وهذا التجاور يبعث على التمييز بين سكان الشمال والجنوب، على الرغم مما بين الاثنين من صلات القرابة . فيصف بعضهم بعضاً بأنهم بقارة أو أبالة . ومن الجائز أن تكون القبيلة الواحدة لها فرع يرعى البقر ، وفرع يرعى الإبل . فكأن التسمية جاءت للتمييز بين القبائل اليمنية التى احتفظت بحرفتها الأصلية وهى رعى الإبل ، وبين أبناء عمومتهم فى الجنوب ، الذين تحولوا إلى حرفة أخرى برعى حيوان آخر لم يكن لهم برعيه عهد .

ولا بد لنا أن نفترض أن هذه القبائل كانت كلها رعاة إبل ، ثم توغلت بطون منها فى الجنوب ، مصطحبين معهم إبلهم ؛ غير أن الجنوب فيه حشرات مثل ذباب تستسى أو ذباب السِّرت أو غيرها من الحشرات ، التى لم تكتسب الإبل المنعة اللازمة لمقاومتها ، فلم تلبث هذه الإبل بعد بضعة أجيال أن هلكت بالتدريج . ورأى الرعاة أن الإقليم يناسبه رعى البقر . وقد وجدوا لدى السكان الأصليين قطعانا كبيرة منها . فلم يلبثوا أن استبدلوا البقر بالإبل ، فأصبحوا بقارة .

هذا الاسم إذن يطلق على وجه التخصيص على القبائل الجهنية ، لا على غيرهم ومع ذلك فهنالك رعاة بقر من الجعلية مثل الجمع والمديات فى جنوب كردوفان ، ومثل بعض الحسانية والحسينات . وهؤلاء قد يسمون بقارة على سبيل التجاوز بحكم المجاورة ، وفى هذه الحالة يكون معنى الاسم رعاة بقر ، وليس له أى معنى من الناحية الجنسية . لكن اصطلاح البقارة على التخصيص مقصور على الشعبة اليمنية التى تعيش فى جنوب كردوفان ودارفور ، وتحترف هذه الحرفة .

ونظراً لأن هؤلاء البقارة قد تحولوا إلى رعى البقر عن رعى الإبل ؛ أى أنهم حديثو العهد برعى البقر ، نراهم يستخدمون البقر كما كان أسلافهم يستخدمون الإبل ، لا يوقرونها ولا يحترمونها ولا يعظمونها كما يفعل الدنكا بل يركبونها ، ويحملون عليها أثقالهم إذا انتقلوا من مكان إلى مكان ، ويضعون على ظهورها أداة تشبه الرحل أو الهودج لتجلس عليه المرأة .

ويصف ماكمايكل البقارة فى مظهرهم الخارجى ، بأنهم سمر البشرة ، يمتازون بخفة الجسم والنحول . ولهم تقاطيع واضحة جميلة ، وعيون زاقة ، والشعر قليل على الوجه ، ولذلك تكون لهم لحى خفيفة مدببة ممتدة إلى الأمام ، وشارب يمشطونه باعتناء زائد . والشبان يسرحون شعرهم إلى الخلف ، فى صورة ضفائر أو جدائل ، أما الكهول فلا يتمسكون بهذه العادة .

ويحمل الرجال رمحاً طويلا ، له سنان عريض . وتتحلى النساء بعقود من الكارم الغليظ الحبات ، ويضعن على الجبهة حلية من الفضة . والنساء تمشط شعرها بعكس الرجال ، من الخلف إلى الأمام ، وتجمعه فى مقدمة الرأس . ويلبسن حلقاً فى الأذن وفى الأنف أحياناً . ومظاهر الحشمة تختلف ، لأن طبيعة المناخ تجعل التحجب الكثير أمراً صعباً . وعلى الرغم من أن المرأة لا تتجاوز حدود الحشمة فى سلوكها ، فإن المظاهر فيها شىء كثير من الحرية ، التى لا نراها على شواطئ النيل ، وبين القبائل الجملية عامة . وكثيراً ما ترى الفتيات وهن لا يلبسن سوى الرَّهَط ، من القماش أو الجلد ، معلقاً من الخصر ، والصدور والأرجل عارية .

ويمتد إقليم البقارة من ناحية الغرب إلى جوار بحيرة تشاد ، أى إلى إقليم واداى وبرنو ، وفى هذه الجهات الغربية تظهر فى السكان صفات تذكرنا بالفلاّتا ، الذين تسربت بعض دمائهم إلى الدماء العربية ، كما أن الحدود الجنوبية للبقارة تتاخم الأقاليم الزنجية ، حيث يعيش الفرتيت والدنكا . وقد اتخذ العرب منهم رقيقاً . وإلى الشمال فى دارفور حيث سلطنة دارفور ، اتصل البقارة بسلالات من طراز آخر ، وهم الفور والجماعات المتصلة بهم .

ويعد البقارة أبرز قبائل السودان فى الصفات الحربية ، وأكثرها نزوعاً إلى الحرب ، بعد الشايقية . وهم كذلك صيادون مهرة ، وهذه النزعات الحربية ساعدتهم على تأسيس أوطانهم فى بلاد جديدة عليهم ، ومكنتهم من الدفاع عنها ، حتى وصلوا بالأقطار العربية إلى حوض بحر الغزال ، وإلى أبعد امتداد للقبائل القوقازية فى السودان ، نحو الجنوب .

ولكن هذا الاضطراب والنزعة العسكرية التي يسرت لهم التوسع نحو الجنوب ، قد ترتب عليها تصادم شديد مع سلطنة دارفور ، حيث الحكم المستقر والقوات العسكرية المنظمة ، مما أضعف شوكة البقارة في دارفور ، عدا قبيلة الرزيقات .

وحياة البقارة تجعل هـذا التصادم أمراً لا مفر منه ؛ لأنهم في فصل الجفاف ، أواخر الشتاء ، يزحفون بماشيتهم نحو الجنوب ، حيث يصيدون الفيلة ويسترقون الأفراد من الزنج ويخطفون ماشيتهم . وفي فصل المطر ، يذهبون نحو الشمال هرباً بقطعانهم من الذباب . إلى مراعي المرتفعات الشمالية ، وهرباً من المستنقعات المنتشرة في الجنوب إلى الأرض الجافة في الشمال ، أي إلى الأراضي التي يرى أصحاب السلطان في سلطنة الفور أنها ملك لهم ، ولا بد للبقارة من أن يؤدوا ضريبة عن إقامتهم في هذه الجهات زمن الأمطار .

ومن عادة الملوك في السودان أن يأخذوا الجزية من الرعاة الذين لا يستقرون في مكان واحد زمناً طويلا ، بأن ينتهزوا فرصة التجائهم إلى إقليم قريب منهم ، فيحصلون الجزية في ذلك الوقت . وبديهي أن البقارة لم يكونوا راغبين في دفع هذه الجزية ، ولم يكونوا يؤدونها إلا تحت ضغط لا قبل لهم بمقاومته . فكان التصادم الذي لا مفر منه بين البقارة وسلطنة الفور ، وكان البقارة يحاولون جهدهم التهرب من دفع الجزية الكاملة . وأحياناً ينجحون في ذلك ، وأحياناً يفضلون الابتعاد نحو الشرق أو الغرب ، تهربا من سلطان دارفور .

والإقليم الذي يعيش فيه البقارة واسع جداً من الشرق إلى الغرب ، ولكنه محدود في امتداده من الشمال إلى الجنوب ، (شكل ١٥) وهذا الاتساع العظيم من الشرق إلى الغرب من النيل الأبيض إلى بحيرة تشاد ، قد أفسح المجال للحركة والانتقال شرقا وغربا . دون التزام وطن واحد فترة طويلة من الزمن ، ولم تكن هذه الحركة تشمل قبيلة بأسرها ، بل أحيانا تكون مقصورة على شعبة أو بطن من البطون ، أو شُعَب وبطون لقبائل مختلفة ، فيتحد بعضها ثم ينفصل ثم تتحد أجزاء كانت من قبل منفصلة . مما أدى إلى تداخل القبائل بعضها في بعض ، بحيث أصبحت القبائل الحديثة المعروفة اليوم لا تمثل وحدات مستقلة ، لكل منها تاريخ

الفصل الحادى عشر

قبائل جهينة — ٢

تحدثنا فى الفصل السابق عن شعبتين من قبائل جهينة : الأولى الشعبة الرفاعية ، والثانية الشعبة الفزارية ، وسنتناول فى هذا الفصل طائفة من أعظم قبائل جهينة ، المنتشرة فى كردوفان ودارفور . ولكننا سنبدأ بذكر قبيلتين أقل خطراً من الأخريات لأن لهما أوطانا فى كردوفان والجزيرة ؛ وهاتان هما الدويحية والمسلمية .

الدويحية

يعيش بعض الدويحية فى إقليم النيل الأزرق ، وهؤلاء يجنحون إلى حياة الزراعة والاستقرار غير أن معظم القبيلة — وهى على كل حال قليلة العدد — رعاة إبل فى أواسط كردوفان ، يصاحبون الكواهلة وينتقلون معهم .

المسلَّمية

كثير من المسلمية يسمون أنفسهم البكرية ، مبتعدين بنسبهم عن كل من الجعليين والجهنيين ، وإذا صح هذا الزعم يكونون وحدهم فيما نعلم المنفردين بهذه النسبة فى السودان ، وليس من السهل أن نتبين كيف وصلوا إلى أوطانهم الحالية كما أن من الصعب أن نجد مجموعة بكرية (أى نسل أبى بكر الصديق) تعيش فى صورة قبيلة فى أى قطر من الأقطار العربية . لأن معظم البكريين يعيشون فى صورة أسر منتشرة فى مختلف الجهات والأقطار .

والنسابون فى السودان يصلونهم بالمجموعة الجهنية . وهذا بالطبع لا يمنع أن يكونوا قد أصهروا إلى أسرة بكرية . وفى هذا ما يفسر دعواهم من جهة ورأى النسابين من جهة أخرى .

واحد ، ولم تكن دائماً متماسكة كما نعرفها اليوم ، ولكن نظراً لأنها متشابهة بوجه عام فى تاريخها وصفاتها ، فإن هذا الاختلاط لا يغير من صفاتها ومميزاتها .

وقد تغيرت الحال بالنسبة إلى كردوفان فى عهد محمد على وإسماعيل ، حيث تكونت القبائل بصفة مستقرة اللهم إلا ما عراها من الاضطراب فى عهد المهدية ثم عادت أمورها إلى الاستقرار بعد ذلك . أما الأحوال فى دارفور فظلت كما كانت عليه إلى سقوط سلطنة على دينار فى سنة ١٩١٦ .

ويقول ماكمايكل إن استبداد سلطان دارفور دفع كثيراً من قبائل القارة إلى الاحتماء بقبيلة قوية مثل الرزيقات ، ودفع غيرهم مثل بنى هلبة إلى المهاجرة إلى واداى ، ثم عادوا إلى السودان بعد زوال السلطنة المذكورة .

لهذه الأسباب يرى ماكمايكل أن البقارة على أحسن ما يكونون فى كردوفان . أما فى دارفور إذا استثنينا الرزيقات فقد ساءت حالهم وأصبحوا يميلون إلى حياة تمتاز بالاستقرار والركود[1] ، والتوزيع الحالى للبقارة هو كما يلى :

(ا) فى كردوفان . بنو سليم على النيل الأبيض ؛ حيث يجاورون الجمع فى الشمال والشلك فى الجنوب . ثم إلى غربهم أولاد حميد ، وفرع من الهبانية (ومعظمهم فى دارفور) ، وكلاهما يعيش إلى الجنوب من أم روابة وحول تقلى ، ثم الحوازمة بين الأبيض والدلنج وتالودى ، ثم المسيرية جنوب أبو زيد (غربى دلنج) وأخيراً الحمر فى الركن الجنوبى الغربى من كردوفان شمال بحر العرب ، وإلى الجنوب الغربى من المسيرية ،

(ب) فى دارفور .

١ — الرزيقات .

٢ — الهبانية[2] .

٣ — التعايشة

٤ — بنى هلبة وبنى خزام[2] .

وهم على هذا الترتيب تقريباً من الشرق إلى الغرب . وهنالك بعض المسيرية

(١) راجع كتابة العرب فى السودان الجزء الأول ص ٢٧٣ .

(٢) يكتب التونسى الحبانية وبنى حلبة بالحاء ، غير أن الاسم الشائع فى السودان هو بالهاء

واحد ، ولم تكن دائماً متماسكة كما نعرفها اليوم ، ولكن نظراً لأنها متشابهة بوجه عام فى تاريخها وصفاتها ، فإن هذا الاختلاط لا يغير من صفاتها ومميزاتها .

وقد تغيرت الحال بالنسبة إلى كردوفان فى عهد محمد على وإسماعيل ، حيث تكونت القبائل بصفة مستقرة الهم إلا ما عراها من الاضطراب فى عهد المهدية ثم عادت أمورها إلى الاستقرار بعد ذلك . أما الأحوال فى دارفور فظلت كما كانت عليه إلى سقوط سلطنة على دينار فى سنة ١٩١٦ .

ويقول ماكمايكل إن استبداد سلطان دارفور دفع كثيراً من قبائل القارة إلى الاحتماء بقبيلة قوية مثل الرزيقات ، ودفع غيرهم مثل بنى هلبة إلى المهاجرة إلى واداى ، ثم عادوا إلى السودان بعد زوال السلطنة المذكورة .

لهذه الأسباب يرى ماكمايكل أن البقارة على أحسن ما يكونون فى كردوفان . أما فى دارفور إذا استثنينا الرزيقات فقد ساءت حالهم وأصبحوا يميلون إلى حياة تمتاز بالاستقرار والركود[1] ، والتوزيع الحالى للبقارة هو كما يلى :

(ا) فى كردوفان . بنو سليم على النيل الأبيض ؛ حيث يجاورون الجمع فى الشمال والشلك فى الجنوب . ثم إلى غربهم أولاد حميد ، وفرع من الهبانية (ومعظمهم فى دارفور) ، وكلاهما يعيش إلى الجنوب من أم روابة وحول تقلى ، ثم الحوازمة بين الأبيض والدلنج وتالودى ، ثم المسيرية جنوب أبو زيد (غربى دلنج) وأخيراً الحمر فى الركن الجنوبى الغربى من كردوفان شمال بحر العرب ، وإلى الجنوب الغربى من المسيرية ،

(ب) فى دارفور .

١ — الرزيقات .

٢ — الهبانية[2] .

٣ — التعايشة

٤ — بنى هلبة وبنى خزام[2] .

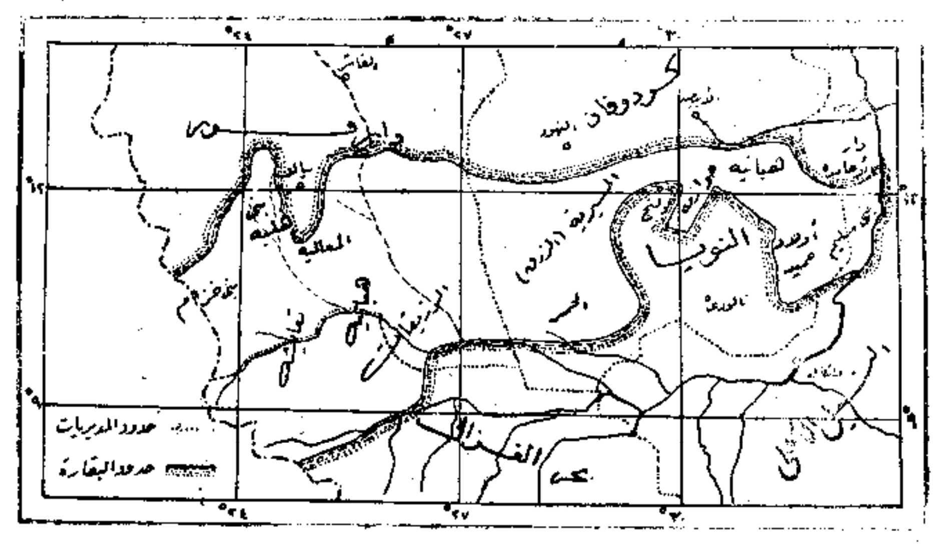
وهم على هذا الترتيب تقريباً من الشرق إلى الغرب . وهنالك بعض المسيرية

---

(١) راجع كتابة العرب فى السودان الجزء الأول ص ٢٧٣ .

(٢) يكتب التونسى الحبانية وبنى حلبة بالحاء ، غير أن الاسم الشائع فى السودان هو بالهاء

إلى الشمال قليلا من الزريقات ، وبعض الثعالبة ، وغيرهم على حدود دارفور ووادای هذا بقطع النظر عن الموجودين فى واداى (بعض بنى هلبة ومعظم بنى خزام) وغيرهم فى برنو وباقرمى . هذه المجموعات فى كردوفان ودارفور هى التى يطلق عليها اسم «البقارة» حسب الاصطلاح المقرر . ومما يدل على أنهم لا يختلفون فى الأصل عن أقاربهم فى الشمال أن بعض القبائل إلى اليوم يعيش جزء منها فى شمال دارفور



(شكل ١٥)

حيث يرعى الإبل والجزء الآخر فى الجنوب حيث يرعى البقر ، فبعض البطون من الزريقات لا يزال فى شمال دارفور يرعى الإبل منقطعا تماما عن الزريقات فى الجنوب .

وبديهى فى مثل هذه الحالة أن القبائل التى ظلت فى الشمال احتفظت بأصولها ودمائها العربية ؛ ولذلك كان لونها أقل سمرة من الشعب الجنوبية التى اتخذت من الفلاتا أو من الزنج زوجات وإماء واكتسبت بعض الصفات الزنجية .

* * *

وهنا يبدو لنا أن نتساءل كيف وصلت هذه القبائل العربية القحطانية إلى أوطانها الحالية ؛ إن ماكما يكل بحث هذا الموضوع وعرض لوجهات النظر المختلفة وسنعرض هنا خلاصة لبحثه هذا وإن خالفناه فى بعض التفاصيل لأسباب أغفلها

ولم يذكرها[1] ، وقد سبقت لنا معالجة هذا الموضوع من ناحية قبائل جهينة عامة ، وننظر إليه الآن من ناحية البقارة بوجه خاص .

يتساءل الكاتب هل جاء البقارة بطريق النيل إلى أوطانهم الحالية ، أى أنهم جاءوا من الشرق والشمال الشرقى ، أم جاءوا من الشمال والشمال الغربى ، أى من بلاد المغرب ، ثم نزلوا برنو واداى ؛ ثم تحركوا شرقاً إلى أوطانهم .

يقول ماكايكل : إن انتساب البقارة إلى عبد الله الجهنى ، وقولهم أنهم وقبائل فزارة أبناء عم ، كل هذا مما يدعو إلى الظن بأنهم جاءوا من الإقليم النهرى ، أى من طريق نهر النيل ولكن من ناحية أخرى يجوز أن النسبة إلى عبد الله الجهنى جاءت مع بعض المهاجرين من الإقليم النهرى . وهنالك بعض البقارة يؤكدون أن أجدادهم جاءوا من تونس مباشرة (مثل الحمر والحوازمة)[2] أوفزان إلى الأقطار الواقعة إلى الغرب من دارفور ، وبعد أن أقاموا هناك بضعة أجيال ، أخذوا يهاجرون إلى دارفور وكردوفان .

وبعد أن يذكر ماكايكل هذين الرأيين يرجح جانب الرأى الأول (طريق النيل) فيقول إنه وإن كان مما لا شك فيه أن عدداً كبيراً من العرب قد هاجروا جنوباً من تونس والجزائر ومراكش إلى أواسط إفريقية ، فى القرون التى أعقبت الغزوات الهلالية لشمال إفريقية . ومع أن المرء لا بد له أن يسلم بأن انتشار قصة الاتصال بأبى زيد الهلالى عند البقارة ، لا تخلو من مغزى . فإننا من جهة أخرى لدينا شهادة ابن خلدون التى لا شك فيها ، بأنه فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، احتشدت بطون من جهينة فى بلاد النوبة ، ثم اندفعت إلى الأقطار التى تليها نحو الجنوب متتبعين الأمطار .

وآراء الخبراء المحدثين تميل بقوة إلى أن البقارة جاءوا من الشرق ؛ ثم يستشهد بأقوال بارت الرحالة الفرنسى عن قبائل الشاوية ، أى البقارة الذين يعيشون فى برنو وباقرى وحول بحيرة تشاد . ويرى أنه ليس هنالك أدنى شك فى أن هذه

---

(١) نفس المرجع ٢٧٥

(٢) راجع ماكايكل قبائل كردوفان الشمالية والوسطى ص ١٤٦ ، ١٥١

القبائل هاجرت من الشرق ؛ وأنهم انتقلوا بالتدريج عبر البلاد الزنجية . ولهجتهم بعيدة كل البعد عن لهجة المغاربة ؛ وتحتفظ من وجوه عديدة بفصاحة وسلامة لغة الحجاز . وهؤلاء الشاوية ينتمون إلى عدة عشائر وبطون ، ويبلغ عددهم فى إقليم تشاد ٢٠٠ — ٢٥٠ ألفاً . ويشهد بارت على أن عرب برنو أتوا من السودان ببعض العادات الشائعة عندهم فى السودان ، مثل الدية والختان الفرعونى .

ثم يتمثل ما كايكل بقول سائح فرنسى آخر (كاربو Carbou) : وهذا المؤلف يقسم العرب فى إقليم برنو إلى قسمين ، أولهما الذين جاءوا من الشمال ، والثانى العرب الذين جاءوا من الشرق (ويسميهم جهنية) ، ويقول إن العرب يطلقون على السكان الأصليين اسم نوبا مما يدل على أنهم أقاموا فترة من الزمن فى السودان . كذلك لاحظ هو أن بعض العرب يطلقون على قبائل كانم اسم « همج » وهى أيضاً تسمية تعودها فى الشرق .

يرى ما كايكل أن هذه الأقوال وأمثالها دليل قاطع على أن الكثرة العظمى من بنى جهينة قد جاءوا من « الشرق » متتبعين النهر ، دون أن يذكر لنا على وجه التحديد ما هذا الطريق الشرقى ، وهل ابتدأ متتبعاً نهر النيل من الشمال ثم انفصل عنه متجهاً إلى الغرب ، وفى أى مكان أو إقليم بالتقريب حدث هـذا الانفصال ؟ ولكن الظاهر أنه يرى أنهم هاجروا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وأنهم اجتازوا بلاد النوبة ثم اندفعوا جنوباً من بلاد النوبة إلى شمال كردوفان . ثم اندفعوا من هناك مباشرة إلى بَرْنو . كل هذا وهم لا يزالون رعاة إبل ، ولا يعرف تماماً متى نزحت طائفة منهم نحو الجنوب وأصبحوا بقارة .

ويرى ما كايكل فوق ذلك أن الجمليين (مثل الجوامعة) قد سبقوا البقارة إلى كردوفان الشرقية فى إقليم الرهد وبروكى ، وأن البقارة إنما بدأوا حياتهم كرعاة بقر فى غرب كردوفان ، وبعد ذلك انتشروا نحو الشرق من جهة ، ونحو دارفور من جهة أخرى .

وخلاصة الرأى الذى ذهب إليه ما كايكل هو :

أولا : أن الكثرة العظمى من البقارة قد وصلوا إلى أوطانهم الحالية فى

السودان ووادای وبرنو ، من إقليم نهر النيل (وهو يقصد النيل النوبى بدليل اعتماده على رواية ابن خلدون) .

ثانياً : أن قليلا من العرب المغاربة أو البربر المستعربين هاجروا فعلا من فزان وتونس واختلطوا بالقبائل الجهنية .

ثالثاً : أن الروايات التى تصلهم بالهلالية لا تدل إلا على أن فريقاً منهم جاء فعلا من تونس على أثر الغزو الهلالى .

رابعاً : أن شهادة السائحين الفرنسيين بسلامة لغة البقارة فى برنو مما يدل على أنهم جاءوا من الشرق .

وقد سبق لنا أن لاحظنا أن هذا المؤلف ، عند كلامه عن قبائل جهينة عامة ، يذهب إلى أنهم جميعاً جاءوا عن طريق السودان الشرقى ، ولكنه عند ما أخذ يعالج موضوع البقارة ، اتجه وجهة أخرى تثبت أن لهم هجراتهم المستقلة عن هجرات أبناء عمهم فى شرق السودان .

ولا شك أن هذه الوجهة هى الصحيحة ، فى جملتها ، ولكن يبدو لنا أنها تفتقر إلى بعض التعديل فى التفاصيل ، وذلك أن ما كمايكل — اعتماداً على ما كتبه ابن خلدون — يرجع جميع الهجرات الجهنية إلى القبائل التى نزلت ببلاد النوبة وأقامت بها فترة من الزمن ثم ارتحلت عنها سعياً وراء العشب والمطر . وهذا الرأى مع التسليم بصحته يشمل فى الغالب جماعات محدودة من جهينة أخصها الكبابيش ، أما سائر القبائل ، فإنها لم تقم على شواطئ النيل النوبى ، بل هاجرت على طول الصحراء الليبية إلى دارفور وكردوفان مباشرة .

والسبب الذى يدعونا إلى ترجيح هذا الرأى مسألة لم يشر إليها المؤلف المذكور ، وقد تكون لها دلالتها ، وهى لأن قبائل البقارة وبطونها المختلفة تمتاز عن معظم قبائل السودان ، بأن أسماء القبائل والبطون لا تنتهى بالمقطع المعروف آب إلا نادراً ومثل هذا الأمر ينطبق أيضاً بوجه عام على قبائل بنى فزارة ، بينما هو لا ينطبق على الكبابيش إلا بمقدار ، ولا ينطبق على الرفاعة أو الشكرية أو غيرهم من القبائل الجهنية الشرقية .

فن المألوف الشائع أن جميع القبائل النيلية والشرقية لها بطون كثيرة تنتهي أسماؤها بالمقطع آب ؛ أما البقارة وبنو فزارة ، بل وجميع الجهنيين الغربيين يسمون بطونهم أولاد كذا ؛ مثل أولاد حمد بدلا من حمداب وأولاد مليك بدلا من مليكاب وأولاد نايل بدلا من نايلاب ، وقبيلة الحمَر (رعاة الإبل) وهم أيضاً من جهينة يسمون بطونهم أحياناً ناس كذا وأحياناً أولاد كذا . .

ويبدو لنا أن اختلافاً كهذا لا يجيء عن محض الصدفة ، خصوصاً أن هذه الظاهرة لا تنطبق على الكواهلة في كردوفان الذين كانت لهم أوطان في شرق السودان ، بل تبدو فقط في القبائل الجهنية في كردوفان ودارفور .

والحاق مقطع آب في آخر الاسم يرجع إلى مؤثرات لنوبة (لعلها حامية) قديمة . وأثرها واضح في إقليم النيل الأبيض والأزرق والنيل الأعظم ، والجهات المجاورة للنهر ؛ ويمتد هذا التأثير شرقاً إلى البحر الأحمر ، ويبدو بوضوح في قبائل البجة . وهو مؤثر ثقافي . وليس مؤثراً جنسياً ، ويبدو أن الثقافة الحامية كانت أقوى ما تكون في الأقاليم النهرية وفي شرق السودان ، وتأخذ في الضعف كلما ابتعدنا عن النهر نحو الغرب .

فإذا شذت قبائل البقارة وأقاربهم من رعاة الإبل ، وقبائل فزارة ونصف الكبابيش عن الظاهرة السائدة في الجهات الأخرى من السودان ، فلا بد أن يكون سبب ذلك قلة تعرضهم للمؤثرات التي غلبت على تلك الأقطار ، ولم يقيموا في الجهات النيلية فترة من الزمن ، بل الأرجح أنهم سلكوا طرقاً للهجرة ابتعدت بهم عن الجهات النيلية . وهذه هي الطرق التي فضلنا أن نسميها الطرق الليبية ، والتي منها طريق الأربعين ، أو ما يشابهه من الطرق التي تفضي من مصر إلى دارفور وكردوفان مباشرة .

وقد لاحظنا أن الكبابيش هم القبيلة الجهنية الوحيدة التي نجد فيها تلك المؤثرات التي تبدو في أسماء بعض بطونها . وموقعها الجغرافي في شمال كردوفان وقربها من بلاد النوبة وصحراء بيوضة أي الجهات التي تأثرت بالثقافة الحامية ، يجعلها

بمثابة الشذوذ الذى يثبت القاعدة العامة . ولعلها تتألف من تلك البطون الجهنية ، التى أشار إليها ابن خلدون والتى عاشت فترة من الزمن فى بلاد النوبة .

وهكذا يبدو أن الاحتمالين الذين وازن بينهما ما كما يكل ؛ وهما الطريق النيلى النوبى وطريق فزان وتونس ليسا الاحتمالين الوحيدين ، بل هنالك طريق وسط بينهما ، وهو الطريق الشمالى الغربى للسودان . أى الجهات الشمالية لكردوفان ودارفور . وهو عدا ذلك الطريق الذى تذكره معظم القبائل فى رواياتها وأخبارها .

وهذا الطريق الليبى على الأرجح يمتد من غربى الدلتا فى مصر . منتشراً نحو الجنوب . ولذلك نرى الأستاذ سلجمان يجد صلة بين بعض القبائل فى غربى مصر وبين كثير من القبائل الجهنية فى السودان الغربى[1] .

وسنورد فيما يلى فصولا موجزة عن القبائل الجهنية الرئيسية فى كل من كردوفان ودارفور .

البقارة فى كردوفان

١ — بنى سليم : يعيشون على النيل جنوب الأحامد والجمع ، وقد سبقت الإشارة إليهم عند الكلام على الجمع وأنه كانت بينهم مصاهرات . وبنو سليم تمتد أوطانهم إلى كاكا أى إلى حدود الشلك ، ولا شك أنهم انتزعوا من هؤلاء جزءاً من أوطانهم الشمالية وأزاحوهم عنها . وهم يرعون البقر ، ولكنهم أكثروا فى الزمن الأخير من تربية الضأن لأنها أقل تعرضا للأمراض ، وهم البقارة الوحيدون على النيل الأبيض وهجرتهم إليه حديثة ، ولهم فضل نشر الثقافة العربية غرب النيل الأبيض إلى مدى أبعد مما بلغته شرقى ذلك النهر .

٢ — أولاد حميد : يعيشون شمال تقلى Taqali وجنوب أم روابة أى أول أقاليم كردوفان من الشرق .

وينتسبون مثل كثير من البقارة إلى جد يدعى جنيد : وأنسابهم تدل على أن بينهم وبين المبانية والتمايشة قرابة . وإن كانت مواطن التمايشة بعيدة نحو

(١) راجع كتابه Races of Africa لندن سنة ١٩٢٩ ص ٢٣٤ .

وكل من الشعبتين ينقسم إلى عدة أقسام ، وهذه الأقسام تتكرر بين الهبانية سواء أكانت أوطانهم كردوفان أو دارفور .

٤ — الحوازمة : كلهم فى كردوفان (والمفرد حزمى) : قبيلة كبيرة العدد يبلغ أفرادها زهاء العشرين ألفاً . أوطانهم تمتد إلى الشرق من دلنج فى اتجاه شمال شرقى إلى جنوبى غربى إلى القرب من كادجلى ، أى أنهم أيضاً يتوغلون فى بلاد النوبا . ولا شك أنهم امتصوا كثيرا من النوبا حتى أن شعبة منهم تسمى أولاد نوبا . ويرى ما كمايكل أن الحوازمة قد استقلوا كقبيلة منفصلة منذ نحو ٢٥٠ — ٣٠٠ سنة .

٥ — المسيرية والحمر : كانوا إلى وقت قريب نسبياً قبيلة واحدة ، وكان لهما قسمان المسيرية الزرق ، والمسيرية الحمر ، وهذه كانت حالهم إلى أوائل القرن التاسع عشر ، حتى كثر الحمر فانفصلوا وأصبحوا قبيلة واحدة ، ولا تزال أوطانهم متجاورة ، فالحمر فى الجنوب الغربى من كردوفان حيث يتصلون ببلاد الدنكا ، والمسيرية إلى الشمال الشرقى منهم . ومواطن الحمر ذات تربة صلصالية سوداء فى الجنوب ، وتربة خفيفة فى الأراضى المرتفعة إلى الشمال ، وانتقالهم فى الصيف إلى الشمال ، وإلى الجنوب فى الشتاء يساعدهم على الانتفاع بجميع المراعى ، وتجنب غوائل الذباب فى موسم المطر . ولا تكاد أوطانهم فى الشمال تتجاوز بلدة مجلد على العرض الحادى عشر .

أما المسيرية — (أو الزرق) فمواطنهم إلى الشمال الشرقى من أوطان الحمر ؛ وتمتد إلى العرض الثالث عشر . وهم قبيلة عظيمة معظمها فى كردوفان ، ولكن نسبة صغيرة منهم تعيش فى دارفور . ويختط بلادهم خور عظيم يدعى وادى الغلة ، مجراه من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، ولعله يصب فى بحر العرب أو أحد روافده ، وقد كان لهم فيما مضى شأن كبير فى دارفور ووادای . ولكن المنازعات التى ثارت بينهم وبين السلطان قد نقصت من شأنهم فى تلك الجهات ، ومع ذلك لا يزال عدد منهم لا بأس به فى واداى ، وهم رعاة إبل . أما فى دارفور فإن الباقين منهم هنالك يعيشون إلى الشرق من جبل مرة ، ويرعون البقر ، ولهم بعض الزراعة ، مما يجعلهم أقرب إلى الاستقرار .

ومن القبائل التى تعد فرعاً مستقلا ، ولكن شديد القرابة بالمسيرية قبيلة تدعى الثعالبة . ومعظمهم فى دارفور يعيشون إلى جوار المسيرية هناك .

البقارة فى دارفور

١ — الرزيقات :

إذا اخترقنا حدود كردوفان الجنوبية (دار الحُمْر) إلى دارفور ، دخلنا بلاد الرزيقات ، وكلهم فى دارفور وهم أكثر قبائل دارفور ثروة وأقواهم نفوذاً . وأوطانهم واقعة فى أقصى الجنوب الشرقى من دارفور ، مابين الحمر شرقاً ، والهبانية غرباً ، والدنكا جنوباً ... وإلى الشمال مساحة قليلة السكان ، تكثر فيها المستنقعات بعد الأمطار ، ويشتد جفافها فى وقت امتناع المطر . ولهذه الأسباب الطبيعية من جهة ، ولنزعتهم الحربية ، ووفرة خيلهم من جهة أخرى . أمكن للرزيقات أن يعيشوا بمأمن من استبداد سلاطنة دارفور . ولكنهم اضطروا تفادياً للاصطدام مع على دينار وأمثاله أن يلتزموا أوطانهم فى الجنوب فى القرن الماضى ، بدلا من التوغل فى أواسط دارفور كما كانوا يفعلون فى أوائل القرن التاسع عشر .

وعلاوة على تربية الماشية ، وهى كثيرة ، لهم زراعة منتظمة بفضل الظروف المناخية الملائمة . وفى الجفاف ينزحون إلى شواطىء بحر العرب ، وهم أكثر قبائل البقارة اتصالا بالدنكا والإغارة عليهم فيما مضى ، مما أدى إلى اختطاف كثير من الإماء ، واتخاذ زوجات منهم ، وذلك أثر فى سحنهم وألوانهم بعض التأثير .

ولشدة بأسهم وسعة احتيالهم ونجاحهم فى تحدى سلطان دارفور ، كان كثير من القبائل يحتمون بهم ، مثل الهبانية ، وبنى هلبة وخزام .

وينقسم الرزيقات إلى ثلاثة أقسام : وهم الماهرية ، والمحامد ، والنوايبة . وهنالك ثلاثة قبائل بهذه الأسماء فى شمال دارفور ، وكلها رعاة إبل ، وبعضها يعيش على حدود واداى ، وهذا مما يحمل على الظن بأن شعبة من كل من هذه القبائل الثلاثة قد هاجرت إلى الجنوب وعاشت فى أوطان متجاورة ، ثم اتحدت فكونت قبيلة الرزيقات ؛ التى أصبحت أعظم وأشهر قبائل البقارة .

٢ — الهبانية :

معظمهم كما ذكرنا فى دارفور ، ولكن سبق الكلام عليهم جميعاً عند الكلام على شعبة كردوفان .

٣ — التعايشة :

إلى الغرب من الهبانية ، نجد التعايشة ، وهم أقرب البقاره نسباً إلى الهبانية . كما تتجاور منازلهم . وأوطانهم فى الركن الجنوبى الغربى من دارفور ، تجعلهم من أبعد القبائل العربية نحو الغرب ، وليس بينهم وبين الحدود الغربية للسودان سكان أو جماعة عربية أخرى بصفة دائمة ، فأوطانهم واقعة بين ديار الهبانية شرقاً ، وحدود السودان الفرنسي غرباً ، ودار فرتيت جنوباً ، وبنى هلبة شمالا ، ولا شك أنهم فيما مضى قد توغلوا من قبل فى بحر الغزال ، ونشروا الثقافة العربية فيه .

والإقليم الذى يعيشون فيه اليوم قليل السكان ؛ ومكانهم النائى جدير أن يبعدهم عن الأحداث الهامة فى السودان ، لولا أن الخليفة عبد الله التعايشى كان منهم ؛ فارتفع شأنهم بتوليه منصب الزعامة . وقد جلب منهم آلافا (يقدرهم سلاطين بنحو ٢٤,٠٠٠ محارب بنسائهم وأطفالهم ، ولعله يقصد أن هذا عددهم جميعا ، وليس عدد المحاربين وحدهم) إلى أم درمان ليكونوا له سنداً وعضداً ، وقد كانت لهم السيطرة على بعض الجهات الهامة ، مثل دنقلة ، فى عهد الخليفة عبد الله . وبعد انتهاء عهده ، عاد كثير منهم إلى ديارهم ؛ ولكن بقيت أعداد صغيرة منهم فى مديرية كسلا وسنار وعلى النيل الأبيض . وفى كثير من المدن الرئيسية .

والظاهر أن اسم التعايشة (المفرد تعايشى) نسبة إلى جد يدعى أحمد تعايش ، أحد أحفاد حميد ، الذى ينتسب إليه فى النهاية كل من أولاد حميد والهبانية والتعايشة . والظاهر أن حميداً هذا كان يعيش فى أوائل القرن الثامن عشر .

والتعايشة ، مثل الهبانية ، ينقسمون إلى قسمين : وهما القلادة ، والعِرق ، وكلاهما اسم لوَسْم تُوسم به الإبل ، كما أن الهبانية ينقسمون إلى السوط والطارة . وبديهى فى كلا الحالين أن هذه التسمية تثبت أن القبيلة فى مواطنها فى الشمال كانت ترعى الإبل ، واحتفظت بمميزاتها حتى بعد أن تخلت عن حرفتها القديمة .

٤ — بني هلبة :

ويجاورن التعايشة من جهة الشمال ، وكانت أوطانهم فيما مضى متاخمة لجبال مَرّة ، ولبلاد الفور ، وذلك عرضهم لكثير من المشقات ، إذ كان يطالب منهم دفع إتاوات ضخمة لسلاطين الفور . . . وكذلك لم تتحسن حالهم كثيراً في عهد المهدية . وهم الآن قبيلة ضعيفة ، ولها فروع فيما وراء الحدود الفرنسية السودانية .

وهنالك قبائل صغيرة ، من البقارة ، أو أجزاء من قبائل ، معظمها في وادای وراء حدود السودان ، وقد ضربنا صفحاً عن ذكرها لقلة خطرها من جهة ، ولأن معظمها يعيش خارج حدود السودان ، وإن كانت بينهم وبين البقارة صلات نسب .

وصفوة القول أن القبائل التي أطلق عليها اسم البقارة تعيش فيما بين خطى عرض ١١ و١٣ ، وبعضها قد يمتد جنوب هذا الخط كثيراً ، مثل الحمر والرزيقات ، وقد رأينا أن اسم بقارة له معناه الجنسي الاثنوجرافي ، لأن هذه القبائل عربية جهنية ، انفصلت عن أخواتها من رعاة الإبل في الشمال ، وأخذت تحترف رعي الماشية الثقيلة في الجنوب . وقد شاهدنا أثناء عرضنا السريع أن هنالك أكثر من دليل يدل ، بما لا يدع مجالا للشك ، على أن هذه القبائل كانت في مواطنها السابقة . وقبل نزوحها إلى الجنوب ترعى الإبل .

وننتقل الآن إلى الحديث عن القبائل الجهنية الشهيرة التي تحترف رعي الإبل .

الكبابيش

قبيلة من أعظم قبائل السودان وأشهرها ، وقد كان لها في السودان الحديث شأن كبير . ولا شك أن الكبابيش أعظم القبائل الأبالة ، وأكثرها عدداً . وإبلها أكثر عدداً من الإبل لدى أية قبيلة أخرى . ولكن ليس معنى هذا أنها أكثر ثروة بالنسبة إلى كل فرد من أفرادها ، بل معناه فقط أنها أكثر القبائل إبلا ، وهذا العدد الكبير من الإبل يقابله أيضاً عدد كبير من الناس ، فالكواهلة مثلا في المتوسط أغنى من الكبابيش بكثير ، وعلى الأخص

فى الإبل . وقد غلا سلجمان فى تقدير ثروة الكبابيش . فزعم أن الرجل الغنى منهم قد يدفع عن ابنه مهراً للزوجة قدره مائة ناقة ، وأن أفقر الناس لن يعطى أقل من خمس أو ست . ويقول ديفز الذى عاش أعواماً مع الكبابيش ، إن قليلا جداً منهم من يملك مائة ناقة (وقد لايزيدون على عشرة أفراد) وإن كثيراً من بطون القبيلة ليس لها إبل مطلقا . والرجل الذى يدفع مهراً لزوجة ابنه خمسا أو ستا من النوق لايعد فقيراً[1] .

وليست الإبل هى الثروة الوحيدة للكبابيش ، فإنهم يملكون من الضأن ستة أمثال عدد الإبل . ولعل الضأن أصل ثروتهم ، أو عمادها الأول فى وقت من الأوقات ، لذلك سموا الكبابيش ؛ ونظراً لأن مواطنهم تمتد جنوبا إلى تخوم البقارة فإن العشائر التى فى الجنوب لها بعض البقر أيضا .

ومواطن الكبابيش محورها وادى الملك ، وكلها واقعة شمال خط عرض ١٤° . والحدود الجنوبية لبلادهم مقاربة لهذا الخط ، وليس لها فى الشمال حدود واضحة ، سوى الصحراء الليبية . ومن الناحية الغربية يقترب الكبابيش فى تجوالهم من حدود دارفور ، وفى الشرق قد يسقون إبلهم من وادى المقدم فى وقت الجفاف (الشتاء) . وقد يصل عدد منهم إلى النيل فى إقليم دنقلة ، وبعض هؤلاء قد يستقرون ويحترفون الزراعة . وأوطانهم فى الجنوب تمثل نجاداً متوسطة الارتفاع تتخللها تلال صخرية بارزة مثل جبل أم بدر وجبل كاتول . وهذه الجهات الجنوبية أكثر مطراً ، ويتخللها بعض الخيران ؛ وهنا أيضا يمارس البعض الزراعة ، ولكن القائمين بها هم بعض الأتباع والخدم . أو الأشخاص الذين لايملكون إلا القليل من الضأن والماعز ، لأن الكباشى حرفته الرعى قبل كل شىء .

وبلاد الكبابيش ملائمة كل الملاءمة لرعى الإبل والضأن . ويرى ماكمايكل أنها تشبه من وجوه عديدة بلاد نجد فى جزيرة العرب . بحسب مايطالع الإنسان

---

(١) فقد الكبابيش كثيراً من ثروتهم فى عهد المهدية . وبعد هزيمة على دينار فى سنة ١٩١٦ ساعدتهم إدارة السودان بأن باعتهم مقداراً ضخما من ابل ذلك السلطان بثمن اسمى ، نظير خدماتهم وإخلاصهم .

فى وصفها . واتساع رقعتها ، وتعدد آبارها وأوديتها جعل من الممكن للقبيلة أن تنمو ويزداد عددها ، وأن تمتص عناصر عديدة اندمجت فيها على مضى الزمن . وفى الوقت الحاضر يمتاز الكبابيش بالوحدة الاجتماعية ، أى أنهم يؤلفون مجموعة واحدة منظمة تنظيما اجتماعيا . ولهم رئيس أعلى (يسمى الآن ناظراً) . ويخضع له الأفراد ورؤساء الأقسام والبطون والمشائر . ووحدتها الاجتماعية (أو السياسية) هى التى تبرر أن نطلق عليها اسم قبيلة ، ولكن جميع الشواهد تدل على أن هذه القبيلة العظيمة تتألف فى الواقع من عدة قبائل اندمجت على مضى القرون واتحدت . ومن الجائز أن هذا الاندماج قد حدث نتيجة لتفوق بعض القبائل فى الثروة والعدد ، فاستطاعت بواسطة الغزو أو المصاهرة أن توحد الأجزاء وتجعلها كُلاً متحداً مندمجاً . ولكن لابد من التسليم أيضاً بأن طبيعة الإقليم والحياة الاجتماعية والاقتصادية ، تدعو إلى مثل هذا الاندماج . وتدعو إلى تكوين وحدة قبلية كبيرة بدلا من عدة وحدات صغيرة ، يجد كل منها مشقة فى تدبير المراعى والسقاية لقطعانه . ناهيك أن تنازع البقاء فى مثل هذه الأراضى سيؤدى حتما إلى اندماج الوحدات الصغيرة فى الكبيرة .

ومن أكبر الأدلة على أن الكبابيش يتألفون من عدة قبائل اندمج بعضها فى بعض أنه ليس لها وسم واحد لإبلها . بل لكل من أقسامها الستة والعشرين وسم خاص به . ونحن نعلم أن البدو لهم تقاليد يحافظون عليها أشد المحافظة فى وسم إبلهم . ولذلك كان اختلاف الوسوم دليلا على اختلاف نشأة كل قبيلة . وعلى أن الأقسام المختلفة تمثل قبائل أو وحدات مستقلة اتصلت واندمجت .

ولا شك أن هذه الأقسام لاتمثل كلها هجرات عربية خالصة ، بل تشتمل على وحدات قديمة ، قد يكون منها البجة أو النوبة . ولكن الكثرة العظمى من الكبابيش ينتمون إلى بطون عربية من جهينة . واسم الكبابيش (مفردها كباشى) يزعمون أنه يرجع إلى جد — هو فى الغالب خرافى — يدعى كباش ، وإذا لم يكن هذا الجد خرافيا فلعل كباشا كان لقبه الذى لقب به لعنايته برعى الضأن أو لاشتهاره بامتلاك عدد كبير منها ، وفى كلا الحالين لابد أن يكون الاسم مشتقا من رعى

الكباش أو الضأن ، كما تسمى بعض القبائل العربية بالمعازة أو المعازة ، أو الشويهات (نسبة إلى شاه) .

وقد تدفقت القبائل العربية الجهنية إلى هذا الإقليم فى أزمان يصعب تحديدها ، ولكن كثيراً منها تدفق فى القرن الرابع عشر بعد أن خضعت بلاد النوبة للإسلام والنفوذ الإسلامى .

ولا شك أن البلاد لم تكن خالية من السكان بل كان فيها عناصر قديمة هى التى يطلق عليها الأهالى هنا كما فى جهات أخرى من السودان اسم المنّج (العنق) .

والعنج من الأسماء القليلة فى تاريخ السودان التى لا نكاد نعرف لها مسمى . وإنما وصل إلينا هذا الاسم نتيجة لسؤال السكان — وهم عادة من العرب — عمن كان قبلهم فى البلاد . وممن ورثوا الحكم فيها ، فيكون ردهم بأنهم قد استولوا على البلاد من العنج ، وليس هذا الأمر مقصوراً على ديار الكبابيش ، بل يتجاوزها إلى الأقطار النيلية بل وفى أرض الجزيرة وسهل البطانة أحياناً .

والظاهر أن لفظ العنج ليس كلمة معناها « السكان الأصليون » ، بل كلمة تدل فعلا على جماعة أو شعب من الشعوب . وقد ورد ذكرها فى أواخر القرن الثالث عشر للدلالة على إقليم أو جماعة تسكن الإقليم ، وذلك بالنسبة لوفود زارت مصر فى ذلك الحين ، وشكت إلى حكامها ما يعانونه من ملك دنقلة .

كذلك يشير السكان إلى كثير من الآثار على أنها من مخلفات العنج . . وهذا التواتر من جهات متعددة يحمل على الظن ، بل على اليقين أن أمر العنج ليس حديث خرافة أو أسطورة ، وحتى ليس لفظاً مقتبساً من لغة من اللغات بمعنى السكان الأصليين . بل لا بد أنه كان يطلق على شعب قديم ، خضع بالتدريج للنفوذ المفروض بواسطة المهاجرين المتأخرين نسبياً ، واندمج العنج على مضى الزمن تماماً فى العرب .

ولا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فندعي أن العنج كانوا عنصراً من النوبا ، سكان الجبال فى جنوب كردوفان كما يزعم البعض ، أو أنهم أشبه بالتبو سكان تبستى . أو حتى أنهم من النوبة يشبهون النوبيين المصريين ، على الرغم من أن النوبيين

كانت لهم هجرات إلى كردوفان ، بل أقرب إلى العقل أنهم جماعات قديمة ، وعلى الأرجح قوقازية .

وحسبنا هنا أن نشير إلى أن الكبابيش قد امتصوا عناصر من هؤلاء العنج ، ولعل هذا لم يكن العنصر الوحيد الذى امتصوه . والأرجح أنه قد دخل فى تكوينهم أيضاً عناصر من البجة ومن النوبة . ولكن هذا لا ينفى أن الكثرة العظمى من الكبابيش من عناصر عربية جهنية فى جملتها . ولعل نسبة الجماعات غير العربية لا تتجاوز ٣٠ ٪ ، وفى أسماء القبائل والبطون نحو الثلث ذات صبغة حامية ، مما يدل على اندماج عناصر لا تتجاوز الثلث فى العناصر العربية ، ولذلك يصدق ما قاله ماكايكل بأن ما فى الكبابيش من الدماء العربية الخالصة لا يقل عما لسائر القبائل السودانية .

وهكذا نرى أن الكبابيش ، وإن حسبوا اليوم قبيلة واحدة ، فإنهم قبيلة تكونت من اندماج عدد كبير من القبائل قد يتجاوز العشرين عدداً . ومن الجائز أن البطون العربية نفسها لم تكن فى الأصل تنتمى إلى قبيلة واحدة .

* * *

والكبابيش كما ذكرنا من قبل رعاة إبل — فوق كل شىء — وعلى الرغم من اسمهم ومن وفرة الضأن عندهم ، فإن الإبل لها المقام الأسمى ، وهى المعيار الذى تقاس به الثروة والغنى والجاه ، والظاهر أيضاً أن الكبابيش عريقون فى حرفة رعى الإبل ، لأن لهم تقاليد تتصل مباشرة بما يجرى فى الجزيرة العربية ، وأشهر هذه التقاليد استخدامهم للعطفة والتنجة ، أو الهودج ، وهو عبارة عن أعواد من الخشب مثبتة على ظهر البعير ، ومغطاة بالأقمشة ، والجلود ، بحيث تستر الجزء الأكبر من الجمل ، وتصل الجلود المرخاة إلى قرب الأرض ، والكل محلى بالودع وبشرائط من الجلد وغير ذلك ، طبقاً لتقاليد مقررة متداولة . وفى هذا الهودج المفرد تجلس المرأة ، وفى الهودج المزدوج ، المؤلف من طبقتين ، تجلس الفتاة فى المقعد الأعلى وتابعتها فى المقعد الأسفل .

والظاهر أن الكبابيش هم القبيلة العربية الوحيدة فى السودان ، التى تقتنى

هذه المطفة ، والإبل لدى الكبابيش مشهورة بقوتها وشدة احتمالها ، ولكنها لا تمتاز بالسرعة كما هي الحال في إبل البجة .

وفي النهاية لا بد لنا أن نتساءل كيف وصل الكبابيش إلى أوطانهم الحالية ، وهنا يجدر بنا أن نذكر ما رواه بعض الرحالة المتقدمين من أن الكبابيش منتشرون شمالا إلى حدود مصر ، وكذلك نذكر أنهم عريقون في البداوة ورعي الإبل ، وفي كلا الأمرين ما يدل على أنهم أو معظمهم لم يعرفوا الاستقرار طويلا ، وأن أكثرهم نزل أوطانه الحالية من طريق يحاذي وادي النيل من جهة الغرب ؛ ثم اتجهوا جنوباً حتى احتلوا أوطانهم الحالية . ولا يزال الكبابيش إلى اليوم يسلكون هذا الطريق ، حين يقصدون إلى مصر لبيع إبلهم في أسواقها .

وقد قدر سلجمان عدد الكبابيش في عام ١٩١٨ بعشرين ألفاً ولكنهم في الوقت الحاضر قد يزيدون على ضعف هذا العدد .

الحُمـــر

الحمر قبيلة حديثة التكوين ، لا يرجع تكوينها إلى أبعد من منتصف القرن الثامن عشر[١] . وليس من السهل تحقيق نسبها على وجه الصحة وإن كان من الواضح أنها تتألف من عناصر مختلفة أكثرها ينتمي إلى جهينة ، والقبيلة تتألف في الوقت الحاضر — كما كانت تتألف من قبل — من ثلاث شعب ، وهي بترتيب أهميتها : العساكرة (مفردها عسكري) والدقاقيم (مفردها دقومي) والغريسية (مفردها غريسي) . وكانت الشعب الثلاثة إلى وقت قريب ، مستقلة بعضها عن بعض استقلالا يكاد يكون تاماً ، ولكل منها ناظر على الرغم من أن جماعات منها قد تعيش في قرية واحدة ، وكثيراً ما تلتقي في موسم النشوق (أي الارتحال الصيفي في طلب المرعى) ولكنْ رغم الوطن المشترك والتجاور المستمر والمنافع المتبادلة لم تندمج الأجزاء الثلاثة بعضها في بعض اندماجاً تاماً . وقد أعيد تنظيم القبيلة حديثاً (سنة ١٩٢٨)

---

(١) راجع كتيباً للأستاذ هندرسن . A Note on the History of the Hamar Tribe (الخرطوم سنة ١٩٣٥) ص ٥ .

بحيث أصبح إلى جانب النظار الثلاثة للشعب الثلاثة ، سلطة قبلية عليا تتمثل ف الشيخ الأكبر للقبيلة الذى يطلق عليه إسم ناظر عموم الحمر ؛ وهو وإن كان من المساكرة غير أن له الرئاسة على النظار الثلاثة . وهذا الإجراء قد أدى إلى تحسن واضح ف تماسك القبيلة وازدياد التعاون بين شعبها وبطونها .

واسم الحمر يرجعه أبناء القبيلة إلى جد اسمه أو لقبه الأحمر غير أن معلوماتنا من هذا الجد لا تكاد تتجاوز اسمه .

وتنفرد الغريسية برواية يروونها يزعمون فيها أن أصلهم حميريون من اليمن هاجروا ف زمن الحجاج بن يوسف ، فعبروا البحر الأحمر ، وعاشوا فترة من الزمن حول تاكا (كسلا) . ثم هاجروا من هناك إلى دارفور ثم انتقلوا ف وقت متأخر إلى أوطانهم الحالية ف الإقليم الغربى من كردوفان ، ويرى ماكمايكل أن هذه الدعوى قد تقوم على أساس صحيح ، بسبب ما يقال من أن هنالك صلة قرابة بين الحمر وبين الحمران الذين يعيشون ف إقليم تاكا . ومن الجائز بالطبع أن هذا الرأى ينطبق على عدد محدود من الأفراد أو الأسر . وليس التشابه ف الاسم وحده دليلا يمكن التمسك به لأن الدقاقيم لهم أيضاً بطن يسمى الحمران ، مع أنهم لا يدعون أنهم جاءوا من الشرق .

فأكبر الظن أن العناصر الشرقية قليلة جداً لأن أسماء البطون والعشائر لا تدل على التأثر بالأسماء الشرقية كما سبق إيضاحه . بينما الحمران سكان تاكا تظهر فيهم هذه المؤثرات بوضوح .

ويعيش الحمر بأقسامهم الثلاثة ف الأطراف الغربية من كردوفان ، على حدود دارفور ، كما أن كثيراً منهم هاجر إلى الأوطان الحالية بعد إقامتهم فترة من الزمن

ف شرق دارفور . وتمتد أوطانهم الحالية ف الشمال إلى خط العرض الرابع عشر ،

٣٠,٠٠٠ كيلومتر مربع ، خالصة للحمر ، بل قد نزل بينهم كثير من أبناء القبائل الأخرى ، ويطلق عليهم اسم الأعراب . وكان بعض زعماء الحمر يشجعون الأعراب على النزول بينهم والاندماج فيهم .

وكان عماد الاقتصاد الرئيسي للحمر رعى الإبل أول الأمر ، ووصفهم بعض الكتاب بأنهم فى القرن الماضى كانوا أكثر إبلا من الكبابيش ؛ وكان بين القبيلتين تنافس وعداوة ، اشتدت وزادت وضوحاً ، عندما ظهرت المهدية فناصرها الحمر بخلاف الكبابيش ، فرأى الحمر فى ذلك فرصة للعدوان ، حتى سلبوا الكبابيش الشطر الأعظم من قطعانهم .

وفيما عدا ذلك لم يجن الحمر فائدة كبيرة من مناصرتهم للمهدية . وفى أوائل هذا القرن حدثت بينهم وبين الزيقات حروب لا مبرر لها ، انهزم فيها الحمر . ومن جهة الشمال لم يكن بد من أن يغير الكبابيش ، ويسلبوهم قطعانهم . بحيث لم يبق لهم من الماشية سوى مقدار ضئيل .

ومع أن بعضهم لا يزال رعاة إبل ، فإن معظم الحمر يعيشون اليوم من الزراعة ، ومن جمع الصمغ ، وليست أوطانهم كلها صالحة للزراعة ، بل لعل ربعها أو ثلثها فقط هو الصالح للزراعة ، وبعد الأمطار لا يبقى فى الأرض ماء كثير ، ولذلك نرى عادة تجويف شجر التبلدى وادخار الماء فى جذوعها ، أكثر انتشاراً لدى الحمر منها عند أية قبيلة أخرى . وكثيراً ما ينتفعون بالبطيخ الوحشى فى تغذية الإبل . وهو ينمو أحياناً فى أراض قلما تصلح للزراعة .

* * *

يتبين مما تقدم أن رعاة البقر فى الجنوب من كردوفان ، يقابلهم رعاة الإبل فى الشمال ، هذا بالطبع إلى جانب أعمال الزراعة واستخراج الصمغ من شجر الهشاب ، الذى امتاز به إقليم كردوفان . ومعظم رعاة البقر كما رأينا من جهينة ، كما أن أعظم رعاة الإبل الكبابيش والحمر منها أيضا ، ثم الكواهلة الذين لهم نسبهم الخاص .

كذلك رأينا أن جنوب دارفور يحتله البقارة أيضاً ، ولكننا لن نجد فى دارفور ذلك التقابل الدقيق بين رعاة البقر فى الجنوب ورعاة الإبل فى الشمال ، كما هى الحال

فى كردوفان ، بسبب الاختلاف فى طبيعة إقليم دارفور ، واعتراض كتلة جبال مرة فى وسطه ؛ ثم تكوين سلطنة دارفور وغير ذلك من الظروف التى سنذكرها فى الفصل التالى .

ومع ذلك فإن فى شمال دارفور مجالا لرعاة الإبل . شرق الجبال وغربها وشمالها . وهذا المجال يمتد إلى واداى وإلى السودان الفرنسى . وفى هذا الإقليم قبائل من جهينة أيضا ، أو بعبارة أصح أجزاء من قبائل ؛ منهم الماهرية والمحاميد والنوايبه ، وهم يؤلفون تلك الشعب الثلاثة من رعاة الإبل التى تضاهى أسماؤها أسماء الشعب لقبيلة الرزيقات ، رعاة البقر فى جنوب دارفور . وقرابة الرحم بين الفريقين أمر مسلم به . ويجاورهم فى أوطانهم الشمالية وحدات أخرى من جهينة مثل العريقات والعطيفات .

ومهما يكن من شىء ، فإن المجال لتكوين قبيلة ضخمة من رعاة الإبل فى دارفور لم يكن أمراً ميسوراً كما هى الحال فى كردوفان التى تمتد فيافيها دون عائق من جبال وعرة أو سلطة مركزة مستقرة .

الهواوير

لعل هذا هو أنسب مكان للتحدث عن الهواوير لأنهم وإن لم يكونوا صراحة من قبائل جهينة فإن لبعض النسابين رأيا خاصا قد يقربهم منها ؛ ومن جهة أخرى فإن مجاورتهم للكبابيش ، ومواطنهم فى شمال كردوفان مما يبرر ذكرهم فى هذا الفصل .

والهواوير قبيلة مستقلة متوسطة فى العدد وثروتها فى الإبل لا بأس بها ، ومواطنها الرئيسية تمتد من غربى وادى الملك إلى صحراء بيوضة . فهم جيران الكبابيش من ناحية الشمال الشرقى ، والعلاقات بين القبيلتين طيبة ، وكثيراً ما ينتقلون معا فى طلب المرعى ، وعلى الأخص زمن الأمطار .

وقد دخل الهواوير السودان مهاجرين من القطر المصرى ، ملتزمين الجانب الغربى من النيل على دفعات فى أزمنة مختلفة ، ولعل القبيلة لم تتكون فى مواطنها الحالية إلا فى زمن متأخر . وينتمى الهواوير من جهة النسب إلى تلك القبيلة العظيمة : الهَـوّارة .

ولا شك أن الهوارة قد نشأوا فى بلاد المغرب ثم هاجروا إلى مصر ، وقد ذكرهم القلقشندى فى صبح الأعشى ضمن القبائل غير المقطوع بعروبتها .[1] وقال « إن نسابتهم يقولون إنهم من عرب اليمن » وينتمون إلى إحدى بطون قضاعة ، وهذا النسب إن صح يقربهم كثيراً من الجهنيين .

ويقول المؤلف المذكور إن أوطانهم الأولى كانت تمتد فى مديرية البحيرة من الإسكندرية إلى مسافة بعيدة نحو الغرب والجنوب . وظلت هذه حالهم إلى آخر المائة الثامنة (القرن الرابع عشر) ثم اضطروا تحت ضغط قبائل زُنّارة وحلفائهم من بقية عرب البحيرة ، إلى الخروج عن أوطانهم هذه إلى صعيد مصر ، فنزلوا بالأعمال الإخميمية فى جرجا وما حولها ، ثم قوى أمرهم ، واشتد بأسهم ، وكثر جمعهم حتى انتشروا فى معظم الوجه القبلى فيما بين أعمال قوص ، وإلى غربى الأعمال البهنسائية ، وأقطعوا بها الإقطاعات ، وصارت الإمرة لهم فى تلك الجهات ، ودام الأمر على ذلك إلى عهد القلقشندى . وقد امتد نفوذهم بعد ذلك إلى مديرية قنا ، ولا تزال أهم مراكزهم فيها إلى اليوم غير أن تسلطهم على القسم الجنوبى من الصعيد لم يكن دائماً باعثا على رضى سكان تلك الجهات . فاضطرت الحكومة فى عهد المماليك وفى أول عصر محمد على إلى محاربتهم وإخضاعهم .

ولا شك أن هذه الأحوال قد اضطرت كثيراً منهم إلى النزوح جنوباً إلى السودان ، فانتقل بعضهم مشتغلا بالتجارة إلى شمال دارفور ، وهؤلاء يدعون إلى اليوم باسم الهوارة الجلابة ، أما الهواوير ، فلعل هجرتهم كانت موزعة تتناول القرون

---

(١) صبح الأعشى ، الجزء الأول : ص ٣٦٣ .

الخمسة الأخيرة ، أى منذ طوردوا فى أوطانهم فى مديرية البحيرة ، فلما تكاثر عددهم كونوا قبيلة مستقلة باسم الهواوير ، والمفرد هوارى ، كما هى الحال فى القطر المصرى الآن .

ومعلوماتنا عن الهواوير قليلة ، وهى تشير إلى أنهم يمتازون بالصفات القوقازية واللون الحنطى ، ولم يختلطوا بعناصر من الجنوب ، بخلاف أقاربهم الجلابة فى دارفور الذين يعيشون عيشة أكثر استقراراً ، وتسربت إليهم بعض الدماء الغريبة .

الفصل الثانى عشر

مملكة الفُنْج وسلطنة دارفور

ليس الغرض من هذا الفصل أن نعرض بحثاً تاريخياً لمملكة الفنج وسلطنة دارفور ، لأن هذه البحوث التاريخية تخرج عن نطاق هذا الكتاب ، المخصص لدراسة القبائل والوحدات البشرية فى بيئاتها المختلفة فى السودان الشمالى . ولكن ترددت الإشارة فى الفصول السابقة إلى الفنج ، بوصفهم وحدة من الجماعات البشرية الخطيرة فى السودان . ولذلك لم يكن بد من التعريف بهم ، وعرض الآراء المختلفة عن نشأتهم وتطورهم .

كذلك لانريد فى هذا الفصل أن نتكلم على سلطنة دارفور من الناحية التاريخية ، بل من ناحية تكوينها البشرى ، والقبائل أو الجماعات المختلفة التى تضمها ، أى أننا سنعالج موضوع سلطنة دارفور بوصفها إقليماً خاصاً من أقاليم السودان ، واقعاً كله فى السودان الشمالى ، وله من الناحية البشرية مميزات انفرد بها ، تميزه عن الأقاليم الأخرى .

الفُنْج

سبق لنا الكلام على إقليم الجزيرة بين النيل الأبيض والأزرق ؛ وعلى القبائل المختلفة من جهينة وجعلية التى اتخذته وطناً لها ، وهذه السلالات العربية منتشرة فى القسم الشمالى من الجزيرة ، الذى ينتهى جنوباً عند خط العرض الثانى عشر ، على وجه التقريب . وإلى جنوب هذا الخط يبدأ انتشار جماعات غير عربية ، ولا تزال هذه الظاهرة تزداد ، حتى ينتهى التوغل العربى ، وتصبح هذه الجهات ميداناً خالصاً لجماعات تغلب عليها الصفات الزنجية مثل الدنكا والانجسنا والبَرتا والبُرُن ، والشلك ؛ وهكذا يتم التدرج من السودان الشمالى إلى السودان الجنوبى .

والقسم الشمالى من الجزيرة يمتاز بالسهولة التامة ، غير أن القسم الجنوبى تتخلل سهوله مرتفعات جبلية منعزلة بعضها عن بعض ، وإن كانت متقاربة فى كثير من المواضع . وليس لتوزيعها نظام مطرد . وهذه المرتفعات — على الرغم من أنها يطلق عليها اسم جبال — لا تعدو فى بعض الأحيان أن تكون كتلا صخرية ضخمة بارزة ، مرتفعة عن السهول المجاورة بما لا يزيد عن بضع مئات من الأمتار . وصخورها مكونة فى الأغلب من الجرانيت أو من صخور بللورية أخرى . غير أن بعضها ذو حجم كبير ، يشابه جبال النوبا فى جنوب كردوفان . وفى هذه الحالة تكون الجبال آهلة بالسكان .

وهكذا تقاسمت العناصر القوقازية والزنجية أرض الجزيرة منذ زمن بعيد ؛ وتكونت فى النصف الشمالى فى العصور الوسطى مملكة علوة المسيحية ، وعاصمتها سوبة . وأخذ النفوذ العربى يتوغل فيها منذ زمن بعيد ، يرجع على الأقل إلى القرن العاشر الميلادى . وفى أوائل القرن الرابع أخذ النفوذ العربى يشتد وينتشر . وفى عام ١٤٧٤ أنشئت بواسطة العرب مدينة أربجى على النيل الأزرق ؛ وفى سنة ١٥٠٤ هوجمت مملكة علوه من الشمال والجنوب ، وقامت على أنقاضها دولة الفنج . وكان هذا الفتح نتيجة لتحالف قبيلة القواسمة ، وعلى الأخص شعبة العبد اللاب برئاسة أميرها عبد الله جماع ، مع جماعة « الفنج » ، والأولون أغاروا من الشمال ، والآخرون حشدوا جيوشهم من الجنوب برئاسة زعيمهم عمارة دُنْـقس مؤسس الدولة الجديدة .

نشأت دولة الفنج إذن فى أواخر القرن الخامس عشر . وأنشئت لها عاصمة جديدة ، مدينة سنار القديمة ، الواقعة إلى الشمال من سنار الجديدة بنحو ثلاثة أميال . ووقوع العاصمة فى الجزء الجنوبى من مملكة علوة أمر بلا شك له مغزاه ، ولعل الأرجح أن هذا الموقع أقرب إلى الإقليم الذى تكونت فيه قوة الفنج واشتدت فيه شوكتهم . أما عبد الله جماع فقد كوفئ على معاونته بأن قلد منصب نائب الملك فى الإقليم الشمالى ، ومنح لقب مَنجل ، واتخذ له عاصمة جديدة فى قِـرّى ، فى الطرف الجنوبى من خانق سبلوقة ، على الضفة الشرقية لنهر النيل الأعظم .

ولم تلبث دولة الفنج أن اتسعت رقعتها اتساعا عظيما ، وأصبحت تمتد من حدود

الحبشة إلى سواكن فى الشرق ، وإلى دنقلة فى الشمال ، وإلى حدود دارفور فى الغرب ؛ وإن لم يكن نفوذها قوياً دائماً على جميع هذه الجهات فى جميع الأوقات . ولم يكتف ملوك الفنج فى توسعهم بالاعتماد على الغزو ، بل كان من دأبهم أن ينشئوا الزوايا والمساجد ، وأن يلحقوا بها المدارس لتعليم الدين . فكان لهم فضل كبير فى نشر الثقافة الإسلامية العربية .

ومع أن إنشاء دولة الفنج حادث من أخطر الحوادث فى تاريخ السودان ؛ فإن نشأة « الفنج » أنفسهم كانت — ولا تزال — موضع جدال بين الكتاب ، والسبب الأكبر فى هذا الاختلاف أن الكتاب — وأكثرهم من الإنجليز — لا يريدون التسليم بصحة أقوال الفنج أنفسهم عن أصلهم ونشأتهم .

وأول شيء يجب ذكره هو أن الفنج ليسوا قبيلة من القبائل ، بل هم أسرة كبيرة أو طبقة حاكمة ، مثلهم كمثل آل عثمان بالنسبة للدولة العثمانية . وقد كان ظهورهم فجأة فى نهاية القرن الخامس عشر ، إذ ظهر زعيمهم عمارة دنقس ومعه أتباعه وحاشيته ، يقود جيشاً مؤلفاً من خليط من الناس ، فيه عناصر حامية وعربية ومولدة .

ومن الجائز أن ظهور أمير الفنج فى ذلك الوقت ، حادث فجائى بالنسبة إلينا ، إذ كنا نجهل ما حدث قبل ذلك من التطورات فى أرض الجزيرة أو فى جنوب البطانة . ويغلب على الظن أن أمره كان معروفاً لمعاصريه قبل تأسيس دولته ، وإلا لما كان من السهل أن يتصل بالقبائل العربية فى الشمال ويتحالف وإياها على الغزو المشترك .

ورواية الفنج أنفسهم عن نشأتهم الأولى تتلخص فى أن أجدادهم من بنى أمية التجأوا إلى البلاد الحبشية بعد زوال دولتهم على أيدى بنى العباس . فعاشروا الحبشة وصاهروهم . وقد احتج الخلفاء العباسيون لدى ملوك الحبشة لإيوائهم هذه الشعبة من بنى أمية ، فأدى ذلك إلى خروج هؤلاء الأمويين من دولة إثيوبيا والتجائهم إلى الجهات المتاخمة ، ولعلها فى الطرف الجنوبى من الجزيرة وسهل البطانة ؛ هنا لك تكونت تلك النواة ولم تزل تنمو وتتكاثر ، حتى أصبحت من القوة بحيث تمكنت من

غزو مملكة علوة والقضاء عليها . ومن المهم أن نذكر — ونحن بصدد هذه الرواية — أن دولة الفنج منذ بدء تأسيسها كانت دولة إسلامية ، لغتها العربية ، وليس لها أية لغة أخرى .

ومع أن هذه الرواية تتفق مع التطورات التي يحق لنا أن نتوقعها . فإن بعض الكتاب لم يقبلها ، لأنها تتعارض مع ما جاء في رحلات السائح الإسكتلندي بروس ، الذي مر من هذه الجهات في أواخر القرن الثامن عشر ، والذي استقى أخباره من بعض الموظفين ، أمه من الشلك فيما يظهر ، وأخبره هذا الموظف أن الفنج — أي الأسرة أو الطبقة الحاكمة — من أصل شلكاوي .

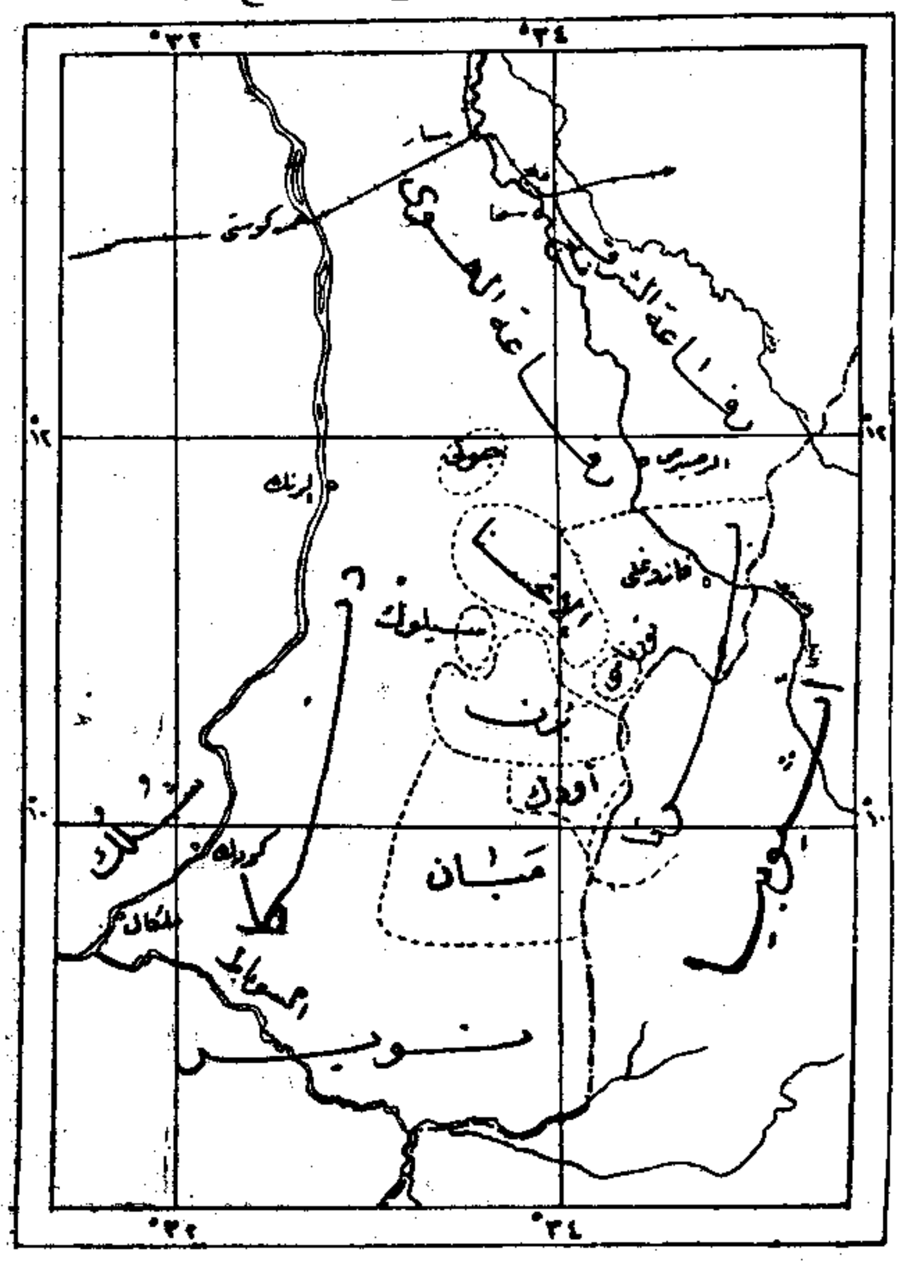
إن الشلك في الوقت الحاضر ، لا يحتلون أرضاً في الجزيرة ، اللهم إلا مساحة ضئيلة في إقليم ملكال تمتد إلى مصب السوباط ، وبينهم وبين بلاد الفنج مسافات بعيدة تقترب من ٣٠٠ كيلومتراً ، يحتل بعضها الدنكا ، وقبائل أخرى مثل المابان والبُرُن والإنجسنا وغيرهم . وعاصمة الشلك في الوقت الحاضر ومعظم أوطانهم واقعة على الضفة الغربية للنيل الأبيض في أقصى الجنوب . وحياتهم مركزة على الضفة الغربية في صورة واضحة . ومع أن هذا كله مما يحمل على التردد في تصديق رواية بروس ، فإن أحد الكتاب ، قد أيد وجهة نظر السائح الإسكتلندي تأييداً شديداً ، وهو المستر A. J. Arkell وأخذ يلتمس الأدلة على هذا الرأي ، معتمداً أحياناً على رواية بروس ، وتارة على بعض التخمينات اللغوية .

مثال ذلك قوله نقلا عن وسترمان إن كلمة فنج أوفون هي في الأرجح الكلمة الشلكاوية بون ، والباء والفاء من الأحرف التي تتواتر في لغة الشلك كما هي الحال في لغة النوبة . ومعناها الغريب أو الغرباء . ونظراً لأن الشلك قد احتلوا سنار وأسسوا المملكة الجديدة . فلا بد لهم أن يدعوا أنفسهم باسم جديد يميزهم وهم مسلمون عن أقاربهم الوثنيين في النيل الأبيض ، وكان من الطبيعي أن يختاروا لذلك الاسم الذي يطلقونه على العرب والمسلمين وهو الفون أو الغرباء[1] !

---

(١) راجع مقالة أركل في S. N. R. لعام ١٩٣٢ ، الجزء الثاني ص ٢١٤ .

وقد دار جدال طويل حول هذا الموضوع[1]، لا يتسع المقام لسرد تفاصيله ،



(شكل ١٦) توزيع القبائل فى أواسط الجزيرة وجنوبها

(١) الى جانب المقال السابق راجع أيضاً المقالات الآتية وكلها فى مدونات السودان S. N. R. : فى المجلد ١٣ ص ٢٤٧ مقال لمستر Chataway وآخر لمستر Nalder فى مجلد ١٤ ص ٦١ ، وثالث لمستر Chataway فى مجلد ١٧ ص ١١١ ؛ وآخر فى ص ٢٦٠ نفس المجلد لمستر روبرتسن ؛ وخامس لمستر هندرسن ص ١٤٩ من المجلد ١٨ .

ولعله ليس من المفيد أن نثير حجج مستر آركل وأفكاره القديمة ، لأنه خرج بعد ذلك برأى جديد نتيجة لدراسات قام بها فى السودان الفرنسى ، فتبين له أن حضارة الفنج وتقاليدهم مشتقة فى معظمها من إقليم بحيرة تشاد[1] . ولا يسع المنصف إلا أن يقرر أن هذه الآراء المختلفة — برغم مظاهر الوجاهة التى تبدو فى بعض حججها — لا تدع أمامنا مندوحة من قبول رواية الفنج أنفسهم التى لا تزال لها قوتها ووجاهتها .

* * *

وقد تبين مما تقدم أن الفنج عبارة عن الطبقة الحاكمة ، الذين أسسوا الدولة المسماة باسمهم ، وكانت الدولة بالطبع تشتمل على وحدات قبيلية ، وسلالات حامية وعربية ومولدة كما هو المنتظر فى مثل هذه الأحوال . وهذه الجماعات لم تكن بالطبع من الفنج ، وكان لا بد من التمييز بين الطبقة التى تدعى بهذا الاسم وبين سائر الجماعات . ولذلك نرى هذه الجماعات تدعى — كلها أو جلها — باسم الهمج ؛ وليس من السهل أن نتبين بدقة أى الجماعات بالتحديد كان يطلق عليها هذا الاسم . وقد خيل للأستاذ سلجمان أن هذه التسمية تنطوى على شىء من الزراية ، وزعم أن الهمج معناها طبقات الجهال أو العبيد . ولكن القرائن لا تدل على صحة هذا الرأى ، وإذا فرض أن هذا المعنى كان له بعض الوجود فى الأول فإنه لم يلبث أن أصبح معناه الجماعات التى ليست من الفنج ، وقد أمكن لهذه الجماعات أن تتولى بعض المناصب الخطيرة . وقد كان محمد أبو لُكَيْلِك ، والراجح أنه من الجمع ، يعد من الهمج . ومع ذلك كان ذا منصب رفيع فى الدولة . وهو الذى تولى قيادة الجيش الذى غزا كردوفان ودارفور ، وبعد عودته اضطر الملك لأن يجعله وزيره الأول وأن يجعل المنصب وراثياً فى نسله من بعده ، ولم يلبث وزراء الهمج أن أصبحوا ولهم المكان الأول فى الدولة وتصريف شئونها .

ونظراً لأن جماعات الفنج قد تزايد عددها على مضى الزمن ، لا يزال فى

---

(١) راجع فى مجلد (٢٧) من S. N. R. (سنة ١٩٤٧) مقالة بعنوان More about Fung Origins.

السودان إلى اليوم أسر تدعى باسم الفنج موزعة فى عدة جهات . ولا يزال فى السودان ملك من الفنج مقره مدينة سنجا ، كما أن هنالك جماعات قلائل تدعى باسم الهمج .

* * *

والكتاب الذين توهموا أن أصل الفنج جماعة من الشلك ، قد رأوا تأييداً لرأيهم فيما قيل من أن عادة قتل الملك ، السائدة عند الشلك أو التى كانت سائدة عندهم إلى وقت قريب ، كانت أيضاً منتشرة فى دولة الفنج . وقد أشار سلجمان إلى ذلك ، وقال إن أبحاث الأستاذ برتشارد تؤيد هذا الرأى بالنسبة إلى معظم الجماعات التى اشتملت عليها دولة الفنج .

وقد استشهد سلجمان أيضاً بشهادة بروس إذ يقول :

« من أغرب الأمور السائدة بين هذا الشعب المتوحش (!) أن الملك يتولى الحكم ، وهو يعلم أنه قد يقتل يوماً ما قتلا شرعياً بواسطة رعيته أو عبيده بناء على رأى كبار الضباط إذا رأوا أنه ليس من مصلحة الدولة أن يبقى فى الحكم ، وهنالك فرد واحد من أفراد أسرته هو الذى يستطيع أن ينفذ هذا الحكم ، ويسفك دم قريبه ومليكه ، وصاحب هذا المنصب يلقب سيد القوم ، وهو مدير الخاصة والخدم ، وليس له على ذلك صوت فى المجلس الذى يصدر الحكم ، والذى يتولى هذا المنصب الآن : أحمد سيد القوم ، هو بالصدفة العجيبة من أرق الناس حاشية فى سنار اليوم وهو يعيش فى قصر الملك إسماعيل ، وقد ولد فى فازوغلى ، وقد خيل إلى أنه لا يزال وثنياً » .

وفى هذا الكلام تناقض واضح ، فبديهى أن الكلام يشير إلى مملكة سنار وعلى ذلك فإن سد القوم الذى يجب حسب ما أورده بروس أن يكون من الفنج ، هو من فازوغلى ، أى من البرتا ، ودينه رقيق حتى خيل لبروس أنه لا يزال وثنياً .

وأساس هذا التناقض فى رواية بروس أنه لا يميز بين ما يجرى فى فازوغلى وما يجرى فى سنار . ومن السهل على مثله أن يخلط بين ما يجرى فى بلد وما يجرى فى غيرها .

والذى لا شك فيه أن هذه المادة لم تكن فى يوم من الأيام لها وجود عند الفنج ، على فرض وجودها لدى بعض القبائل التى غلبت عليها الوثنية فنحن نعلم من أنباء كل ملك من ملوك الفنج شيئاً ليس بالقليل ، ونعرف بوجه خاص ظروف موت كل منهم . وليس هنالك حالة واحدة تؤيد ما ذهب إليه بروس .

وهكذا تتضاءل الأدلة المختلفة التى أريد بها إرجاع الفنج إلى أصل شلكاوى وترجح كفة الرواية التى ترجع بهم إلى أصل عربى ، وإذا كانت البشرة قد اكتسبت سمرة حتى كانت دولة الفنج تسمى المملكة الزرقاء ، فإن هذا أيضاً مما يؤيد روايتهم ، لأن الهاربين من بنى أمية كانوا كلهم أو جلهم من الرجال وتزوجوا من الحبش واتخذوا إماء من بنات شنقل فأثر ذلك فى ألوانهم وتقاطيعهم[1] .

مملكة تَقَلى

فى طريقنا من مملكة سنار إلى سلطنة دارفور ، نخترق مديرية كردوفان ؛ وإذا عرجنا على الركن الجنوبى منها ألفينا أنفسنا فى منطقة الجبال ، حيث تعيش قبائل النوبا ؛ وفى الركن الشمالى الشرقى منها نشأت مملكة تقلى ، فى أواسط القرن السادس عشر . ولم تكن مملكة ضخمة تضارع دولة الفنج أو سلطنة دارفور . ولكن لها فى تاريخ العروبة فى السودان شأناً خطيراً لأنها مكنت للعناصر العربية من التوغل فى هذا الربع الشمالى الشرقى من جبال النوبا ، إلى الشمال من بلدة رشاد بل وإلى الجنوب منها ، مع أن هذه الجبال كانت دائماً قلعة تحتمى بها جماعات النوبا البعيدة عن الثقافة العربية والديانة الإسلامية .

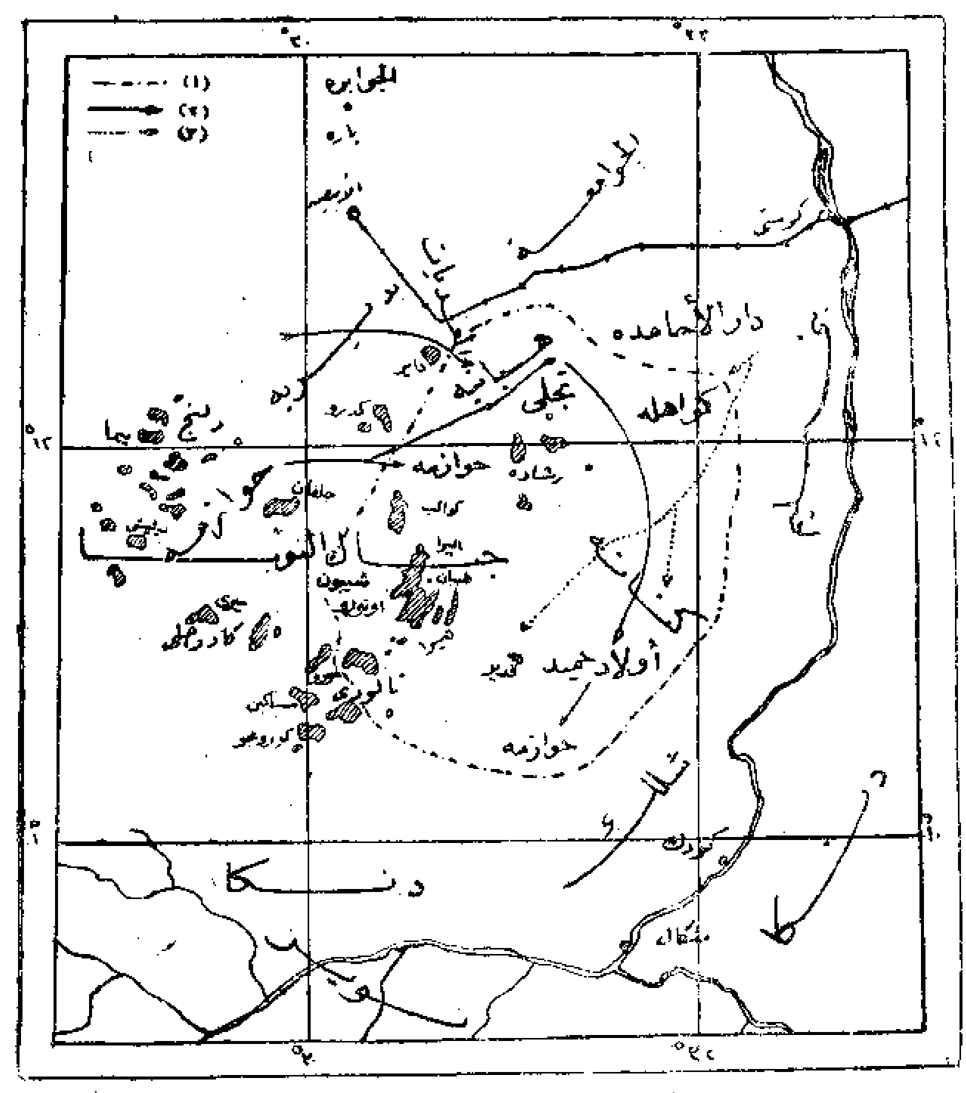
ويرجع تأسيس مملكة تقلى إلى هجرة رجل من الزهاد الجمليين ، ويقال إنه من قبيلة الجموعية . حوالى سنة ١٥٣٠ ، وقد نزل هذا الرجل وسط تلال تقلى ، فلم يلبث أن اجتذب قلوب السكان ، وجلهم من النوبا ، بورعه وطيب أخلاقه . واتصل بزعيم الإقليم عن طريق المصاهرة . فلم يكن بد أن يؤدى هذا إلى تولى ابنه المشهور

---

(١) راجع كتاب H.C. Jackson, Tooth of Fire ص ٨ وما بعدها .

وليس حديث هجرة الأمويين إلى السودان مما جاء على لسان الفنج وحدهم ، فقد أورد المقريزى نقلا عن ابن سليم (القرن التاسع) أن قد انتقل من نجا من الأمويين إلى الساحل الأثيوبى فالبحر الأحمر » (الخطط الجزء الأول ص ٣٠٩ طبع القاهرة ١٣٢٤ ﻫ)

باسم جيلى أبو جريدة ، منصب الرئاسة والملك ، ولعل هذا قد تم حوالى عام ١٥٧٠ ، ولم يلبث أن اشتمل ملكه على الإقليم الشرقى من الجبال ما بين بلدة تالودى فى الجنوب إلى أبو حبل فى الشمال . وخلفه فى الملك تسعة عشر من أبنائه وأحفاده . وقد كان لهذه المملكة شهرة واسعة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر . بحيث استطاعت أن تحافظ على استقلالها الذاتى فى عهد محمد على وإسماعيل ، كما استطاعت أن تقاوم المهدية بعض المقاومة ، ولا يزال نسل أمرائها إلى اليوم يتمتعون بقسط



(شكل ١٧) مملكة تقلى والتوغل العربى فى جبال النوبا

(١) حدود مملكة تقلى فى أقصى اتساعها

(٢) هجرة البقارة من الغرب

(٣) هجرة العرب الشماليين من الشرق والشمال

كبير من الاحترام ، وبنصيب لا بأس به من النفوذ ، وإن استحالت المملكة إلى قسم من الأقسام الإدارية فى السودان .

وليس الذى يهمنا أن نتتبع تاريخ تلك المملكة ، وإنما الذى يعنينا أن نذكر أثرها فى نشر العروبة فى جنوب السودان . والظاهر أن أمراء هذه المملكة كانت لهم سياسة مرسومة فى نشر الإسلام والعروبة فى هذه الجهات الوعرة . وكانت هذه السياسة ترمى إلى تحقيق هدفها عن طريقين : الأول وهو ما يخطر بالبال لأول وهلة ، بنشر الإسلام والثقافة العربية والتزاوج بين القبائل النوباوية . ولكن الأمراء فى الغالب لم يلبثوا أن رأوا أن هذه الطريقة لاتفى بالغرض بالسرعة اللازمة . ولذلك التجأوا إلى الطريقة الثانية ، وهى تشجيع القبائل العربية على المهاجرة والاستيطان فى هذا الركن من السودان . فأخذت جماعات من الجمليين تهاجر من الأقاليم النهرية . وكذلك جماعات من البديرية والجوامعة . وبوجه خاص بطون بأجمعها من قبيلة الكواهلة وكنانة(١) . وبفضل هذه السياسة انتشرت العروبة فى جبال النوبا الشرقية .

قبائل دارفور غير العربية

عرضنا فى الفصول السابقة لسكان السودان الشمالى ، مبتدئين بقبائل البجه ، ثم تحدثنا عن العناصر العربية ، بأقسامها وقبائلها وبطونها . ورأينا كيف شملت العروبة معظم السودان الشمالى ، بل وأخذت تتوغل فى السودان الجنوبى ، الذى يبدأ فى اصطلاح إدارة السودان من خط العرض الثانى عشر .

ورأينا فى تتبعنا لأوطان القبائل العربية ، كيف انتشرت فى جنوب كردوفان ،

---

(١) راجع مقال Elles : The Kingdom of Tegali فى S. N. R. لسنة ١٩٣٥ ص ٢ . وكنانة المشار إليها قبيلة عدنانية ، غير أنها لاتتصل بالجمليين إلا عن طريق المصاهرة . والراجح أنها فرع من القبيلة العربية التى تسمى بهذا الاسم فى جزيرة العرب . وهى تعيش اليوم فى إقليمين : الأول على النيل الأزرق جنوب سنجا مع قبائل رفاعة . والأخرى فى جنوب كردوفان ، وبوجه خاص فى الجزء المشار إليه هنا (راجع ما كمايكل تاريخ العرب فى السودان الجزء الأول ص ٣٣ وهو يشير إلى أنهم هم وقبيلة دغيم هاجروا إلى السودان عن طريق مصر .

حتى توغلت فى جبال النوبا ؛ وفى دارفور حتى احتلت الربع الجنوبى منها ، وحتى توغلت فى حوض بحر الغزال إلى خط العرض التاسع .

وبعد هذا الانتشار الواسع نحو الجنوب ، وبعد احتلال البقارة للربع الجنوبى من دارفور ، بقيت فى هذه المديرية الغربية جماعات وقبائل ، بعضها قديم وبعضها حديث الهجرة . لانستطيع أن نصفها بأنها عربية خالصة ، لأنها لم تتكون نتيجة لهجرة قبائل أو وحدات عربية .

وإذا وصفنا هذه القبائل ، التى سنتحدث عنها بعد قليل ، بأنها قبائل دارفور غير العربية ، كما يبدو فى العنوان ، فليس معنى هذا أنها لم تتأثر بالنفوذ العربى ، سواء من ناحية النسب أو من ناحية الثقافة . إذ لاشك أن الدماء العربية قد دخلت واختلطت بدماء السكان الأصليين . ومن ناحية الثقافة ، قد تأثرت اللغات واللهجات على تنوعها وغرابتها ، باللغة العربية . فتسربت الألفاظ والتراكيب والمصطلحات العربية إليها . وكذلك أصبحت هذه الجماعات كلها تدين بالإسلام .

ولكننا مع ذلك آثرنا أن نصف هذه القبائل بأنها غير عربية ، لأنها ظلت محتفظة بلغاتها القديمة . وهى لغات يستخدمها الناس فى الكلام والتخاطب ، ولكنها لم تكتب فى أى وقت من الأوقات ؛ وقد تغلب الدماء العربية فى بعض الأسر والطبقات ، مثل الكنجاره وغيرهم ، غير أن هذه الأسر ظلت محتفظة بلغة السكان الأصليين .

وكثير من هذه الجماعات المختلفة اللغات واللهجات ، أقدم هجرة إلى السودان ، أو إلى القارة الإفريقية من العرب أنفسهم . فمثلهم فى دارفور كمثل البجه فى الشرق والنوبة فى الشمال . وعلى الرغم من كثرة الدماء العربية بين النوبة والبجه ، فضلنا أن ننظر إليهم على أنهم وحدات غير عربية . لأنهم استطاعوا أن يستبقوا صفاتهم الخاصة ، التى كانت تميزهم قبل الهجرات العربية .

وقد كان سلاطين الفور يحكمون أقطاراً متعددة اللغات واللهجات ، ولكن اللسان الرسمى للبلاد كان واحداً ، وهو العربية ، التى يدرسها الأطفال منذ نعومة أظفارهم ، ويتخذونها وسيلة للدراسات الدينية والأدبية . وجميع ما كان يصدر عن

ديوان السلطان من الأوامر والبيانات والمكاتبات ، كان يكتب دائماً باللغة العربية وحدها .

وهكذا نرى أن فى مديرية دارفور إقليما ممتازاً يختلف فى كثير من الوجوه عن الأقاليم التى سبقت لنا دراستها ، سواء من الناحية الجنسية أو الثقافية .

واسم هذه المديرية ، الواقعة فى أقصى الغرب من السودان ، مشتق من اسم شعب الفور ، على كثرة ما اشتملت عليه من السلالات والقبائل ، وعلى الرغم من أن الفور لايحتلون منها سوى حيز محدود . ودارفور تشبه كردوفان ، بأنها تغلب عليها السهولة وتموّج السطح ؛ ولكنها تشبه كردوفان أيضاً بأنها تشتمل على مساحة جبلية وعرة ، لاتمتاز بتضاريسها الطبيعية فقط ، بل لها أيضاً ميزات بشرية تجعلها مختلفة عن السهول المجاورة لها .

غير أن هنالك وجوه اختلاف بين الإقليمين كردوفان ودارفور . فالجبال فى كردوفان تحتل الربع الجنوبى الشرقى من المديرية ، وتتصل اتصالا مباشراً ، بحكم موقعها الجنوبى ، بالأقاليم التى يسودها الدنكا والنوير وغيرهما من السلالات الزنجية . أما دارفور فجبالها تحتل الجزء الأوسط من المديرية كلها . وإلى الجنوب من الجبال مساحة واسعة سهلة تتصل بسهول كردوفان من جهة ، وبسهول السودان الفرنسى من الناحية الغربية . فهى بمثابة طريق ممهد سهل ، ما بين جبال دارفور فى الشمال وهضبة فرتيت فى الجنوب . وهذا الممر السهل الواسع قد احتله البقارة ، كما اتخذته القبائل طريقاً تنتقل فيه بين الشرق والغرب ، وسط سهول السفانا .

وهنالك فرق آخر بين كردوفان ودارفور ، كان له أثره فى التكوين الجنسى والثقافى لكل من القطرين ؛ وهو أن كردوفان ملاصقة فى الشرق لنهر النيل . وبذلك تعرضت لمؤثرات ثقافية متنوعة مصدرها نهر النيل والأقطار التى تحف به . أما دارفور فملاصقة للأقاليم الليبية ، التى يطلق عليها اليوم اسم إفريقية الاستوائية الفرنسية . هذه الأقاليم تأثرت بضروب من الثقافات تختلف اختلافاً كبيراً أو قليلا عن المؤثرات التى مصدرها نهر النيل ، وهى تشمل مساحات واسعة تمتد من أقصى الشمال إلى حدود السفانا فى الجنوب . وتختلف أقطارها بعضها عن

بعض . فهنالك سلالات حامية فى ليبيا الشمالية ، وثقافات متنوعة فى إقليم تِيبستى ووادای ، يقابلها ثقافات أخرى فى حوض بحيرة تشاد والأقطار التى حولها ، مثل بلاد البرنو والكانم . وقد أثرت كل هذه الجهات الشمالية والجنوبية فى دارفور ، ولم يكن لها أثر كبير فى كردوفان .

وليس معنى هذا أن دارفور كانت بنجوة من جميع المؤثرات التى مصدرها نهر النيل . لأنها تتصل به اتصالا غير مباشر ، لوقوعها على الحافة الغربية لحوض نهر النيل ، جنوبيه وشماليه ، فهنالك أودية مثل بحر العرب ، ينحدر من مرتفعات دارفور ، إلى أن ينتهى إلى حوض بحر الغزال . وهنالك أودية شمالية مثل وادى المِلك ينحدر من أطراف دارفور ، متجهاً إلى النيل الأعظم ، حيث يتصل به عند بلدة الدبة . وبمحاذاة هـذه الأودية انتقلت المؤثرات النيلية على اختلافها ؛ وهى مؤثرات جنوبية فى الجنوب ، تحمل بعض العناصر البشرية التى تعيش فى حوض بحر الغزال وثقافتها ؛ ويقابلها مؤثرات نوبية وعربية من الأطراف الشمالية للحوض . وهنالك فوق ذلك طريق المواصلات القديم المسمى درب الأربعين ، الذى يرجع استخدامه إلى عصور تاريخية قديمة ، وكان وسيلة للاتصال بين النيل الأسفل وبين دارفور .

ومن الممكن تقسيم دارفور إلى ثلاثة أقسام جغرافية . أولها يمتد من أقصى شمال المديرية إلى خط العرض ٣٠ َ ١٤ ° وهو عبارة عن أراض متوسطة الارتفاع ، تتخللها التلال ؛ وتنحدر من هذه التلال أودية يجرى فيها ماء قليل فى موسم المطر ، ثم لا يلبث أن يغشاها الجفاف . ويكسوها العشب فترة من الزمن ، وينمو بها شجر أكثره من السنط . وكلاها مما يعتمد عليه فى رعى الإبل . والمطر لا يزيد على ٣٠٠ ملليمتر فى جنوبها ، ثم يتناقص تدريجياً كلما اتجهنا شمالا . ولا يكاد يكفى للزراعة إلا فى مساحات محدودة ، وجهات ملائمة .

والمنطقة الوسطى تمتد من خط عرض ١٢ جنوبا إلى ٣٠ َ ١٤ ° شمالا ، وهى التى تتوسطها الكتلة الجبلية الممتازة بالارتفاع والقمم العالية ؛ ولكنها ليست كلها جبلية بل تحيط بها السهول شرقا وغربا . حيث التربة ذات طبيعة رملية .

والمطر غزير على الجبل يصل إلى ٧٠٠ ملليمتر ، ويتناقص فى المنخفضات السهلة إلى ٣٠٠ ملليمتر ؛ وتوزيع الزراعة يتبع توزيع المطر . فهى تقل فى السهول وتكثر فى المنحدرات الجبلية .

والقسم الثالث هو المنطقة الجنوبية ، وهى متوسطة الارتفاع ، وتغلب عليها السهولة ، وإن تخللها بعض التلال ، ومطرها أكثر من سائر سهول دارفور ، يتراوح بين ٧٠٠ و ٩٠٠ ملليمتر ، والزراعة ممكنة فى معظمها ، ولو أن رعاة البقر يحتلونها ؛ ولذلك تغلب فيها الحياة الرعوية على الزراعية .

ولا شك أن كتلة جبال مرة ، هى الظاهرة الجغرافية الهامة التى تميز دارفور . وهى عبارة عن هضبة عالية يزيد ارتفاعها فى المتوسط على ٢٠٠٠ متر ، وبعض القمم فيها تصل إلى ٣٠٠٠ متر ، ومن المهم أن نذكر أن موقعها يمتد من خط عرض ١٢ فى الجنوب إلى عرض ١٤ فى الشمال ؛ وهى ترتفع فجأة من السهول الجنوبية حيث تصل بسرعة إلى أعلا قممها . ثم تتدرج فى الانحدار بعد ذلك نحو الشمال حتى تنتهى إلى شمال جبل مى ، الذى يبلغ ارتفاعه ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر ، ثم تنقطع وتنخفض بسرعة حتى تنتهى إلى التلال الشمالية عند خط عرض ٣٠َ ١٤° .

وهكذا يكون طول هذه الكتلة من الجنوب إلى الشمال نحو ١٥٠ كيلو متراً ولكنها لا تكاد تتجاوز ٥٠ أو ٦٠ كيلو متراً من الشرق إلى الغرب ، وبذلك يتراوح سطحها بين ٤٥٠٠ و ٥٠٠٠ كيلو متر مربع ؛ ولا شك أن جبال مرة من أهم المعالم التضاريسية البارزة فى السودان . وتبدو أعلامها بارزة واضحة سواء أنظرنا إليها من الجنوب من نيالا أو من الشرق من الفاشر ، أو من الغرب من كبكابية أو زالنجى . ومن المهم أن نشير إلى أن جبال مرة ليست واقعة على حدود دارفور الغربية ، بل هى تتوسط دارفور ، وإن كانت الحدود الغربية أقرب إليها نوعا من الحدود الشرقية .

والظاهر أن الحدود بين دارفور وكردفان هى فى معظمها حدود طبيعية على الأخص فى شرق دارفور ومن السهل أن نلاحظ قلة توزيع القرى والسكان فى هذا الجزء من الحدود ، ومرد ذلك إلى وجود سلسلة من الكثبان الرملية تمتد من

الشمال إلى الجنوب لعلها من مخلفات فترة فى عصر جيولوجى حديث امتاز بالجفاف وغلبت عليه الطبيعة الصحراوية ، فتكونت فيه الكثبان . غير أن توزيع هذه الكثبان محدود ولا يتناول الحدود الشرقية كلها ، فنراها تنتهى فجأة فى الشمال . حيث تبدأ جبال بركانية مثل جبل ميدوب الواقع إلى الشمال من خط عرض ١٥ .

أما الأراضى الغربية لدارفور فتمتد من الجبال إلى بلاد أفريقية الاستوائية وتتصل بها اتصالا مباشرا ولا يفصلها عنها أى اختلاف جوهرى فى طبيعة الأرض أو التربة ، ولذلك كانت الحدود الغربية لدارفور ، وبالتالى للسودان ، كلها حدوداً سياسية بالمعنى الصحيح ، أى أنها بنتيجة اتفاق بين الطرفين المتجاورين ، سواء أكان ذلك فى العصور الوسطى أو العصور الحديثة . وهذا الانتقال السهل بين دارفور والجهات التى تجاورها من الغرب هو الذى جعل الباب مفتوحا لتصل منه تلك المؤثرات الليبية التى سبقت الإشارة إليها .

وهكذا نرى أن إقليم دارفور لا يشتمل على منطقة انتقال من الجنوب إلى الشمال فحسب ، بل ويشتمل أيضاً على منطقة انتقال بين الشرق والغرب ، أو بين السودان النيلى ، والسودان الليبى ؛ وبذلك أصبحت إقليما ممتازاً ليس له نظير فى السودان كله .

والاتصال السهل بين حوض الغزال وبين أواسط دارفور ، بسبب وفرة المطر والمرعى من جهة ، ووجود أودية توجه خطى المهاجرين من جهة أخرى ، قد كان سبباً فى انتقال عناصر بشرية من حوض الغزال ودار فرتيت ، إلى أواسط دارفور فى زمن قديم معرق فى القدم ، وهذه الهجرات القديمة ، قد كانت سبباً فى نقل جماعات عديدة ، على مضى القرون من الجنوب إلى الشمال . وطبيعى أننا إذا أردنا اليوم أن نفتش عن بقايا هذه الهجرات القديمة ، فإننا لن نجدها فى الجهات السهلة ، بل فى الجهات الوعرة . وسنجدها بوجه خاص فى كتلة جبل مرة ، التى استطاعت أن تحتفظ بكثير من الدماء الجنوبية ، والثقافات واللغات التى لا نجد لها نظيراً فى السهول التى تحيط بتلك الجبال ، ولا فى الأراضى السهلة التى تحيط بها من الجنوب حيث تعيش قبائل البقارة اليوم .

وهكذا نرى أن لدينا إقليما ، يحتفظ بدماء فيها كثير من العنصر الزنجي الجنوبي ، وسط إقليم تسوده الدماء القوقازية ، ومع ذلك فهو واقع كله شمال خط عرض ١٢ الذي يعتبره الكثير بمثابة الخط الفاصل بين السلالات القوقازية في الشمال ، والسلالات الزنجية في الجنوب ، ومهما كان لخط العرض الثاني عشر هذا من معنى ثقافي جنسي في أي جزء آخر من السودان ؛ وأيا كان مبلغ انطباقه على توزيع السلالات الزنجية والقوقازية ، فإنه لا معنى له في دارفور ، لأن الإقليم الوحيد الذي فيه بقية من الدم الزنجي في دارفور واقع كله شمال خط عرض ١٢ ، بينما الأراضي الواقعة جنوبه لغاية خط العرض التاسع هي كلها خالصة للسلالات القوقازية ، والثقافة العربية .

* * *

لا بد إذن من أن يكون لموقع دارفور الفريد ، ولتعرض الإقليم لمختلف المؤثرات الثقافية والسلالية ، أثر واضح في التكوين البشري للإقليم ؛ وليس بمستغرب أن يكون له تاريخه الخاص .

فلا بدع إذن إذا وجدنا بين سكانه سلالات مختلفة من حيث نشأتها ومناطق تكوينها الأصلية ، وأنسابها ، ومبلغ قدمها في الإقليم أو حدوث نزوحها إليه ؛ ومن الصعب الموازنة الدقيقة بين هذه المؤثرات المختلفة ، من ليبية ونوبية وجنوبية ومغربية ، وخصوصاً بعد أن شملتها كلها الثقافة العربية والديانة الإسلامية .

ولكننا نستطيع أن نشير إلى مبلغ تنوع هذه المؤثرات ، في الشمال نرى عناصر ليبية ، تظهر لنا في وجود جماعات مثل القرعان والبدايات والزغاوة ، مصدرها القريب إقليم تبستي ووادای ، ولكن بعضها مثل الزغاوة ، يمت إلى مصدر بعيد في صميم بلاد المغرب . وهنالك عناصر قديمة مثل الداجو والفور والبرتى متركزة في المنطقة الجبلية وما حولها . وبعض هذه العناصر من أصل جنوبي ، ولذلك تغلب عليه الصفات الزنجية . وله قرابة بسكان الجزء الغربي من حوض بحر الغزال .

وحتى هذه العناصر القديمة لم تسلم من المؤثرات الليبية (كما هي الحال في الداجو) والعربية كما هي الحال في الفور .

وهناك عناصر نوبية ، تبدو ممثلة فى جبل ميدوب وفى شعب التنجور ، وكذلك فى البرقد وهناك المؤثرات الليبية الوسطى التى تظهر فى المساليط . ولغتهم ليس لها نظير فى دارفور .

كذلك كان لإقليم كانم وبرنو (إقليم بحيرة تشاد) تأثير واضح ، حتى أن كلمة الفاشر كاسم لمدينة مشتق من لغات هذا الإقليم ، وهو اسم يطلق على العاصمة أينما كانت .

ويضاف إلى ذلك المؤثرات العربية التى انتشرت أولا فى الأراضى الشرقية ، ثم زحفت إلى الغرب ، والأخرى الآتية من ليبيا ، وزحفت نحو الشرق ؛ ولا تزال قبائل عربية عديدة تحتل السهول الشرقية من دارفور ، ولها اتصال وثيق بالقبائل التى ترعى البقر فى الجنوب ، من حيث نشأتها وهجراتها .

* * *

وفى كتاب ماكايكل عن تاريخ العرب فى السودان فصل خاص بالقبائل غير العربية فى دارفور ؛ أى التى يغلب فيها أنها من أصل غير عربى ، ولها لهجة أو لغة غير العربية ، وقد جمل عددها ثمانى عشرة قبيلة أو وحدة ، مضافاً إليها مجموعة كبيرة سماها ، مجموعة العبيد ، التى جىء بها من الجنوب ، بواسطة بعض سلاطين دارفور ، فى الأزمنة الحديثة ، ومصدرها معظمه من حوض بحر الغزال ، وعلى الأخص الجانب الغربى منه . والأقسام التى ذكرها تنطبق فى جملتها على ما جاء فى كتاب الشيخ التونسى (١) .

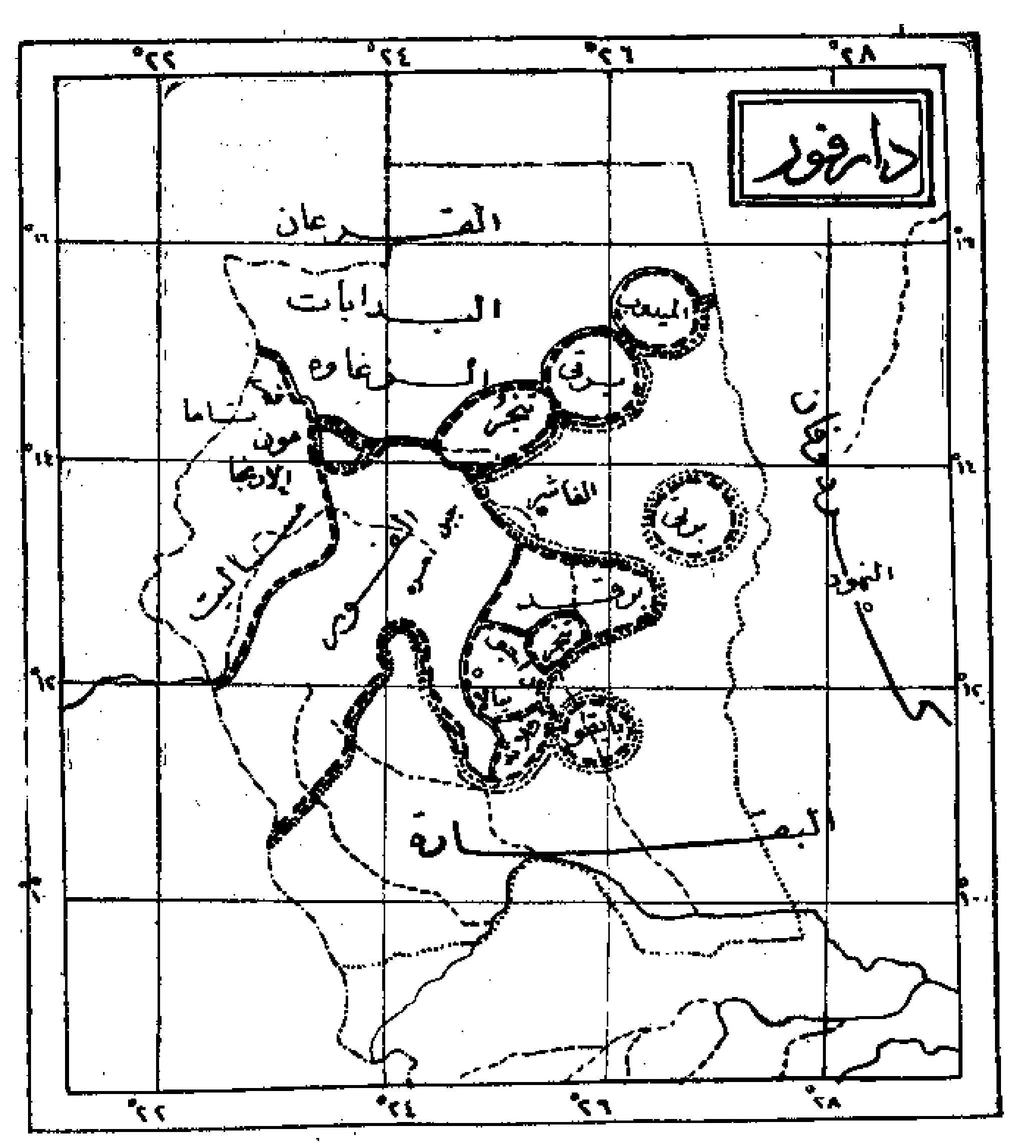
وعلى الرغم من كثرة هذه السلالات أو الوحدات الجنسية غير العربية التى ذكرها ماكايكل والتونسى . فإن من الممكن تقسيمها إلى خمس مجموعات رئيسية :

الأولى : مجموعة مصدرها إقليم تبستى وما يجاوره من الأقطار ، وبوجه خاص البلاد التى تليه من الغرب إلى أواسط الصحراء الكبرى :

---

(١) راجع الفصل الرابع من كتابه صفحة ٥٢ وما بعدها . وكتاب الشيخ محمد عمر التونسى المسمى تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (طبع على الحجر بباريس سنة ١٨٥٠ ولم ترقم صفحاته) .

وهذه المجموعة تشتمل كما ذكرنا على القرعان والبدايات والزغاوة ، ومواطنهم تمتد من الشمال للجنوب لغاية المنحدرات الشمالية لجبال مره ، على الترتيب المذكور . فالزغاوة إلى الجنوب يليهم البدايات فى الوسط والقرعان فى الشمال .



(شكل ١٨) توزيع القبائل فى دارفور

ولغة الزغاوة مشابهة تماماً للغة التبو ، مما يدل على تأثر الإقليمين بهجرات متشابهة .

الثانية : مجموعة مصدرها إقليم النوبة ، وهى تشتمل بوجه خاص على قبائل

٤ — المساليط : يعيشون فى الدار المسماة باسمهم ، ما بين الفور من الشرق ووداى من الغرب ودار تاما فى الشمال ودار سولا فى الجنوب .

٥ — الفور : وطنهم الرئيسى إقليم الجبـال ، والأرجح أنهم يشتملون على أقدم العناصر . وإن تأثروا بهجرات أحدث فيما بعد .

وإلى جانب هذه المجموعات الخمسة يذكر ما كايكل طائفة « الحدادين » أو الحداحيـد ، أطلق عليهم هذا الاسم لاحترافهم الحدادة ، ولعلهم من نسل قبيلة قديمة دفعتهم حرفتهم إلى العزلة وتجنبتهم القبائل الأخرى ، كما حدث فى جميع الأحوال المشابهة ، حيث نرى الحدادين ، حتى بين القبائل الزنجية ، يعيشون كأنهم جماعة من المنبوذين ، برغم انتفاع جيرانهم بما تنتجه حرفتهم .

* * *

ولا شك أن الفور هم العنصر الأكثر بروزاً فى التكوين الجنسى لهذا الإقليم كله . وفى هذا وحده ما يبرر تسمية المديرية باسم دارفور . ولـكن السبب الأكبر فى ظهور اسم الفور على سائر الأسماء ، نشوء سلطنة عظيمة نواتها إقليم الجبال وما يليها من الأقطار . ومع أن الفضل فى إنشاء هذه السلطنة يرجع إلى عنصر يختلف بعض الاختلاف عن الفور الأصليين فإن الاسم الذى أطلق على هذه السلطنة مشتق من اسم سلالة الفور .

والفور اسم الشعب كله ، وهو الصيغة العربية للاسم ، والمفرد فوراوى . وهم يسمون أنفسهم فوراً والمفرد فُـرْدُنـْجو ، ولغة الفور المسماة بِلِى فور مختلفة عن سائر اللغات ، ولا تمت إلى العربية بصلة ، سوى اقتباسها ألفاظاً وعبارات عربية . وقد وصفت بأنها تشتمل على خصائص حامية وسودانية ، وإن كان هذا الوصف الأخير لا يدل على معنى واضح . وهى تشتمل على حروف وأصوات تشبه ما فى لغات سكان الجنوب وعلى الأخص إقليم بحر الغزال . وهى غنية بألفاظها ومفرداتها . ولها نحو وصرف معقد(١) .

وقد وصف ما كايكل الفور بأنهم أحط مرتبـة من جيرانهم سواء من

---

(١) راجع مقال مستر بيتن A.C. Beaton The Fur, S.N.R. 1948, Part I.

الناحية الجسدية (أى أنهم أقرب إلى الشكل الزنجى والتقاطيع الزنجية) أو الاجتماعية أو من ناحية الذكاء والفهم[1] . لذلك قد يبدو لأول وهلة غريبا أن يكونوا هم العنصر الظاهر فى هذه المديرية حتى يغلب اسمهم على سائر الأسماء غير أن بعض الكتاب ممن عاشر الفور يشهد بأنهم لا يقلون عن جيرانهم ذكاء ونشاطاً[2] .

ولكن الفور يمتازون بعدة ميزات : أهمها كثرة عددهم واحتلالهم لجميع المنطقة الجبلية الغزيرة الأمطار ، وزحفهم منها إلى الجهات التى تجاورها شرقا وغربا ، وانصرافهم إلى حياة الزراعة والاستقرار مما جعلهم أشد التزاماً للأرض ، وجبالهم التى تتيح لهم أراضى زراعية مع وفرة المياه ، هى بمثابة قلعة حصينة ، يعتصمون بها إذا ظهر عدو مغير ويحتفظون فيها بوحدتهم وكيانهم حتى ينجلى الخطر .

وفوق هذا كله امتاز شعب الفور بأنه يشتمل على شعبة خاصة من أبنائه تدعى الكنجارة[3] وهؤلاء كان لهم الفضل الأكبر فى رفع شأن الفور وإظهارهم على سائر السلالات المجاورة . وهؤلاء الكنجارة يمتازون بأن تقاطيعهم تغلب عليها الصفات القوقازية ، كما يمتازون بالجد والنشاط والذكاء . وهم أحسن إسلاماً من سائر الفور . وهذه الميزات كلها يرجعها ما كايكل إلى أنهم يشتملون على كثير من الدماء العربية . والأرجح أنه قد دخل فى تكوينهم عنصر عربى اكتسب تجربة سابقة فى بلاد ذات حكم مستقر منتظم ، أى أن الكنجارة لا يرجعون إلى عنصر من البدو الذين لا يرغبون فى حياة الاستقرار ، وإلا لما نجحوا فى إنشاء دولة تمتاز بالنظام والاستقرار . ولعل من الصواب أن نشبه الكنجارة بالفنج ، وأنهم يمثلون عنصراً قوقازياً فاتحاً ، على رأس جيش مؤلف من عناصر مختلفة ، ولكن الجميع يوصفون باسم الكنجارة ، وقد بسطوا نفوذهم على الفور واختلطوا بهم ، ولكنهم ظلوا شعبة منفصلة لها السيادة والقيادة ، وإن كانوا يعدون أنفسهم من الفور .

ويوشك أن يكون من المؤكد أن هذا العنصر الفاتح ، قد تكوّن فى إقليم ما

(١) ما كمايكل : تاريخ العرب فى السودان الجزء الأول ص ٩١

(٢) راجع مقال بيتن Beatan عن الفور فى مجلة S.N.R. لسنة ١٩٤٨ ص ٣

(٣) كتبها التونسى بالهاء ، وهناك من يكتبها بالألف أو الألف المقصورة .

ولذلك جاز لنا أن نتساءل هل كان هـذا التقسيم سابقاً لتلك الهجرة المشتملة على عناصر عربية ، أم لاحقا لها . . . وليس لدينا فى الأخبار والروايات ، مايرشدنا إلى الإجابة الصحيحة على هذا السؤال .

إن السلطنة التى أسست لم توصف بأنها سلطنة الـكايرا أو الـكنجارة بل وصفت بأنها دولة الفور ، وهذا خلاف لما رأيناه فى دولة البللو أو دولة الفنج نفسها . أو حتى الدولة العباسية أو العثمانية . . أضف إلى ذلك أنه ليس للـكنجاره لغة خاصة بهم ، بل لسانهم هو لسان الفور ، وكان المعقول أن تكون لهم ثقافة تميزهم ، ماداموا يمثلون عنصراً تغلب عليه سلالة أجنبية أيا كان مصدرها .

ولعل التفسير لهـذه الظاهرة ، هو أن العناصر الجديدة قد دخلت البلاد بالتدريج ، وعلى هجرات متتالية . وأن هذه الأقسام الثلاثة ترجع إلى زمن سابق لتلك الهجرات . وكان نزول هؤلاء المهاجرين فى القسم الذى يسكنه أحد تلك الأقسام فاختلطوا به على مضى الزمن ، حتى ازدادت فيه نسبة الدماء العربية أو القوقازية ورجحت كفته على ممر السنين ؛ حتى جاء الوقت والظروف التى مكنته من إنشاء هذه الدولة فى القرن السابع عشر ؛ أى أن اسم الـكنجاره سبق تسرب الدم العربى إليهم .

والروايات التى بين أيدينا لا تشير إلى أن أول هؤلاء السلاطين وهو سليمان سُلونج ، كان أول المهاجرين ، بل تشير إلى أجداد له سبقوه إلى نزول بلاد الفور والاستقرار فيهـا ، ويذكرون من بين هؤلاء الأجداد شخصاً يدعى أحمد المعقور لم تحدد الروايات تاريخ هجرته . وإنما تشير إلى انتسابه لبنى هلال . وأن سليمان المذكور من نسله .

والظاهر أن تأسيس سلطنة دارفور قد سبقته حروب أهلية . خرج منهـا سليمان المذكور ظافراً منتصراً ، واتخذ عاصمته فى بلدة طره فى شمال جبال مره . وأمكنه أن يوحد السلطنة ويمد نفوذها شرقاً وغرباً . . وكان حكمه ممتـداً من عام ١٦٤٠ إلى ١٦٧٠ ؛ وجاء بعـده سلاطين لهم من حسن التدبير وقوة التنظيم ما ثبت أركان الملك ، وإن لم تخل الفترات الأخيرة من الاضطرابات .

وعند ما استتب الحـكم واتسعت المملـكة ، أخذت الجماعات تنتشر فى أنحاء

السلطنة ، ومع أن نواة الدولة كانت دائماً فى المنطقة الجبلية ، فإنها لم تلبث أن شملت السهول المجاورة شرقاً وغرباً وانتشر الفور أنفسهم تبعاً لذلك .

وقد نزح من بلاد الفور شعبة من الكنجارة تدعى المسابعات ، نزحت إلى الشرق حتى احتل بعضها إقليما فى شرق دارفور ، وبعضها نزح إلى كردوفان ؛ وفى بعض الأوقات بلغوا من السطوة أنهم كانوا ينافسون سلطنة الفور بل ويناصبونها العداء أحياناً .

أما الأقسام الثلاثة للفور ، وهم الكنجارة ، والكراكريت ، والتمركا ، فإنهم منتشرون فى جميع أنحاء البلاد ، ومن الصعب أن نضع حدوداً تفصل بينها ، ومع ذلك فإن الكنجارة قد أصبحوا أكثر انتشاراً فى الشرق ، والكراكريت فى الشمال وعلى الأخص حول جبل مى . أى الإقليم الذى تحتله جماعات تمد من أقدم السكان والتمركا منتشرون بوجه خاص فى الجنوب الغربى ، وربما كان الكنجاره أوسع انتشاراً من كل من المجموعتين الأخريين[1] .

ومن الممكن أن نتصور أن سلطنة دارفور قد بدأت فى الكتلة الجبلية ، حتى توطدت أقدامها ورسخت قواعدها ، ثم أخذت تنتشر بقيادة الكنجاره إلى الشرق حتى عمت دارفور ، وزحفت إلى كردوفان ، وتغلبت على المسابعات ، وأصبح لها النفوذ والسيطرة على كردوفان الشمالية والوسطى ، إلى وقت فتوح محمد على فى سنة ١٨٢١ . وكما اتسع نفوذ الفور إلى الشرق ، اتسع أيضاً نحو الغرب ، وكان سلاطين المساليط تابعين لسلطان دارفور ، غير أن الحدود الغربية ظلت مجالا للنزاع بين سلطنة واداى وسلطنة دافور ، وإن كانت الغلبة والرجحان عادة فى جانب الفور .

ونظراً لتتابع عدة سلاطين أولى قوة وأولى بأس شديد ، أصبح اسم دولة الفور مهاباً ، تخشاه القبائل المجاورة ، ويتحاماه البقاره فى الجنوب ، على كثرة عددهم وشدة بأسهم ، وكثيراً ما نزحت جماعات منهم بعيداً هرباً من أن يمتد إليهم سلطان الفور .

ولقد كان للسلطان دائماً عناية خاصة بجيشه ، وكثيراً ما كان يحشد فيه

---

(١) أصبح الكنجاره مستعمرة فى شرق السودان فى القضارف وما حولها .

جماعات من العبيد ، يجلبهم من مختلف الجهات ، وعلى الأخص من قبائل بحر الغزال ، وبذلك تعقد التكوين الجنسي للسكان بإضافة هذه العناصر الجديدة التي اندمجت في الفور واقتبست لغتهم وثقافتهم .

وهنالك روايات تزعم أن جميع الفور الأصليين ، أصلهم من إقليم بحر الغزال قريبو الصلة بالفرتيت ، أي القبائل المختلفة التي تعيش في الشمال الغربي من حوض الغزال ، غير أن ماكايكل يرى أن لغة الفور لغة خاصة بهم ، وليس لها فيما يعلم نظير عند أية قبيلة من سكان دار فرتيت .

ويصف ماكايكل الفور الأصليين (خلاف الكنجاره) ، بأنهم ذوو قامة قصيرة أو متوسطة ، وجسم نحيل وأرجل دقيقة ، وعظام صغيرة ، ورءوس بيضية الشكل[1] والمقاييس التي أجريت على ١٨ من الفور في الخرطوم أظهرت لسلجمان أن متوسط القامة ١٦٥ م م والنسبة الرأسية ٧٤٫٤ والأنفية ١٠٢ .

ويتحامل ماكايكل عليهم فيرميهم بالبلادة أو الغباء والمكر الوضيع Stupidity and low cunning in combination؛ وأنهم يميلون إلى الخرافات والمخادعة . ويكذبون بالغريزة حتى في أتفه المسائل ، تجنباً لقول الصدق . يغلب عليهم الجهل ، ويميلون إلى تصديق ما لا يقبله العقل من الإشاعات ، سريعو الغضب ، وينزعون إلى الكسل والسكر . ولكنهم مع ذلك يضحكون بسهولة ، ويميلون إلى الفكاهة . وأقصى أمانيهم في الحياة اقتناء البقر[2] .

وشباب الفور يتزين بأساور من النحاس الأصفر ، ويحلون الرأس والشعر بالخرز والودع . ومتى وصلوا إلى سن الرجولة طرحوا هذه الحلي ونبذوها .

ومن أسلحتهم الحراب للرماية ، وأكثرهم يحتقب دائماً جعبة فيها عدد كبير منها ، كما يحمل معه مدية . ولكن سلاحهم الذي يمتازون به هو عصا الرماية ، التي يتخذونها من جذور شجر القطر . وهي عصا ملتوية بزاوية منفرجة ، ولهم

---

(١) نفس المرجع ص ١١٣ .

(٢) سبقت الإشارة الى أن هذا الرأي لم يقبله مستر بيتن ، الذي عاشر الفور زمناً غير قصير ولعل سبب الاختلاف يرجع الى أن ماكايكل شهد حرب علي دينار ، وبنى رأيه على مشاهداته عقب تلك الحرب . حين كان الأهالي غير مطمئنين الى الحكم الجديد ورجاله .

براعة خاصة فى استخدامها لصيد الأرانب ودجاج الوادى ، وعند الضرورة لضرب سيقان الخيل .

والفور شعب زراعى على الرغم من وفرة ماشيتهم وحبهم لاقتنائها ؛ وأهم غلاتهم الذرة الرفيعة ، ويزرعون البصل والطماطم أيضاً . وقد وصف ماكمايكل طريقتهم فى تخزين الذرة ، وكيف يبنون لهذا الغرض مخازن مربعة الشكل من الخشب والحطب ، على قاعدة من عروق الخشب ، مرتفعة عن سطح الأرض بنحو قدم وذلك تجنباً لخطر النمل الأبيض . وإن كان هذا النمل الأبيض نفسه مما يجمعه الأهالى ويأكلونه بعد طهيه .

ويختزن الحب فى المنازل فى داخل برمات مصنوعة من الطين الممزوج بالروث ؛ وهى عادة تبلغ نحو ١٢٠ سنتيمتراً فى الارتفاع وقطرها نحو الستين سنتيمتراً ، ويحفظون الماء والمريسة فى قدور من الخزف المصنوع ببساطة . ولا يمتاز خزفهم بالإتقان ، وأكبر صناعة يجيدها الفور هى صناعة الأسفاط المتقنة ذات الألوان والرسوم الجميلة ، يتخذونها من أنواع مختلفة من العيدان والخوص ، وربما وجد الأنسان منها ما يباع حتى فى أسواق أم درمان .

* * *

وديانة الفور الإسلام ، وكذلك ديانة جميع السلالات والأجناس فى سائر المديرية . ولا شك أن كثيراً منها دخل البلاد مسلماً ، ولكن طوائف عديدة منهم قد أسلمت وهى تسكن دارفور . وهكذا صارت مديرية دارفور كلها تدين بالإسلام من أولها لآخرها . وهذه نقطة أخرى تميز دارفور عن كردوفان ، وتميز الإقليم الجبلى فى دارفور ، عن الإقليم الجبلى فى كل من كردوفان وبلاد الفنج ، ولئن كانت من قبل فى بعض الجهات الجبلية أو المنعزلة بقية من الوثنية القديمة ، فإن ضغط الجماعات الإسلامية من جميع الجهات ، وتأسيس سلطنة دارفور نفسها وتنظيمها تنظيما إدارياً موحداً ، كل هذا كان كفيلا بنشر الإسلام والعروبة ، فى جميع أنحاء الإقليم .

وليس مما ينقض هذه الحقيقة أن تكون هنالك خرافات شائعة بين بعض

القبائل والجماعات ، وبعض الطقوس التى لا يعرفها الإسلام ، فإن أمثال هذه الأشياء لا يكاد يخلو منه بلد دخله الإسلام أو النصرانية ، لأنها مما ألفه الناس منذ أزمان طويلة ، واستئصالها أمر مرهون بمضى الوقت وازدياد الثقافة وانتشار التعليم .

وقد تكلم غير واحد من الكتاب عما شاهدوه أو نقل إليهم من عادات غريبة على الإسلام ، وأكثر ما يردده هؤلاء انتشار عادة تكرمة الأشجار أو شجرة خاصة تقام حولها شعائر وطقوس حتى وصفها بعضهم بأنها شجرة مقدسة ، وأن بعض القبائل تعبدها ، أو تعبد الروح الكامن فيها ، وكذلك تكرمة بعض الحجارة .

ويقول سلاتين فى كتابه : إنه رأى عند البدايات شجرة عظيمة من الهجليج ممتدة الفروع ، فى بقعة طهرت تطهيراً شديداً ، ونثرت حولها الرمال الناعمة ، يركع الناس حولها يبتهلون إلى إله مجهول ، ويقول إن لديهم عادات غريبة فى الميراث فالمقابر عادة تبنى على مسافة من القرية ؛ وبعد الانتهاء من دفن الميت ، يقف الورثة صفاً ، ثم تعطى لهم إشارة فيجرون بأسرع ما يمكن إلى منزله ، وأول رجل يثبت حربته فى دار الميت يكون له حق الوراثة ، ويخلفه على جميع ممتلكاته بما فى ذلك النساء والزوجات ، ما عدا أمه ، وله الحق أن يتزوج منهن من يشاء وأن يمنح الحرية لمن يشاء .

ويزعم سلاتين أنه تحدث إلى أحد رجالهم فى العادات غير الإسلامية المنتشرة بينهم ، فأنكر أن هنالك عادات من هذا النوع فلما سأله سلاتين عن الشجرة المذكورة قال إنها شجرة عادية ، فقال سلاتين إنه رأى بعض العرب الماهرية يريدون أن يرعوا أنعامهم تحت تلك الشجرة ، ولكنه لما رأى ما لها من مظاهر الحرمة والتقديس نهاهم عن ذلك ، فأخذ الرجل يشكره من كل قلبه[1] .

ويروى سلجمان أنه فى جبل كاجا — إلى الشمال الغربى من جبل كاتول — على الرغم من أن الناس مسلمون ويقولون إن المطر من عند الله ، تقام حفلات فى موسم المطر تكرمة لذكرى شخص يدعى أبو على ، يرى سلجمان أنها من مخلفات

(١) الحرب والنار فى السودان ، نسخة انجليزية (١٨٩٦) ص ١١٤ .

العهد الوثنى ، وليس « أبو على » سوى اسم لأحد صانعى المطر القدماء : وأبو على أيضاً اسم لثعبان يرى بعض القبائل أن روح الزعيم تكمن فيه ، وتقام حفلة سنوية لذكراه بالقرب من كوخ بجانب أخدود فى الأرض ، والمفروض أن هذا الكوخ كان مسكناً له ، وفى هذه الحفلة تذبح معزى ، وتلطخ بعض الصخور بدمها ، ثم يطهى لحمها على نار جديدة ، ويأكلها الأشخاص القائمون بطقوس الاحتفال ، والذين « تركبهم » روح أبو على المذكور[1] .

وهكذا يدلى الكتاب بآراء مختلفة تدور كلها حول تقديس شجر أو حجر أو ثعبان ، كما يشيرون إلى بعض العادات السائدة عند التنجور تتصل بعلامة الصليب ، ولا شك أن هذه العلامة حملها المهاجرون من بلاد النوبة فى العهد المسيحى وليس بمستغرب وجود مخلفات عند العامة ، من بقايا العهود الدينية السابقة .

سلطنة دارفور

لعل أهم ما تمتاز به دارفور — كما امتازت به دار الفنج — هو تأسيس دولة تشمل إقليما عظيما من السودان الغربى ، وأول السلاطين كما ذكرنا هو سليمان سلونج ، ولكن هنالك أخبار عديدة تدل على وجود فترات سابقة من الحكم المستقر ، شمل هذا الإقليم من قبل ، وهنالك على الأقل أسماء أربعة سلاطين فى القرن السادس عشر[2] . ولكن لا نكاد نعلم عنهم أكثر من أسمائهم ؛ وكان سلطانهم مقصوراً على إقليم جبل مرة .

وهنالك روايات أخرى تشير إلى أن أول من أسس مملكة فى الإقليم هم شعب داجو ، ولكن دولتهم كانت على الأرجح محدودة المدى ، ومنحصرة فى الإقليم

(١) Pagan Tribes ص ٤٤٨ ومن الملاحظ أن سلجمان يشير إلى جبل كاجا وهو فى الطرف الغربى من كردوفان ، بالقرب من حدود دارفور ، ولكن هنالك فى دارفور نفسها خرافات تتصل بالثعابين وأنها تلبسها الأرواح بقطع النظر عما يقال عن تحول بعض الأفراد إلى حيوانات مفترسة . وهو ما يتهم به المساليط .

(٢) مقال بيتن السالف الذكر ص ٣ . والأسماء هى دالى أفنو ، وإدريس جعل ، وكورو وتنسام والأول بلا شك من برنو .

الجنوبى الشرق ، ولم يمتد نفوذهم إلى الشمال أو إلى الغرب ، وبالتالى لم يشمل جبال مرة نفسها [١] .

كذلك تشير الروايات إلى أن شعب التنجور أسس دولة بعد زوال دولة داجو أو كانت معاصرة لها ؛ ومع أن دولة التنجور حقيقية تاريخية ، فإنها كانت مقصورة على الأطراف الشمالية من الإقليم الذى شملته دولة الفور فيما بعد . ويروى التونسى أنه شاهد أحد زعماء التنجور يلبس عمامة سوداء حداداً على ذلك الملك الزائل الذى كان آخر سلطان تولاه ، يدعى دُرشيد . الذى انتزع الفور منه زمام السلطنة . واستولوا على دياره وضموها لسلطنتهم .

وهكذا يبدأ التاريخ الأقرب إلى التدوين بتولى سليمان سلونج الملك فى سنة تقدر بعام ١٦٤٠ والظاهر أن سليمان تولى السلطة بعد عهد من الفوضى والحروب الداخلية وقد قدر تاريخ توليه الملك بمنتصف القرن السابع عشر ، فكان رأس أسرة حاكمة توالى أعضاؤها تباعاً على النسق الآتى (التواريخ الأولى تقريبية) .

سليمان سُلونج	١٦٤٠ — ١٦٧٠
موسى بن سليمان سلونج	١٦٧٠ — ١٦٨٢
أحمد بكر بن موسى	١٦٨٢ — ١٧٢٢
محمد (دوره) بن أحمد بكر	١٧٢٢ — ١٧٣٢
عمر (ليل) بن محمد دوره	١٧٣٢ — ١٧٣٩
أحمد قاسم بن أحمد بكر	١٧٣٩ — ١٧٥٢
محمد طيراب بن أحمد بكر	١٧٥٢ — ١٧٨٧
عبد الرحمن الرشيد بن أحمد بكر	١٧٨٧ — ١٨٠٢
محمد فضل بن عبد الرحمن	١٨٠٢ — ١٨٣٩ [٢]
محمد حسين بن محمد فضل	١٨٣٩ — ١٨٧٤
ابراهيم بن محمد حسين	١٨٧٤ — ١٨٧٥

(١) راجع لامبن Lampen فى S.N.R. ، ١٩٥٠ ، ص ١٨٣

(٢) كان هو السلطان وقت رحلة الشيخ التونسى ، وقد مدحه مدحاً كثيراً .

(عهد الحكم المصرى	١٨٧٥ — ١٨٨٣)
(عهد المهدية	١٨٨٣ — ١٨٩٩)
على بن دينار	١٨٩٩ — ١٩١٦

***

ومع أن مدة هـذه السلطنة لم تدم أكثر من قرنين ونصف قرن ، فى حكم مستمر مطرد . فإن هذه المدة ليست بالفترة القصيرة بالنسبة لمثل هذه الممالك الإفريقية النائية ، وبالنظر إلى شدة التنافس والتنازع ، وإلى موقع الإقليم الجغرافى ، الذى جعلها عرضة للإغارات من نواح عديدة .

ومهما يكن من شىء فقد قامت فى إقليم دارفور سلطنة مستقرة ذات نظام إدارى واضح ، وقد اتسمت أحياناً حتى شملت جزءاً كبيراً من كردوفان ، بل امتدت فترة قصيرة حتى وصلت إلى نهر النيل عند بلدة المتمه .

وقد كان لهذه السلطنة نظم أساسية ، ضمنت لها بعض الاستقرار ولا تزال آثار هذه النظم باقية إلى اليوم ، وأهم عنصر فى هذا النظام هو شخصية السلطان نفسه فقد كان أكثر هؤلاء السلاطين رجالا ممتازين ، وكان لكل منهم جيش دائم ، وحرس شخصى عنى السلطان بتأليفه عناية خاصة ؛ وكثيراً ما كان يعتمد على عدد ضخم من العبيد ، الذين جندوا خصيصاً لهذا الغرض ، وكان له مجلس خاص من المقربين .

وقد كانت العاصمة الأولى للسلطان فى طره ، فى الطرف الشمالى من جبال مره ونقلت بعد ذلك إلى الفاشر ؛ وقد قسمت السلطنة إلى أربعة أقسام إدارية كبيرة ، فى الشمال ، وفى الجنوب ، وفى الشرق ، والغرب ، مع بعض الانحراف فى التقسيم عن الجهات الأربعة الأصلية ، وكل من هذه الأقسام الأربعة كان يتولى إدارتها شخص يدعى المقدوم ، وكثيراً ما كان هذا المنصب وراثياً . وكان للمقدوم سلطة واسعة ، وله الحق فى الحكم بالإعدام . وكان يطوف بمديريته ومعه حرسه الخاص ، لكى يحافظ على الأمن ، ويعاقب من يخل به ، ويصلح بين القبائل . ويفصل فى جميع الأحكام . وهو الذى يولى المناصب القبلية الرئيسية ، وعليه أن يحضر

إلى عاصمة السلطان مرة فى كل ثلاث سنوات ، لـكى يشهد الاحتفال بتجديد جلود الطبل السلطانى ويؤدى خراج السنوات الثلاث ؛ ويتسلم جزءاً من هذا الخراج لينفقه فى إدارة مديريته .

وكانت كل مديرية (أو مقدومية) مقسمة إلى أقسام صغيرة على رأس كل منها موظف يسمى « شرطى » أو شرتى ، ولو أن نفوذه ومنصبه كان أعظم مما يدل عليه هذا اللفظ ؛ وكل قسم برئاسة شرطى مقسم بدوره إلى أقسام صغيرة برئاسة دمالج ، وهؤلاء الدمالج يكونون أحياناً مجلساً استشارياً خاصاً لمساعدة الشرطى فى أعمـاله .

وهنالك عدة وظائف أخرى مخصصة للحاشية السلطانية ، وبعضها قد يكون للشرطى نفسه ، منها منصب يدعى أرُنْدولُـو : وهو يعادل منصب الحاجب ، وكان منصباً خطيراً ، ولم يكن مقصوراً على عمل الحاجب ، أى حارس باب السلطان أو الشرطى ، بل هو أقرب إلى وظيفة الحاجب عند خلفاء العرب ؛ فقد كان شخصاً ذا نفوذ كبير فى البلاط .

وهكذا نرى أن سلطنة دارفور كسلطنة الفنج كانت ذات إدارة واسعة منظمة تنظيما دقيقاً ، وإن كانت كلها تعتمد فى النهاية على شخصية السلطان نفسه ؛ وما رزق من الهمة والذكاء والفضائل المختلفة التى لا بد منها لإدارة دولة عظيمة .

ويبدو أن بلاد دارفور ، وعلى الأخص فى جبال مرة وما حولها كانت أكثر ازدحاماً بالسكان فيما مضى ، مما هى عليه اليوم ، ولعلها قد مرت بها أطوار تاريخية عديدة أكثرها لا يزال مجهولا . فقد لاحظ ما كمايكل وجود منازل عديدة ، وأحياناً قرى كاملة مهجورة ، وكثير منها يشتمل على منازل مبنية بالحجارة ، على طراز لا مثيل له فى الوقت الحاضر[1] .

* * *

الفـــلاّتا

جاء فى سياق الـكلام عن قبائل دارفور ذكر الفلاتا ، وأنهم من العناصر

(١) الجزء الأول من تاريخ العرب فى السودان ص ١٠٨ وما بعدها .

التى هاجرت إلى دارفور من الجهات الواقعة فى أقصى الجنوب من الصحراء الكبرى ، أى من أقاليم المراعى (السفانا) الممتدة شمال منطقة الغابات ، من السودان إلى المحيط الأطلسى تقريباً . وبعض هؤلاء يمثلون هجرات حديثة . ولكن بعضهم قد نزل دارفور منذ قرنين أو أكثر واتخذ له وطناً إلى الجنوب من منطقة الجبال . وهؤلاء وصفهم التونسى بأنهم من جماعات الفولا (المفرد فولانى) ، المنتشرين فى أقاليم السفانا ، فيما يسمى الآن السودان الفرنسى ، كما تشمل أيضاً القسم الشمالى من بلاد نيجريا .

والأصل فى الفولا أنهم قبائل حامية امتزجت بدماء عربية ، وكان لها نشاط كبير فى نشر الإسلام فى غرب أفريقية وفى نيجريا . وبذلك تسربت إليهم دماء أهل الجنوب أيضاً .

غير أن اسم الفلاتا ليس مقصوراً على تلك الشعبة التى تعيش فى دارفور ، بل يطلق فى السودان على جماعات كبيرة انتشرت فى جميع البلدان ، وفى إقليم الجزيرة وشرق السودان بوجه خاص ، حيث تراهم يحتلون قرى وجهات بأكملها . ويقسمهم مستر ترمينجهام إلى ثلاثة أقسام :

١ — طوائف الحجاج الذين يقصدون إلى الحج عن طريق السودان ، وطريقهم الرئيسى من دارفور إلى الأبيض ، حيث يركب أكثرهم القطار إلى بور سودان ومنها إلى الحجاز . ونظراً لأنهم يكتسبون رزقهم أثناء رحلتهم ، فإن رحلة الحج هذه تستغرق نحو سبع سنوات . وفى العودة يفضل كثير منهم البقاء فى السودان .

٢ — المجموعة الثانية تتألف من مستعمرات كبيرة فى إقليم كسلا وسنار ، وكثير من سكانها يتألف من جنود من غرب أفريقية كانوا يحاربون فى صفوف الخليفة ، ثم تولت إدارة السودان توطينهم ، وتهيئة أسباب الإقامة لهم . ومن هذا الطراز تلك المستعمرة العظيمة التى قامت فى إقليم سنار برئاسة سلطان مايرنو ، وهو ابن سلطان سُكوتو فى غرب إفريقية ، وهنالك عدد كبير منهم يعيش بصفة دائمة ويشتغل بمختلف الحرف فى أم درمان وغيرها من المدن . وهم يحتشدون بوجه خاص حول

الإدارات والمنشآت الحكومية ، حيث يكونون جزءاً عظيما من الأيدى العاملة . ويزعم مستر ترمنجهام أنه لولاهم لما أمكن تنفيذ مشروع الجزيرة .

٣ — أما الطائفة الثالثة فهى تلك المستعمرة القديمة إلى الجنوب من دارفور ، التى تقدم ذكرها .

وليس هنالك إحصاء ولو تقريبى لعدد الفلاتا فى السودان . غير أن أحد موظفى حكومة نيجريا قام بإحصاء خاص للمهاجرين من نيجريا ، وقدرهم بما يقرب من ثمانين ألفاً . أما المهاجرون من جهات أخرى فليس لدينا عنهم أى إحصاء أو تقدير .

ومن المعلوم أن السودانيين ليسوا مرتاحين بوجه عام لهذه الهجرات المتزايدة من الفلاتا ، خصوصاً أن السكان أنفسهم فى ازدياد مطرد . غير أن إدارة السودان كانت تشجع هذه الهجرات على زعم أنها لازمة لتوفير الأيدى العاملة[1] .

---

(١) راجع ترمنجهام ص ٣١ S. Trimingham ; Islam in the Sudan

الفصل الثالث عشر

النوبيون

جاء ذكر النوبيين مراراً فى الفصول السابقة فى مناسبات عديدة ، وعلى الأخص عند الإشارة إلى مستعمراتهم فى مختلف أنحاء السودان ، غير أن الأوطان الرئيسية للنوبيين هى بالطبع تلك الأراضى الملاصقة لنهر النيل من شمالى أسوان إلى بلدة الدبة وكورتى ، يستقلون أحياناً بهذه الجهات النهرية لا يشاركهم فيها أحد ، ويجاورهم أحياناً — كما رأينا من قبل — جماعات عربية .

فالنوبيون فى أوطانهم الأصلية شعب نهرى ، يلتزم وادى النيل التزاماً شديداً ، قل أن نجد له نظيراً فى أى جزء آخر من الوادى . وذلك لاشتغالهم بالزراعة من جهة ، ولأن الطبيعة الصحراوية للأقاليم المتاخمة للنهر شرقاً وغرباً ، أرغمت السكان على مضى القرون الطويلة أن تظل ملتزمة للنهر ، وللمساحات القليلة الصالحة للزراعة التى تحف به .

ولهذا الإقليم المستطيل الضيق مقدرة كبيرة على امتصاص العناصر الغريبة التى دخلته من آن لآن ، وعلى تمثيلها تمثيلا كاملا حتى تندمج اندماجاً تاماً فى سائر السكان ، وقد تلقى النوبيون على مدى آلاف السنين ألواناً من السلالات والجماعات ، نزلت ديارهم مهاجرة أو غازية ثم لم تلبث أن استولت عليها البلاد وأدمجتها فيها . وهذه الخاصية وإن كانت معروفة فى مصر ، فإنها أكثر ظهوراً فى الديار النوبية .

وليست هذه المساحة الطويلة التى يعيش فيها النوبيون ، مطردة فى مظاهرها الطبيعية ؛ فعلى الرغم من أنها تتفق فى أنها جزء من وادى النيل يقرب طوله من الألف كيلومتر ، فإن طبيعة الوادى تختلف من مكان لآخر . فالإقليم الجنوبى من الدبة إلى أبو فاطمه وكرما ، يشتمل على واد سهل متسع ، يغطيه الفيضان ، فى كثير من أجزائه وفى ذلك ما يساعد على بعض المشروعات الزراعية ، والنهر هنا سهل

من النوبة مجموعة مستقلة من المجموعات الأخرى . لأن النسب العربى مشترك بين جميع أبناء الوادى ، ولـكن لبعضهم مميزات انفرد بها وفى ذلك ما يبرر النظر إليهم كوحدة قائمة بذاتها .

* * *

والنوبة — بوصفهم شعباً يعيش فى أوطانه الحالية — لم يلق من العلماء ما يستحقه من الدراسة ، سواء من الناحية الإثنولوجية أو الاجتماعية . وذلك على الرغم من كثرة ما كتب عن بلاد النوبة فى الأزمنة القديمة وعن لغتهم وما لها من الاتصال بلغات تشبهها من قريب أو بعيد فى جهات أخرى من حوض النيل ؛ وعن الآثار التى اشتمل عليها هذا الإقليم الأوسط من نهر النيل ، ومقارنتها بالآثار فى نواح أخرى من الوادى ؛ وعن المقابر وما اشتملت عليه من العظام والجماجم . والمقارنة بينها وبين السلالات المعروفة فى الشمال والجنوب ، كتبت فى هذه الموضوعات وأمثالها الفصول الطوال (١) ، أما وصف النوبيين فى الوقت الحاضر فـكان دائماً يعالج فى بضعة أسطر لا تسمن ولا تغنى .

هذه البحوث القيمة والجهود العلمية الضخمة ، حاول أصحابها أن يكشفوا عن الأطوار المختلفة التى مرت ببلاد النوبة وعن أصل اللغة النوبية ، وهل هى تمثل لغة وطنية قديمة نشأت فى البلاد أو لغة دخيلة جاء بها عنصر دخيل فى عصر من العصور . وعن الصلة بين الثقافة النوبية فى الشمال وفى إقليم مروى فى الجنوب . ولا يستطيع منصف أن يزعم أن هذه المحاولات قد قربتنا من حل لواحدة من تلك

---

(١) نورد هنا بعض المراجع عن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر :

1) The Archealogical Survey of Nubia

(نشرته مصلحة الآثار المصرية فى عدة مجلدات :

2) Seligmann : The Hamitic Próblem. J.R.A.I. 1913.

3) Hillelson : Nubian Origins. S.N.R. Vol XIII pp. 137—148.

4) Kirwan : A Survey of Nubian Origins S.N.R. Vol. XX p. 47

5) G.W. Murray : English—Nubian Dictionary (1923).

6) Junker and Shafer : Nubisch Texete

هذا بخلاف الـكتب الخاصة بالسودان مثل كتاب ماكمايكل وترمنجهام وكتب الرحالة أمثال بركهارت ، والمراجع العربية مثل المقريزى والمسعودى وابن خلدون ، مما سبقت الإشارة إليه . وكذلك المؤلفات القديمة لعلماء اليونان واللاتين أمثال إراتوسطاين وسترابون وغيرهما .

المشاكل ، بل ليس من الإسراف فى شىء أن نقول إنها زادتها صعوبة وتعقيدا ،
والذى يهمنا هنا هو البحث عن نشأة السلالة النوبية ومبلغ قدمها فى أوطانها الحالية ، والأوطان الأخرى التى انتشرت أو أثرت فيها وأهم العناصر التى اندمجت فيها على مضى القرون ومن المفيد مع هذا كله أن نعرض للبحوث الخاصة باللغة النوبية ونشأتها وانتشارها ، بقدر ما تساعد على إيضاح الأطوار المختلفة التى مرت بالشعب النوبى .

إن تقدم الأبحاث الأثرية فى بلاد النوبة السفلى والعليا لم يكن على وتيرة واحدة ، فهنالك ظروف خاصة دعت إلى البحث الأثرى فى بلاد النوبة الشمالية ، وإلى التوسع فى هذا البحث بسبب إنشاء خزان أسوان ، والخوف من ضياع معالم الآثار القديمة فى هذا الإقليم . فترتب على ذلك القيام بالتنقيب عن الآثار وعما اشتملت عليه المقابر القديمة فى المساحة الممتدة من أسوان إلى جنوب وادى حلفا ، ونشر نتائج تلك البحوث بواسطة مصلحة الآثار المصرية ، أما بلاد النوبا العليا فإنها لم تبحث بحثاً أثرياً يستحق أن يقارن بالأبحاث الخاصة بالإقليم الشمالى . والجهات القليلة التى بحثت مقصورة على مواضع محدودة جداً . وحتى هذه لم تبحث بحثاً وافياً . ولذلك كانت المقارنة بين الشمال والجنوب فى أبحاث العلماء غير متكافئة ، مما يجعل الوصول إلى نتيجة سليمة أمراً غير يسير .

أما البحوث اللغوية فلعلها كانت أكبر الأسباب فيما وقع فيه العلماء من الأخطاء ، لأن علماء اللغة ، وهم يمثلون أكبر مجموعة من الباحثين فى الدراسات النوبية ، قد بنوا آراءهم على اعتبارات لغوية دون أن يدخلوا فى بحثهم أى اعتبار آخر . ولعل أكبر خطأ ترتب على ذلك هو الخلط بين الشعب النوبى وبين الجماعات التى يطلق عليها اسم النوبا سكان الجبال الواقعة فى جنوب كردوفان . وشعب النوبة كما ذكرنا شعب قديم : والاسم نفسه قديم ، أما « النوبا » كاسم لسكان جبال كردوفان الجنوبية فلا يعرفه السكان أنفسهم ، وهم يدعون أنفسهم أحياناً سكان الجبال ، ولكن التسمية السائدة هى أن كل شعبة تسمى باسمها الخاص ، دون أن يكون هنالك اسم جامع شامل لجميع سكان الجبال .

وقد وقع فردريك مولر وتبعه بعض الكتاب ، فى خطأ كبير ، عندما رأى أن هنالك نوعاً من التشابه بين اللغة السائدة فى بعض جبال كردوفان الجنوبية وبين اللغة النوبية ، فحكم بأن جميع سكان الجبال المذكورة يتكلمون لغة تمت بصلة القرابة إلى اللغة النوبية ، ولم يكتف بهذا ، بل حكم أيضاً بأن النوبيين والنوباويين من سلالة واحدة : وقد أصبح حكمه هذا مضرب الأمثال عند علماء الأجناس للخطأ التى يتورط فيه علماء اللغات ، حين يبنون قرابة النسب على تشابه لغوى[1] .

غير أن الخطأ الذى وقع فيه فردريك ملر ومدرسته كان خطأ مزدوجا ، فقد أصبح من الثابت أن الجبال فى جنوب كردوفان لا تشتمل على لغة واحدة ، بل على ثلاثة مجموعات لغوية مختلفة ، وأن الجبال الشمالية الغربية فقط مثل جبل داير وما يليه ، هى وحدها التى يتحدث أهلها بلسان ، يرى علماء اللغات أنه يشبه من بعض الوجوه لغة النوبيين .

أما الخطأ الثانى فهو أن السلالة النوبية والسلالة النوباوية مختلفتان أشد الاختلاف سواء أكان ذلك من ناحية المظهر الطبيعى أو العادات الاجتماعية السائدة فى كل من الإقليمين . فالنوبيون شعب قوقازى ، بينما سكان الجبال تغلب عليهم الصفات الزنجية . وقد وصف سلجمان كلا منهما فقال : إن النوباوى ممتلئ الجسم والعضلات شديد السمرة إلى درجة تبرر وصفه بأنه أسود البشرة ، أما النوبى فنحيل متوسط القامة ، وبشرته سمراء سمرة تكون فى كثير من الأحيان خفيفة . وسكان الجبال شعرهم مفلفل والنسبة الأنفية عالية ، والصفات الزنجية المعروفة واضحة ، أما النوبيون فشعرهم مموج فى الغالب . وقد يكون أقرب إلى الاستقامة برغم وجود أحوال شاذة . والتقاطيع لا تشبه التقاطيع الزنجية فى شىء .

كذلك من الناحية الثقافية يختلف الإثنان كل الاختلاف ، فالنوبيون قد يستخدمون الشلوخ كما تفعل القبائل العربية ، ويمارسون الختان للأولاد والختان الفرعونى للبنات ، وهذه كلها عادات لا يعرفها النوباويون سكان الجبال . ولكنهم بالعكس يمارسون عادات لا يعرفها النوبة مثل خلع القواطع ، وخرق الشفة السفلى

---

(١) سلجمان المرجع المذكور ص ٦١٠ وما بعدها

للنساء لـكى توضع فيها حلية . . وكلا الشعبين يصنع الفخار ، ولـكن شتان بين الطريقة المتبعة ونوع الفخار الناتج فى الإقليمين . فالفخار النوبى مشابه تمام المشابهة لما يصنعه المصريون ، وليس هناك وجه شبه بينه وبين ما يصنع فى جبال كردوفان الجنوبية[١] .

ومما يؤسف له أن سكان الجبال هؤلاء قد أطلق عليهم اسم النوبا ، فساعد تشابه الأسماء على كثير من الخطأ ، وعلى الأخص عند العامة وهواة العلم . ولئن كان هذا الأمر مما لا يمكن الرجوع فيه ، فإن من الواجب ، وعلى الأخص على المتعلمين من سكان السودان ومصر ، أن يدركوا أن هذا التشابه فى الاسم سطحى ، ولا يستند إلى أية صلة أو قرابة نسب بين الشعبين .

أما التشابه اللغوى فلقد كان من الممكن أن نتصور هجرة نوبية انتشرت فى كردوفان متجهة نحو شمالها أولاً ، ثم ممتدة إلى جنوبها بعد ذلك ، حتى تستقر فى الأطراف الشمالية الغربية من الجبال[٢] ، غير أن هذا الرأى السهل البسيط لايشفى غلة علماء اللغة ، وعلى الأخص المتطرفين منهم ، ذلك أن اللغة النوبية أو لهجات تشبهها من بعض الوجوه موجودة أيضاً فى شمال كردوفان ودارفور ، كما هى الحال فى جبل ميدوب ، طبقا لما سبقت الإشارة إليه فى الفصل السابق ، وكذلك فى الأطراف الجنوبية من البطانة بين أعالى العطبره والنيل الأزرق ؛ وكان من الممكن تفسير هذا التشابه بما كان للنوبيين من التأثير فى إقليم النيل الأزرق وفى سهل البطانة بالذات ، كما كان لهم انتشار مؤكد فى دارفور وكردوفان . ولـكن هذا التفسير يأباه كثير من علماء اللغة مثل زيلارتس . . وفوق ذلك اكتشف اللغويون أن هنالك خصائص فى بعض المفردات وفى النحو والصرف ، مشتركة بين اللغة النوبية وبين لغات البارى فى أعالى بحر الجبل ، والمازاى فى

---

(١) نفس المرجع ص ٦١٢

(٢) يرى ما كايكل (تاريخ العرب فى السودان الجزء الأول ص ١٤) أن هذا قد حدث بعد الفتح العربى لمملكة دنقلة .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الشعبة الثانية من القسم ا ، التي هاجرت في القرن الأول والثاني بعد الميلاد قد سلكت طريقين : أولهما طريق وادي الملك ، إلى بلاد النوبة مباشرة ، والآخر طريق درب الأربعين إلى الواحات الخارجة ، وهؤلاء كانوا قلة ، أما الكثرة فقد هاجرت إلى بلاد النوبة حيث أقاموا مع أقربائهم الذين نزلوا هذه الديار قبلهم ببضعة قرون .

أما قسم ب فيقول عنه المؤلف إنه هاجر مشرّقاً إلى أرض الجزيرة في أوائل القرن الرابع (حوالي سنة ٣٢٠) ثم إلى البطانة حيث أغار على مملكة مروى وقضى عليها ، ولكنه لم يقتبس حضارتها ولم يمتزج بالسكان ، إلى أن دخلت المسيحية إلى بلاد دنقلة ثم إلى مروى فانتشر تأثيرها إلى قسم ب بل وامتد أيضاً إلى جبل ميدوب .

والمهم في هذا كله أن هذا المؤلف وغيره يزعم أن هؤلاء المهاجرين هم السلالة التي تدعى بحق باسم النوبة . وهم الذين نشروا اللغة النوبية في البلاد وقد حملوها من أوطانهم الأصلية في شمال كردوفان .

وقد حاول زيلارتس بنظريته هذه التي تستند إلى بعض الخصائص اللغوية ، أن يعطي صورة كاملة تفسر الظاهرات المختلفة المتصلة بانتشار الثقافة النوبية في مختلف الجهات ، ولم يفته أيضاً أن يجد تفسيراً لبعض الإشارات التي ذكرت بأن النوبيين وصلوا إلى الواحات الخارجة . ويبدو في الصورة التي رسمها تلك النزعة الغالبة عند كثير من الكتاب ، وهي أن اللغة النوبية ليست أصلية في بلاد النوبة بل دخلت البلاد في وقت ما – سابق للعهد المسيحي — كما أن الجماعات التي أدخلت هذه اللغة ونشرتها هي التي كانت تدعى باسم النوبة .

ومع ذلك فليس من السهل قبول هذه النظرية لسببين : أولها ما أوضحناه من قبل من أن النوبا في كردوفان يختلفون كل الاختلاف عن النوبيين ، والسبب الثاني أن هذه الهجرات لطائفة ا النوبية قد دخلت بلاداً تسودها الحضارة منذ قرون عديدة ، كثيرة السكان ، وإن اتسعت لبعض المهاجرين فليس بمعقول أن يضطر هؤلاء المهاجرون السكان الأصليين إلى تغيير لسانهم بل وإلى تغيير اسمهم . ونحن

نعلم أن سكان البلاد لم يكونوا بالشعب السهل الذى يتيسر إخضاعه .

وقد ظلت اللغة النوبية زمناً طويلا دون أن تكتب إلى أن تحولت البلاد إلى الديانة المسيحية فى منتصف القرن السادس على أيدى قسس مصريين ، فكتبت النصوص الدينية بالحروف القبطية . كما استخدمت تلك الحروف فى كتابات أخرى ، وبذلك أصبحت اللغة النوبية لغة مكتوبة . أما النصوص السابقة لذلك العهد فإنها نصوص باللغة المصرية القديمة ، ولعلها كانت اللغة الرسمية للبلاد بينما كانت النوبية هى لغة الناس ، مع ما بين اللغتين من التشابه .

ويصف لنا مستر مرى اللغة النوبية وصفاً نلخصه فيما يلى :

ليس هنالك لغة تتفق مفرداتها مع اللغة النوبية اتفاقاً كثيراً . بل إن كثيراً جداً من أصول الكلمات النوبية ليس له نظير فى جميع اللغات التى قورنت بها . أما اللغات التى تشابه اللغة النوبية فى مفرداتها ، فأكثرها بلا شك لغات حامية ، وبلا شك أن الصبغة الحامية هى الغالبة على اللغة سواء من ناحية المفردات أو النحو والصرف ، ولكن هنالك اختلافاً كبيراً بينها وبين اللغات الحامية ، فى ناحية واحدة وهى النظام الصوتى Phonetic System ، ولكن له نظير فى اللغات النيلية فى جنوب السودان مثل لغة البارى(١) .

فاللغة النوبية تشتمل حسب رأى هذا المؤلف وغيره على عناصر حامية وأخرى غريبة عن الحامية . ولعل مصدر هذا العنصر الغريب بعض الشعوب الجنوبية . وقد رأى بعض العلماء مثل راينش Reinisch أن الأصل فى اللغة النوبية أنها حامية دخلتها مؤثرات أجنبية . ولكن بعضهم مثل مرى نفسه يرى أنها فى الأصل لغة نيلية جنوبية مثل لغة البارى . ثم تعرضت لمؤثرات حامية شديدة على مدى العصور . ومع أن الموضوع لا يزال يفتقر إلى البحث فإن الرأى الأول هو الذى يتفق مع التطورات الجنسية والتاريخية .

هذا وقد دخلت اللغة النوبية مفردات من مصادر أخرى ، بعضها من شمال

---

(١) راجع مرى المرجع السابق ص X .

الحبشة ، عن طريق مملكة مروى على الأرجح ، كما استعارت اللغة النوبية ، كلمات عربية بما يقرب من ثلث مفرداتها ، كما تأثرت بالطبع باللغة المصرية القديمة والقبطية .

ومع ذلك فليس الأمر المستغرب هو أن تقتبس اللغة النوبية ألفاظاً عربية كثيرة ، بل الأمر الذى يبعث على العجب هو تمسك النوبيين بلسانهم على مدى العصور الطويلة ؛ وبالرغم من تحولهم إلى الإسلام تحولا تاماً ، ظلوا محتفظين بلغتهم .

* * *

وكما اختلف الكتاب فى أن اللغة النوبية حامية — أى من نفس الأسرة اللغوية التى تنتمى إليها لغات البجه وغيرهم — ثم تأثرت بعناصر أجنبية ؛ أو أنها لغة جنوبية مثل لغة البارى ثم غلبت عليها المؤثرات الحامية ؛ كذلك اختلف الكتاب فى الشعب النوبى هل هو فى الأصل نازح من الجنوب ، تغلب عليه الصفات الزنجية ، ثم تعرض لهجرات قوقازية من الشمال ومن الشرق والغرب ، أو أنه فى الأصل شعب حامى قوقازى تأثر ببعض الهجرات الزنجية ، أو دخلته الدماء الزنجية كما هى الحال فى سائر وادى النيل ، عن طريق تجارة الرقيق .

إن الرأى الذى سبق التعبير عنه مراراً فى الفصول السابقة ، هو أن السودان الشمالى بوجه عام لم يكن فى وقت من الأوقات وطناً أصلياً للجنس الزنجى ، ولم يقصده الزنوج من تلقاء أنفسهم بالهجرة والاستقرار ، وقد بنى هذا الرأى على دراسة تاريخ هجرات الجنس الزنجى من القارة الاسيوية فى زمن قديم ، والطرق التى سلكها وأسلوب المعيشة التى مارسها ، والتى لم تكن تصلح لها الجهات الشمالية ، فلننظر الآن إذا كان هذا الرأى مما يتفق وتطورات السكان فى بلاد النوبة ، كما كشفت عنها الحفائر ، ودلت عليها الأخبار .

ونظراً لأن الاستقرار فى بلاد النوبة يرجع إلى زمن قديم جداً — إلى الألف الخامسة قبل الميلاد على الأقل — ولأن البلاد تعرضت لهجرات وغزوات متنوعة فى هذه العهود الطويلة ، نرى العلماء يتحدثون عن النوبيين فى الأعصر المختلفة ، بأنهم يكونون مجموعات : ا ، ب ، حـ وبعضهم يضيف أيضاً مجموعة رابعة د ، ومجموعة

خامسة س[1] . والاتفاق العام بين هؤلاء الكتاب هو أن مجموعة ا ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، والعصر السابق للأسر ، واستمرت إلى الأسرات الأولى ، ومجموعة ب ترجع إلى عصر بناة الأهرام ، وهى تمثل مجموعة ا معدلة تعديلا ملحوظاً فى حضارتها وثقافتها ، ومجموعة ج ترجع إلى عصر المملكة الوسطى أى الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها ، أما مجموعة س فيرجعونها إلى العصر الرومانى ابتداء من سنة ٣٠٠ ميلادية .

ولا يتسع المقام لتتبع حوادث التاريخ فى جميع هذه المراحل ولكن من المهم أن نذكر أن محور هذه الحوادث واحد فيما يظهر ، وهو العلاقات بين مصر وبلاد النوبة . وكانت هذه العلاقات تمتاز بالاتصال الثقافى والتجارى ، وعلاقات حسن الجوار ، ثم تتخللها فترات اضطراب ، تجند فيها حملة عسكرية للحد من طغيان عدو من الأعداء ، وجميع الشواهد تشير إلى أن هذا العدو دخيل ، أغار على بلاد النوبة وقد يمتد عدوانه إلى الحدود المصرية .

ويسهل التسليم بأن بلاد النوبة ، وهى البقعة الخصيبة وسط الصحراء والفيافى قليلة الماء والنبات ، قد تتعرض للعدوان من ثلاث نواح : من الشرق حيث قبائل البجه ، أو طوائف منهم ، ومن ليبيا التى كانت وكراً لجماعات طمحو وتهنو وغيرهم ، الذين تردد عدوانهم على وادى النيل قرناً بعد قرن ؛ ثم من الجنوب ، من شمالى كردوفان ، حيث الطريق ممهد بواسطة الأودية التى تنتهى إلى نهر النيل .

والإغارات الأولى والثانية يقوم بها على الأرجح جماعات حامية شرقية وليبية ، تزيد فى نسبة الدم القوقازى فى البلاد ، أما الهجرات الجنوبية فإن من الجائز أن تقوم بها جماعات فيها بعض الصفات الزنجية Negroids بقيادة قوقازية . وهذه الظاهرة مألوفة فى القارة الإفريقية .

هذه هى الاعتبارات الأساسية التى يجب أن نذكرها ونحن نتتبع التطورات النوبية من مجموعات ا إلى ب و ج وهلم جرا . وسنجد فى كتابات بعض علماء الآثار ما يؤيد هذا الرأى .

---

(١) هذه المجموعات التاريخية لا صلة بينها وبين الأقسام ا ، ب اللغوية التى سبقت الإشارة إليها .

فمجموعة ا خصصت لها فترة طويلة فى تاريخ بلاد النوبة إذ تمتد من نحو عام ٥٠٠٠ إلى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد . هذه الفترة الطويلة هى عصر تكوين السلالة النوبية ، وإن لم تكن البلاد أثناء ذلك بمأمن من الاضطراب . ويقول سلجمان فى وصف النوبيين فى ذلك العصر : إن الحفائر قد كشفت أن بلاد النوبة فى أقدم الأزمنة كانت آهلة بشعب يدفن موتاه بنفس الطريقة المتبعة فى مصر فى العصر السابق للأسرات ؛ ويصنع فخاراً على نفس الأسلوب المتبع فى مصر فى ذلك الوقت ؛ وتشتمل مقابرهم على أدوات وآلات عديدة تتفق تماماً مع ما عثر عليه فى المقابر المصرية لذلك العهد ؛ وقد وجد الأستاذ إليوت سمث بعد دراسة العظام والجماجم أن النوبيين من مجموعة ا لا يختلفون عن المصريين فى ذلك الزمان ؛ ثم يتطرق الأستاذ سلجمان إلى الإثبات بأن هاتين السلالتين المتشابهتين كانتا تعيشان فى عصر واحد(١) .

كان هذا الشعب النوبى القديم إذن من السلالة التى ينتمى إليها المصريون القدماء : وتمتاز هذه السلالة بالقوام النحيل والقامة المتوسطة أو فوق المتوسط بقليل ، والرأس مستطيل بارز من الخلف ، والتقاطيع قوقازية ، وهى فرع من الجنس الذى يطلق عليه اسم جنس البحر المتوسط لانتشاره فى أوربا وإفريقية على سواحل هذا البحر . وهو يمتاز فوق ذلك بالأنف المعتدل والشفاه المعتدلة ، وبشعر مموج أو أقرب إلى الاستقامة ولون البشرة أسمر أو فى لون الحنطة .

هذه السلالة التى عمرت بلاد النوبة دهراً طويلا ، والتى كانت حرفتها الزراعة وهى حرفة تساعد على التعمير وازدياد السكان ، هى بمثابة الأسس التى بنى عليها الشعب النوبى من الناحية الجنسية ، والتى لم تحدث فيها الإغارات على مضى القرون سوى تغيرات يسيرة .

وكانت العلاقات مع مصر بوجه عام طيبة ، وتدخل فيها التجارة والمبادلة ، وكانت البعثات المصرية تمر من بلاد النوبة نحو بلاد جنوبية مثل يام ، كما حدث للوزير حرقوف فى عصر ببى الثانى ، دون أن تلقى معارضة أو تصادف عدواناً ،

(١) مقالة سلجمان فى J.R.A.I. لسنة ١٩١٣ السابق ذكرها ص ٦١٢ .

ولذلك يبدو أن الإغارات التى قام بها سنفرو ، لم تكن موجهة إلى النوبيين الأصليين بل إلى عنصر غريب ، يختلف عن السكان الأصليين بأنه لم يكن يحترف الزراعة ، بل يحترف الرعى . ولذلك نرى سنفرو أخذ يسجل أنه قد حصل من هذا العدو على غنائم تقدر بمائتى ألف رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة .

وهذا الاضطراب الذى ظهر فى عصر سنفرو أخذ يتكرر فى صورة أشد وأوضح فى عصر الأسرة الثانية عشرة . وأخذت تظهر فى البلاد عناصر جديدة ، وتتوغل فيها توغلاً عدائياً . وقد ترك أمينمحمت الأول كتابة يقول فيها : « لقد استوليت على شعب واوات ، وقبضت على شعب المازوى » . ولا نعرف بالضبط ما شعب الواوات وهو على الأرجح قبائل ليبية ، أما شعب المازوى فقد سبق لنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب أن أوضحنا أن المازوى هم البجه .

ويرى غير واحد من العلماء أنه فى هذه الفترة وما بعدها أخذت تظهر ، فى فترات الإغارة هذه ، عناصر تشبه السلالات الزنجية ، وأخذت تؤثر فى التكوين الجنسى للسكان بعض التأثير ، وهذا هو العصر الذى أطلقوا على سكانه اسم المجموعة النوبيه جـ ؛ وهى التى قرر الأستاذ إليوت سميث بأنها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن النوبيين كما نعرفهم اليوم ؛ أما العنصر الزنجى الذى دخل البلاد فى ذلك الوقت ، فالأرجح أنه لم يدخل مع المازوى ، ولعله دخل مع الواوات .

هذا وقد كان المصريون القدماء يشيرون إلى سكان الجنوب بكلمة نِهسْ ؛ وهى لا تفيد أى معنى آخر ، وليست لها أية دلالة من ناحية الجنس والسلالة ، وأحياناً تستخدم تلك الكلمة بمعنى الأراضى الواقعة جنوب مصر على اختلافها : وقد ترك ببى الأول كتابة يقول فيها إنه شن الحرب على ست مجموعات من النهس وهم نهس إرثت ونهس مازا ونهس يام ونهس واوات ونهس كاو ونهس طمح[1] . ونستطيع أن نميز من بين هؤلاء الستة ثلاث سلالات على الأقل لا صلة بينها وبين السلالات الزنجية ، وهى الإرثت والمازا (البجه) والطمح .

وهذه الوثيقة تؤيد الرأى بأن كلمة نهس لا تعدو أن يكون معناها سكان الجهات

---

(١) سجهان نفس المرجع ص ٩١٨

الجنوبية . ومع ذلك قد جرت عادة كثير من الكتاب على ترجمتها بكلمة زنجى ، ومن بين هؤلاء الكتاب العالم الأمريكى هنرى برستد . ولكن عارضه فى ذلك علماء كثيرون مثل الأستاذ يُنكر .

وقد اضطرت حكومة مصر فى الأسرة الثانية عشرة إلى أن تحفر قناة عند الشلال الأول لتيسير الملاحة للسفن التى ترسل لتأديب المغيرين ، كما اضطرت إلى توسيع إدارتها بحيث شملت بلاد النوبة الشمالية إلى أول الشلال الثالث . وفى الأسرات الثانية عشرة إلى العشرين تم « تمصير » بلاد النوبة الشمالية والجنوبية من النواحى الثقافية والاجتماعية والسياسية ، وأنشئت لها عاصمة نبتا ، بالقرب من بلدة مروى الحديثة .

وهنا تظهر مشكلة لا تزال تفتقر إلى حل مقبول : وهى أن تصوير المصريين القدماء للنوبيين فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها ، يمثلهم على أنهم زنوج ، مع المبالغة فى تصوير التقاطيع الزنجية ، فكيف يتفق هذا الوصف مع ما ذكره إليوت سميث استناداً على دراسة الجماجم والعظام والمقارنة بين النوبيين فى ذلك العصر والنوبيين فى الوقت الحاضر ، والرأى الذى انتهى إليه بأنه ليس هنالك فرق جوهرى بين الاثنين ؟

ويرى سلجمان فى تفسير ذلك التناقض أن البلاد كانت تشتمل فعلا على عدد عظيم من الجماعات الزنجية أغارت عليها من الجنوب ، ثم طوردت تلك الجماعات واضطرت إلى أن تعود إلى بلادها . ثم جاء الاتصال المستمر بين مصر وبلاد النوبة عاملا جديداً على زيادة الدماء الشمالية القوقازية .

ويرى غيره من الكتاب أن مقارنة الجماجم والعظام دليل أقوى من الصور والرسوم ، ولا بد أن المصور المصرى كان يقوم بتصويره وهو فى أوطانه الشمالية ، ويبنى رسومه على ما يشاهده من جماعات الأسرى ، التى كانت ترسل إلى الشمال ؛ وهؤلاء يشتملون على عدد من الجنود الزنوج وإن كان معهم أحياناً بعض قادتهم من غير الجنس الزنجى .

وهنالك تعليل آخر . لعله لا يختلف كثيراً عن الرأى الثانى ، وهو أن المصور

المصرى كان يرسم صورة للأعداد الذين أغاروا على بلاد النوبة ثم على حدود مصر الجنوبية . فكان يصورهم زنوجاً قحاً على سبيل الزراية والاحتقار .

غير أنه ليس يستبعد أن بعض الإغارات التى حدثت فى بلاد النوبة فى العصور القديمة كانت تقوم بها جماعات زنجية أو شبيهة بالزنجية Negroid بقيادة جماعة من الحاميين . وهذا ما نجده فعلا فى آثار الجماعات التى أطلق عليها اسم المجموعة النوبية س . وهى ترجع إلى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد والفترة التى أعقبتها ، وقد وجدت آثارها وعظامها فى بعض المقابر فى إقليم بلانه إلى الشمال من وادى حلفا وغيرها ، وقورنت محتوياتها بما اشتملت عليه بعض المقابر فى جزيرة مروى[(١)] .

والبحث فى هذه المقابر لا يصل بنا إلى نتيجة حاسمة لأن أكثرها ، وعلى الأخص مقابر القادة والزعماء ، قد نبشت وخربت مراراً[(٢)] ، وقد قام ببحث الجماجم والعظام الدكتور بطراوى وقرر بعد فحصها أن هنالك سلالتين تتميز إحداها عن الأخرى : الأولى تظهر فى جماعات المحاربين والرؤساء ، ويمتازون بالقامة الطويلة وصفات أبعد عن الصفات الزنجية ، والأخرى تمتاز بالقامة القصيرة والصفات الزنجية وتظهر فى النساء بوجه خاص ، كما أن هنالك أمثلة تشير إلى اختلاط بين السلالتين[(٣)] .

ولا يدع بحث الأستاذ البطراوى مجالا للشك بأن النوبيين رقم س ، وإن كانت تغلب عليهم الوثنية والعادات المخالفة لما كان يسود بلاد النوبة ، فإنهم لم يكونوا يمثلون سلالة زنجية خالصة ، بل جماعات حامية اقتادت معها سبياً من الزنج .

* * *

والظاهر أن مجموعة س قد انجلت عن البلاد بعد ذلك ، وإن تركت آثاراً بها ، وأخذت الأحوال فى شىء من الاستقرار فى القرن الخامس والسادس ، وانتشرت

---

(١) جزيرة مروى هى الإقليم الواقع بين العطبرة والنيل ، وفى شماله بلدة مروى القديمة وآثارها اليوم أطلال بالقرب من كبوشية . ومن المهم التمييز بينها وبين مروى الحديثة المجاورة لبلدة نبتا .

(٢) مقالة كروان عن أصل النوبة فى المجلد العشرين من S.N.R. ص : ٦٥ .

(٣) Batrawi : Archeological Survery of Nubia (1929-34) p. 180 .

المسيحية بعد ذلك ، وأنشئت مملكة مسيحية ، عاصمتها بلدة فرس ، ثم تحولت العاصمة بعد ذلك إلى بلدة أنشئت فى العهد المسيحى وهى دنقلة القديمة ، (أو دنقلة العجوز) ، ثم انتشرت المسيحية بعد ذلك إلى جزيرة مروى ، كما أنشئت بعد ذلك مملكة علوة ، وعاصمتها سوبة ، وفى عهد الفتح العربى لمصر كانت هنالك دولتان مسيحيتان ، الأولى دولة دنقله أو دولة النوبة والأخرى دولة علوة ، وكان هنالك دولة أخرى تدعى «مَقُرَّه» اندمجت فى دولة دنقلة قبل الفتح العربى لمصر .

هذا وقد دخلت المؤثرات والسلالات العربية من طريقين : الأول من الشمال حيث انتشرت قبائل عربية أكثرها من ربيعة ما بين الشلال الأول ووادى حلفا ، وهذا هو الإقليم الذى كان يطلق عليه اسم مريس ، وهى كلمة قبطية بمعنى الجنوب أو الإقليم الجنوبى ، والطريق الثانى الذى سلكته المؤثرات العربية من الجنوب ، كما أوضحنا ذلك عند الكلام على انتشار الجمليين .

* * *

يتبين مما تقدم أنه إذا كان هنالك محل لاختلاف الرأى فى أمر اللغة النوبية وهل هى لغة من اللغات التى تسود الجماعات الزنجية ، ثم تأثرت بعد ذلك تأثراً شديداً بالمؤثرات الحامية أو بالعكس ، فليس هنالك أقل شك فى النوبيين أنفسهم كما نعرفهم اليوم ، بأن أصولهم فى السلالات القوقازية الحامية عريقة قديمة ، وأن الصفات الزنجية التى قد نراها أحياناً بينهم هى العنصر الطارئ الدخيل .

وكذلك لا شك أن النوبيين ، كما نعرفهم اليوم ، كانوا أوسع انتشاراً ، وبلادهم مصعدة فى النهر إلى مدى أبعد مما تصل إليه اليوم ، فالمديرية النوبية المصرية التى كانت حاضرتها بلدة نبتا هى التى أنشأت عاصمة فى الجنوب فى بلدة مروى القديمة ، بالقرب من بلدة شندى الحديثة . وقد ازدهرت مروى بدورها ، واتسع نفوذها حتى وصل إلى ملتقى النيل الأزرق والأبيض وإلى أرض الجزيرة ، وهذه كلها أقطار كانت تسكنها بلا شك سلالات ، وتصل إليها مؤثرات ثقافية خلاف السلالات والمؤثرات النوبية ، ولكن بقايا الثقافة النوبية ظاهرة فيها أيضاً . وقد يكون من الغلو أن نزعم أن مملكة المرويين ، أو مملكة علوة ، كانت مملكة نوبية خالصة .

ولكن لا شك أن بلاد النوبة الشمالية هي العامل الأكبر في إنشاء هاتين المملكتين .

وقد اختلف العلماء في أصل اسم النوبة ، كما اختلفوا في تاريخهم وفي نشأة لغتهم ، والأصل المصري القديم للكلمة مشتق من لفظ نوب أو نوبو ، بمعنى الذهب ، أي أنها بلاد الذهب ، وهو أحد الأسماء التي كان يطلقها المصريون على هذه البلاد ، وإلى جوارها كما هو معلوم مناجم قديمة لذلك المعدن الثمين ، وقد وصفت البلاد بهذا الاسم في كتابة في الأسرة الثانية عشرة في عهد الملك أمنمحمت الأول[١] ، ومع أن هذا الاشتقاق الواضح مما يسهل التسليم به ، فإنه لم يجد قبولا من أولئك الكتاب الذين يرون أن شعباً زنجياً يدعى باسم النوبة ، قد أغار على البلاد ونشر فيها الدم الزنجي ولغة من اللغات الزنجية ، في عصر يعد نسبياً عصراً متأخراً ، وأن هؤلاء المغيرين الذين لا نكاد نعرف عنهم شيئاً هم الذين أكسبوا البلاد اسمها الذي تعرف به الآن .

ومهما يكن من شيء ، فإن والي مصر الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح عند ما عقد معاهدته في سنة ٦٥١ ميلادية مع ملك هذه البلاد سماه في المعاهدة عظيم النوبة[٢] ، ونص على أن المعاهدة المعقودة تشمل البلاد التي تمتد من حدود مصر إلى حدود علوة ، مما يدل على أن عظيم النوبة المذكور كان مسيطراً على كل ذلك الإقليم ، من الشلال الأول إلى إقليم كان يدعى في ذلك الوقت إقليم الأبواب ، لعله عند الشلال السادس .

وقبل زمان عبد الله بن سعد بن أبي السرح بنحو تسعة قرون كان الجغرافي الاسكندري إيراتوسطين يدعو سكان تلك البلاد باسم النوبة[٣] . وهكذا ترجع النصوص التاريخية باسم النوبة إلى القرن الثالث قبل الميلاد . أي في زمن سابق بعدة قرون لظهور تلك الطوائف التي سموها نوبة س ، والتي يقال إنها هي التي

---

(١) ماكايكل : الجزء الأول ص ١٢ (هامش) نقلا عن برستد Ancient Records,1,520

(٢) خطط المقريزي الجزء الأول ص ٣٢٢ .

(٣) ماكايكل نفس المرجع ص ١٢ وكروان Kirwan = Nubian Origins p. 47. في المجلد العشرين من S.N.R.



شكل (١٩) توزيع المجموعات النوبية

أثرت فى البلاد وأكسبتها اللغة والأسماء وقسطاً غير قليل من الدماء الجنوبية .

* * *

هذا وقد شغل بتاريخ النوبيين القديم وبلغتهم وآثارهم عدد كبير من الباحثين ، ولم يعن بوصفهم فى الأزمنة الحديثة من الكتاب إلا عدد من السائحين مثل بركهات وغيره . ولا يزال هنالك مجال لدراستهم فى بيئاتهم الحالية ودراسة أحوالهم الاجتماعية والاثنوغرافية .

وحسبنا أن نذكر أن النوبيين فى الوقت الحاضر يحتلون مساحة من نهر النيل قد تكون أقل من نصف المساحة التى كانوا يحتلونها من قبل ، وتمتد أوطانهم اليوم من أسوان فى الشمال إلى الدبة فى الجنوب ، وهم ينقسمون إلى خمسة مجموعات رئيسية : الدناقلة فى الجنوب ما بين الدبة وأبى فاطمة ، ثم المحس والسكوت فى إقليم الشلالات والجنادل ، ثم الفديجة ما بين وادى حلفا وكرسكو ، والكنوز فى الجزء الشمالى الممتد من كرسكو إلى أسوان . ولسنا نعرف حتى على وجه التقريب عدد النوبيين فى أوطانهم الأصلية ، ولكنهم على الأرجح لا يقلون عن ربع مليون من الأنفس ، أما عددهم فى جميع أنحاء وادى النيل ، فيوشك أن يكون من المستحيل تقديره .

والدناقلة يعيشون فى إقليم يعد من أحسن ما اشتملت عليه الأوطان النوبية ، فالنهر معتدل الجريان خال من الجنادل سهل الملاحة ، ويتسع السهل الفيضى فى عدة مواضع ، مما يتيح للسكان فرصة للزراعة على نظام رى الحياض ، مع الاستعانة بالسواق ونحوها ، ومن أجل ذلك تعد الساقية من الممتلكات الهامة فى بلاد النوبة ، ومع اشتغال الدناقلة بالزراعة نراهم من أنشط الجماعات فى السودان كله فى التجارة وفى مختلف الحرف .

ويشبه الدناقلة فى مظهرهم الطبيعى جيرانهم العرب من البديرية ، ولا شك أن النسب العربى فيهم قوى ، وفى مجلس يضم جماعة من البديرية والدناقلة ليس من السهل أن يميز المرء بينهم فى بعض الأحيان .

أما المحس فإن أوطانهم تتخللها جنادل الشلال الثالث ، وفيها يضيق مجرى

النهر من آن لآن . بحيث لا يتسع للزراعة إلا بمقدار ضئيل ، ومع ذلك فهنالك جهات يتسع فيها الوادى وتتيسر فيها الزراعة ، غير أن إقليم المحس والسكوت بوجه عام محدود الموارد ، وسرعان ما يضيق بسكانه ، ولذلك كثرت الهجرة من هذا الإقليم أكثر من غيره ، وعلاوة على هجرة الأفراد فى طلب الرزق ، نرى المحس قد هاجروا فى صورة جماعات كبيرة ، ونزحوا عن أوطانهم إلى أوطان جديدة فأصبحوا يحتلون جزيرة توتى وإقليم عيلفون ، وفى هذين الإقليمين قد استعرب المحس ، وأصبحوا لا يختلفون عن جيرانهم من العرب ، وأصبحت لغتهم الوحيدة هى العربية ، كذلك كان المحس هم العنصر الأكبر فى المهاجرات التى كانت وجهتها جبل ميدوب ؛ وغيره من الجهات فى شمـال كردوفان ودارفور .

أما السِـكّـوت فهم أصغر المجموعات النوبية عدداً ، ومعلوماتنا عنهم قليلة ، وتنتهى أوطانهم إلى الجنوب من وادى حلفا ، وبذلك تكون أوطان المجموعات الثلاثة : الدناقلة والمحس والسكوت واقعة كلها فى السودان ؛ وإن كان المحس فى العادة يتجهون إلى مصر فى هجراتهم أكثر ممـا يتجهون إلى السودان .

وفى بعض أزمنة الشدة والجهد فى العصر الحديث ، هاجرت مجموعات كبيرة من المحس والسكوت ، سعياً وراء الرزق ، أو هرباً من الإرهاق فى زمن المهدية ، فاتجهوا بجموعهم إلى الشمال من وادى حلفا ، ونزلوا على ضفتى النيل الشرقية والغربية بين تلك المدينة وبلدة كرسكو ، وهذه المجموعة هى التى يطلق عليها اسم الفديجة أو الفـِـدِجّـه[1] . فهم إذن يمثلون هجرة من هجرات إقليم الجنادل ، إلى الجهات التى تليها نحو الشمال ، وبفضل هذه الهجرة أصبحت للمحس والسكوت أوطان داخل حدود القطر المصرى ، وإن تسموا بهذا الاسم الجديد .

وفى أوطان الفديجة الجديدة تقع بعض البلاد الشهيرة مثل قصر ابريم وعنيبة ، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن السلطان سليم بعد فتح مصر ، أرسل إلى هذا الإقليم جماعة من ضباطه يسمون الـكشاف (جمع كاشف) ، لـكى يقوموا على حراسة

(١) المعروف أن كلمة فديجة معناها أننا سنهلك ، أى أنهم هاربون من هلاك محقق ، والاسم لا يرجع على الأرجح إلى أبعد من زمن المهدية .

التخوم الجنوبية لمصر ، وأكثر هؤلاء الكشاف من أصل ألبانى أو بشناق أو أناضولى . وقد اندمجوا فى السكان على مضى الزمن . ولم يلتزموا إقليم ابريم ، بل انتشروا فى غيره من الجهات المجاورة ، بحيث لا يحتلون اليوم إقليما أو جهة من الجهات ، ومع ذلك لا يزال أكثرهم يعرف بذلك الاسم ، وإن لم تصبح لأحدهم الوظيفة القديمة التى كانت له فى عصر سليم الأول .

أما الكنوز فأوطانهم كلها داخل القطر المصرى . وشكلهم الطبيعى فى معظم الأحيان لا يكاد يختلف فى شىء عن سكان الوجه القبلى فى مصر . وقد نجد بينهم فى كثير من الأحيان أشخاصاً يمتازون بالملامح العربية الوسيمة . ولا غرو فإن هذا الإقليم قد استحال إلى مستعمرة عربية على أثر الفتح العربى لمصر . ونزلته قبائل من ربيعة ومضر ، وبعض الجهنيين أيضاً[1] ، ولكن السيادة فيه كانت لربيعة . وهو أول إقليم زالت عنه سلطة ملك النوبة المسيحى ، وتحول فى وقت متقدم إلى الإسلام .

وقد كانت الإمارة فى هذا الإقليم فى عهد الفاطميين لأمير ينتمى إلى قريش ، اسمه أبو المكارم هبة الله ، ويعرف بالأهوج المطاع ، وهو الذى ظفر بأبى ركوة الخارج على الحاكم بأمر الله ، وقبض عليه ، فأكرمه الحاكم إكراماً عظيما ولقبه كنز الدولة[2] ، فانصرف الاسم إلى أتباعه ورعيته ، ولازم الاسم سكان هذا الإقليم إلى وقتنا هذا .

واللغة النوبية التى يتحدث بها جميع النوبيين تختلف اختلافاً قليلا من إقليم إلى إقليم ، فلهجات المحس والسكوت والفديجة تؤلف مجموعة متشابهة ، بينما لغة الكنوز والدناقلة تؤلف مجموعة ثانية متشابهة ، وقد قيل فى تفسير ذلك أن الجهات الوعرة فى إقليم الجنادل الوسطى حالت دون الاختلاط بأهل الشمال والجنوب ، فتشابهت لغة سكان الجنادل . غير أن هذا التفسير لا يساعد على إيضاح تشابه لهجات الدناقلة والكنوز مع بعد المسافة بينهما . ولا بد لنا أن نفترض أن الاتصال بين إقليم الكنوز والدناقلة كان كثيراً ومطرداً بحكم العلاقات التجارية بين الجنوب

---

(١) المسعودى فى مروج الذهب الجزء الأول ص ١٩١ .

(٢) المقريزى فى البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩١٦ ، صفحة ٥٠ .

والشمال . ولم يكن بد لسرعة الاتصال من تجنب الإقليم النهرى الكثير الجنادل ، والذى لا يلعب دوراً خطيراً فى التجارة . فإن السلع الرئيسية كانت من مصر والسودان ، وكان كل من الدناقلة والكنوز بحكم موقع أوطانهم هم الذين يقومون بالنصيب الأكبر من تلك التجارة . ولذلك كثر اتصالهم وتشابهت لهجاتهم .

وقد جرت عادة النوبيين ، وعلى الأخص فى النصف الشمالى من بلادهم ، على التميز بين الضفتين الشرقية والغربية وسكانهما ، فيدعون الجهات الشرقية وسكانها ماتوكّ ، والجهات الغربية وسكانها تينوكّ . وفى إشاراتهم الخاصة بهذا المعنى ما قد يفهم منه أن سكان البر الشرقى جاءوا من الشرق ، وسكان البر الغربى جاءوا من الغرب ؛ أو على الأقل هذا ما فهمه الأستاذان يُنكَر وشيفر[1] . وليس يبدو أن هنالك فرقاً جوهرياً فى أية ناحية من النواحى بين سكان الشرق والغرب ، والأمر لا يعدو التميز بين الضفتين الشرقية والغربية ، كما هى الحال فى سكان الصعيد . ولا بد من دراسات اجتماعية وانثروبولوجية دقيقة لمعرفة ما بين سكان الضفتين من فروق ، إذا كانت هنالك فروق .

(١) فى ص ١١٧ من الجزء الثانى من كتاب Nubische Texte (طبع فينا سنة ١٩٣٢).

فهرس أبجدى

(ا)

(ت)

(ث)

(ج)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

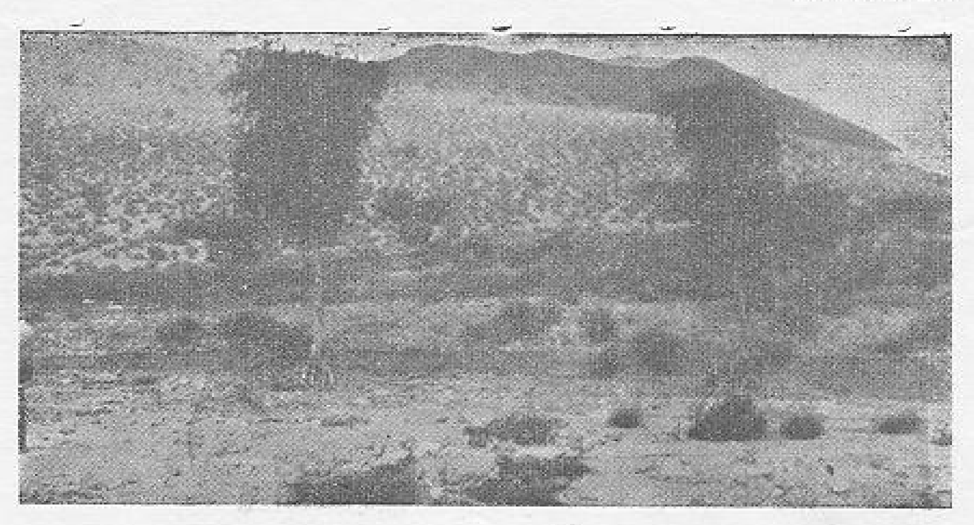
(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

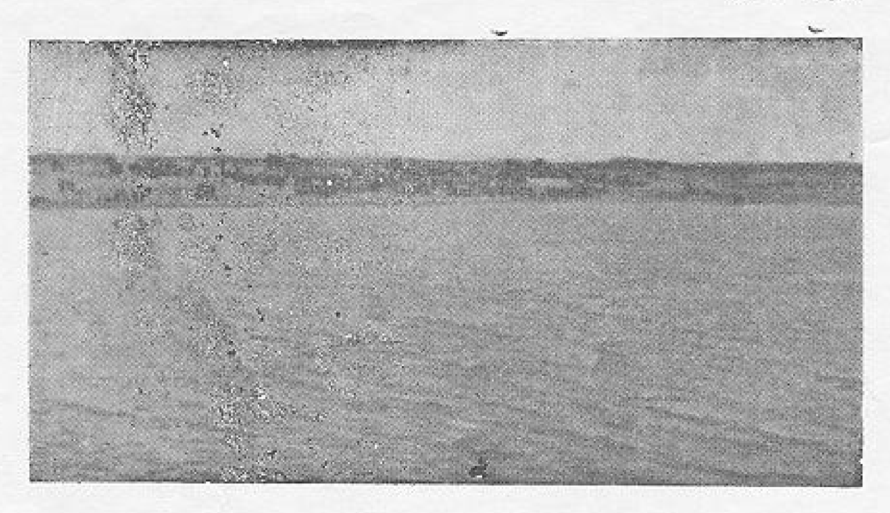
اللوحة الأولى

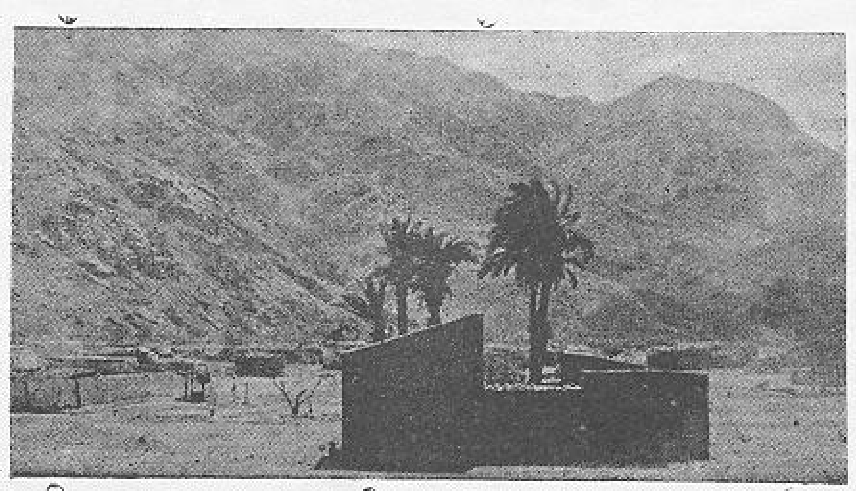




(فوق) منظر لجبل علبة والمظاهر النباتية فى أحد الأودية وقد كشفت التعرية عن جذور شجر الهجليج .

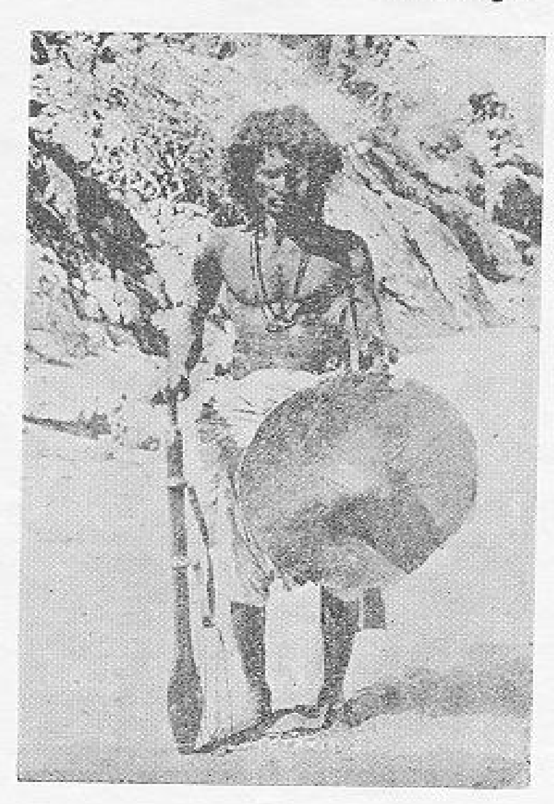
(تحت) شلال ينصب من أحد جوانب جبل علبه . وعلى الرغم من قلة المطر فإنه يتساقط أحياناً بغزارة شديده فترة قصيرة . فيتدفق بسرعة بسبب الانحدار الشديد (انظر ص ٢٤) .





(فوق) مرسى حلايب من البحر ، حيث يلتقى البشاريون فى بعض المواسم ، والبلدة بالقرب من عيذاب القديمة (انظر ص ٨٠) .
(تحت) جبال البحر الأحمر فى أوطان الأمرأر ، (انظر ص ٩٢) .

اللوحة الثالثة

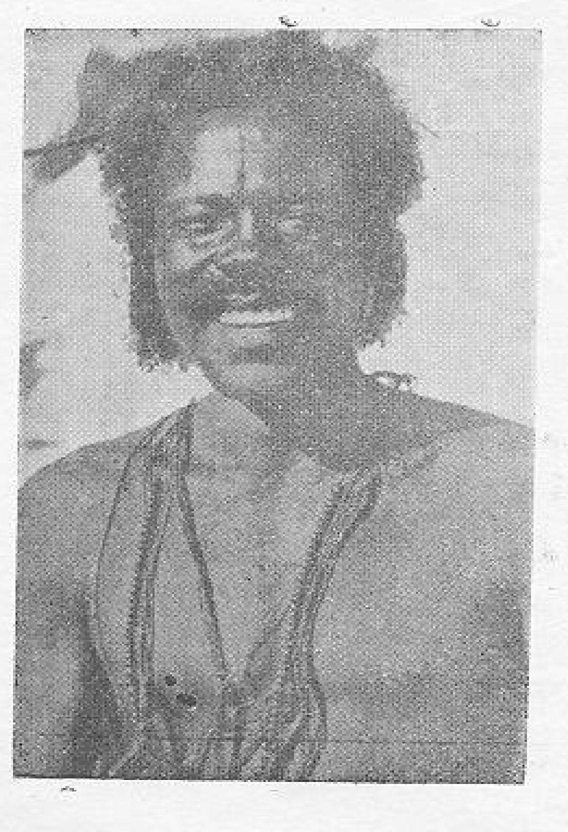


↑

(فوق) أحد الأمرأر فى زيه الحربى وفى يمينه السيف وفى يساره الدرقة .

(تحت) صورة أخرى لأحد الأمرأر (انظر ص ٩٧) .

↓



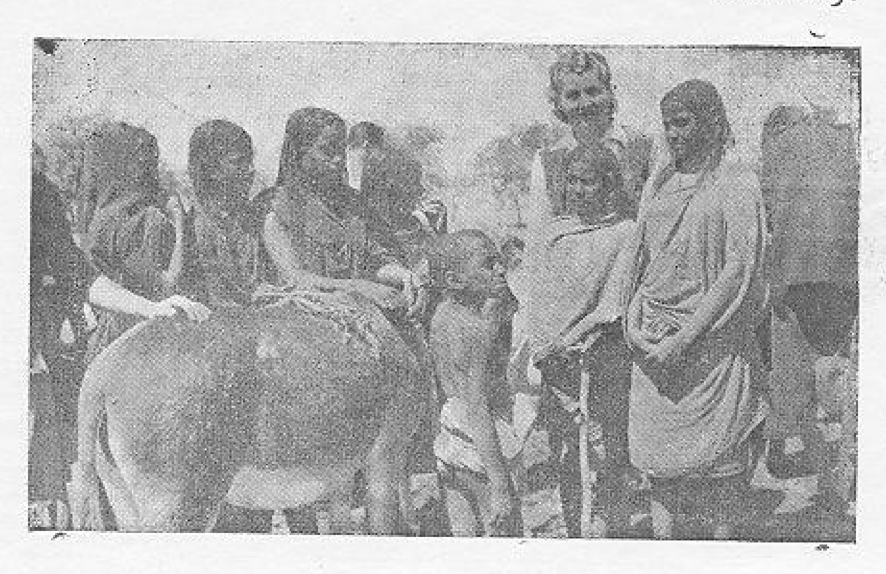
اللوحة الرابعة



(فوق) بعض الهدندوه فى رقصة حربية .



(تحت) أحد شباب الهدندوه
(انظر ص ١١١) .







(فوق) جماعة من الشايقية البدو فى شمال البطانة ، وهم من السكافنجة بينهم السيدة حرم الدكتور أحمد فخرى (انظر ص ١٨٣) .

(تحت) صورتان لرجل من الحسانية ، صورتا فى وادى أبو الدوم ، ويلاحظ الأنف المحدب والتقاطيع القوقازية الواضحة (انظر ص ١٨٥) .

اللوحة السادسة

(تحت) ناظر الرزيقات الشيخ إبراهيم موسى مادبو (انظر ص ٢٣٨) .

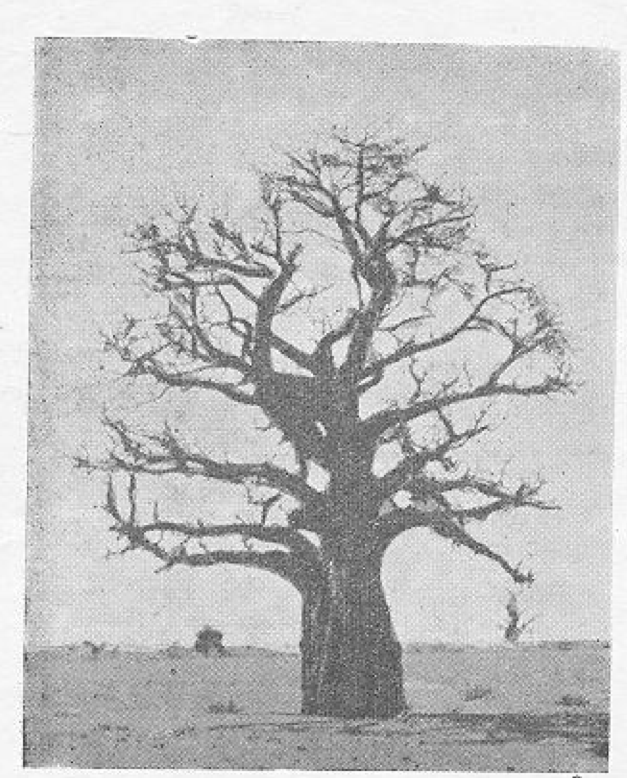
↓





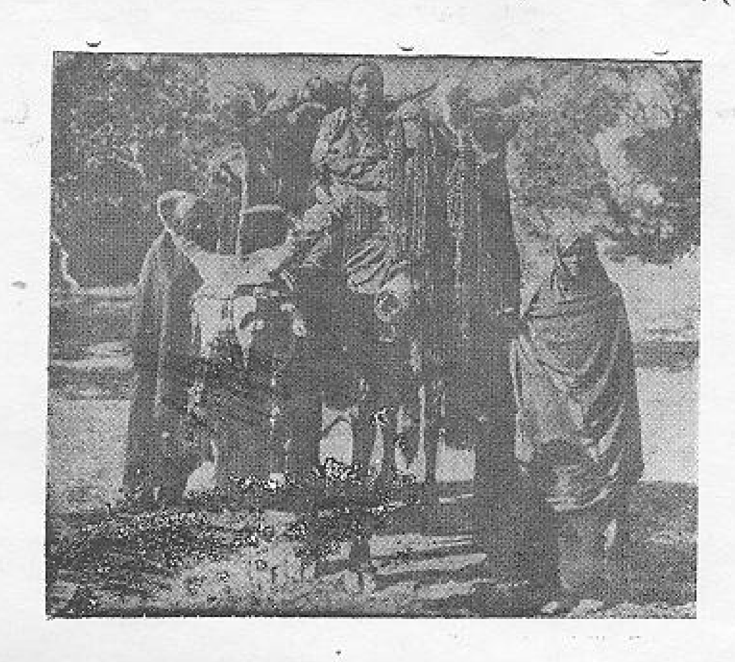
↑

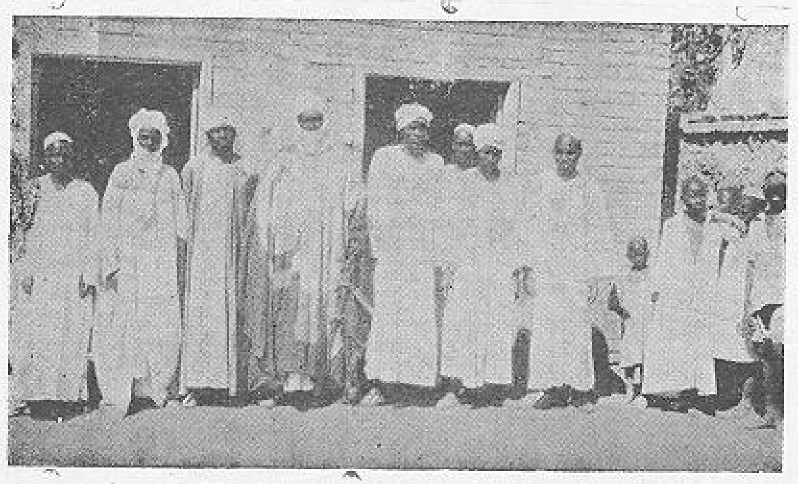
(فوق) ناظر الجعليين الشيخ محمد إبراهيم بك فرح (انظر ص ١٧٠) .



(فوق) شجر التبلدى المنتشر بكثرة فى غرب كردوفان (انظر ص ٢٤٧)

(تحت) صورة لسيدة من كرائم البقارة ، جالسة فيما يشبه الهدوج على ظهر ثور . (انظر ص ٢٢٦) .

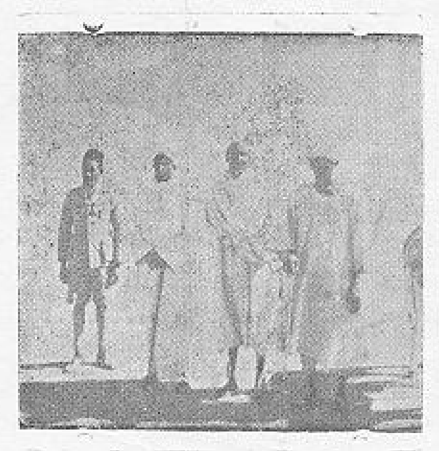


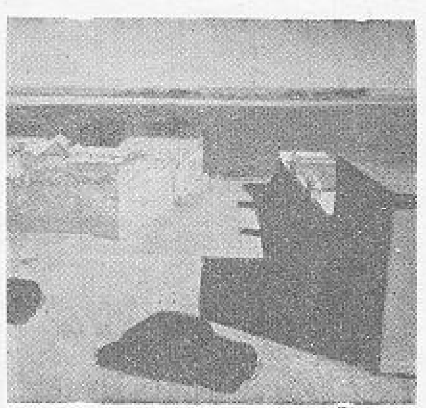


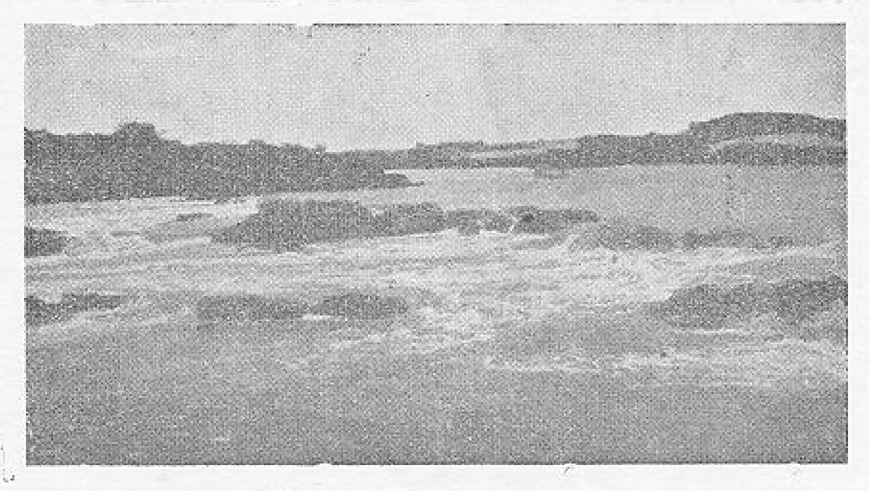


(فوق) صورة لسلطان مايرنو (الملثم) وحوله بعض حاشيته أخذت أمام داره بالقرب من سنار (انظر ص ٢٥٧) .

(تحت) صورة لرجل من زعماء البدايات (انظر ص ٢٦٨) .







(فوق) منظر النيل عند بلدة الخندق وإلى جانبه جماعة من المحس تلاحظ التقاطيع القوقازية (انظر ص ٢٩٣) .

(تحت) منظر لجنادل كيركى ، من جنادل الشلال الثانى جنوب وادى حلفا بنحو ٢٠ كيلو مترا (انظر ص ٣٠٣) .